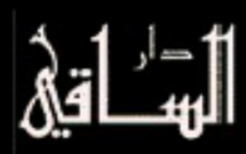
البدوي الأخير

القبائل البدوية في الصحراء العربية

مارسيل كوربرشوك



البدوي الأخير

القبائل البدوية في الصحراء العربية

مارسيل كوربرشوك



دار الساقي

مارسيل كوربرشوك

البدوي الأخير

القبائل البدوية في الصحراء العربية

ترجمة: عبد الإله النعيمي



هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

© First published in the Netherlands as Diep in Arabië & De laatste bedoeïen by J.M. Meulenhoff bv مارسيل كوربرشوك، 2002، 2011
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الورقية الأولى، 2002
الطبعة الإلكترونية، 2011

ISBN-978-614-425-228-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

المحتويات

على كثيب

جلستُ على قمة كثيب في أعماق الجزيرة العربية. دائرة ملتوية تكونت حول قاعدة مصباح «كالور» الغازي على طاولة السفر، حولها حشرات ارتطمت متهافتة بزجاجة المصباح أو أحرقت أجنحتها.

من تحت، كان يأتي من حين إلى آخر هدير اللوريات تتسلق بمشقة مرتفعات الطريق الذي تركتُه تواً. نسمة صحراوية حزينة، رقيقة، تهمس وتخشخش لو أرهفتَ سمعك لها، كانت تلامس الكثبان المتدحرجة وتحمل معها الصوت البعيد لكلب يعوي. وفي الاتجاه نفسه، على الجانب الآخر من منخفض عميق، كان هناك بصيص ضوء، ليس أكثر من وميض صغير في السواد: خيمة بدوي، على ما أظن. وفي ضوء القمر الأبيض، بربعه الثالث عالياً في السماء، كانت النجوم الأكبر وحدها مرئية. «العقرب» هبط تحت الأفق الجنوبي الغربي وبقايا «الدب الكبير» توارت أيضاً عن الأنظار. وإلى الشمال لُفَّت «أندروميدا» حول السماء فبدت كأنها عُقَد في حبل طويل، بجانبها سرجُ «ذات الكرسي» الأشبه بسرج جمل مقلوب. تحت المنضدة دفنتُ قدمَيَّ العاريتين بحسية في الرمل الناعم الدافئ لصحراء «نفود السِّر». كانت ورائي «حمرة»؛ «الناقة البنية الحمراوية»، كما سَميتُ سيارة اللاند روفر، متسبباً في إزعاج أصدقائي العرب لأن الألقاب اللونية لا تستخدم بالمرة أسماء تُطلَق على حيوانات.

لمساءٍ واحد بحثُ لنفسي بالإحساس بكوني روبنسن كروزو. فلقد خلَّفتُ ورائي العالم المأهول والحضارة والمواظبة والنظام والروتين. وعلى امتداد عامين أعددتُ نفسي لكي أُجرَف، كما جُرف كروزو، إلى هذه الرقعة العذراء. كل ما أحتاج إليه للبقاء كان محفوظاً في بطن سفينتي الصحراوية الآلية وعلى سطحها: أوانٍ وقدور واسطوانات غاز وما يكفي شهوراً من تموينات الطوارئ، وخيمة بدوي كاملة، ولكن في المقام الأول صناديق مليئة بنسخ مصوَّرة للمنشور من قصائد وحكايات «عتيبة» و«الدواسر» وغيرهما من القبائل السعودية التي قد ألتقيها في رحلتي. كانت هناك حقيبة عملية مُلِئت بالبطاريات والأشرطة لجهاز التسجيل ـ درة من التكنولوجيا في محفظة جلدية ناعمة مبطَّنة بالمخمل ـ . وإن أصاب «حمرة» عطلٌ ما فسيكون الجهاز شاهداً معصوماً على كلمات منطوقة كانت ستضيع لولاه إلى الأبد. هذا على أقل تقدير ما كنتُ آمله لأن مشروعي كله كان قائماً على جهاز «سوني» الصغير مثلما أن الكعبة مبنية حول الحجر الأسود، وأعمدة مسجد مكة الكبير حول الكعبة.

حتى يومنا هذا، بعد مرور عامين، ما زال رأسي يضج بالأصوات؛ أصوات الشعراء والصامدين في الصحراء العربية، التي التقطها الصندوق الأسود الصغير، والتي اصطرعتُ معها على سماعة أذني كما يعقوب مع الملاك. إنها ليست أصواتاً شجية أو حساسة أو مفكرة. هي كل شيء لا تستطيع سماعه في قطعة موسيقية قصيرة من تأليف شوبان. إنها أصوات مبحوحة، خشنة، جافة: أصوات فحم يتكسر شظايا متناثرة. بعضها يدندن بإيقاع منبسط رتيب كأنه دولاب عربة ريفية تمضي على طريق من الحصى. وبعضها الآخر يطلق أبياته كما العدّاء منطلقاً نحو خط النهاية في سباق المئة متر: ذكرياتهم على ألسنتهم مثلما تكون ذكريات بعض عازفي البيانو في لمسات أصابعهم، وهم يعرفون أن أقل لعثمة تكفي لفقدان الصلة بما بعد.

في المقام الأول أنها أصوات لا يفهمها مَن لم يعش زمناً طويلاً وسطها. أصدقائي في الصحراء يمضون في حيواتهم، وعليهم أن يتدبروا أحوالهم من دون عناية طبية بأسنانهم أو أجسامهم. وما يظهر أحياناً من أضراس خربة، صفراء صمدت بوجه عوادي الزمن في أفواههم كما الأثافي التي عركتها الطبيعة واستندت إليها قدور الطبخ في خيمة الحبيب، قد مر زمن طويل منذ أحالتها الرمال إلى أطلالٍ يحتفي بها الشاعر تقليدياً في مطلع قصيدته الحزين. أحياناً تلح على المرء الفكرة القائلة إن علاقة سببية تربط بين المواهب الشعرية والمعوقات الكلامية. إن عدداً كبيراً من أصحابي الدُّرْد، المغمغمين، يلثغون أو يفأفئون أو يطردون كلماتهم من خلال الشق الفاغر في الشفة الأرنبية كما الهواء الذي يهسهس من صمام فيه تسريب.

صندوقي الأسود لم يسجل الصوت فحسب، بل ومعه الحياة التي استمرت من حولنا طوال الوقت: ذباب يطنّ حول الميكرفون، صوت يتلاشى لأن الشاعر ينظر حوله ليرى أين سرح قطيعه، «هووو ـ وووي» مفاجئة في وسط بيت الشعر لهش جمال فضولية بإفراط. وكان يحدث أيضاً أن تختلط أصوات من كل صنف كما تتنافر من عازفي فرقة موسيقية يجربون آلاتهم في الدقيقة الأخيرة قبل أن يرفع المايسترو عصاه: رغاء الجمال، الصوت الأجش لامرأة تنادي من الخيمة، رجل إذ يبدأ الأذان بينما يمضي الشاعر مدندناً حول قدود النساء المياسة التي تكشف عن أوجهِ شَبَهٍ بالكثبان بعدما رشها رذاذ المطر، يتذكر الوقت فجأة ويتمتم، بجواب ثُمْن موسيقي خافت؛ «لا إله إلا الله»، يطلقها من صميم القلب.

اللغة التي يتكلمها أصدقائي آتية من ماض لا يمكن أن يعاد بناؤه من نتف إلا جزئياً. الطريقة التي كانت أشجار النخيل تُسقى بها بمساعدة جمال مدرَّبة خصيصاً على سحب الماء من البئر ليلاً ونهاراً، القواعد المعقَّدة التي يجب الالتزام بها في الحروب والغزوات، الظلال التي لا عدَّ لها من الفوارق الدقيقة، وبرغم ذلك تلتقطها عين البدوي الصقرية في التضاريس والنباتات الصحراوية، التنويعات في سَيْر دابته، أدواته وأسلحته؛ كل ذلك يمثّل عالماً كاملاً من الكلمات البعيدة عن السعودي العصري الذي يستخدم لغة السوبرماركت والإسلام.

إنها لغة وشعر وثنيان فخوران عاشا بلحن الطبيعة قرابة ألفي عام ـ إلى أن جاءت الرأسمالية النفطية والتكنولوجيا الغربية لتُقحم المتوحشين النبلاء في قالب ضيق من أخلاق العبودية ـ . هذه على أقل تقدير هي الرؤية الأوروبية الرومانطيقية التي روَّجها بريطانيون نوستالجيون مثل تي. اي. لورنس

المعروف على نطاق أوسع بلقب لورنس العرب، وولفريد ثيسيغر، فكانت في نهاية المطاف سبب قعودي على الكثيب. لن تسمعوا البدو أنفسهم يشكون من مبادلة بعيرهم وقِربة حليب رائب بسيارة تويوتا جيب وصندوق تبريد معبأ بعلب من حليب الناقة الآتي لتوه طازجاً من معمل الألبان.

إن الشاعرية والتأملات المحلِّقة غريبة عن البدوي. وثيسيغر في عمله رمال الجزيرة العربية Arabian Sands يجزع من عمى أدلأئه العرب عن جمال الطبيعة. ففي طريق عودتهم من الربع الخالي ـ أكبر صحراء رملية في العالم ـ كانوا يسيرون راكبين على مرتفع ينداح تحته سهل تكسوه خضرة مترعة. «أليس هذا جميلاً؟»؛ سأل ثيسيغر أحدَ مرافقيه. نظر الرجل، وأعاد النظر ثم قال أخيراً، «كلا، إنه مرعى سيئ حتى حدود اللعنة». ويفوت على ثيسيغر أن يذكر أن تدرُّج الخضرة في بساط العشب ليس هو الحاسم في ما يرغب الجمل في أن يأكله، بل المذاق والمغذيات ولو حتى وجدها في نباتات وسويقات ذابلة تعيسة المنظر. عند ثيسيغر كان هذا دليلاً على أن للبدوي عيناً على ثراء لغته وحدها لكنه خاوٍ تماماً من الإحساس بالطبيعة: «لون الرمال، الغروب، القمر منعكساً في البحر؛ مثل هذه الأشياء لا تثيرهم». ومن هنا قلق ثيسيغر على المستقبل، وهو قلق يرى دوماً ما يؤكده في غياب الذائقة لدى وحوشه النبلاء. إنه يُعجب بهم لثقافتهم غير الملوثة، ولكنه في الوقت نفسه خائف من أنهم في أول سانحة سينفضون أيديهم من الطبيعة. ومثل قرود الامبراطور بوكاسا المدجَّنة، سوف يقبعون ويدخنون السيجار في قفص اختاروه بأنفسهم.

ذات مرة، استطلعتُ من صديق سعودي عن هذه البقعة العمياء في الحس العربي. كان الأمر بسيطاً عنده: في الصحراء، بخلاف إنكلترا، من الطبيعي تماماً أن تهبط الشمس وراء الأفق مثل بالون أحمر يوماً تلو يوم. ومثل هذا التوقيت عند العربي يكون وقتَ أداء فريضة الصلاة، لا الاستغراق في تأملات محلِّقة عالياً. فنوع الجَمال الطبيعي الذي يغمر ساكن الصحراء جذلاً هو مشهد الأراضي المنخفضة بعد استصلاحها من البحر في هولندا. وكان أصدقاء من الجزيرة العربية يجبرونني على التوقف على الطريق السريع قرب شيبول (مطار أمستردام) لتمكينهم من استهلاك لفة فيلم كاملة في تصوير ذات القوائم الأربعة التي تسرح بعيون ناعسة في مراعينا الخضراء.

عربي الصحراء واقعي، وإحساسه بما هو جميل يحدده استعمال الأشياء استعمالاً عملياً. فالخلق كله موجود ليفيد الإنسان منه. ولكن لا شيء يحدث إلا إن شاء الله. لذا في أيام المحن، حين يستمر الجفاف سنوات، ليس للإنسان من خيار سوى التحلي بالصبر والتضرع إلى الله أن تنزل رحمته: المطر. الجميل رَطِب وسمين والقبيح جاف ونحيل. ومَنْ يُرِدْ أن يُدخل الغبطة في قلب سعودي في أول رحلة له إلى الخارج، بحيث يأخذك من يدك ويهتف «أليس هذا جميلاً»، فعليه أن يدبّر سفرة عناوينها البارزة عمارة سكنية حديثة بزجاج عاكس وسماء رمادية تهطل مطراً مدراراً، وشقراوات ناهدات الصدور منتفخات الأرداف والأفخاذ، وقطعان كبيرة من الماشية السمينة، وريح نشطة ووفرة من العشب وقلة من الأشجار وبحيرات واسعة من الماء العذب. وفي جولة كهذه سرعان ما يكتشف السعوديون أن هولندا قريبة جداً من صورة الجَنة في أذهانهم. ولمعرفة كيف يتخيلون الجحيم ليس على المرء سوى أن يتصور العكس.

قبل أن يشفق الإسلام المديني على البدو في حوالى أوائل القرن العشرين، كانوا يربطون الجحيم بالشمس. كانوا يصورون الشمس على أنها ساحرة شمطاء، شريرة، شبقة. ولأنها عاقر فإنها تضمر حقداً لاهباً على كل حياة وليدة. في الجحيم تستعر الشمس نهاراً وليلاً، وتربية الإبل لا تغني أو تسمن من جوع، وعلى البدو أن يكدحوا كما يكدح الفلاحون المصريون في سقي الأرض وزراعتها. ومن عذابات جهنم الأخرى التجنيد والخضوع لسلطة الحكومة.

الجنة، من الناحية الأخرى، مخضَّلة دائماً بالمطر ومضاءة بنور القمر. مَضارب القبيلة كلها قائمة وسط مروج الربيع الخضراء، والجميع معاً ـ الأجيال كلها تختلط في ما بينها فيلتقي مَنْ رحلوا مؤخراً بالذين سبقوهم من شيوخ القبيلة من دون أن يهرموا أبداً ـ . يعيشون في خيم كبيرة محاطة بقطعان ضخمة من الدواب وأسراب من الأطفال. وإلى جانب ذلك، يمارسون رياضتهم الأثيرة في شن حملات الغزو على القبائل المعادية التي تسكن جهنم كلها بلا استثناء.

التفكير الرسمي في أشياء كهذه يختلف اليوم في العربية السعودية. فالجميع، إذا كانوا مسلمين، إخوة وأخوات. والقبائل استوعبتها القبيلة الكبرى التي يتوارث مشيختها آل سعود ويقيم على دينها علماء الوهابية المتزمتون. ولكن المشاعر القبلية القديمة ونظرات البدو الغازية، يمكن أن تُلتَقط هنا وهناك من خلال واجهة الطلاء الجديد. ولا تتبدَّى هذه المشاعر بحرية كما تتبدَّى في القصائد؛ ليس الشعر بالأسود والأبيض، مطبوعاً ومجلَّداً ومطروحاً في السوق، وبالتالي خاضعاً لكلتا الرقابتين السياسية والدينية. كلا، إنها أبيات تنتقل كالبرق من فم إلى فم، موجودة في كل مكان، وتتخلل كل شيء، لكنها تبقى غير مرئية، زئبقية كما الريح وسُحب الغبار في الصحراء. إنها في حركة دائبة، وتغير دائم. وبلغة البدو: كان وما كان. هي تُنشَد في المجالس حيث يحتسي الرجال الشاي بلا توقف سوى ليرتشفوا قطرات من البن الأخضر في فناجين خزفية بلا مقابض. ومن هناك يحمل الضيوف القصائد إلى مجالس أخرى فتنتقل بسرعة العدوى، من دون وساطة من ورق إو إذاعة.

في الجزيرة العربية قوة الكلمة المنطوقة، مستَخدَمةً بطريقة هدامة أو مضادة للثورة، أشدُّ حضوراً وتأثيراً بشكل كبير، من قوة الكتابة. ولدينا لهذه الظاهرة تسمية قاصرة هي «الشعر الشفهي». السعوديون يسمونه ببساطة «قاف، بدع، قوارع» أو «كلاماً». ويبين هذا أنهم يعتبرون الشعر جزءاً طبيعياً من الحياة. وكما في مضامير عديدة من الحياة، فإن العرب أقل منا ابتلاءً بالعُقد حين يتعلق الأمر بالأدب. فعندنا كلمة «شعر» ذاتها تكفي لإثارة مشاعر

من الملل اللانهائي أو من الجد التطويبي في السامع. والله نفسه حسم سوء الفهم الأخير بأن الشعراء يعلنون حقيقة أعمق بالكلمات التالية التي أنزل الملاكَ جبرائيل لينقلها إلى نبيه محمد: «والشعراء يتبعهم الغاوُون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون» (سورة الشعراء: 224 - 226).

كما أن الشعر ليس ثقيلاً ليكون بالتالي مملاً: من أكثر الأشياء طبيعية عند السعودي أن يُنعش حديثه بالتحول إلى شكل القصيد، ثم يعود إلى موضوع الحديث في أثناء الكلام.

الشعر في الجزيرة العربية نشاط يومي يمارسه الجميع. هذا، على الأقل، ما كان عليه الوضع قبل أن تقرر الحكومة أن من ضرورات كل بلد يحترم نفسه أن تكون لديه وزارة ثقافة، وقبل أن تقرر الوزارة أن العربية السعودية ستبقى بلداً حديث النعمة بنظر أشقائها العرب حتى تنخرط في العادة الحديثة بتنظيم مهرجانات شعرية يُلقي فيها شعراء من كل أنحاء العالم العربي قصائد في مديح مضيفيهم مقابل قدْر من مصروف الجيب. وتلك اللغة التي ينطق بها شعراء المهرجانات المدينيون ـ نوع من خطابية المنابر التمجيدية في مساجد يوم الجمعة بلغة عربية فصحى «صافية» ـ غير معروفة لأصدقائي الصحراويين، إذ كنا دائماً نقتعد الأرض: في حجرة جلوس (المجلس)، أو في خيمة أو في مكان ما في الحقول. وكان أصحابي لا يستخدمون إلا اللهجة البدوية وليس العربية الفصحى التي يتعلمها أطفالهم في المدرسة.

جلستُ على كثيبي بهدوء واسترخاء بينما كانت أفكاري تتدفق عابرة. ومن دون أي نية محدَّدة أدرتُ أزرار الراديو المحمول الذي وضعته على الطاولة. أول محطة سمعت بثّها كانت «إذاعة هولندا العالمية». كانت حكومة ائتلافية قيد التأليف وأبلغني سياسيان هولنديان عبر موجات الأثير أن لدى كل منهما أسبابه للشك في دقة الطريقة التي قدّم بها الآخر تعليقاته. إحساسي بروبنسون كروزو الذي نمّيته بعناية تبدَّد، وقررتُ في اللحظة ذاتها أن أستغني عن أخبار العالم الخارجي خلال الأشهر القليلة القادمة. اختفى الترانزيستور عميقاً في بطن «حمرة» ومعه صِلتي الأخيرة بالبشرية خارج الصحراء ـ وهكذا فاتني سقوط جدار برلين، وهو حدث لم يحرك ذرة من رمال الجزيرة العربية ـ .

تمرنتُ غادياً عائداً على الأبيات التي كان القصد منها كسبَ احترام البدو، بطُعم شعري أعددته لهم، للحظة التي أنزل فيها من كثيبي. كانت القصيدة من نظم رضا بن طارف، وهو شاعر ما زال يتنقل بقطعانه عبر الحدود السعودية ـ العراقية ويُعتبر من أعظم الخبراء في التاريخ التقليدي لقبيلته «شمر». وكان من لا يحفظ الشعر لإلقائه في المجالس لا قيمة له في الجزيرة العربية. وبهذه القصيدة أستطيع أن أُري رجال قبيلتَي «عتيبة» و«الدواسر» أني لست مبتدئاً في عالم القبائل. عدا ذلك، كانت القصيدة منسجمة انسجاماً تاماً مع مزاجي: لم يكن بمقدوري أن أتخيل تمثيلاً أشد وقعاً لمشاعري حين انطلقتُ خارج الحي الدبلوماسي في الرياض. والأغنية التي أنشدتُها وراء مقود «حمرة» تقول في مطلعها:

يا ضاق بالي قلت دنّو ذلولي
حطوا عليها كورها والقراميش
حطوا عليها كورها وارخصوا لي
نبي نمضّي وقتنا بالمطاريش
حنا نوينا وانتوينا نحولي
من فوق قطّاع الفرج بالمغابيش
من فوق نقّالة ثقيل الحمولي
حِرْش المواطي مبْعدات المناطيش
قبّ الضلوع مسهَلات الخلولي
يَشْدِن رطين اللي عليهم طرابيش
يا شانت الديرة لغيره نجولي
تجويل صيدٍ يصطفق مع نشانيش
دارٍ جفت سكّانها بالمحولي
مصالحه صارت علينا تناويش
واخانة الدنية غدا به نزولي
هسّت منازل مِبعدين المناطيش
اللي نهار الكون مثل الزمولي
رَبْعٍ على الموت المصفّى مداهيش
يا دار وشْ نوْحك علينا زعولي
تلحينا لحّة ركاب الحواشيش
يا دار فرّقتي شتات النزولي
هل الرباع مدلّهين القناطيش
عافوا من الوجلة قراح الثعولي
ومن له جناح ينهض وطار بالريش
مرحانهم قّامت عليها تضولي
تحاجل الغربان مثل القرافيش
وخلاف ذا ياللي تجيبون قولي
من فوق عيراتٍ تذبّ المعاطيش[1]

بعد هذا المدخل يصل الشاعر إلى موضوعه الحقيقي: حب بدوي. في صيف الجزيرة العربية اللاهب، حين تذوي خضرة الربيع ويتعذّر السَرْح في الصحراء مع القطيع بسبب الحرارة، يضرب البدو خيمهم حول الآبار في أرض قبيلتهم. وفي إحدى مدن الخيم هذه تلقّى رضا إشارة من مطلّقة جذابة بأنها ترغب في مشاركته حياته إلى جانب زوجته الأولى. لذا، قرر رضا ان يرسل صديقاً له يتوثق من مقاصدها، ولكن رسول الحب هذا خان الثقة وقدم نفسه بوصفه الخطيب مدَّعياً أن رضا ليس راغباً. وهكذا كادت الأمور تنتهي بمأساة قبل أن تتضح الحقيقة. رضا أودع قصيدته رسالةً إلى حبيبته يطْري فيها قدها الشهي حين تمر شارحاً حقيقة الموقف ومندداً بوسيطه الغادر. وبرغم ما توحي به القصيدة فإن القصائد لم تعد في الواقع تُسلَّم بأيدي سعاة على الإبل. ولكن بصرف النظر عن الطريقة التي تصل بها القصائد إلى عناوينها، فإنها تُنقَل شفاهاً كالرسالة المُسَلسلة. ومع أن أحداً لا يُذكَر بالاسم فإن الجمهور سرعان ما يعرف مَنْ كان الشاعر يقصد، وماذا كان يقصد.

*

في آخر الليل أيقظني البرد. كان القمر اختفى. نظرتُ بدهشة إلى أبراج النجوم التي تظهر في أوائل الليل في وقت متأخر أكثر بكثير من موعدها في الخريف: التاج الثلاثي المتألق من «الثريا» و«رامي القوس» الجبار وبريق «الشعرى» المتوهج. وبعد قليل رأيتُ «سُهَيل» جنوباً على ارتفاع خفيض في الأفق ـ أحمر ينبض كأنه قلب ذئب، كما يوصف في شعر النجوم العربي ـ . و«سُهيل» عند البدو، ملحَق بالنجم القطبي، نقطة ثابتة على بوصلة سماء الليل. ولكن عودة «سهيل» مع طلوع النهار هي، في المقام الأول، علامة تنبئهم بأن حر الصيف القائظ قد انتهى وآن الأوان لشد الرحال من مواقع الآبار إلى الفلاة الرحبة مع جمالهم.

على بعد نحو مسافة ميل، على الجانب الآخر من الوادي السحيق بين كثبان الرمل، رأيتُ مَضارب: الأشكال المسنَّنة لخيم سوداء تنحدر نحو القاع على الجانبين، حاكتها النساء من شعر الماعز، وناقلة من طراز مرسيدس التي صارت اليوم بمثابة خزان الماء المتنقل للبدو وقطعانهم.

عدتُ إلى النوم، وحلمتُ بأن على مسافة من فراش خيمتي تمر طوابير طويلة من المغتربين الهاربين (الضيوف العاملين في العربية السعودية، من العمال الزراعيين الباكستانيين إلى الجرّاحين الأميركيين). أحدهم توقف لحظة ليقول لي إن الجنود السعوديين يخوضون قتالاً ضارياً في ما بينهم على امتداد الطريق. ربما انقلاب أو انتفاضة شعبية. لم يعرف النازحون. وبقلق غذوا السير صوب الرياض.

*

يبيّن العلَم السعودي أن العربية السعودية ليست أمة بالمعنى الغربي للكلمة: مساحة خضراء وسيف مشهور يحمي كلمات الشهادة الإسلامية. والبلد حالة ذهنية أكثر منها شتات قبائل وصحارى تمتد أبعد بكثير من حدود المملكة ـ الفضاء الذي أخضعه الإيمان الديني والإرادة الدينية لسيطرتهما ـ . فالعربية السعودية نتاج تحالف سياسي ـ ديني أقامه مؤسس الإمارة السعودية في عام 1744 مع الواعظ محمد بن عبد الوهاب (صاحب الدعوة الإصلاحية). وأعلن الاثنان معاً الجهاد لفرض الشريعة على قرى وسط الجزيرة العربية وقبائلها البدوية.

أُقيمت الدولة الجديدة على خلاصية مقلوبة، من النوع الذي يسمى اليوم «الأصولية». ورأى عبد الوهاب أن مهمته هي قيادة سكان الصحراء العربية المتخلِّفين دينياً على طريق العودة إلى النقاء الأصلي لدين محمد ونمط الحياة الذي كان سائداً في صدر الإسلام تحت راية الرسول. وكل ما يحتاج إليه المسلم لتنظيم حياته وفق ذلك المَثَل الخالد، موجود في القرآن وفي السُنة التي تجمع أحاديث الرسول مشيرة إلى ما فعله وما لم يفعله محمد في زمن حياته: كيف كان يلبس، كيف كان يحب، ما كان يجده جميلاً أو قبيحاً، طريقته في تطبيق العدالة ـ باختصار، حياة محمد بوصفه إنساناً بسيطاً وقائداً سياسياً خارج لحظات الوحي الإلهي التي أملى فيها الملاك جبرائيل عليه آيات القرآن ـ . وآمن أتباع عبد الوهاب بأن التقليد الصادق لنمط حياة محمد ـ أكان وضع الجسم خلال الصلاة أو طول ثوب الرجل فوق الكعب ـ وتنظيم مجتمعهم وفق نموذج الأمة في صدر الإسلام، سيفتحان لهم أبواب الجنة، وقبل كل شيء يقيانهم نار جهنم. لذا كانت صورتهم للعقاب والثواب لا تختلف أساساً عن صورة البدو الذين يتطلعون إلى أن يرفلوا وأفراد قبيلتهم في عشب بارتفاع الرأس في الآخرة، يستحمون بضوء القمر، بينما تصطلي القبائل الأخرى بشمس تشوي الوجوه.

ما زال أحفاد عبد الوهاب يطلقون على أنفسهم لقب «أهل السُنة»، الذين يتبعون طريق محمد إلى منبع الإيمان. الظنون ليست معروفة عندهم، فالجواب عن كل سؤال من الآن حتى يوم يُبعثون، أُعطي منذ ما يربو على ألف عام. وكل الطرق الأخرى التي أُقحِم فيها الإسلام خلال القرون الممتدة منذ ذلك الحين تُشجَب بوصفها زندقة. وهم يرون رسالتهم المقدسة في تطهير الحقيقة الإلهية مما علق بها من شوائب، وإعادتها إلى مجدها الساطع التليد.

إنهم لا يقبلون أن تكون رسالة محمد قابلة لأنواع متعددة من التفسير. وعبد الوهاب نفسه كان ينتمي إلى المدرسة الحنبلية في الفقه التي لم ترض بغير نصوص القرآن والحديث قياساً لها. وأدان الحنابلة الوسائل الأخرى لتكييف الإسلام بما يلبي حاجات المناطق التي فتحها المسلمون بوصفها بِدَعاً. وكانت اجتهادات الفلاسفة والمتصوفة لسلب الكون أسراره والبحث عن صنوف شتى من المعاني الأعمق وراء الآيات القرآنية، تثير ازدراءهم وغضبهم. فمذهبهم ومذهب السعوديين اليوم كالشمس المحرقة، تلسع الصحراءَ القاحلة بأشعتها، وتحيل عصير الحياة فيها إلى هباب. وكل من يجرؤ على أن يرنو صوب السماء ويبحث عن مصدر النور في القرص الأبيض اللاهب فوقه، يجازف بعمى يصيب عينيه: فالشمس هناك، حقيقة قاسية لا تُنكَر، وتفرض

قوانينها على الطبيعة برمتها. وكانت «لا إله إلا الله محمد رسول الله» واضحة بما فيه الكفاية. وكل مَنْ لا يقتنع بهذه الكلمات الآمرة مشرك، وما لم يعلن التوبة قبل فوات الأوان فلن يفلت من القصاص الإلهي.

هذه المعتقدات ترجمها عبد الوهاب إلى واقع بدأب فولاذي. وكان من أول أعماله حين دُعي إلى الوعظ رجْمُ زانية. ولكنه، بحسب كتّاب السيرة السعوديين، لم يكن وحشاً مسكوناً بالتعصب والقسوة، بل يُفترض أنه طلب من المرأة أن تفكر ملياً قبل أن تعترف بذنبها. ولكنها تمادت في اعترافها ربما للتخلص من عقاب الآخرة، فكان الأمر بيد مَنْ أخذ على عاتقه تطهير العقيدة القائلة بمبدأ «ها هنا أقف ولا موقف لي إلا هذا». وبقدْر ما امتد سيفه، أي إلى حد ما بلغته قوة السعوديين العسكرية تم اجتثاث الوثنية من جذرها. إذ لا مكان لدعاة الخلاص بين العبد وعين الرب الساهرة على عرشه، وكلٌ مسؤول عن أفعاله، ومَنْ ليس لديهم الوقت أو القدرة على دراسة النصوص بأنفسهم يستطيعوا أن يطلبوا مشورة فقهاء معتَمَدين.

على امتداد قرن أو ما ينوف بعد وفاة عبد الوهاب، واصلت الإمارة المتدينة حول الرياض توسعها وانكماشها حسب حظوظ السعوديين السياسية. ولم يبدأ مؤسس الدولة الملك عبد العزيز (المعروف في الغرب بـ «ابن سعود») إلا في مطلع القرن العشرين سلسلة الحملات التي تكللت في العشرينيات بدخول مكة والمدينة المنورة. وبعد سنوات قليلة، قبل اكتشاف أول بئر نفطية في الظهران بفترة ليست طويلة، هَزَم إمامَ اليمن وتم «توحيد» البلاد. ويدين ابن سعود بانتصاراته في المقام الأول لقواته النخبوية المتدينة بتعصب ـ «الإخوان»، وهم بدو اقتنعوا بالتخلي عن نمط حياتهم البدوي وشبه الوثني والاستقرار في قرى من الأكواخ الطينية. وهناك مارسوا الزراعة بشكل بدائي فيما تولى المسجدُ تعليمهم ـ. وأثبت ذلك كونه وصفة للنجاح العسكري لأن «الإخوان» جمعوا بين الصلابة والخبرة في الحرب الصحراوية اللتين اكتسبوهما من وجودهم السابق، وجرعة مترعة من الاندفاع الإسلامي. ولم تعد طاقات البدو تُهدَر على نزاعات داخلية وحملات غزو وثارات، بل جرى تنسيقها وتركيزها نحو الخارج لتحقيق هدف مشترك، أسمى مرتبةً.

توفي الملك في عام 1953 بعدما ضمن الوراثة بثلاثة وأربعين ابناً. العاهل الحالي الملك فهد هو الابن السابع، ومخزون الوارثين المباشرين يمتد حتى شطر كبير من القرن الحادي والعشرين. «الإخوان» كانوا أقل حظاً: بعد حركة تمرد تم حلهم في عام 1930. وأوضح البريطانيون لعبد العزيز أنهم لن يسكتوا على مزيد من غزواته باتجاه محميتيهما في الأردن والعراق. وخلص الملك من تلك الرسالة إلى أن العمل الذي بدأ عام 1744 قد أُنجز وحان الوقت لتوطيد أركان المملكة. كان موطن علماء الدين الوهابيين وآل سعود في نجد، وهي صُحصُح في وسط الجزيرة العربية بقيت دائماً بمنأى من التأثيرت الخارجية داخل طَوق من الصحارى الرملية والجبال العالية. وبضم مكة والمدينة المنورة، وهما مدينتان كانتا تقليدياً كوزموبوليتيتين في نظرتهما، أُضيف عنصر جديد إلى المملكة. ولئن أراد السعوديون تأمين السيطرة على أماكن الحج هذه فقد كان من الضروري كسب ثقة السكان والمسلمين في العالم أجمع. الورقة الرابحة الأخرى بيد عبد العزيز كانت النفط الذي اكتُشف في منطقة واقعة على شاطئ الخليج غالبية سكانها من أهل الواحات الشيعة الذين ناصبهم الوهابيون تقليدياً العداء. وأدرك صاحب العقل الاستراتيجي عبد العزيز أن الوقت قد حان للمصالحة والدبلوماسية، فلم يعد هناك مكان لمحاربي «الإخوان» الأشداء.

ولكن على الرغم من حل المحاربين «الإخوان» الأشداء، فإن تِرْكتهم ما زالت حية. ولم تكن أضرحة الأولياء المسلمين تضررت فحسب بل كان «الإخوان» مسؤولين ثقافياً عن موجة من التدمير لم يشفَ شِعر الصحراء قط من آثارها. فإن معتنقي الإسلام النقي في غمار حماستهم لتصفية الحسابات مع الماضي الوثني أحرقوا مخطوطات تحوي التاريخ الأدبي لعائلتهم أو قريتهم أو قبيلتهم. وهذه الأشكال من التعديات تمتُّ الآن إلى الماضي ولكن الشِّعر المحلي لن يكون أبداً ما كانه ذات يوم. ومع أن الكثير من المسلمين المحافظين في البلاد لا يعتبرون أنفسهم من «الإخوان» فإنهم ينظرون إلى الأدب باللهجة البدوية الدارجة على أنه من مخلَّفات «الجاهلية» الثانية التي سبقت انتصار الوهابية، مثلما استأصل الرسول محمد الجاهلية الأولى. لذا تُعَدُّ دراسة هذا الأدب بنظر علماء الدين ذوي النفوذ الواسع، هواية باطلة وخطرة تتعارض مع طموحهم في توحيد البلاد والعالم العربي تحت راية القرآن بمساعدة العربية الفصحى.

الحكومة تتخذ الموقف نفسه من حيث الأساس، ولسبب وجيه، لأن الشعر القبلي القديم لا يتكون من مجرد أبيات جذابة قليلة. فهذا الأدب سجلٌ لتاريخ الجزيرة العربية قبل أن يستأثر آل سعود بالسلطة. وللحفاظ على السلام تفضِّل القوة السائدة عدم نبش التاريخ. وعلى الباحث أن يقدِّم في كل لحظة تفسيراً يبرر به سبب عدم تكريس طاقته لدراسة الإسلام. فإن دراسة الإسلام أجدى له من دون ريب ـ في دنياه وفي الآخرة ـ. ونحن كلنا الآن شعب واحد، وبالتالي من الأفضل بكثير أن تُجمَع، على سبيل المثال، الأمثلةُ القديمة بدلاً من جمع قصائد هدَّامة عن نزاعات قبلية ولَّى زمنها.

1. نشر هذه القصيدة لاول مرة س. أ. الصويان، الشعر النبطي في الجزيرة العربية .

.S.A. Sowayan, Nabati Poetry. The Oral Poetry of Arabia , Berkeley and Los Angeles, 1985, 136-13

الكتاب الأول

عتيبة

كلمة «قبيلة» كما تُستخدم في الجزيرة العربية لا يمكن أن تُحدَّد تحديداً دقيقاً. فأي مجموعة كبيرة من الأفراد الذين ينسبون أصلهم إلى أب مشترك، قد تكون «قبيلة». ويلاحظ المرء، على سبيل المثال، أن أفراد قبيلة معينة يضيفون جميعاً اسم قبيلتهم إلى اسمهم واسم أبيهم (وإذا اقتضت الضرورة جدهم وأبيه... إلخ). خالد، مثلاً، (انظر ص 37) يستطيع أن يقول إن اسمه خالد بن مشعان ولكنه معروف عموماً بأنه خالد بن شليويح أو ابن شليويح للاختصار كناية بالجد الأكبر الذي يستمد خالد منه مكانته كشيخ. وهو يستطيع أن يضيف إلى أسماء أجداده المباشرين هذه، انتماءه إلى عشيرة المهادلة ثم ذوي عطية (التي تنتمي اليها المهادلة) ثم المزاحمة والروقة وعتيبة. وتجد العلاقةُ التراتبية بين هذه القبائل والعشائر تمثيلَها في شجرة العائلة (انظر ص 35). فهو خالد، المهادلي، العطاوي، المزاحمي، الروقي، العتيبي. وتشير الياء إلى الانتساب. فالعتيبي ينتمي إلى عتيبة، وهو من أفراد هذه القبيلة. ولكن خالداً لا يستخدم عملياً إلا لقب «العطاوي» لأسباب، منها دعواه بالمشيخة على جميع العشائر التي تنتمي إلى ذوي عطية. ومستوى المهادلة لا يهمه اجتماعياً أو سياسياً، ومستوى المزاحمة يوجد أساساً في نظرية الأنساب القبلية وليس في وعي أفراد القبائل. ولا حاجة إلى الإشارة إلى أن ذوي عطية، التي تضم العطاويين إجمالاً، تنتمي إلى الروقة وعتيبة لأن ذلك معروف عموماً على ما يُفترض.

عتيبة تحالف قبلي يتألف من قسمين: الروقة وبرقا. وفي حين أن «الروقة» معرَّفة، فإن عتيبة وبرقا غير معرَّفتين، ومثلهما قبائل حرب أو مطير أو عنزة أو سبيع أو شمر. ولكن هناك قبائل أخرى معرَّفة مثل العجمان والغنانيم والدواسر والولامين.

وتشير الأسماء المعرَّفة إلى أن القبيلة تُعتَبر مجموع أفرادها. وأسماء القبائل ذات المستوى الذي تحتها (مثل المهادلة، الغنانيم... إلخ) كلها عملياً معرَّفة: فهي تُماهى مع مجموع الأفراد الذين تتكون منهم. وتوجد الأسماء غير المعرَّفة بالدرجة الرئيسية على المستوى الأعلى من التحالف والمستوى الأدنى مباشرة. و«حرب» و«عنزة» مفهومان مجرَّدان إلى حد ما أو يستخدمهما أفراد تحالفات أخرى لا يحتاجون إلى تصنيف مَنْ يتحدثون عنهم تصنيفاً أدق. وفي حالة عتيبة هناك علاوة على ذلك جمع منفصل هو: «عتبان»، في إشارة إلى عدد كبير من العتيبيين، أفراد قبيلة عتيبة.

ومع ذلك، كثيراً ما تُستخدم «عتيبة» وأسماء قبائل أخرى معرَّفة على نحو يفيد بأنها تشير إلى تلك القبيلة أو مجموعات من أفرادها.

سلّم القبائل

إبان الحرب العالمية الأولى، وضع لورنس العرب خطة حملة لانتزاع الصحراء من الأتراك لخَّصها في «مد سلَّم من القبائل». وما كان يعنيه أنه في الظروف والبيئة المحدَّدة وقتذاك يمكن تحقيق أحسن النتائج من خلال ربط مطامح البدو بغايات الحلفاء واستغلال أواصر الدم والولاءات السياسية التي تربط القبائل في ما بينها ومع قبائل أخرى على امتداد مسافات شاسعة.

وعلى خطى لورنس بدأتُ العملية الشاقة لبناء سُلَّمي الخاص. وكنتُ على الدوام تقريباً أجد طريقي إلى منطقة «النسيم» التي استوطنها بدو من سائر أنحاء البلاد شارعاً شارعاً وحارة حارة. وهناك في الخيم السود وبين دلال القهوة النحاسية التي نُصبت في حدائق الفيلات الخلفية، تعرفتُ إلى رجال قبائل من الأقاليم جاؤوا لمتابعة قضاياهم لدى الجهاز البيروقراطي في العاصمة، وكانوا يستخدمون الخيمة مكاناً للقاءات الاجتماعية. وسرعان ما لاحظتُ أن اهتمامي بالقصائد المتوارثة، التي تُحفظ فيها حيةً ذكرى الماضي البطولي لقبيلتهم، لامس وتراً عصبوياً حساساً. وبهذه الطريقة أجريتُ الاتصالات التي كنتُ آمل بأن أوظفها ذات يوم لمد سُلَّمي من مصادر المعلومات في الصحراء ـ بعيداً عن الأضواء الكاشفة ووزارة الثقافة والفقهاء ـ إلى البطاح الشاسعة حيث شجاعة البدوي القديمة ما زالت سائدة. وبعد عام بلغتُ نقطة امتد عندها سُلّمي إلى القبائل الكبرى الثلاث: عتيبة في وسط نجد، وشَمَّر في الشمال، والدواسر في الجنوب.

لعل «عتيبة» الأكثر سعودية من بين سائر القبائل. وقبل نحو مئتي عام بدأت عتيبة زحفها الذي لا يُقاوَم صوب الشرق من الوديان الجبلية المحيطة بمكة. وفي موجة عارمة جرف رجالُها معهم قبائل أخرى مثل قحطان ومطير وسبيع كأنها حطام طافٍ حتى أصبحوا أسياد عالية نجد ـ المرادفة في الجزيرة العربية للهواء النقي الصحي والسهول المعشبة ـ . وتُعرف المنطقة المحيطة بمدينة عفيف الصغيرة على الأخص، وهي سهل مرتفع يغطيه عشب «نصي»، علف الإبل المفضل، على أنها جنة بدوية. وعندما نالت القبيلة ما كانت تنشده من «مجال حيوي» وتوقفت الموجة، انتشرت عتيبة في شريط عريض يخترق قلب الجزيرة العربية: الألف كيلومتر تقريباً الممتدة بين الرياض، مركز السلطة المهم، ومكة المكرمة، بوتقة المسلمين متعددة الألوان. واستقر فرع رئيسي من فروع القبيلة هو «الروقة» في القسم الشمالي من الشريط بمحاذاة طريق الحجاز القديم الذي يمر بعفيف من الرياض إلى مكة. ويقع موطن الفرع الآخر، «برقا»، على جانبي الطريق الحديث، إلى الجنوب.

ليس من المستغرب أن تعتبر عتيبة نفسها القبيلة الأقرب إلى مُثُل الشهامة الصحراوية: ليس من قبيلة تعترف بأنها أقل نبلاً من أخرى. ولكن الاحترام الذي تحظى به عتيبة يمكن تلمُّسه في حقيقة أنه ليس هناك في العربية السعودية من يريد المجازفة بتعريض نفسه للسخرية من خلال ادعاء مكانة أعلى لقبيلته في الهرم القبلي.

حتى الرحّالة البريطاني الذي عاش في القرن التاسع عشر، تشارلز داوتي Charles Doughty ، وهو نموذج لورنس الكبير، لم يبخل في إغداق المديح على عتيبة ـ وهو لم يكن سخياً في الإطراء ـ ، بل إن ردود الأفعال لم تكن ودية بأي حال على إعلانه، بمتعة ماسوشية في كل مكان كان يطأه من البلد الوهابي، أنه مسيحي مؤمن. إذ كتب في عمله الصحراء العربية Arabia Deserta ، الذي سجَّل فيه وقائع رحلاته في الجزيرة العربية، أن عتيبة «قبيلة بدوية نبيلة وكريمة، أفرادها معروفون بكونهم مقاتلين أشد بأساً من قحطان، وليس الغدر من شيمهم. وهم قاوموا الغزوات السنوية لابن رشيد (يقصد داوتي محمد بن رشيد، أمير حائل الشمري الشهير الذي دفع آل سعود إلى الظل تماماً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، وقاوموا الحملات العثمانية التي كانت تُجرَّد ضدهم بين حين وآخر، من المدينتين المقدستين لأخذ الإتاوة منهم بالإكراه».

أبيّة، مستقلة، متفوقة في فروسيتها؛ هكذا كانت عتيبة تنظر إلى نفسها. وقد وضع السعوديون نهاية لهذا الاستقلال، ولكن عتيبة عوضت ذلك بما نالته من سمعة عن حماستها الدينية بلا مهانة: وليد مزاوجة بين روح البدو القتالية وعزوفهم عن المظاهر التَّرَفية وعقائد عبد الوهاب المتزمتة. وكان داوتي غادر الجزيرة العربية منذ زمن طويل حين شرع عبد العزيز الشاب، من قاعدة في الكويت، حيث كان السعوديون المهزومون بضيافة أمراء آل الصباح في بلاطهم، باسترداد الأراضي التي خسرها أعمامه المتخاصمون مع ابن رشيد.

حاولت عتيبة بوسائل شتى تفادي الوقوع في قبضة الحاكم الجديد ولكنها في النهاية اضطرت إلى الاعتراف بالهزيمة. وأصبح شيخ الروقة، عمر بن ربيعان، مستشار الملك الموثوق، وبصفته هذه كان رأس حربة عتيبة في البلاط. واستقر مع عشيرته في بلدة نفي. وكان العديد من أبناء قبيلته استجابوا للدعوة إلى التخلي عن حياة البداوة والانضمام إلى «الإخوان» الذين يعيشون في «الهجر»؛ قرى البدو الذين اعتنقوا الإسلام، وأُطلق عليها هذا الاسم تيمناً بهجرة الرسول في عام 622.

في ذلك العام الذي يبدأ به التقويم الإسلامي أيضاً، قرر محمد أن لا جدوى من مواصلة التبشير برسالته بين أهل مدينته الساخرين منه والمتكالبين عليه. لذا هاجر مع أتباعه إلى المدينة التي تبعد 300 كيلومتر إلى الشمال حيث لاقى استقبالاً حسناً من أهلها. وفي المدينة شيد نواة الدولة الدينية التي ما زالت تمثل نموذجاً للأصوليين الإسلاميين. ومن تلك القاعدة هاجم أهلَ مكة العنيدين بحملة تجمع بين الدبلوماسية والقوة العسكرية، وبعد سنوات قليلة دخل مدينته الأولى ظافراً. وكانت «الهجرة» تعني الرحيل أو «قطع كل الروابط»، وتلك أيضاً كانت الفكرة وراء القرى الزراعية التي انتشرت في نجد ابتداء

من عام 1912 ولاحقاً: لقد تحرر البدو من حياتهم السابقة وانضموا إلى «التحالف القبلي» الجديد لـ «الإخوان»؛ جماعة الإخوان المسلمين المناضلين الذين أعلنوا الجهاد على المفسدين من أقرانهم المسلمين في الدين. وبذلك نهض على أرض الجزيرة العربية عدد متزايد من معاقل الدين النقي كان المفوضون الإسلاميون يطلقون منها محاربيهم الأشداء للانقضاض على جسم الوثنية العربية العليل.

وبـ «الإخوان» أوجد الملك وحشاً كاد يلتهم أباه الروحي نفسه. وعندما قرر عبد العزيز أن الوقت حان لوقف الجهاد، ثار «الإخوان» بقيادة شيخ مطير فيصل الدويش وشيخ برقا، فرع عتيبة، سلطان بن بجاد. ولو لم يقرر عمر بن ربيعان أن يتخذ جانب الملك في تلك اللحظة الحرجة وبالتالي نيل عرفانه الدائم بالجميل، لانتهى السعوديون على الأرجح إلى مآل سيئ العاقبة.

وبصرف النظر عن الصواب أو الخطأ، فإن ما بنته عتيبة من سمعة عن تعصبها تلقّى دفعة جديدة في عام 1979. ففي ذلك العام احتلت الحرم المكي مجموعة من المتعصبين بقيادة العتيبي جهيمان، احتجاجاً، كما أُعلن، على فساد العائلة الملكية ورهطها من الفقهاء. ولم ينجح الجيش السعودي في استعادة الحرم إلا بعد عشرة أيام وسقوط مئات القتلى. وفي أوائل 1980 أُعدم جهيمان وستون من أتباعه الباقين بقطع رؤوسهم في الساحات العامة بعد توزيعهم على مدن مختلفة في البلاد.

طلال

من المفارقة أن شارعين متوازيين في منطقة النسيم الواسعة سُمّيا شارع عمر بن ربيعان وشارع شليويح العطاوي، وهما اسمان على طرفي نقيض من أحدهما الآخر كقطبي المغناطيس. فلقد كان عمر يمثل أريستوقراطية قبيلته العليا، وكان ابن عائلة تمد الروقة بشيوخها من الأب إلى الابن منذ بدأت كتابة السجلات. وبذلك يكون دخول آل ربيعان إلى البلاط مكفولاً. فالسطوة والنفوذ والجاه جزء يكاد يكون بديهياً من تراثهم، وبالتالي هم يتحركون في العالم بسهولة، حيث الكرم الطبيعي والوقار الهادئ اللذان يُخلَط أحياناً بينهما وبين التواضع، هما من شمائل النبل الأصيل.

كان شليويح مثالاً كلاسيكياً للصاعد الذي استبد به الطموح إلى رفع الظلم الناجم عن وضاعة منحدره واختراق الفئات الاجتماعية الأعلى منه بأي ثمن لتأمين مكانه تحت الشمس. في أميركا ربما كان ذلك سيصبح حكاية ثراء بعد فقر، ولكن في عالم الصحراء المحافظ لا تكفي المثابرة والموهبة وحدهما لخروج المرء من إسار طبقته الاجتماعية. ولقد برع شليويح في أعز فنين عند البدو المتمثلين في فن الإغارة على القبائل المعادية وفن الشعر. القصائد تروي غزواته التي لم يعرف فيها الكلل: كيف كان يدفع بعيره إلى المسير حتى في أشد ساعات اليوم حراً، يعرض عن الملذات ورغيد العيش ومغازلة النساء، وعلى استعداد دائماً للدفاع عن أصحابه والسماح لهم بالمشاركة في الغنيمة، يقف مع المظلومين ويعامل نساء العدو المقهور باحترام. وكما يليق بالفارس، مات شليويح راكباً. ولكن القصائد والحكايات التي قام فيها بدور البطولة قبل ما يربو على مئة عام، انتشرت شفاهاً على امتداد آلاف الكيلومترات: من شمر في الشمال إلى الدواسر في الجنوب، وما بينهما من قحطان ومطير وحرب والشلاوى وبقوم وسبيع، أي سائر القبائل التي تقع في مجال غزواته. ويعتبره الصديق والعدو الآن «رمز» المثل البدوي الأعلى: المقاتل العظيم يجوب الصحراء على بعيره، لا يرتوي في بحثه عن المآثر الحربية. وبهذه الطريقة أصبحت حلقة شليويح جزءاً من المسلسل الرومانطيقي غير المكتوب عن الفروسية في الصحراء، الأنشودة التي يُبقي بها البدو ذكرى ماضيهم البطولي والمستقل حيةً، ويقاومون عملية التسوية التي تهدد هويتهم. ولكن شليويح لم يبلغ قط هدفه الحقيقي. لقد ارتقى «بذراعه»، كما يقول البدو، من ساكن خيمة بائس ليصبح زعيماً مرهوب الجانب. ولكن برغم أن أحفاده شيدوا في هذه الأثناء بيتاً ضخماً وسط الصحراء، فإنهم لم يرتقوا بعد أعلى من شيخ عشيرة صغيرة. وما زال حفيد حفيده خالد يكافح بلا جدوى، يلاحقه شبح شليويح، لنيل الاعتراف به شيخَ مشايخ ذوي عطية. وما لم ينجح في مسعاه هذا فلن يعامله آل ربيعان معاملة تختلف عمّا هو بنظرهم: مصدر إزعاج تافه بادعاءات شخص حديث النعمة يحاول استغلال أسطورة جده الثائر.

عند غالبية عتيبة يرتبط اسم شليويح ارتباطاً لا ينفصم بمعركة بئر طلال. وتروي التواريخ الشحيحة لما حدث من قلاقل سابقة في عمق الجزيرة العربية، أن محاربي الروقة بزعامة مصلط بن ربيعان قطعوا أوصال أحد أعمام الملك عبد العزيز في عام 1873. وكان مصلط بن ربيعان اتخذ جانب عبد الله، إمام المؤمنين السعوديين، الذي خلعه شقيقه الأصغر سعود عن عرشه في الرياض. ولم تكن «طلال» إلا موقعة في نزاع بين الشقيقين خاضه الاثنان على امتداد عشرين عاماً بدرجات متفاوتة من النجاح، وتطور إلى حرب أهلية حقيقية وقعت في أتونها الجزيرة العربية برمتها من الكويت إلى اليمن. وعسكرياً، كانت كفتا الشقيقين متعادلتين وأنهك أحدهما الآخر في نهاية المطاف حتى أنهما كانا قاب قوسين أو أدنى من تدمير آل سعود إلى الأبد. ومارس غريم السعوديين، محمد بن رشيد في حائل، لعبة القط والفأر مع الشقيقين المتحاربين لفترة من الوقت، ثم وجه ضربته بلا رحمة. وكان الشقيق الأصغر عبد الرحمن، والد عبد العزيز، وحده الذي تمكّن من الفرار إلى الكويت.

في العربية السعودية ما زالت هذه الحرب الأهلية مسجَّلة بوصفها أكثر الصفحات سواداً في تاريخ الإمارة السعودية. وتحيا هذه السنوات في العقل الوطني الباطن على أنها الفتنة في نموذجها البدئي: من صنف الصراع العصبوي ـ السياسي ـ الديني في عقر دار الأمة الإسلامية الذي يفضي إلى الفوضى والتدهور ويمنح أعداء الإسلام من أمثال القبائل البدوية القديمة فرصة تأليب المؤمنين ضد بعضهم بعضاً. وعند عتيبة تُذكر موقعة طلال على أنها الصدام الأخير مع القوى السائدة في الرياض التي عُقد لها لواء النصر. ولا يتعين على أفراد عتيبة أن يشعروا كأنهم مسلمون آثمون على هذا الصعيد. فهم بخلاف إخوان برقا الذين تمردوا بعد مضي ستين عاماً على واقعة طلال، يستطيعون القول إنهم كانوا يقاتلون ضد إمام أشعل نار الفتنة. وعند الروقة ما زال الانتصار الذي تحقق في موقعة طلال حلو المذاق: لهم في المعركة دليل على تفوقهم على برقا في الوفاء الأخوي والبطولة. وقد طلع أفراد الأخيرة بذرائع شتى لتلكئهم عن نجدة أقرانهم في وقت الشدة. ومع ذلك تمكن رجال الروقة من الصمود بمفردهم. وأنشودة طلال التي نظمها شليويح بطلب من مصلط لتكون نصباً تذكارياً شعرياً كادت تكون بمثابة النشيد الوطني لعتيبة. ولكن أفراد الروقة لم يفُتْهم قط أن يلفتوا انتباهي بغمزة كبيرة إلى المقطع الأخير من هذه الأبيات:

جانا سعود مسيّر بجموعه
معه الدويش[2] ولمّة البداوى
معه ثمان آلاف اعداد جموعه

بلوى وربّي يكفي البلاوي
وحنا ثلاث مية اعداد جموعنا
لا فينا أجنابٍ[3] ولا برقاوي

*

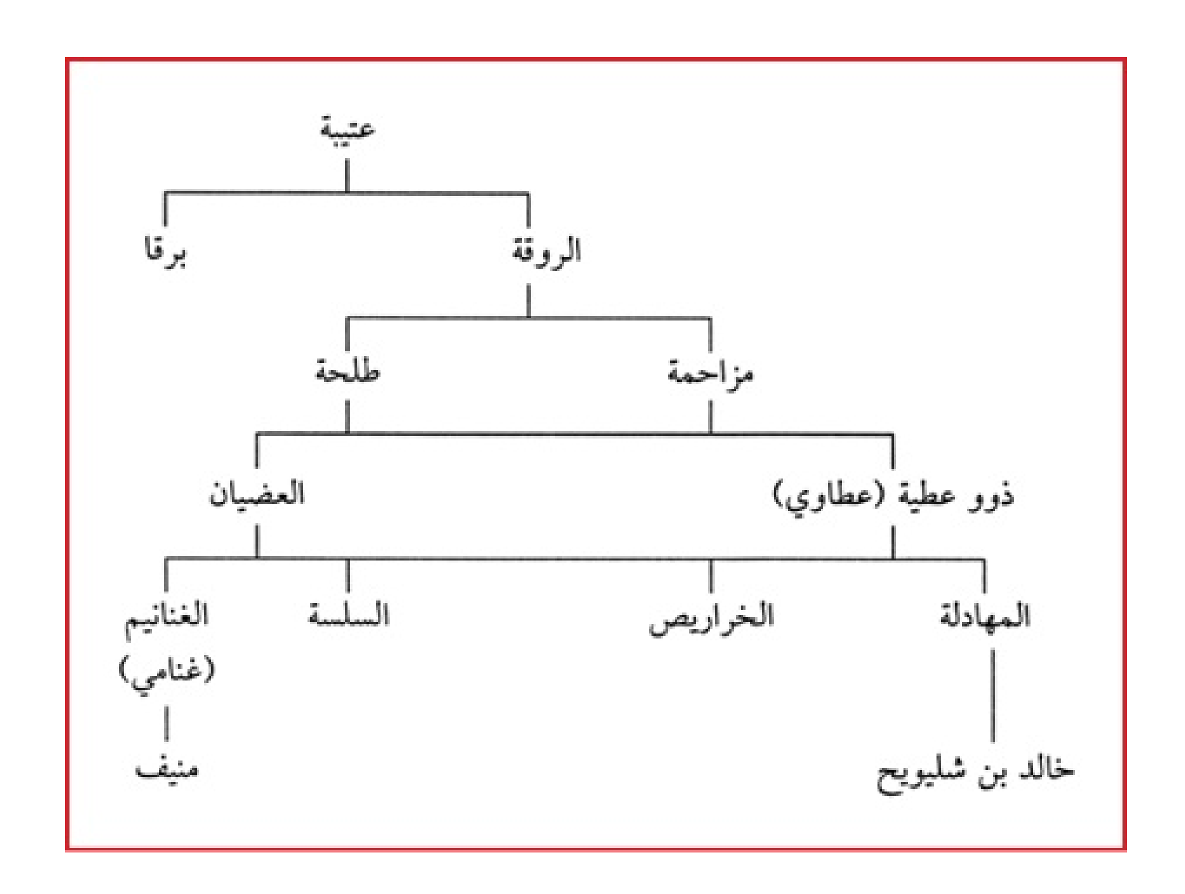
إذ سحرتني حكايات أصدقائي من عتيبة في «النسيم»، سافرتُ لإجراء بحث ميداني في تراث الفارس الهمام شليويح المنقول شفاهاً. كان في جيبي المفتاح الذي لا غنى عنه لفك مغاليق ذاكرة البدو المحليين: رسالة توصية من وكيل أمير منطقة الرياض التي تمتد على نصف نجد. وقد علّمتني الخبرة أن البدو لا يشعرون بما يكفي من الطمأنينة لفتح خزائنهم الحكائية إلا بعد تقديم شهادة كهذه.

وعملاً بالمبدأ العربي القائل إن كل مشروع له حظ من النجاح يبدأ من أعلى السلم ثم يهبط ـ مقلوب المبدأ الأوروبي في الثانوية ـ دبرتُ أولاً تقديمي إلى شيخ الروقة في نفي. وعن طريقه التقيتُ آل ربيعان في الرياض الذين أوصلوني بدورهم إلى أحد أتباعهم، وهو منيف زعيم عشيرة الغنانيم في عفيف والعدو اللدود لابن حفيد شليويح الذي يدّعي زعامة ذوي عطية، وهي فرع من عتيبة تنتمي إليه الغنانيم، عشيرة منيف.

هذه التقسيمات القبلية المعقدة قد تبدو مماحكة نَسَبية للغريب ولكن عند السعودي ليس هناك موضوع أكبر أهمية وأكثر آنية. فمعرفة الروابط العائلية والقبلية هي البوصلة التي توجهه في حياته اليومية. والغربيون الذين لديهم احتكاك أكثر من سطحي بالبلاد ويجدون عناء كبيراً في دراسة هذا الأمر، يعملون مكبلين بعائق منيع هو عدم فهم علاقات القوة.

القبائل البدوية، كما أشار داوتي، نوع من الأمة، وبالتالي فإن حقيقة أن يُسمى أحدٌ «العتيبي» ـ وهو اسم يشغل قسماً كاملاً من دليل الهاتف في الرياض ـ لا تعني أكثر من أن يُسمى «جون إنغلاند» على سبيل المثال. والسعودي الذي ليس له مع الأجنبي إلا علاقة عمل سيقصر نفسه على ذلك للسهولة. ولكنه مع مواطنه السعودي يريد أن يعرف أي نوع من الأنساب يتعامل معه، ولن يرضى بهذا الاسم وحده. فهو يريد أن يعرف اسمَي والده وجده وأي فرع من عتيبة ينتمي إليه. وتشكل أسماء الأجداد سلسلة لا تنتهي ـ ترتبط بكثير من البنوة كما في فلان بن فلان ـ تضيع في أعماق الزمن التي لا قرار لها. لذا تنقطع السلسلة عند نقطة معينة ويظهر اسم القبيلة والفرع كإضافة. وعلى سبيل المثال، أن جميع الأبناء الذين يحملون لاحقة «الغنامي» يشيرون إلى انتمائهم إلى الغنانيم، وهي مجموعة يُعتبر أفرادها أبناء أب مشترك هو غنام. ومع عشرة فروع أخرى يشكل الغنانيم ذوي عطية، التي يحق لكل أفرادها أن يحملوا اسم العطاوي. وذوي عطية بدورها فرع من عشرين أخرى تنتمي إلى الروقة المنضوية إلى عشيرة شيخ مشايخ الربيعان. وتشكل الروقة وبرقا، المنقسمتان على الغرار نفسه، معاً، تحالف عتيبة.

وتخطيطياً، يبدو هذا على النحو التقريبي الآتي:



عتيبة
برقا
الروقة
طلحة
مزاحمة
العضيان
ذوو عطية (عطاوي)
الغنانيم
(غنامي)
السلسة
الخراريص
المهادلة
منيف
خالد بن شليويح

وهكذا، ينتمي من الناحية النظرية جميع أفراد عتيبة في أصلهم إلى أب مشترك عن طريق سلسلة طويلة من الأبناء: في تلك الشبكة من الخطوط التي تتشعب في كل اتجاه انطلاقاً من محطة الماضي، لا تكون أسماء الفروع أكثر من نقاط مر بها قطار القبيلة هادراً صوب الحاضر.

ومن الجائز أن غنام كانت له موهبة شليويح نفسها في سرقة الإبل، وبالتالي كسبَ حشداً متنامياً من الأتباع الذين اعترفوا في النهاية به شيخاً. ففي الجزيرة العربية، كما في أوروبا، كانت الصفات القتالية هي التي تحدد مَن القادر على الارتقاء إلى النَّسب النبيل.

المشكلة الوحيدة أن من سوء حظ شليويح أنه عاش في فترة كانت العصور الوسطى تقترب من نهايتها في الجزيرة العربية. وكان شليويح بن ماعز المهادلي العطاوي نجح لتوه في أن يصبح شيخ المهادلة ولكن أحفاده أُجهضوا في صعودهم. ففي عصرهم ادّعى عبد العزيز استئثاره بالقوة من أجل الدولة، ومنع البدو من شن غزوات ضد القبائل المجاورة وكافأ حُسْن السلوك بسخاء من الخزينة. وعمل نظام عبد العزيز الجديد هذا لصالح النخبة القائمة وكبح فرص الأشداء المثابرين لارتقاء السلم الاجتماعي. وكان هذا لصالح آل ربيعان والزعماء القبليين المحافظين على المستويات الأدنى. وكان من مصلحة الجميع منع آل شليويح من القفز فوق أبناء غنام والفروع القبلية المماثلة للمطالبة بمركز رئاسي بين عشائر ذوي عطية، أي بسط سطوتهم على فرع ذوي عطية برمته. ولم ينس أحد حتى الآن أصول شليويح المتواضعة لأسباب منها أن قرناً في الصحراء لا يزيد على عقد في إحساسنا بالزمن. وبالتالي، لم يكن إلا طريق واحد من الطريقين اللذين سار فيهما شليويح، مفتوحاً أمام ابن حفيده خالد، ذلكم هو طريق الشعر في خدمة طموحاته السياسية.

بالطبع، هز أفراد الحلقة المحيطة بمنيف أمير الغنانيم رؤوسهم ساهمين حين سألتُهم إن كانوا يعرفون أحداً في عفيف وحولها يستطيع أن يروي لي المزيد عن البطل الفولكلوري شليويح. ولكني، خلال طوافي واستفساري من البدو في الصحراء، كنتُ أتلقّى دائماً الجواب نفسه: «الرجل الذي تبغيه هو خالد بن شليويح، ابن الحفيد نفسه».

2. الدويش: شيخ قبيلة مطير.

3. أجناب: أفراد قبائل أخرى.

خالد

من مسافة، لم تكن المزرعة تبدو أكثر من بقعة داكنة، ومحل السكن يتكون من بضعة أحجار مكوَّمة على جانبي شريط ضيق من الإسفلت حيث يمر الطريق القديم من مكة إلى الرياض عبر السهل الشاسع. وعلى مسافة أبعد، في الشمال الشرقي، لاحت معالم هضبة سوداء في ظلها دائرة متوهجة صغيرة: بلدة عفيف الصغيرة. كانت الصحراء منبسطة بلا حراك، تشويها الحرارة في ساعة القيلولة، حين انحرفتُ قبل حوالى خمسة عشر كيلومتراً من عفيف خارجاً عن الطريق ومنطلقاً وسط الغبار نحو بوابة بيت عركته الأحوال الجوية. كان ذلك على ما يُفترض مسكن الرجل الذي قيل لي إنه ابن شليويح، كما يسمي البدو خالداً، ابن الحفيد. كان المبنى الرئيسي، وهو بناء مربع من طبقة واحدة بسطح منبسط، شُيد كما اتفق من إسمنت، ودُهن بظلال الصحراء البنية الضاربة إلى الحمرة والأوكر، يجثم مثل خنفسانة مدرعة منزوياً بلا حركة داخل أسوار المجمّع، تحيط به دائرة واسعة من المباني الخارجية المشيدة من كتل إسمنتية. وعلى القوس الذي يعلو البوابة المعدنية كان لوح خشبي براق ذو رموز لولبية بالكاد يُقرأ منها: «إمارة عبلاء». وبعد طَرْق مديد فتح البوابة خادم آسيوي نصف نائم لف الكوفية العربية في عمامة اعتمرتها مؤخرة رأسه. مشينا نحو الدار عبر الفناء المفروش بالحصى. كانت جميع المصاريع والأبواب مغلقة بإحكام، وباستثناء الخشخشة التي كان يحدثها وقع أقدامنا لم يكن هناك ما يعكر الهدوء المميت. أخرج الخادم حفنة مفاتيح من جيب سترته التُّنك وأدخلني «المجلس» أو غرفة الاستقبال: حجرة ذات شكل رباعي واطئة السقف عارية من الأثاث. وعلى الارض فُرشت بُسط مهترئة، وعلى امتداد الجدار وسادات ومساند للأذرع من سروج الجمال ومربعات من الاسفنج الاصطناعي مغطاة بقماش.

خطا الخادم عبر الغرفة وسحب مزلاج الباب المعدني الثقيل وفتحه مواربا ثم اختفى في الخارج. مثلث من الضوء سقط في الداخل، وفي اللحظة نفسها أثارت ريح صحراوية تأن فتلة غبار على السجادة. تراجعتُ وجلستُ على البساط مقابل فتحة تطل على قسم فارغ من غرفة مجاورة ـ غرفة الطعام، كما علمتُ لاحقاً، التي ترتبط بغرف الدار الخاصة ـ. فكل بيت سعودي ـ والسعوديون لا يعيشون إلا في بيوت مسوَّرة ـ له ذلك التوزيع الصارم بين القسم الخاص وقسم مفتوح للعالم الخارجي. وفي الأقسام الخاصة يكون الرجل في كنف عائلته وأقرب أقربائه ولكن زوجته (زوجاته) وبناته يجب ألاّ تخطو أي منهنَّ خطوة واحدة خارج الدار أو إلى غرف الاستقبال إذا كان هناك زوار. فالفضاء العام ليس مفتوحاً إلا للرجال مثلما أن الحياة العامة كلها حكر على الرجال.

بينما كنتُ جالساً هناك ظهر فجأة في الفتحة، بصمت مطبق، قوام رشيق طويل يرتدي ثوباً أخضر براقاً يلتصق بإحكام على ردفين مدورين. وعلى وجهها ارتدت نقاب البدوية الأسود ذا الشقين للعينين وطوية حادة أشبه بالمنقار على الأنف. التقت العينان السوداوان المخططتان بالكحل للحظة بعينيّ، والأصابع المغمدة في الأختام أطلقت حركة ذعر تكاد تكون غير محسوسة من على ارتفاع الورك وفي اللحظة ذاتها اختفت بصمت كما ظهرت. كانت تلك المرة الوحيدة التي لمحتُ فيها كائناً بشرياً من جنس النساء طوال الشهر الذي أمضيته في «عبلاء»؛ بيت خالد.

نهضتُ وتوجهتُ إلى الباب الخلفي للمجلس ونظرتُ إلى الخارج. شجيرة مغزلية عارية، لا تزيد على هيكل عظمي لطفل، قرب الباب، كانت العلامة الوحيدة التي تنم عن وجود حياة في الفناء الهائل. وإلى اليمين كانت بوابة عريضة وراءها السهل الأصفر الضارب إلى البني ينداح على مدى البصر. لا شيء استثنائياً بحد ذاته، ولكن لسبب ما كان هناك شيء في هذا المنظر الكئيب أثار اهتمامي على نحو لا يمكن وصفه. في ما بعد، كثيراً ما كنتُ أعود إلى هناك كلما سنحت لي الفرصة لأسند خدي إلى عمود الباب وأنظر من خلال الفتحة. وحين كانت الريح تأتي من الصحراء في آهات جافة ساخنة كنتُ أتذكر باستمرار أحد المقاطع الأثيرة لديّ في «أعمدة الحكمة السبعة». وفيه يصف لورنس لقاءه الأول مع رائحة الخواء: الفضاء المفتوح حيث البدو، متحررين من عبء المُلكية والحضارة المادية، يعيشون مع الحقائق الوجودية وجهاً لوجه. الطبيعة في حالتها الأصلية الصافية، كما كانت يوم قسّم الله السماء والأرض ـ الشمس والنجوم فوق، والأرض تحت ـ حرة من كل ضجيج. كان الفضاء يوقظ في لورنس توقاً عميقاً إلى التغلب على ضآلته ذاتها، لمواجهة تحدي الفراغ بحركة جبارة، وإذا اقتضت الضرورة بعقد حلف مع الموت. فالمواطن الحديث في الغرب، الذي وقع حبيس شبكة من الواجبات الثقيلة والقواعد التافهة كما وقع غاليفر في الشبكة التي نسجها الأقزام حوله من خيوط العنكبوت، لم يعد يرى هذه الحقائق. ومن الجهة الأخرى كانت رؤية البدو الفلسفية رؤية صافية كالسماء في ليل الصحراء:

«أصحابي العرب كانوا يديرون ظهورهم على العطور والكماليات لاختيار الأشياء التي لم يكن للبشرية قسط أو دور فيها». وبرغم أن البدو أنفسهم لم يكونوا قادرين على التعبير عن ذلك بالكلمات فقد كان لورنس مقتنعاً بأنهم يشعرون، بالسليقة، بأنهم وحدهم يستطيعون أن يكونوا أحراراً بحق وبشراً بصدق بسبب وجودهم المتقشف في ذلك الفراغ.

مرَّ لورنس بهذه الخبرة التي تكاد تكون صوفية في شمال سوريا خلال زيارة لآثار رومانية على حافة الصحراء. فقد كان البدو يدلّونه من غرفة خربة إلى أخرى لما تخيلوا أنه قصر عربي. «هذا ياسمين، هذا بنفسج وورد»، لأنهم كانوا يعتقدون أن أميراً أراد تشييد القصر لزوجته من طين معجون بأنواع

مختلفة من رحيق الزهور. ولكن أخيراً جرني داحوم وقال: «تعال وشمَّ أحلى الروائح طرّاً»، فدخلنا المسكن الرئيسي، إلى ثغور النوافذ المفتوحة من واجهته الشرقية، وهناك ارتشفنا بأفواه المتبطل ريح الصحراء الخاوية، تمر نابضة بلا تيارات. النسمة البطيئة وُلدت في مكان ما وراء الفرات البعيد وجرَّت نفسها أياماً وليالي عديدة شاقّةً طريقها على العشب اليابس، إلى أول عائق يعترضها بأسوار قصرنا الخرب التي صنعها البشر. وحولها بدا أنها تتوجس وتمكث متمتمة بكلام الأطفال. «هذا»، قالوا لي، «هو الأحسن: إنه بلا مذاق».

بينما كنتُ غارقاً في هذه التأملات دخل رب البيت يرتدي الثوب الأبيض المعهود ويعتمر شماغاً ذا نقشة حمراء تحت عقال أسود. دعاني إلى الجلوس على الجانب الآخر من سرج جمل مكسو بجلد أحمر. نظرتُ بفضول إلى الرجل الجالس بجانبي. كان قصيراً تماماً ومربوعاً، وارتسم تعبير صارم على عينيه وحول فمه، وكانت لحيته الفاحمة تنتأ بعناد إلى الأمام. حين تكلم، كان كلامه مقتضباً، بحركات محسوبة. لم يكن ما يشع منه إحساساً بمتعة الحياة أو طرافة متألقة، بل قوة جهمة كأنه يداري الكثير من الأفكار المريرة التي لا يسمح له كبرياؤه بأن يبوح بها. سألني بلهجة جافة ما الذي جاء بي إلى عفيف ومَنْ وضعتُ نفسي تحت حمايته هناك. حين سمع اسم منيف، أمير الغنانيم، الذي أقمتُ خيمتي في مزرعة إبله، بدا وكأن أشد مخاوفه تأكدت له. أثارت سخريتَه حكايتي عن زيارة قمتُ بها في وقت سابق من ذلك الصيف إلى نفي، مقر شيوخ الربيعان وموطن الشاعر الكبير ابن سبَيِّل، أطلقت منه ضحكة ساخرة. ابن سبيل كان «خرّاطاً»، أخرق، نبّاحاً لم يذهب قط أبعد من نظم قصائد حب عرجاء. وعبد الله بن ربيعان، أتقول إنه شيخ كل الروقة التي تنتمي إلى عتيبة؟ قام بالحركة السعودية التي تشير إلى الازدراء: ودفع بلسانه الوردي شفته السفلى إلى المقدمة وقلب راحة يده اليمنى إلى أعلى بأصابع معقوفة قليلاً إلى الداخل ثم دفع راحته إلى الأمام باسطاً أصابعه كأنه يلقي شيئاً في المزبلة لأنه أقذر من أن يُلمس. قلتُ إن عبد الله بن ربيعان لم يكن قاصراً في شيء وكل ما في الأمر أن معرفة الشعر القبلي لم تكن أقوى صفاته. ولهذا السبب رحتُ أبحث عن أحفاد شليويح عازماً على ألاّ أستخدم إلا معلومات موثوقة من مصدر مرجعي. ولهذا السبب أُجِلتُ عليه. استرخى خالد وضحك موافقاً. كان ذلك صحيحاً ـ ابن ربيعان لم يعرف شيئاً عن القصائد، وكنتُ أنا محقاً تماماً ـ . بعد هذا الاختبار الذي أُخضعتُ له بقسوة نوعاً ما انكسر الجليد بيننا. سلمته الرسالة التي أعطاني إياها وكيل أمير منطقة الرياض. وبهيئة الموظف المدقق رفع خالد الورقة إلى الضوء لبعض الوقت، لكنه أخيراً نادى ابنه البكر، وهو صبي في المدرسة الثانوية، وقال بفظاظة: «اقرأ ما تقول!»، وفعل الفتى، ذاعناً، ما طُلب منه، ثم هز خالد رأسه. كان مستعداً ليقول لي ما يعرفه، ولكن بسبب حجم المادة المحفوظة في ذاكرته سيكون من الأفضل أن أغادر مزرعة إبل منيف وانتقل إلى بيته هو.

في ذلك المساء، أقام خالد مأدبة عشاء على شرفي. وكان من بين الضيوف منيف الذي تحادث خالد معه ودعاه بعد الصلاة في المسجد في عفيف. وظهر منيف، مثله مثل الرجال الآخرين، مرتدياً أحسن ملابسه: على ثوبه الأبيض ارتدى للمناسبة عباءة سوداء فاتحة من الحرير، موشاة بخيوط ذهبية مطرزة. تابع بقدْر من التململ كيف كان سيناريو خالد يتطور للأُمسية. اختار منيف مجلسه تقريباً في منتصف محيط الدائرة التي تقود بتراتب تنازلي حسب المكانة والسن إلى جمع من الفتيان يعتمرون الطاقيات عند الحائط البعيد من الباحة الأمامية. على رأس الحلقة جلس المضيف ثم جلستُ أنا ووجهاء القبيلة. واتخذ شاب مجلسه إلى يسار خالد، لمساعدته في مهمته. تابع الحاضرون بجدية وأنا أُعد الميكرفون وآلة التسجيل. الفتيان الجالسون في النهاية مالوا إلى الأمام وبدا واضحاً من النظرات الحادة في عيونهم السود المتألقة أنه ما من كلمة أو نأمة كانت تفوتهم. بدا الجميع مدركين تمام الإدراك أن الحدث المهيب على وشك أن يبدأ: إن باحثاً من بلاد بعيدة كُلِّف من الحكومة بتسجيل تاريخ قبيلتهم، وبالتالي إنقاذها من وهدة النسيان.

ضغطتُ على زر في الآلة وأشرتُ إلى أن الشريط أخذ يدور. تنحنح خالد وألقى تقديماً موجزاً، ثم أعطى الكلمة لمساعده، المثقف المحلي الذي جنده «مترجماً» لهذه الأمسية. كانت المادة الأولى في البرنامج مأثرة عتيبة في معركة طلال، بما في ذلك محاولتا شليويح السابقتان اللتان رفضهما مصلط بن ربيعان بوصفهما فاشلتين. بدأ الإلقاء. ولجزعي أدركتُ أن المترجم، وهو موظف في دائرة الضمان الاجتماعي، ترجم حكايات خالد مفسِّراً القصائد وكاتباً إياها بالعربية الفصحى. وبدلاً من لهجة عتيبة المثيرة التي يتكلمها خالد استخدم العربية المكتوبة: الذات اللغوية العليا التي تُبقي فكرة المصير العربي الواحد حية من الخليج إلى المحيط، وبالتالي ينطقها بهذا القدْر أو ذاك من التوفيق كل عربي يريد إضفاء مسحة رسمية على أقواله. ولعل خالداً فكر في أن هذه هي اللغة التي تعلمتُها، وأني لن أفهم حتى نصف لهجته وقد جئتُ لتأليف كتاب. فالكتب تؤلَّف بالعربية الفصحى وبالتالي من المناسب أن أُزوَّد بقطع جاهزة، وبهذه الطريقة سأنجز عملي في وقت أسرع. والأكثر من ذلك أنه يساعد على ترويج الحصيلة بين دفتي كتاب في الرياض بأقرب وقت ممكن، بما يعلي، بالطبع، من أمجاد عتيبة وشليويح وابن حفيده خالد. والحقيقة أنه من الهام، على النقيض من ذلك، دراسة لهجة القبيلة وتسجيل الحكايات والقصائد كما حدثت في البوادي، كما تُروى بصورة طبيعية لرجال القبيلة الآخرين في المناسبات اليومية، كانت شيئاً لم أتمكن من إقناع بدوي واحد به حتى نهاية رحلتي. وبنظر خالد كانت اللغة اليومية التي ينطق بها أفراد عتيبة ليست في محلها. ما يهم العالم والسلطات في الرياض هو «الشيمة». كل شيء سامٍ يمكن أن يُروى من النماذج التي اختارتها القبيلة بغية الاقتداء بها عن الشخصية النبيلة، الشهمة، المضيافة، الكريمة، الإسلامية، الوطنية، الأبية والبطولية.

بعد الفعالية دُعيت المجموعة الأولى من الضيوف، التي كانت على رأس الحلقة، إلى الداخل للجلوس حول مناسف ضخمة من الضأن والرز. ويقتضي الأتكيت ألاّ يأكل المضيف مع ضيوفه. فهو يطوف حولهم، مرحبا، يشجع الجميع على أكل المزيد، ويقطع بسكين مخيفة أكبر الكتل الرجراجة من اللحم

والشحم. الضيوف يتخذون وضع الهجوم، مشمّرين عن الساعد الأيمن مع إسناد الرسغ بارتخاء إلى الركبة اليمنى المرفوعة، بينما تتدلى اليد من على الركبة. ثم تُتلى عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» وتمتد الأيدي ـ في البداية بقدْر من الوجل كرجل بدأ يداعب بلوزة امرأة متظاهراً بالعبث على رسله بقلادتها ثم تنزلق يده تحت محزمها ويأخذ في تمسيد عمودها الفقري صاعداً نازلاً لجس درجة التجاوب أو الممانعة التي يمكن أن يتوقعها ـ. أولاً تغترف الأيدي من الرز ما يُحدث تجويفاً على حافة الطبق يحدد دائرة نفوذها، كالحُفر التي يصنعها المستجمون على رمال الشاطئ. يُملأ التجويف باللبن الرائب وحساء الخضار من السلطانيات الموضوعة حول الطبق على الأرض. الرجال يغمسون أصابعهم بعناية في الرز الساخن مطعَّماً باللوز والزبيب، ثم ينقضّون بكامل اليد. ومع المرق في التجويف يعجنون الرز، مستخدمين الإبهام، في كرة يرمونها بحركة سريعة من الرسغ إلى مؤخرة الحلق ويبتلعون اللقمة دفعة واحدة. في غضون ذلك، تراقب السواعد الستة أو السبعة حول المنسف بعضها بعضاً عن كثب. وكما في لعبة الإسراع ثم التمهل، يتمثل فن هذه اللعبة في الحفاظ على التوازن بالتمهل في الموقع حتى يعيل صبر أحد فينقضّ إلى الأمام بأقصى سرعة ثم يلحقه الباقون. ومع صمت المضغ ومصمصة الشفاه تتحسس الأنامل قطع اللحم، تسحب رقائق من الجلد وتداعب الشحم في الحواف. الحاضرون ينقضّون بقوة أشد على الخروف الذي يجثم مترجرجاً على قمة جبل الرز ـ وأخيراً تكون الأيدي طليقة في هجماتها ـ. مفاصل كاملة تتكسر. يدان يُمنيان تساعدان إحداهما الأخرى لتمزيق اللحم (اليد اليسرى تُستخدم فقط لتنظيف الشرج بعد التغوط واستخدامُها محرَّم في الأكل). تُقطّع الذبيحة بسكين جزار وتختفي أذرع إلى ما فوق الكوع عميقاً في جوف البطن والأحشاء ثم تعود ظافرة بكبد وكلى في قبضتها.

لم أتقن قط فن العجن في كرات ولكن عدا ذلك كل شيء يكون في خدمة الضيف الآتي من الخارج: من كل الجهات أيادٍ مشغولة ترمي بلا تكلف أطيب اللقم في التجويف الموضوع أمام الضيف. وفي هذه الحالة لا يلبث الضيف أن يجد نفسه في مأزق كبير إذا لم يتخذ جانب الحذر. فهو إما يلتهم الطعام للسيطرة على الكومة المتعاظمة من اللحوم أمامه أو يثير الشكوك بأنه يضمر تحفظات ذهنية وجسدية إزاء مضيفيه. ومهما حاولتُ إجبار نفسي على القيام بهذا الشيء، إلاّ أنني لم أتمكن من المهمة الأولى. مجرى عملية التسجيل أوقعني في محنة. كنتُ أشعر بالغثيان، وبصعوبة بالغة تمكنتُ من ابتلاع بعض اللقم الرمزية. وإلى جانب ذلك كانت تلك ذبيحتي السادسة من الخراف أو الماعز في غضون ثلاثة أيام، وهناك حدود لما يمكن للمعدة غير المتمرنة أن تستوعبه من الضيافة العربية. ولكن الاحتجاجات لا تجدي نفعاً. وفي نهاية رحلتي كانت العربية السعودية فقدت قطيعاً واحداً على الأقل من قطعانها، ذُبحت خرافه على شرفي، وحتى يومنا هذا لا أستطيع النظر إلى خروف في الحقل من دون شعور بالذنب نحو فصيلة الأغنام برمتها.

سمح خالد بأن أسكن في مزرعته الكائنة عبر الطريق طوال إقامتي، وأرسل معي الخادم ليريني الطريق في الظلام. ومن عربيته الركيكة عرفتُ أن اسمه شافي، وهو من بنغلاديش ويعمل صانع قهوة لدى خالد. لم يكن بَرِماً بحاله ولكنه كان بَرِماً لأن خالداً حمله على اعتمار الغترة (الكوفية) العربية خلال عمله. قدتُ «حمرة» بين الأشجار وتوقفتُ على بعد مئتي متر من الطريق. وهناك، تحت سقيفة في فضاء مفتوح بجنب كوخ الأدوات والعُدد، كان بمقدوري الدخول. أخيراً صار عندي سقف فوق رأسي!

اللازمة التي تتكرر باستمرار في أدب الرحلات في الجزيرة العربية، تتمثّل في الشكوى من غياب الحياة الخاصة. ويبدو أن الرحّالة البريطانيين، على الأخص، عانوا من ذلك أكثر مما عانوه بسبب الإنهاك والجوع والعطش والحرارة. والحق، أن العرب في الصحراء، والسعوديين عموماً، ليس لديهم، على ما يبدو، لحظة واحدة يختلون فيها مع أنفسهم، إلا بصحبة الزوجة. وكما في الأوساط الدبلوماسية، فإن الأشخاص أنفسهم من حيث الأساس يلتقون مساء إثر آخر لتناول التمر والشاي والقهوة والضأن وتبادل القيل والقال. وعند السعوديين يجري التخالط الاجتماعي بالدرجة الأساسية في حدود القبيلة أو العشيرة، ولكن بسبب الروابط الزوجية وغيرها من الأواصر هناك دائماً ضيوف من خارج هذه الدائرة. فالناس تتبادل دعوة بعضها بعضاً إلى بيوتها ـ على الغداء أو العشاء وفي أحيان كثيرة على الغداء والعشاء معاً ـ أو يقومون بالزيارة عصراً بعد صلاة الظهر. الذين ينزوون لقراءة كتاب على سبيل المثال، سرعان ما يُعَدُّون غريبي الأطوار.

لذا، نادراً ما كان بمقدوري التحادث مع أحد على انفراد. وإذا رتَّبتُ موعداً للمجيء والتسجيل كنتُ أجد المجلس عامراً على الدوام. لعل الذين كانوا مصادرَ معلوماتي كانوا يحسبون أنهم يرفّهون عني بهذه الطريقة، أو كانوا يريدون ضرب عصفورين بحجر من خلال إقامة وليمة في تكريم الغريب لتعزيز رصيدهم الاجتماعي بطريقة شائعة بين الدبلوماسيين. أو لعلهم وجدوا من المخيف أن أنفرد بهم بسبب المؤثرات الخطرة التي يُفترض أنها تنبعث من العيون الزرق. ومع ذلك، فإن الحياة الاجتماعية العربية التي عذَّبت لورنس كل ذلك العذاب هي أيضاً الأساس الذي لا غنى عنه للثقافة المنقولة شفاهاً، والتي كنت أريد دراستها. والحقيقة الكامنة بأن شعوراً كان ينتابني أحياناً بأني فنان مأجور جوال متنوع الأنشطة أو مرغم على مكابدة امتحان جمهور سادي يتلذذ باختبار معرفتي بلغته وثقافته، كانت شيئاً تعيَّن عليّ أن أسلّم به كجزء من الاتفاق.

بعد أن كلمتُ نفسي لطمأنتها على هذا النحو، استسلمتُ للنوم. أحياناً كان طائر يزعق في الليل البهيم بلا قمر. فتحتُ عيني ورأيتُ «درب التبانة» تتابع طريقها الغائم من ذنب العقرب إلى ذات الكرسي، وكانت البجعة الجبارة جامدة في طيرانها بلا حركة وسط الغبار النجمي.

منيف

في اليوم التالي قدتُ السيارة عبر الصحراء مع منيف. كانت لديه أنباء عظيمة. «الخامس طلع»، قال لي مقهقهاً. النجم الخامس من النجوم السبعة في الدب الكبير شوهد لتوه فوق الأفق في نهاية الليل. وكان ذلك يعني أنه في غضون 25 يوماً سيطلع «الوسمي»، أو انتشار نجوم سُهَيل والثريا والجوزاء: إنه الخريف العربي. وإذا كان هناك مطر غزير في تلك الفترة، وخاصة وقت ظهور الثريا، فإن عشب الصحراء والنباتات الحولية تبلغ ذروة تفتحها ويمكن للإبل أن ترعى في الحقول حتى قبل أن يبدأ الشتاء. أمطار الخريف ضرورية لأن أمطار الشتاء الوفيرة وحدها لا تكفي: في هذه الحالة يذبل العشب في شمس الربيع الحارة قبل أن يكتمل نموه.

«بنات نعش» هو المعنى الحرفي للاسم الذي أطلقه منيف على Ursa Major . والعتيبي موهق الغنامي الذي سأله الباحث الألماني هيس في القاهرة في مطلع القرن العشرين عن لغة قبيلته وثقافتها، كان يعرف كيف تحدث الأشياء. تأويله لم يعط تفسيراً للاسم فحسب، بل ولحركات الدب الكبير والدب الصغير عبر السماء أيضاً. قال له موهق إن الجَدي، كما يُسمى النجم القطبي، اعتدى على إحدى البنات السبع وقتل والدهن. ثم لجأ الجاني عند «الحويجزين»، وهما نجما الدب الصغير اللذان يتحركان جيئة وذهاباً فوق النجم القطبي الثابت. دفنت البنات والدهن ثم خضن معركة بنعشه للانتقام من الجَدي. وحين كن على وشك الإمساك بتلابيبه قال الجدي: «لستُ أنا المذنب بل سُهيل (النجم الذي يظهر مقابل النجم القطبي باتجاه الجنوب تقريباً)». فاستدارت البنات وتوجهن إلى سُهيل ولكنه نادى من بعيد، «يا بنات الليل، لستُ أنا المذنب، بل الجدي هو المذنب!». ومرة أخرى استدرن باتجاه الجدي ولكن «الحويجزين» اعترضا طريقهن وبذلك أنقذا دخيلهما. ومن واجب كل بدوي أن يقدم ضيافته للدخيل الذي يلجأ إلى خيمته، ويُفترض به أن يحميه من مطارديه مخاطراً بحياته إن اقتضت الحاجة. وإذا لم يفعل ذلك فإن حرمة الخيمة ستكون انتُهكت والشرف سيكون ثُلم. والبدوي من دون شرف كالفيل الجريح الذي يعزل نفسه عن القبيلة ليموت وحيداً.

قال لي منيف إن البدو يعيشون بين الأمل والخوف. وعلى امتداد ثلاثة «وسميات» لم تسقط قطرة مطر ونزح بدو أكثر فأكثر من الصحراء بسبب شح الكلأ. ولو تعين شراء كل علف الحيوانات ونقله، لفقدت حياة البداوة جاذبيتها بسرعة. والصامدون الذين كنا في طريقنا لزيارتهم تعين عليهم أن ينقلوا سبعة شوالات من الشعير يومياً لجمالهم السبعين، وذلك مصروف يزيد على 900 دولار[4] في الشهر، يضاف إليه 200 دولار أخرى شهرياً لعلف أغنامهم. ولكن تربية الغنم نشاط مربح برغم ذلك. الإبل لا تدر شيئاً سوى الخسارة. أما الغنم فهي شر لا بد منه للبدوي. الجمال تمنحه مكانة، ومنظر الإبل كيفما خُلقت يملأ، وحده، قلبه اعتزازاً وفرحاً.

خلال الرحلة كشف لي منيف كيف نشأ فرع الروقة الرئيسي من عتيبة. وقد وصف ادعاء خالد بأنه شيخ كل ذوي عطية بأنه هراء مطلَق. إذ كان خالد أمير عزبة العبلاء، أي أمير مبانيه ومباني عائلة سعودية أخرى، ولا شيء سوى ذلك. وهو لم يكن حتى شيخ عشيرته المهادلة. فشيخها شقيقه الأكبر تركي الذي يعمل شمالاً مع «المجاهدين»: في العربية السعودية لا تطلق التسمية على المقاتلين المسلمين بل على نوع من الدفاع المدني يقوم أفراده بأعمال الدورية نهاراً وليلاً على امتداد أنبوب النفط بين الخليج والبحر الأحمر.

«عليه أن يحذر»، قال منيف دافعاً سيارته اللاندكروزر على الأخدود العميق في الرمال. «إن وزارة الإعلام لن تسمح له أبداً بأن يسمي نفسه شيخ ذوي عطية في كتاب. والأكثر من ذلك أنه يخاطر بالاختفاء في السجن بسبب تبجحاته. انظر»، وأخرج بطاقة هوية من جيب الصدر في ثوبه. «مكتوب هنا أني أمير الغنانيم في عفيف والمنطقة المحيطة». «وهنا» مؤشراً بإصبعه، «هذا ختم منطقة الرياض. خالد ليست له سلطة علينا».

اعترضتُ قائلاً، «لكنه يروي حكايات رائعة، أليس كذلك؟» «هذا ما يهمني وليس أن اعرف مَنْ هو شيخ مَنْ بين عتيبة». وأدركتُ ببطء أني نفسي قد أتحول فتيلاً حياً إذا ما أجج بحثي النار الخامدة للصراع بين الشيوخ. عفيف كانت متجر خزف يجب أن أمشي فيه باحتراس، على قدميَّ المكسوتين بجوارب طويلة. ولمصلحتي يجب أن أتظاهر بالبراءة السياسية والتشبث بالرواية القائلة إن أبياتي لا تمت بصلة إلى واقع اليوم. كنتُ أتقافز وأتراكض بحثاً عن فراشاتي الساحرة، وهذا كل ما في الأمر.

بدأتُ لاشعورياً أتعاطف مع السلطات في الرياض التي عليها أن تتحمل من قبائلها المشاكسة ما لا يمكن أن يتصوره أي أجنبي. والآن أيضاً فهمتُ الابتسامة المشفقة في نصفها والمتقبلة في نصفها الآخر، التي كان المسؤولون يستمعون بها إلى تحمسي الرومانسي للبدو في مكاتب المدينة. فإن كلمة «بدو» كان لها وقع اللعنة على أسماع الوزراء والموظفين الذين يضطلعون بمهمة لا يريدون عليها جزاء ولا شكوراً، وهي مهمة التوسط في النزاعات التي لا تنتهي بين القبائل والشيوخ. ولكن هذا الفهم لم يأتني إلا في وقت متأخر جداً. وأحسبُ أن المصلحين العرب، أصحاب الرؤية ـ من الرسول محمد إلى وزير الصناعة السعودي اليوم ـ ربما كانوا يتطلعون إلى هدف واحد هو تحرير البدو من الحلقة المفرغة للعصبية القبلية، من الصراع الأبدي على التفوق بين القبائل والعشائر والبيوت والشيوخ، من النزاع الذي لا معنى له على الآبار قبل أن يبدأ توثيق الحقوق في سجلات، من الحسد المتبادل الذي

يعتمل في صدور مسكونة بهاجس «الشرف»، من احتقار العمل اليدوي وعدم الاكتراث بدينامية التقدم، من هدر الوقت في جدالات عقيمة حول الحَسَب والنَّسَب وخلافات حول أحداث غابرة في القِدَم يحاولون بها قلب الميزان لصالح هذا الشخص أو ذاك أو ضده، ومن ازدرائهم المشترك لكل ما هو ليس بدوياً.

السلطات تفعل ما في وسعها مستعينة بالمال والإسلام، وبمهرجانات فولكلورية تجمع الوفود من سائر أنحاء البلاد للمشاركة معاً في قرع الطبول ونفخ المزامير والرقص بالسيوف: الماضي مُعَدّ بأمان ومعروض في واجهات لتلاميذ المدارس، أو في كرة القدم بديلاً عن الحرب القبلية بتشجيع من وزارة شؤون الشباب ووزيرها النجل الأكبر للملك فهد. ففي العربية السعودية تمضي التربية الوطنية والثقافة وكرة القدم متساوقة كما يتضح من أنطولوجيا قصائد كروية جمعتها الوزارة. خذوا هذه المقاطع الثلاثة من قصيدة طويلة بعنوان «يا فريق العز»: الفريق اللي تحقق مطلبه

واثق بالله محد يغلبه
كنه الصاروخ محدٍّ يقربه
اذكر الله عن عيون الحاسدين

يا شباب المملكة نور الحياة
انتم الأبطال في كل الجهات
والسعودية تسوّي المعجزات
واحدن منا يقابل اربعين

يا فريق ما ظهر مثله فريق
بالحزم والعزم والعلم الوثيق
والثقة بالنفس تجعل لك طريق
والديانة رأس مال الصالحين

منيف كان مستعداً للاعتراف بأن خالداً راوية جيد. ولكنه «يزيِّن» الحكايات: يضخّمها ويضيف صنوفاً شتى من الأشياء التي تناسب غرضه. وحذّرني منيف قائلاً إني لا يمكن أن أثق إلا بالقصائد وحدها لأنها منظومة على نحو لا يتغير بالوزن والقافية. ولو عبث خالد بها فسيُفتضح أمره في الحال. كان منيف يقصد أن الذاكرة الجمعية للقبيلة توفر ضمانة ضد إساءة استعمال التراث الشعري. فالقصائد كالنوى في التمر تكمن صلبة بحقيقتها في رداء الحكايات الزائل.

4. بسعر صرف الدولار في خريف 2000.

صلاة

بخلاف الرياض، لم أتمكن قط من ضبط سعودي في الأقاليم يهمل فروضه الدينية. ولا حتى خالد نفسه. أحياناً كان يتركني أنتظر وهو يركع على بعد خطوات مني صوب الكعبة. واعترف الرئيس بوش (الأب) ذات مرة لجمع من المعمدانيين، بأنه لم يتحرر من خجل الظهور مصلياً في العَلَن ولم يعد يأبه بنظرات الآخرين وهو مستغرق في صلاة حارة، إلا بعد حرب الخليج. المسلمون لا يعانون من مثل هذا التحرج. والحق، أن خالداً كان يحب أن يُصوَّر راكعاً، وراحتا يديه مبسوطتان في الدعاء لله.

كانت النتيجة أني، المُشاهد، مَنْ شعر بكوني غريباً خارج المكان. وقد عشتُ لحظاتي من الوحدة الأشد وطأة ليس بمفردي تماماً في الصحراء ولكن بين السعوديين وقت الصلاة. لم يكن الأمر سيئاً للغاية في المدن والقرى. فهناك كنتُ أوضَع بعهدة فتيان يبقون في المجلس حين يغادر الرجال للصلاة في مسجد قريب. ولكن في الصحراء كانت الصلاة تقام تحت أنفي. معرفتي باللغة، كوفيتي وثوبي لم تعد ذات نفع لي حينذاك. فلقد كان الرجال يقفون لأداء الصلاة وأنا أراقبهم ولكني لم أستطع التخلص من الإحساس بكوني نشازاً.

في المساء الأول عند خالد، وقف الرجال في صف طويل، على بعد خطوات وراء المطوع الذي يؤم الصلاة بوصفه خيرهم إعداداً في الدين. ومن موقعي على جانب الصف تفتَّح أمامي مشهد مؤثر: ذلك البساط الطويل تحت سماء مرصعة بالنجوم والظهور المنحنية بخشوع صوب الكعبة. كان للمطوع صوت لطيف وجَوَّد آيات من القرآن تجويداً شجياً ـ لم يفرط في التلفظ الأنفي بل ما يكفي لإثارة شعور غريب بالتنسك وقدْر من الرهبة ـ كما لو أن المطوع كان يجوّد لي قائلا: إذا رفضتَ فذنبك على جنبك، أو كلمات بهذا المعنى.

في نهاية الخطبة ظل جالساً في مكان الإمام بزاوية تسعين درجة نحوي: ذراع تستند إلى الوسادة وفي يده الأخرى سُبحة، ونظرة روحانية تتوهج برفق في عينيه. في غضون ذلك تمتم أحاديث وآيات من القرآن بصوت خافت مع نفسه. سمعته يهمهم «ربنا اغفر لنا»، كأنه يطلب الصفح عن النجاسة والرجس اللذين حملهما معهم كفّار مثلي.

وراءه، كان صف الرجال يؤدي الشعائر الأخيرة. ردَّدوا الدعوات المطلوبة وأداروا وجوههم ذات اليمين وذات الشمال وركعوا مرات أُخرى ودفعوا أجسادهم بأصابع أقدامهم العارية وضغطوا جباههم بقوة على الأرض. بهذه الطريقة تظهر الندبة أو سيماؤهم من أثر السجود التي يتعرف بها الله إلى المسلمين كما يتعرف العاشق إلى حبيبته بعلامة فارقة في جيدها. السعوديون الأكبر سناً يحرصون، كقضية شرف، على إبداء الخشونة التي أوصى بها الخليفة عمر بالمشي أطول فترة ممكنة بعد الصلاة مع ذرّات من الرمل عالقة على الجبين من أداء الصلاة على جانب الطريق.

تكرر الشيء نفسه مع البدو الذين يعيشون في عمق الصحراء. شرح لي منيف بحذر المخاطر التي أتعرض لها مع خالد، حين كنا في طريقنا إلى بئر الشبرومية؛ المكان الذي وُلد فيه قبل قرن موهق الغنامي. موهق نفسه مصوَّر بضفائر طويلة على صفحات كتاب هيس، وأثارت صورته ضجة بين الغنانيم في الرياض حتى أن منيفاً دعاني إلى عفيف. ولكن باستثناء أحجار قليلة اختفت بين الرمال وأعشاب سهلية جافة، لم يكن هناك ما يُرى في البئر المطمورة. لقد كانت تلك حقاً الأطلال التي غنت عنها المطربة المصرية أم كلثوم بكل جوارحها والتي ذرف الشعراء العرب دموعاً ساخنة عليها طوال حوالى ألفي عام. ولكن للمؤمن الصالح لا يوجد شيء بلا معنى أو بلا جدوى، وبالتالي لا مكان عندهم للنواح.

على بعد مسافة قصيرة كانت مضارب الغنانيم. وفي ظل خيمة احتسينا الشاي مع شيخ المضارب: رجل ذي لحية بيضاء وشيء لم أره من قبل هو عصبة من الكتان مربوطة حول كوفيته. كانت تلك علامة انتمائه إلى «الإخوان»؛ جماعة البدو الدينية التي وحَّد عبد العزيز، بواسطتها، مملكته بالسيف. كان الشيخ شارك في حملة واحدة فقط من الحملات الأخيرة هي حملة ولي العهد ثم الملك سعود ضد إمام اليمن. أبناء الشيخ دعونا إلى ذبيحة، وليمة العرب من لحم الضأن. في ذلك المساء راقبتُ مرة أخرى اصطفاف الرجال للصلاة. وبعد عشرين دقيقة كانوا يقتربون من نهاية الصلاة حين تعرض أحد الجمال التي كانت تنظر بفضول خارج دائرة الضوء المنبعث من مصباح الغاز، إلى ركلة من أحد أقرانه فجفل وانطلق راغياً. لقد قوطعت الصلاة، وعلى هتافات التكبير جرى حض الخدم السودانيين على مطاردة البعير ولجمه. وما إن أُعيد الهدوء وأُكمل ما تبقى من الصلاة، بدأ الإمام خطبة طويلة. وبينما كان يلقي خطبته نظرتُ باتجاه الخيم. وهناك بعيداً عن ضوء المصباح، لمحتُ ظلال نساء يتحركن رائحات غاديات. لا ريب في أنهن كن يقمن بالتحضيرات الأخيرة للذبيحة. سيدة بدينة بصفة خاصة ترتدي ثوباً أحمر مع شقين للعينين في نقابها الأسود، غامرت بالاقتراب قليلاً في اتجاهي متعللة بالتقاط شيء ما. ومما بدا كان الرجال يؤدون فروض الدين باسم النساء أيضاً. والصبيان الذين، كالعادة، أحاطوني بصحبتهم، اصطفوا أيضاً وراء الرجال في نهاية الصلاة لتقليد حركات الكبار كأنهم قرود صغيرة. ولكنهم عادوا خلال الخطبة. «لماذا لا تصلي؟». أرادوا أن يعرفوا. ورسم جوابي بأني لستُ مسلماً وأن هناك قلة من معتنقي الإسلام في بلدي، تعبيراً عن الدهشة البالغة على وجوههم.

أنقذني من مواصلة النقاش اللاهوتي، الجَديُ الذي جيء به على طبق معدني ذي قعر مدور عريض. والرز الذي جثم عليه الجَدي كان منقوعاً على نحو سخي بلبن الإبل. منيف يحلف بنعمة لبن الإبل أن يكون الفطور منه أيضاً. وكل صباح خلال إقامتي في مزرعته المخصصة لتربية الإبل كان يأتيني بوعاء من اللبن الدافئ برغوته من ناقته البيضاء الأثيرة «روزا». وكان يقول مشجعاً إنه «بيرم» أمعاءك، وهو جيد لتنظيفها لدى قضاء الحاجة.

الرجال أكلوا أولاً. وما إن فرغنا حتى جاء أبناء المضيف بعلب من مسحوق التنظيف وإبريق ماء وقطعة قماش لتمكين الضيوف من غسل الدهن عن أيديهم. وإذ تربعوا على البساط لاحتساء الشاي أو القهوة، احتل أماكنهم حول الطبق الصغار الذين انقضّوا على بقايا الجدي والرز ولبن الإبل الذي برد الآن وتخثَّر. ما أكلته النساء ذلك المساء لا علم لي به. وبحسب مصادر موثوقة، يُسمح لهن ولبناتهن والكلاب بأكل الفتات وقضم العظام. وتذكرتُ جواب منيف حين سألته عما يفعله الرجل حين يكتفي من المرأة: «بسيطة جداً»، قال منيف، « يدعو الرجل زوجته ويقول بوجهها «تراك طالق، ثم طالق، ثم طالق، والثلاث صَرْم، يالله روحي أهلك». ثم يزور القاضي الإسلامي ويقول له ما فعل فيعطيه ورقة تقول إن عقد الزواج قد فُسخ.

المزرعة

كان خالد يأخذ قيلولته حينما عدتُ إلى المزرعة؛ واحة سلامي. وفي عربة صغيرة بجانبي استلقى فقيه الله، وهو عامل زراعي باكستاني عجوز. وعلى ركبتيه أمسك آلة التسجيل التي أستخدمُها. لم يتقن فن القراءة والكتابة. وبالطبع كان يستطيع أن يملي رسالة على شخص من مواطني بلده يعرف القراءة والكتابة، ولكن في هذه الحالة سيتعين أن يُبقي الكثير من أفكاره الحميمة مكبوتة في صدره. أعطيته، بطلب منه، شريطاً، والآن يستطيع أن يبوح بكل شيء يعتمل داخله في رسالة منطوقة إلى أعزائه وأحبائه في باكستان. أخذ يتكلم حوالى ساعة من دون توقف بنبرة خفيضة شاكية. كنا، أنا وفقيه الله، آمنين هنا. قلعة خالد على الجانب الآخر من الطريق كانت متوارية عن الأنظار وراء سياج سميك من أشجار الطرفاء التي تحيط بالموقع كله. كان الذباب يطن في دفء العصر الراكد، وخلفنا كان الصوت المهدهد يأتي متقطعاً من ماكنة تدير حزام مضخة الماء. كان ماء الأرض الذي يُضَخ يُنقَل بواسطة أنبوب ويُجمع في خزان إسمنتي مفتوح. ومن خلال فتحة في القعر كان يجري عبر شبكة من القنوات إلى فسائل النخيل وحقول البرسيم.

كان الخزان في أعلى قسم من الموقع لينتشر الماء عبر القنوات إلى كل أنحاء المزرعة. ولكن إذا تسلق المرء على حافة الخزان يستطيع أن يرى أن المساحة المزروعة أقل من نصف كيلومتر مربع. وعلى مسافة أبعد، وراء سياج أشجار الطرفاء، على الجهة الغربية من المربع، كانت الصحراء ترتفع تدريجياً. وعلى المدى كانت جبال أجله المخروطية ما زالت بارزة فوق الأفق بأصابعها المدببة.

لم تكن الضيعة نجاحاً زراعياً. فهذا الجزء من نجد أرض رعي مثالية لقطعان البدو. وهنا تنمو نباتات ملحية تعشقها الجمال وتمنح اللبن نكهته وثروته من المغذيات. ولكن ماء التربة المالح لا يصلح للزراعة. وكل يوم أو نحو ذلك كان على فقيه الله أن يزيل حفنات كاملة من الملح عن المضخة.

حين تجف القنوات كان الماء يُترك راسباً أبيض. وكانت أشجار النخيل تبقى مغزلية ناحلة تواجه صعوبة في البقاء. وكانت غلة البرسيم تقل من عام إلى آخر. ما كان ينمو هناك الآن ليس أكثر من أجمة تنبثق أحياناً من الأرض المعجونة بالملح. لم تكن لدى فقيه الله أوهام. وكثيراً ما قال لخالد إن المزرعة لن يُكتب لها النجاح، مهما حاول. ولكن خالداً ما كان ليسمع شيئاً من هذا. فالأمراء والوجهاء في الرياض كلهم سادة مزارعون في أوقات فراغهم. وجنينة ترفيهية خضراء بين الكثبان ضرورية هذه الأيام ضرورةَ صقور القنص والخيول العربية الأصيلة والجمال كريمة النَّسَب وغيرها من سمات السطوة والعروبة الحقيقية. وكرامة خالد ومطامحه، كشيخ، كانت تتطلب أن يملك مزرعة ذات سمعة بصرف النظر عن التضحيات المالية. وإذا كانت الطبيعة لا تريد التعاون فهي الخاسرة.

«هل تشعر بأنك مسلم أم بدوي؟»؛ هذا ليس سؤالاً تستطيع التحادث حوله مع السعوديين. لعل السؤال ممكن، ولكن التفكير فيه جارح. والفجوة المحرجة بين السؤال والتفكير يملأها جواب نمطي. فقد تعلم السعوديون أن يضعوا الإسلام أولاً بلا تردد، ثم المحاجة بعدم وجود تناقض على الإطلاق مع ثقافتهم وعاداتهم القبلية. والحق، أن الإسلام والكبرياء القبلي سمتان ترفدان إحداهما الأخرى، كما يشعر السعوديون. وخالد، على سبيل المثال، يحتضن وجهة نظر رجولية أقرب إلى القول «الماسة خام والقلب من ذهب». ويُنسب قول «اخشوشنوا فالنعمة لا تدوم» إلى الخليفة الثاني عمر المعروف بزهده وتواضعه، والذي كان خالد مولعاً بالاستشهاد به. وحين قلتُ إني أسترشد بالمبدأ نفسه وبالتالي أفضِّل المبيت في العراء، هز خالد رأسه موافقاً ثم زمجر «الخشونة هي أحب شيء إليّ. الخشونة وفظاظة البدو لا النعومة ورهافة الحضر». وعلى غرار كلمة «النعمة» في قول عمر، فإن لكلمة «النعومة» صنوفاً شتى من المعاني الأخرى عند البدو ـ رخو، أملس، طري ـ وكلها يمكن أن تشير إلى بشرة امرأة شابة وسطح أوراق وأغصان نضرة. ونِعم الله هذه متاحة للقطاف شريطة أن يُبقي الرجل مُتَعَه تحت سيطرة إرادته. وكالجندي الإسبارطي يجب أن يكون المرء جاهزاً في أي لحظة للتحرر من إسار الترف واستئناف وجوده الخشن. الفيء، الخيمة، القمر، النسمة، المرأة؛ كل هذه الأشياء الرائعة ليست إلا مقدمات لما سيأتي لاحقاً. والرجل الذي يريد أن يثير إعجاب أقرانه من رجال القبيلة، والنساء، يبدي احتقاره لهذا الترف. فحياته تحدث في الفلاة المفتوحة، تحت الشمس اللاهبة بين رجال ينازلونه.

يقوم عالم البدو الفلسفي، مثله مثل عالم المسلمين السعوديين، على النقائض. فالظلال واللون النصفي (نصف تون) وتدرُّج الضوء ـ المنطقة الرمادية بين الحقائق المطلقة ونقيضها ـ لا وجود لها عندهم. ولكن الحال أن عواطف السعوديين في المنطقة المعتدلة بين الأسود والأبيض لا تقل في أحيان كثيرة عن عواطفنا نحن. والفارق أن مواقف مثل الشك أو السوداوية أو النكد ليست محبَّذة في الجزيرة العربية.

الشك لا يشير إلا إلى ضعف أخلاقي أو فكري. وإذا شرحت لسعودي أن الشك لا يتعين أن يكون أكثر من موقف وسطي محايد إلى أن تتوافر مبررات معقولة للميل إلى هذا الرأي وليس ذاك، فسيكون هناك احتمالان: فإنه من وجهة نظر إسلامية سيعدّك جاهلاً أو زنديقاً، تتربص بالإسلام عن سابق إصرار، أو أنه سيحتقرك، من وجهة نظر أخلاقه البدوية، بوصفك شخصية مائعة، جباناً من النوع الذي لا يريد أحد أن يزوِّجه بناته.

وهم لا يقيمون أي اعتبار للمحاجة القائلة إنه من دون شك لَمَا توصل كوبرنيكوس إلى أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس. ولعبة السؤال والجواب؛ حوار سقراط، لا تُعرف في الجزيرة العربية إلا بوصفها طريقة لانتزاع المعلومات من المسافرين أو التحقيق مع السجناء أو فتح عيون غير المسلمين على ضلالهم.

وحقيقةُ أنه لا يُفترض بالبدوي أن يعرف الشك، لا تعني أن من المتوقع أن يتوجه إلى العمل بتهور ـ بل على العكس فالرجل الحقيقي لا يقْدِم على عمل كبير من دون إمعان التفكير مع نفسه ومع رجال قبيلته ـ . ولكن ما إن يُتخذ القرار وتُرسم خطة العمل، فإن التنفيذ يجب أن يكون حازماً، بلا رحمة إذا اقتضت الحاجة. وفي هذا يميز الإنسان نفسه عن «الجاهل»؛ وهي كلمة تفيد في الجزيرة العربية أيضاً معنى الفتى الغر الذي يوقع نفسه والآخرين في متاعب بسبب طيشه واندفاعه الأعمى.

كان خالد، بالأقوال والأفعال، يحرص دائماً على اتّباع الصورة المثالية التي يُمثِّل البدو بها في القصائد والقصص التي رواها أجدادهم والتي رُويت عن أجدادهم. فذات صباح وجدته جالساً في الشرفة بصحبة رجل آخر من قبيلته كان يومئ بحرارة أثناء الكلام. كان الزائر يصرخ مهدداً بقتل فلان، بنحره، باختصار سيكون مسؤولاً عن كارثة ما لم يساعده خالد في رفع الظلم الذي لحق به. وبين حين وآخر كان الزائر يقبِّل يده هو ثم يكاد يُمسِّد بها لحية خالد، مناشداً طوال الوقت باسم شليويح وغيره من الأجداد. كان خالد يستمع إليه بصمت وعدم مبالاة في الظاهر. وأخيراً كبح فجأة جماح زائره بإعلان مقتضب قال فيه إنه سيبحث القضية بعد يوم الجمعة في «إمارة عفيف»، أي ما يوازي في السعودية مجلس البلدية.

في ما بعد أوضح لي خالد أن الشيخ يفرض احترام الآخرين له بالصمت؛ بصمته المهيب. إذ يُعتبر الصمت دليل ذكاء وفهم ألغاز الدنيا. وإذا بُحثت أمور ذات شأن عظيم يوماً في المجلس، فإن الشيخ، المسؤول عن قيادة قبيلته في أوقات الشدة، يثبت نفسه رجلاً قليل الكلام. إنه يستمع وكوعه على المسند فيما تداعب أصابعه حبات السبحة مستغرقاً في تفكير عميق. الكل يفهم أن الشيخ «يفتّل ويبرم»، أي أنه يعقد حبلاً فكرياً. وبهذه الطريقة يتوصل إلى قرار لا رجعة فيه بمعونة الفهم الصحيح. فهؤلاء رجال شامخون كالجبال الراسخة في الأرض، صخور من الثبات والقوة بين عامة الناس.

الوسم

خالد ليس شاعراً لكنه سياسي صحراوي طموح. وليس هو بدوياً بمعنى الشخص الذي يعيش حياة ترحال مع قطيعه. البيت الذي يسكنه شيده والده مشعان. كما أنه ورث المال من أبيه. وخالد لا يحتاج إلى إبل لكسب رزقه منها. فهي رمز للمكانة شأنها شأن المزرعة. وجميع إبله أصيلة، ولونها ـ نصف القطيع مجاهيم والنصف الآخر مغاتير ـ يمنحها قيمة أكبر على صعيد السمعة. يكفي أنها موجودة: تذكير حي بمآثر أجداده الذين كانوا يسرقون الأباعر، ودليل على تمسك خالد بجذوره في عالم البداوة.

تُساق النوق إلى الصحراء كل صباح. وهناك ترعى على التبن تحت أنظار راع سوداني يلاحق الدواب متخبطاً بسيارة بك آب مغلقة من طراز نيسان هيلكس. ومع اقتراب ساعة الغروب تعود بنفسها في طابور طويل تتقدمها قائدتها للمبيت داخل السياج وراء البيت. وخلال موسم «الهداد»؛ أو التزاوج الذي يبدأ في منتصف الخريف، تتخلف الذكور باقية في حظائرها المنفصلة؛ حظيرة للمجاهيم وأخرى لقرة عين خالد؛ الفحل الأبيض عليان، الذي كان هدية من أمير سعودي. وهو يشير للضيوف إلى وسم العائلة الملكية على فخذ عليان. أما وسمُه هو ـ خالد ـ فيوجد على الرقبة الطويلة: الخطان الشاقوليان لذوي عطية، فرع عشيرته من الروقة، يعادلان لوحة الرقم الوطني على سيارة. فإن المالك يكون معلوماً من لوحة الرقم، بمثابة «الشاهد»، وفي حالة خالد، شكل صولجان موسوم بين الخطين العموديين في وبر الرقبة.

ومثل الهوية والمكانة الاجتماعية كلها، ورث خالد «شاهده» من أبي جده شليويح. وكانت أُعطيت لهذا الأخير بدوره آية اعتراف من خصم سلبه. وذات مساء، في بيت حميه، وهو شيخ من شيوخ السلسة؛ إحدى عشائر ذوي عطية، كشف لي خالد مسلسل الأحداث: في إحدى غزواته سرق شليويح قطيعاً من الجمال من قحطان؛ أعداء عتيبة التقليديين. وقال خالد إن «شليويح المجاهيم قسّمها على القوم والعِفْر خذها عزل. يوم جا على رأس الحول وهو قاطن على عدّ الغثمة، الغثمة في وادي الجرير غرب شمال عفيف. وجا على الحول وإليا راع الذلول جايٍ يسوق لين نوخ عقب صلاة العصر عند نحر بيت شليويح. ضيّفه شليويح وبات عنده، ما تعلّمه ولا خذ منّه. يوم أصبح قال، يا شليويح، أنا ضفتك البارح واكرمتني ولا قصّرت ولا خذت علومي. قال، الله يحيّيك على البطا ولاّ على السِرْع. قال أنا قاسى المدلا القحطاني راع الإبل المعطّن هاذي المغاتير. قال، الله يحيّيك يا المدلا من حين سِرت لان جيت واللزوم اللي جيت بها إبشر بها وأباعرك قم استقها من تاليها من المعطان. قال، أنا ما جيت أدوّر أباعري يا ولد ماعز. أباعري أخذتها على وضح النقا، اسلافٍ بيننا وبينكم، تاخذونها منا ونردّ علاكم. ولا جيت أدوّر أباعري، أنا جيت للزومٍ بسيط أباك تتمّها لي. قال له، تمّ.

قال، أنا جيت للباكور اللي على رقابها، الباكور إنك تخلّيه على رقابها شاهدٍ لك دايم. قال له، تمّ.

ومن هاك الحين، من حين أخذ أباعر المدلا لهذا التاريخ وهو وسم لشليويح، الباكور بين المطرقين العطاوي على مدق الرقبة من يسار، وسمي أنا هالحين آسمها على أباعري، الله، الله. وترك وسم ابوه السابق ووسم ماعز تركه شاهدٍ بين المطرقين العطاوي، واحد على الخد وواحد على مجلّ الرقبة والباكور بين المطرقين على مدق الرقبة من اليسار».

كان خالد في مزاج رائق ذلك المساء. الليل مخملي وجمهوره نذر نفسه له مسبقاً. وإذ تحرر بضع ساعات من الهموم التي تقترن بموقعه شيخاً قبلياً ومن الأفكار المريرة إزاء دسائس أعدائه، راح خالد يتغنى بالماضي التليد. دارت مبْخَرة فيها جمرات من خشب الصندل لوضع الخطيب والجمهور في الجو المناسب. خطف خالد المبخرة بيده اليمنى ودفعها تحت إبطه، وبيده الأخرى سحب أطراف كوفيته حول المبخرة كالخيمة غامراً شعره ورأسه وجذعه بالدخان. ثم غمس لحيته ـ مربع من لحية مشذبة عُثنونية مصبوغة بالاسود تنتأ مائلة من نهاية حنكه ـ مدة طويلة في المبخرة. شَعْر السعوديين يبقى دائماً مخفياً تحت طاقية بيضاء تغطيها الكوفية التي تُثبَّت بدورها بعقال أسود ذي إطارين. لقد تحول زهو الرجل إلى اللحية. وإذا قمنا بزيارة إلى مكان ما، كان خالد دائماً يمرر المشط على لحيته قبل الدخول ـ تماماً كما يمشط بعض الرجال في أوروبا شعر رأسهم الدهني لتعديله بحركات سريعة برغم أن كل شعرة مصففة في مكانها بكل أناقة ـ .

بعد هذه التحضيرات كان خالد جاهزاً ليقول لنا مرة أخرى ما سمعه من والده مشعان الذي، بدوره، تلقاه من جده فاجر. وتروي الحكاية كيف تحرر الجد الأكبر شليويح من أصوله المتواضعة، وحقق «بذراعه» موقعاً بين أريستوقراطية البدو. ماعز، والد شليويح، كان من مشاة الصحراء ويسميه رجال قبيلته باحتقار «بوبح»، التي تعني مَنْ ينظف نفسه بالرمل بعد قضاء حاجته. ولكن مصيراً آخر كان ينتظر ابنه الكدود. فإن شليويح لم يعرف راحة البال حتى وهو صبي، وذات يوم في إحدى رحلاته المتفردة، وجد رجلاً وامرأة يغطان في النوم بجانب جمليهما. قتل الرجل الذي كان عبداً أسود بخنجره وسمح للمرأة التي بدأت تفيق من نومها بالعودة على بعيرها إلى والدها «الهرْف» من قبيلة حرب. وبعد هذه البداية الواعدة قرر شليويح أنه خُلق ليعيش حياة سلب مستقلة. ولم يعد يقتنع بحصة من الغنيمة كتابع لشيخي الروقة الكبيرين سلطان ومصلط بن ربيعان. كلا، لقد تخلى عن العمل المأجور وبدأ مشروعه الصغير الخاص به. وكما هي حال جميع أصحاب الاستثمارات الشباب، فقد كانت مشكلته الأولى كيفية كسب الزبائن من منافسين عريقين.

وعندما أعلن شليويح مقاصده في بداية موسم الغزوات في الربيع ضحكت القبائل عليه وتركته وحيداً مع جمل السباق الذي غنمه من حرب. إذ لم يكن أحد يحلم بالاستعاضة عن فرص الغنائم الوفيرة مع آل ربيعان بالآفاق المجهولة للبطل الشاب. وقد حاول شليويح الذي شعر بالمرارة أن يرفع معنويات بعيره بالقصيدة التالية: حلفت أنا يا فاطر لأرذيك

علْمٍ ما هو بعلوم هرج المزوحى
أَزريت لا ألقي لك خوي يباريك
كلٍ يقول مع الجماعة نُروحى
يا زين مع خطو السليله تِمِدْريك
تمدري اللي عند ابوها طَموحى
والله لتوحين المودّه بأذانيك
ليا قام يَنْدَه كل وضحا طفوحى
وأني لأخلّي لك عباتي تجاريك
وأضوي ولو صكّت عليّ النبوحى

بعد أن أثبت شليويح براعته، اختبر القدَر صلابة شخصيته. وفي مناسبة لاحقة لم يجد عناء في العثور على متطوعين. ولكن المشكلة أن بين المتطوعين شخصاً يدعى داعول، وهو رجل بائس ومصدر متاعب سيئ الصيت معروف بأنه يجلب النحس. وكان أفراد عصابة شليويح خيّروه إما يرحل داعول ويغادرهم أو أنهم باقون في ديارهم: «قالوا القوم كلهم بفم واحد، يا شليويح اختر فينا وفي داعول، ما يروح معنا داعول». ولكن شليويح أعلن أن لا وقت لديه لـ«الشرك»: «قال، هذا شرك والشرك ما له في قلبي محل. هذا شرك وداعول ما يرجع إلاّ ترجعون كلكم». وبرغم أن ثلاثة أرباع المحاربين أصروا على ألاّ يرحلوا بسبب داعول، فقد كان في هذه الغزوة أن سرق شليويح قطيع الجمال البيض والسمر (المغاتير والمجاهيم) من المدلا وأعطى لداعول منها «ستة عشر متن، ناقة». ولدى توزيع الغنيمة بعد عودتهم قال شليويح، «خذها يا داعول، نقّذ بها عيالك». ثم ألقى هذا البيت على من تخلفوا عن الغزوة: بالمِشْرِكة ما يقطع رزق داعول

ما ينقطع رزق الله اللي نوَى به

ذاع صيت شليويح بوصفه زعيماً غازياً. وأثبت النجم الجديد استقلاله. شجاعته ومهارته في الغزو وإيمانه الراسخ بقدرته ورحمة الله ومعرفته بحاجات أتباعه؛ كل ذلك لم يكن فيه مراء. وعلى غرار روبن هود وضع نشاطه بممارسة السطو والسرقة في خدمة تحقيق قدْر أكبر من العدالة الاجتماعية في الصحراء. ولم يكن يعوزه إلا إعجاب المحبوبة لتكتمل صورة الفارس الشهم. وقد سُدت الثغرة بالغزوة الثالثة والأخيرة من هذه الحلقة. ففي هذه الحملة توغل شليويح إلى أبعد نقطة في أرض قحطان، قرب الحدود بين تلك القبيلة والدواسر. وهناك، تحت صفير المضبّة، ترك أصحابه يأخذون قسطاً من الراحة بينما تسلق هو الجبل لاستطلاع المنطقة. ومن القمة رأى أن البادية على الجانب الآخر مبقّعة بظلال الجمال السنامية، ولكنه سمع في الوقت نفسه صوت «بنت» تغني. زحف شليويح نحو الصخرة المعلقة التي كانت الفتاة تغني تحتها «وليا هي تتمثل أبياتٍ من الشعر وهي جالسة في الغار في فيّة العصر وهو اعتلاها من الغرب»، واستمع: الوِرْع راع السيف وِدّه شعاني

شيع القطيع اللي شعاها شليويح
وِضْح شعاها من ديار قِحطاني
وأقفا عليها مرذْي الفطّر الفيح
يبدي لها في نايفات البياني
وأدلي عليها من علاوي السراديح
أقفوا عليها يزعجون الغناني
من خوف لا يِرْمى لهم بالمصابيح
خِلّى على نبّال قلبي كواني
كثْير مرّاتٍ وأنا اقوم واطيح

أدرك شليويح أن الفتاة سمعت بغزوته على جمال قحطان المدلا التي رفعته ليكون فارس أحلامها. وإذ تأثر بذلك أطل عليها وقدّم نفسه بوصفه بطل أغنيتها. واعترافاً منه بالجميل سمح للفتاة بإبقاء إبلها في مأمن قبل أن يشن ورجاله هجومهم ويستولوا على ما تبقى من ممتلكات القبيلة، وقال، «يا قوم إخذوا البل كلها اللي في الجوّ هذا إلاّ البل اللي عند الحرمة لا تجونها». وظلت الفتاة وفية لمحبوبها حتى أنها منعت أقرانها من الرعاة المنهوبين من استخدام إبلها للذهاب وتحذير المالكين حين قالوا لها، «يا بنت، عطينا راحلة نبي نصيّح أهلنا على إبلهم يلحقونها» وقالت البنت، «لا والله ماني معطيكم راحلة، تتباطون معي، بيتوا معي بتروحون لأهلكم على رجلاكم، روحوا، كيفكم، أنا مانى بمصيّحةٍ قحطان». ولم تعد إلى المضارب حيث تحدت غضب والدها من أجل شليويح إلا مع اقتراب ساعة الغروب في اليوم التالي حين فات أوان اللحاق بالغزاة. ولعن والدها الحقل الذي غُرست فيه بذرتها متسائلاً لماذا لم تدق ناقوس الخطر حين سُرقت جمال قحطان: «يا ملعونة الحرثانية، أو يا ملعونة الوالدين، يا ملعونة الحرثان... ليش ما صيّحتي قحطان على إبلهم؟». فأجابت الفتاة كيف تستطيع أن تحذر قحطان وشليويح قدّم إبلها هدية لها: «أنا كيف أصيّح قحطان على إبلهم وشليويح معطيني إبلي؟». كيف تستطيع أن ترسل رجال قحطان في أعقاب من عاملها بهذا الاحترام: «ماني بمصيّحة عليه، عاملٍ معروف فيّ».

اسم الفتاة ما زال محفوراً بأحرف من ذهب في تاريخ عتيبة، ومن باب الاحترام سأعلنه أنا أيضاً: اسمها عايشة؛ ابنة محمد بن عردان الدرم، من عشيرة الروق التي تنتمي إلى قحطان.

السجل

كان خالد شديد الإعجاب بكتاب الباحث الألماني هيس عن موهق الغنامي. لم يكن يعرف القراءة. وما داعب خياله بصفة خاصة كان صورة موهق في مقدمة نسختي المصوَّرة وتحتها اسم ولقب القبيلة التي كان مؤلف العمل الحقيقي ينتمي إليها. كان مقترح خالد أن أكتب أنا أيضاً مثل هذا الكتاب وأنشره، ولكن وفق ما يمليه عليّ من الذاكرة. وعلى غلاف هذا الكتاب ستكون صورة متألقة لشخصه هو ـ خالد ـ . ولكنه لم يكن واثقاً من أني سأضع العنوان الصحيح للصورة. وكان يعود إلى الموضوع في كل جلسة فأخرجتُ من الصناديق المحفوظة في بطن «حمرة» دفتراً سميكاً رباعي الشكل سجلتُ فيه حكايات خالد وقصائده بخط عربي أنيق قدْر الإمكان من مسودتي المصححة سجل الفروسية العربية .

في مخيلة خالد كان هذا الدفتر كتابه هو في المرحلة الجنينية. وترك الغلاف الأخضر المقوى وقد كُتبت عليه بحروف من ذهب كلمة «السجل»، أثراً عميقاً فيه بلا أدنى شك. ومع امتلاء الصفحات أخذت المخطوطة تُعامَل بقدْر أكبر من الاحترام في المجلس. ومن الطريقة التي كان البدو يتناقلون بها السجل في ما بينهم محافظين بحرص على توازن الغلاف في راحاتهم المنبسطة، كان هناك عنصر من الرهبة القدسية كأنه مخطوطة قديمة من النصوص المقدسة. ولكن العناية الفائقة التي أبديتها بالمضمون لم تكن كافية بنظر خالد. وكان يعتقد أن تنسيب هذه المادة لا يقل أهمية باي حال. ولوضع نهاية لشكواه قلتُ، «أملِ اسمك ولقبك تماماً كما تريدهما». وفتحتُ دفتر ملاحظات وانتظرتُ مهيِّئاً قلمي. ولكن، لا، لم يكن ذلك كافياً. أشار خالد إلى المكان الذي يريد أن يرى اسمه فيه، في الدفتر نفسه، في أعلى الصفحة البيضاء مباشرة داخل الغلاف الأمامي المجلَّد. وقد كتبتُ: «هذا الكتاب سُجِّل من لسان خالد بن مشعان بن فاجر بن شليويح العطاوي، أمير عبلاء وأمير قبيلة ذوي عطية، وحالياً رئيس مشيخة شليويح العطاوي».

وحين رسمتُ آخر التنميقات اتكأ خالد باسترخاء وعلى وجهه تعبير من الارتياح العميق كأنه قام لتوه بائتمان خزينة بنك على كنزه. فها هي مسجلة، لا تُمحى، إلى الأبد. وفي حماسة اللحظة اقترح خالد أن نلتقي بعد انتهاء إقامتي في الرياض لتقديم ثمرة جهودنا المشتركة بمهابة إلى وكيل الإمارة.

كان خالد، شأنه شأن منيف وغيره من الأمراء المحليين، يزور أحياناً قصر الإمارة في وسط الرياض للتعامل مع وثائق أرسلتها سلطات عفيف إلى العاصمة: نزاعات على حقوق في الآبار والأرض، إجراءات قانونية بحق رجال من قبيلته، استرحامات، قضايا مالية ـ إذ يُنتظر من الشيوخ في مثل هذه الحالات أن يدافعوا عن مصالح رجال قبائلهم لدى الإدارة ـ . ولهذه الغاية يتوجهون فوراً لزيارة الأمير سلمان، أخي الملك الذي يسيطر على منطقة الرياض الشاسعة. والأمير المسؤول أيضاً عن الإدارة المالية للعائلة الملكية والإشراف على أعمال ألوف الأمراء والأميرات، معروف بثقافته في الفروسية وحبه القصائدَ البدوية. ومساء كل ثلاثاء يعقد مجلساً مفتوحاً في قصره؛ نوعاً من الصالونات السياسية والأدبية. ثم يتوجه إلى مائدة، وكما تقول الصحافة في عبارة لا تفوتها أبداً، «تناول الجميع الطعام إلى مائدته». وبهذه الطريقة يبقى الأمير على صلة بنبض منطقته.

العمل الحقيقي للإدارة الإقليمية يؤديه «الوكيل»، وهو رجل واسع النفوذ بقدْر ما يتحمل من الأعباء. إذ يعقد الوكيل جلسات يومية في إحدى غرف قصر الإمارة المبني من الرخام. وتنتصب منضدته الضخمة هنا كأنها صخرة وسط الأمواج. ويتراكض السعاة في حركة مكوكية حاملين طروداً بريدية مختومة، يشقون طريقهم بين الزحام ويلقون أكداساً من الملفات على خشب المكتب الصقيل. ويحمل الموظفون سيلاً لا ينتهي من الكتب الرسمية والوثائق التي يقرأها الوكيل بسرعة البرق ثم يوقعها بقلمه المذهب. في غضون ذلك يجري مكالمة هاتفية ويمسك سماعة ثانية بين حنكه ومنكبه بينما يواصل هاتف آخر رنينه.

تسود حوله فوضى تامة. عشرات البدو، كثيرون منهم حفاة، وقرويون يتحلقون حول المكتب في نصف دائرة ويحاولون لفت انتباه الوكيل، بلا جدوى عادة، لأن الوكيل لا يرفع رأسه عن أوراقه لحظة واحدة لكي يتجنب النظرات المباشرة. ومن حين إلى آخر يدفع أحد المعاونين ذوي البدلات الرسمية أو أحد الكَتَبة، شخصاً ما إلى المقدمة ويُسمح لصاحب العريضة المحظوظ بأن ينحني إلى الأمام جنب كرسي المكتب الوثير ليتبادل معه همساً بضعَ كلمات من طرفه.

هذا النوع من تبادل الكلمات لا يتطور إلى حديث حقيقي لأن الآلة الرسمية تدور بلا توقف. وثائق عاجلة يسحبها موظفون من أكوام الأوراق المترنحة، سطور مؤشَّرة، وتواقيع تُذيَّل بها. ثم يختفي الوكيل في الصالونات التي ينفتح عليها جانب من الغرفة ليتحدث مع زائر رفيع المقام أو يجري مكالمة هاتفية حساسة. وبوصفي الأجنبي الوحيد في بحر من العباءات، انتظرتُ ذات مرة ساعات على إحدى الأرائك المرصوفة على جدار الغرفة قبل أن يشفق عليّ أحد المعاونين ويبدي استعداده لدفعي إلى المقدمة. لم أر قط في حياتي مسؤولاً حكومياً يعمل تحت ضغط أشد أو يتحلى بقدر أكبر من رباطة الجأش في مواجهة الانهيار المحدق لآخر مرتكزات النظام، حول كرسيه الرسمي، في مثل الهرج والمرج هذين.

وبوصفه نموذجاً لضبط النفس بشفافية وسط حشد مدفوع بحمى الأمل أو الحقد أو الرغبة، نال الوكيل إعجابي الشديد. ولكني لم أتمكن من كبت الإحساس بأنه يجلس هناك تجسيداً للنظام. والميزة الخاصة لهذا النظام أن له سمات مساواتية وأريستوقراطية على السواء، تماماً كالمجتمع البدوي. ففي

العربية السعودية تتركز كل السلطة بيد الملك وهو الذي يتخذ كل قرار برغم أنه ينيط الكثير من السلطات بأخوته ووزرائه. وتعني الديموقراطية السعودية أن كل رعايا الملك يستطيعون من حيث المبدأ الدخول عليه حسب التقاليد البدوية والإسلامية. وفي الممارسة العملية يحيل الملك إمكانية دخول الرعايا عليه هذه، على الأمير سلمان، أمير منطقة الرياض، مثلاً، وهذا الأخير يحيلها على وكيله. ولكن لا شيء يمنع أي أحد من التوجه إلى المستويات العليا إذا لم يحقق غايته على المستوى الأدنى. غير أنه كلما توجه المرء إلى مستوى أعلى، زادت العقبات التي تعترضه. فمن السهل نسبياً مقابلة رئيس بلدية عفيف، ومَنْ يُرِدْ إسماع الوكيل في الرياض قضيته فعليه أن يحسب أياماً من الانتظار: لدى حراس المكتب الأشداء غريزة لا تُخطئ في معرفة أولويات سيدهم ومَنْ يمكن ومَنْ لا يمكن أن يطمح بكل معقولية إلى أن يحظى بثوان من وقته. البدو الكبار في السن، الذين عاشوا أيام كان كل شيء بسيطاً وبعيداً عن التكلف الرسمي، وحدهم الذين لا يوقفهم أحد حين يشقون طريقهم إلى صاحب السلطة الذي ينادون عليه باسم أبيه مسبوقاً بكلمة ابن: يا ابن فلان، أو يا أبا فلان. ولكن السعودي الاعتيادي يستخدم وسيطاً، شخصاً يختلط بانتظام في الدوائر العليا، ويحاول إقناعه، بتكليف وسطاء للوسيط إذا اقتضت الضرورة، من أجل أن يمهد له طريق الوصول إلى الحاكم.

ليس لدى البدوي أوهام عن الطبيعة البشرية. فهو الواقعي حتى النخاع، يعمل على أساس الافتراض القائل إن كل فعل بشري مدفوع بمصلحة ذاتية. ولن يناقض البدوي أحداً يذهب إلى أنه يفعل ما يفعله من باب الإحسان أو غير ذلك من التجريدات النبيلة. ولكن هذا لن يمنعه من البحث في هذه الأثناء داخل كل الموجات عن إشارات أو أصوات ناصعة تكشف الدوافع الحقيقية وراء الواجهة الخيرية التي يقدمها محاوره. ولا يعني هذا أن الآخر سيفقد قيمته إذا كُشفت مقاصده الحقيقية: النفاق لا يكون مُنكَراً إلا في أمور الدين، وفي الأمور الأخرى يعتبر البدوي أن التستر والتمويه وسيلتان طبيعيتان للبقاء.

لعل خالداً، لهذا السبب، كان ينظر إلى دأبي على الإعلان أن ما يوجهني في عملي هو المَثَل الأعلى للبحث العلمي، بقدْر من الشك والارتياب. فإن كلمة «عِلْم» بالعربية يمكن أن تعني أشياء مختلفة عنده: المعرفة، وتحديداً في الدين، ولكن بلغة البدو تفيد أيضاً معنى الإعلام أو الأخبار. وعلى أية حال فإن «العِلْم» في الصحراء لا يرتبط بمفاهيم عليا مثل موضوعية العقل والحياد البارد اللذين ما زالت كلمة «عِلْم» تستحضرهما في الغرب. ما كان يهم خالداً أن لديّ رسالة توصية من الوكيل وأني سأنقل عما قريب في الرياض ما عشته من خبرات، وأن خالداً يستطيع أن يستثمر ذلك بمطالبة قصر الأمير بمكافأة عما قدمه لي من تسهيلات حين عرضتُ عليه رسالة السلطات في الرياض. باختصار، أنت تحكُّ لي ظهري وأنا أحك لك ظهرك. وعلى النقيض من ذلك، لم أسأل خالداً لماذا كان حريصاً على زيارة الوكيل بصحبتي. فقد كنا نفهم أحدنا الآخر من دون مصارحة. يكفي أننا توحَّدنا تحت راية شليويح.

خالد أمير، ومنيف أمير، ورئيس بلدية عفيف أمير، لكن مسؤوله الوكيل العامل في الرياض ليس أميراً. الأمير سلمان أمير. ويحتاج الغريب إلى بعض الوقت لمعرفة طريقه في هذه الغابة من الأصول النبيلة.

البلبلة تكمن في كلمة «امير» العربية التي تعني في أصلها «آمر»، وإمارة تعني السلطة التي يتمتع بها الآمر. ولدى العربية السعودية ثلاثة أنواع من الأمراء. في المقام الأول جميع أفراد آل سعود وبعض العلائات التي ترتبط بهم عن طريق الزواج، مثل السديري (عائلة الملك فهد من ناحية أمه)، وهم يحملون اللقب بالوراثة.

المتحدرون من أبي الأمة عبد العزيز وحدهم يحملون لقب «أمير ملكي». وإلى جانب ذلك يحمل لقب الأمير أعلى ممثلي الحكومة على مستويات مختلفة من الإدارة الإقليمية: من أمير منطقة الرياض إلى رئيس بلدية عفيف نزولاً إلى قرى مثل عزبة خالد؛ عبلاء. وحكام الأقاليم هم إخوة الملك أو أفراد آل سعود والعائلات التي تربطها بهم صلة قرابة، وبالتالي فهم مؤهلون لحمل اللقب بالوراثة. ولكن رئيس بلدية عفيف وزملاءه في مدن إقليمية أخرى ليسوا أكثر من موظفين من عائلات متوسطة. وهؤلاء المسؤولون هم الممثلون المحليون للسلطة التنفيذية ويتولون أيضاً قيادة قوات الشرطة. ويكون الأمراء عادة من مناطق أخرى من البلاد لإبعادهم عن شبهة التحيز في ممارسة سلطاتهم، وهم يدينون بالولاء المطلق للسلطة المركزية. وللسبب ذاته يكون أمراء الجهاز الإداري موضع احتقار في السر من الزعماء القبليين والوجهاء أنفسهم الذين يعملون جاهدين لعقد صداقات معهم. وتدرك جميع الأطراف هذا الواقع وتحاول أن تخفي هذا الإدراك بإنهاك نفسها في التعامل مع بعضها بعضاً بأدب جم.

كان الأتكيت يتطلب أن أقدِّم بعد مرور فترة ليست طويلة على وصولي إلى عبلاء التابعة بالكامل لإمارة عفيف، آيات الاحترام إلى رئيس بلديتها. ولم يتمكن خالد من إخفاء شماتته بتقريري عن تلك الزيارة: كان علي أن أعيد له القول مرة تلو أخرى كيف أن أكبر مسؤول في المدينة لم يقدِّرني حتى بفنجان شاي، وأن الحراس الذين كانوا يتسكعون حول الإمارة طوال اليوم بأحزمة الرصاص المتصالبة على صدورهم قالوا إن خير وسيلة للاطلاع على تراث شليويح الأدبي هي الاستئناس برأي ابن شليويح، أي خالد، وأن لا أحد يستطيع أن يضيف أو يصحح أي شيء في ما قرأته في الإمارة من «الكتاب الأخضر».

أخيراً، هناك أكثر الإمارات إثارة للجدل، وهي إمارة الزعماء القبليين. فهنا الجميع ضد الجميع وإلى حد ما ضد الحكومة. وهنا تكاد أعصاب النظام تكون مشدودة إلى أقصى حدود التوتر. فرسمياً، لا يتمتع الشيوخ، أي زعماء القبائل، بمكانة تعلو على مكانة أي سعودي بسيط. وكان الملك عبد العزيز استأثر بالسلطة ونال اعترافاً دولياً به. وأصبحت المراعي التقليدية، أو ديار القبائل، مُلك الدولة، وأُعيد توزيع هذه الأراضي. صحيح أن الأرض مُنحت عموماً للزعماء القبليين أنفسهم الذين كانوا يسيطرون عليها تقليدياً، ولكن الدولة احتفظت لنفسها بحق استرجاعها إذا لم يذعن زعماء القبائل للنظام الجديد. ومنذ ذلك الحين عُدَّت غزوات البدو على ممتلكات القبائل الأخرى جرائم عادية ولم تعد رياضة نبيلة يعيشون فيها حريتهم السيادية. ونظرياً، أصبح جميع السعوديين متساوين أمام القانون، مثلما هم أمام الله. وإذ أُعلن القرآنُ دستورَ البلاد والشريعةُ مصدرَ القوانين، كان بمقدور الحكام الجدد أن يذهبوا إلى أنهم لا يفعلون أكثر من تصحيح حالة وثنية بهدف العودة إلى شكل الدولة التي قضى بها الله من خلال رسوله. وليست الحكومة السعودية المؤمنة إلا أداة بيد العناية الإلهية في تطبيق إصلاحات كانت هناك حاجة ماسة إليها. لذا، فإن من المنطقي أن تكون مهمة الحكم تأمين سلامة هذه المنجزات ومنع البلاد من النكوص إلى حالة الجاهلية والفوضى.

كانت ثورة «الإخوان» آخر انفجار سياسي للروح البدوية القديمة. وبعدها اعترف كبار الشيوخ المتمردين بالهزيمة. وأثبتت الحكومة من جانبها أنها أكثر تفهماً في الممارسة منه في النظرية. فاليوم يشعر أهم شيوخ القبائل ـ مثل ابن ربيعان شيخ الروقة وابن حميد شيخ برقا وابن قويد شيخ الدواسر ـ كأنهم في بيوتهم في بلاط الأمير سلمان. لم تُستأصل الغريزة القتالية فيهم ولكن جرى توجيهها في صفوف الحرس الوطني، الذي يقوده أخو الملك الأكثر بداوة، ولي العهد الأمير عبد الله الذي كانت والدته من قبيلة شمر القوية في الشمال. ولكن عدا هذه التنازلات لعالم الصحراء، اختُزل دور غالبية الشيوخ إلى دور شهود نيابة عن قبائلهم في الديوان الحكومي.

عموماً، سلّم الشيوخ بهذا الدور الأقل مستوى من دون مشاكل. ومنيف، على سبيل المثال، قدم الرؤية الرسمية من دون أثر ينم عن ضغينة. فأمير القبيلة موجود لتسوية نزاعات متبادلة بين البدو بالتي هي أحسن، ويشهد في السجل أن هذا الشخص أو ذلك ينتمي حقاً إلى قبيلته ويحق له حمل بطاقة الهوية السعودية ويضمن المحبوس من أفراد قبيلته ليمكن الإفراج عنه بكفالة. لذا، يتوسط أمير القبيلة بين الحكومة والبدو الاعتياديين، وبهذه الطريقة يوفر على السلطات الكثير من الجهد.

خالد كان حالة مختلفة. فكل شيء فيه ثائر على هذه النظرة المتواضعة إلى دور الشيوخ بوصفهم مصدر خدمات اجتماعية للحكومة. وقبول منيف بهذا الدور كان عنده مجرد دليل آخر على أن غريمه ليس أكثر مما سماه بازدراء «معرِّفاً»، أي شاهداً على رجال قبيلته. وقال خالد عن منيف، «إنه ليس شيخاً حقيقياً» مشيراً إلى أنه لم يرث مركز شيخ القبيلة من والده كما ورثه خالد نفسه، ولكن غنانيم عفيف اجتمعوا ذات يوم وانتخبوه وكيلاً لهم. بكلمات أخرى لم يكن منيف أكثر من حديث نعمة حقق انتخابه ديموقراطياً، وبالتالي فهو مُلزَم برد الجميل إلى ناخبيه، إذا كان لا يريد أن يفقد لقبه. واعترف خالد بأن منيفاً «رجل طيب» ولكن ينبغي ألاّ ينفخ نفسه أكبر من موقعه.

لم يبدُ لي أن من مصلحتي أن أبيّن لخالد أنه هو أيضاً يدين بمكانته لابن رجل بائس شق طريق صعوده «بذراعه» إلى زعيم غازٍ وأن غزاة آخرين اختاروه حين كانوا يمارسون السطو متوقعين غنائم أكبر تحت زعامته، وبالتالي يكونون انتخبوه انتخاباً ديموقراطياً بهذا القدْر أو ذاك. وكان خالد سيرد من دون ريب بأن شليويح لم يصنع نفسه بالتودد وتقديم الخدمات بل بعدما أثبت أنه أشد غزاة الإبل بأساً وأحسن المقاتلين بلاءً. ولم يكن شليويح نتاج أخلاق العبودية المرائية بل كان سيداً بين أقرانه.

كان خالد يعبر عن تبرمه من التزلف ولعق «جزمة الديموقراطية» من خلال «خشونته»، بمعنى نمط حياة البدوي التقشفي وما كان يتظاهر به من جلافة. وكان يخوض خصوماته بالطريقة نفسها: غير متسامح، صريح، وغير مهادن. وبنظر شيخ أحسن تكيّفه مثل منيف، فإن تلك كانت مثلبة في شخصية خالد. إذ لكل منا معارف لا يحبهم ولكن هذا ليس سبباً لتعكير السلام وإخضاع الخصوم لمقاطعة اجتماعية لا ترحم، كما يفعل خالد.

لو عاش خالد قبل قرن، في زمن جده الأكبر، لتمكن من تسوية نزاعاته في نزالات فروسية بالرمح والسيف. ومن خلال الدبلوماسية والقوة، أداتَي الطموح السياسي اللتين تمكّن النبي من توظيفهما ببراعة، كان من الجائز أن يوحد القبائل ويفرض سطوته المطلقة على ذوي عطية. منيف الودود، الذي يمشي آنساً وراء كرشه، ما كان سيكون نداً له بكل تأكيد. ولكن الحسد يتواصل اليوم مُضمَراً تحت السطح من دون تنفيس عن التوتر. فلا أحد يريد الصدام مع الحكومة كلية القدرة، والشيوخ مُحَجَّمون بإحكام. لذا تعتمل العداوات من خلال الحسد والأقاويل الحاقدة والغمز واللمز.

المكانة

خالد أيضاً يقدم خدمات، ولكنه ينتظر ولاء غير مشروط مقابلها. وذات صباح كنتُ جالساً أتناول الفطور معه على شرفة بيته، وبينما كنا نغمس الخبز في حساء العدس ونحتسي الشاي مع لبن الإبل، قمتُ بمحاولة لإنجاز بعض الأعمال قبل أن يعكر السيل المعهود من الزوار صفو خلوتنا. كان بجانبي حصاد اليوم السابق مكتوبا: قصيدة طويلة من نظم بخيت شقيق شليويح، ينعى فيها الأخير فرسه الأصيلة «فردة» ويتحدث عن جولته الخائبة على أصدقاء مختلفين من شيوخ عتيبة بهدف اختيار فرس بديلة عنها. كان البدو يطلقون على مهرهم لقب «المغنيات». فالخيل كانت وسيلة تحقيق الغنائم والنفوذ. الخيرات في بطونها والأمجاد على ظهورها: فلْوُ الفرس الأصيلة يعادل وزنه ذهباً والحروب تُكسَب على السرج. ولكن البدو كانوا يعرفون أيضاً أنه ما من نصر دائم في الصحراء. فالعدو المهزوم يدخل في تحالفات مع قبائل أخرى وما يلبث أن يتعرض المنتصر لمهانة الهزيمة. ومن هنا مصدر القول الآخر: «الخيل بطونهن كنز وظهورهن عزّ، الخيل أرسانهن حيايا وظهورهن منايا».

بدأتُ أطرح بحذر أسئلة تتعلق بالثغرات التي تتخلل مخطوطتي. ولكن خالداً أطلق نخرتين من أنفه في معرض الرد ثم قال، «كفى، إننا نتناول الفطور». غاص قلبي لأن حدساً كان يقول لي إني سأمضي بقية الصباح في غرفة الانتظار.

بعد فترة قصيرة أطل الزائر الأول؛ رجل عجوز أحنف القدم. وبين صخب الكلام وعبارات السلام جر قدمه الحنفاء على الحصى لينضم إلينا تحت السقيفة. وخلصتُ من الحديث إلى أن ابنه ضرب مواطناً آخر وأُودع السجن منذ أربعة أشهر. أوضح خالد أنه دعا إلى الرأفة بالصبي في عفيف ولدى الوكيل في الرياض ولكن وساطاته لم تثمر. إذ قال له الوكيل إن التعليمات الخاصة بدرجة العقوبة آتية من الحكومة نفسها. وفي هذه الأحوال ليست هناك إمكانية لمواصلة الاسترحام. وما تبقّى هو الأمل في أن يُشمَل الصبي بالعفو الذي يعلنه الملك سنوياً بمناسبة شهر رمضان الكريم.

سكت الأحنف فترة لاستيعاب هذا النبأ. ثم قال بعد توقف إنه زار أيضاً شيوخاً من آل ربيعان في الرياض، ولكنهم صرفوه بكلمات فارغة.

عند هذه النقطة قاطع الحديث مع الأحنف أصحاب تظلمات آخرون جاؤوا ليطالبوا باهتمام خالد بقضاياهم. وكانت الغالبية العظمى من المشاكل تتعلق بنزاعات حول حقوق استعمال الآبار. وكان من القضايا الشائعة باستمرار أن أحدهم حفر بئراً في أرضه من دون موافقة الحكومة وتم ضبطه لاحقاً. وفي هذه الحالة تتمثل البراعة في أن يثبت المخالف أن جدار باطن البئر مرصوف بالحجارة. ويعني ذلك أن البئر ملك العائلة تاريخياً. كما يستطيع المرء أن يجادل بأن البئر مهجورة وقد طمرتها الرمال وان المالك لم يفعل سوى ترميمها إلى حالها الأولى.

تدريجياً، أدركتُ أن شكوكي تتأكد، بأن الخلافات الغابرة في القِدَم بين البدو حول مصادر الماء والكلأ أصبحت أشد حدة نتيجة سياسات التوطين. ففي كل مكان من سهوب المناطق المرتفعة انبثقت مستوطنات صغيرة. وهي ما زالت تُسمى «هجراً» مع اختفاء الدلالة الدينية التي أضفاها «الإخوان» عليها سابقاً. و«الهجرة» لا تعني اليوم سوى البيوت التي يبنيها البدو لأنفسهم ولأقرب أقاربهم في الصحراء بأموال أو معاشات تقاعدية استحقوها خلال خدمتهم في الحرس الوطني أو عملهم في مجالات أخرى. وتُبنى البيوت متقاربة لتشكل عزبة يُشيَّد فيها مسجد. وبهذه الطريقة تُقام ممالك صغيرة في الصحصح الواسع حيث يشعر البدو تماماً ببيئتهم الطبيعية. وحلت هذه «الهجر» محل «الفريق»، لا بمعنى فريق كرة القدم وإنما بمعنى المجموعة المؤلفة من نحو عشر خيم كانت العشيرة تتنقل بها في الصحراء مع قطعانها وإبلها بحثاً عن الكلأ. ولم يعد هذا الترحال والتنقل لازمين الآن. فإن علف الجمال والأغنام يمكن أن يأتي إليهم والماء تحمله ناقلات المرسيدس. وإذا اقتضت الحاجة يمكن ملء هذه الناقلات بالماء من بئر رجل قبيلة صديق ولكن كل «هجرة» تريد بئرها الخاصة بها في نهاية المطاف. وبهذه الطريقة تقام مضارب من الخرسانة والإسمنت حيث يستطيع البدو الكبار في السن أن يعيدوا اكتشاف مسرات حياتهم البدوية أيام الشباب من دون منغصاتها وقتذاك، ويمكن للعاملين أن يهربوا في أوقات محدَّدة من حياة المدينة إلى هواء الصحراء النقي. وللشباب هناك أسطول من سيارات «بك آب». وفي كل صباح تغطي شبكةً الأخاديد التي حفرتها العجلات حول عفيف سحبٌ من الغبار حين ينطلق سائقوها الشباب على طريقة الطيارين الانتحاريين اليابانيين عبر البادية متوجهين إلى المدرسة في البلدة.

في منتصف الصباح جاء جازي جزيان؛ حمو خالد وأمير قبيلة السلسة الذي حدثه خالد عن صعود شليويح وثقافته. وكان يرافقه ابنه، وهو مطوع شاب ذو لحية سوداء كثة. قفز خالد ونادى شافي خادمه البنغلاديشي أن يُبعد القهوة القديمة ويعد جديدة. ودُفع كرسي كبير ذو ذراعين خارج البيت للضيف المرموق فيما كُلف الابن نايف بإحضار مبخرة. جازي دخل في الموضوع مباشرة. كان شديد الغضب، فقد اكتشف أن عدداً من أفراد العضيان من عتيبة، وهي فرع آخر من فروع الروقة الرئيسية، يعكفون على تهيئة التربة للزراعة في أرض يعتبرها ملكه. وعلى الفور استغرق خالد وجازي في نقاش جدي حول الموضوع الأثير لدى البدو، وهو أنساب القبائل. مَنْ يرتبط بمَنْ من خلال أواصر الزواج، مَنْ يستطيع أن يدعي إمارة فرع ما، ومَنْ يرفعه أصله إلى المكانة القديمة... إلخ.

ليس هناك سجل مركزي لتدوين أصول البدو النبيلة على غرار سجل بيرك لأسماء النبلاء Burke’s Peerage. وليس هناك محكّم يفتي في الأمر سوى الرأي العام، وبتعبير أدق رأي العائلات التي يُحسَب حسابها، أي البدو ولكن ليس بالمعنى الكلاسيكي للبدو الرحل على الإبل وإنما بالمعنى المتعارف عليه الآن في الجزيرة العربية: كل سكان منطقة نجد، بصرف النظر عن مكان سكنهم وأحوال معيشتهم، يستطيعون المفاخرة بأصل معروف ومعترف به لأن أي شخص يستطيع أن ينسب أصله إلى إحدى قبائل نجد العريقة ينتمي تلقائياً إلى البدو، فئة مواطني الدرجة الأولى في الدولة الحديثة.

ولكن بعض المواطنين العرب أكثر مساواة من غيرهم. فإن الروقة تعترف بذوي ثبيت، التي ينتمي اليها آل ربيعان، بوصفهم الأوائل بين أنداد. غير أن خالداً يذهب إلى أن عائلة أخرى من ذوي ثبيت كانت لها الرئاسة في الماضي البعيد: ليس آل ربيعان ولكن البرّاق التي انقرضت الآن. والدليل برأيه في «الحقيقة المعروفة للجميع» بأن كل فرس سائبة فقدت خيالها في حملة من حملات الغزو تكون ملك شيخ البراق. وحدث أن فاجراً، وهو جد خالد ونجل شليويح، تزوج من فيحة ابنة آخر شيوخ البراق. ولي أن أخرج بالنتائج المطلوبة من قصة خالد، أي أنه يجري في عروقه، من نواحٍ معينة، دم أنبل من دم آل ربيعان. وعلى المستوى الأدنى من آل ربيعان المتفرعين عن ذوي ثبيت تتباهى الروقة بالعديد من الأسماء الكبيرة. فإن الضيط مثلاً هم صفوة العضيان، وهي فرع رئيسي على مستوى ذوي عطية. وفي شجرة العائلة التي رسمها لي أظهرَ خالد أن شليويح تزوج من نورة، ابنة كبير الشيوخ شالح الضيط. وذلك دليل على أن شليويح يُعتبر نداً لا يقل مستوى. والأكثر من ذلك، فالمعروف أن آل شليويح لم يكونوا متخاذلين بل كانوا مستعدين للموت راكبين. وشليويح نفسه قُتل في غزوة على قبيلة قحطان، وفاجر قتلته قبيلة سبيع، وابنان آخران قُتلا على أيدي مطير وحرب. ولكن لا شيء من هذا له أي تأثير في خصوم خالد. فالأمر الوحيد المهم عندهم هو أن شليويح كان ابن بوبح «كنّاس الخراء»، ماعز. ورابطة الدم من ناحية المرأة لا تعني شيئاً.

بروليتاريا ومنبوذون

ذات يوم سبت، وقت العصر، وجدتُ خالداً في الفناء الأمامي ومعه ثلاثة رجال. كانوا يجلسون على البساط الذي يمده شافي كل عصر بعد الصلاة في الظل تحت السور الغربي. كان أحدهم سعودياً أكبر سناً من نمط المطوعة وكان الآخران بدويين: أب وابن على ما يبدو من تشابه الوجهين المدببين الضيقين كوجهَي فأرين. كان بحوزة الرجل الأكبر سناً بعض الأوراق. وطلب من خالد أن يتوسط لإدخال قريب له المستشفى. منحه خالد على الفور فرصة رد الجميل. ففي غضون شهر سيقيم وليمة كبيرة يحتاج فيها إلى طبقين ضخمين يسع كل منهما لجمل مشوي كامل تزين حوافه عشرة خراف مشوية. ومعدن الأطباق لديه معطوب في مواضع هنا وهناك ولعل الزائر يلقي نظرة ليرى ما يلزم من ترميمات.

دخل الاثنان إلى البيت وبقيتُ أنا مع صاحبي الوجهين الفأريين. وكان قد لفت انتباهي أن خالداً لم ينهض لتحيتهما ولم يقل إلا «يا هلا» فاترة. وبالنسبة إلى شافي كان هناك ما يكفي لمعرفة اتجاه الريح. فقد أُعطي الاثنان فنجانَ قهوة صغيراً واحداً ولكن مرطبان التمر لم يُدفع ناحيتهما. وما إن اختفى خالد والرجل الأكبر سناً عن الأنظار حتى بدأ يتهامسان في حديث مهتاج. وسألاني مَنْ يكون الرجل الآخر. كانا يعرفان بكل تأكيد، حيث استشفا أو سمعا ذلك من لهجته. إنه بلا ريب «صانع»، حرفي، «خلوي»؛ شخص يطوف الصحراء كالذئب المتفرد، «صلبي». وزفرا باحتقار.

ما كانا يعنيانه لم يترك أي شك. فـ«الصلب» هم أصحاب حِرَف كانوا يرحلون مع البدو كما الطيور على ظهر الكركدن. وكانوا يمارسون كل صنوف الأعمال الوضيعة مثل نضوات الخيل وغيرها من الواجبات المنزلية التي يرى البدو أنها تحط من كرامتهم. وفي عرف الصحراء كان «الصلب» يعامَلون كقبيلة منبوذة لكنها محمية. وعندما يحارب البدو يواصل «الصلب» عملهم عارفين أن لا أحد يمس شعرة منهم بأذى. وإذا سُرقت دابة منهم بطريق الخطأ تُعاد لهم فور تنبيه مَنْ سطوا عليها إلى خطئهم. و«الصلب» عند البدو لا وجود لهم بالمعنى الاجتماعي: فئة تحتاج إليها في معيشتك، وعدا ذلك فهم بمثابة شيء لا تلتفت إليه.

عملياً، لا شيء يُعرف عن أصل غجر الصحراء هؤلاء. البدو يعرفون ببساطة أن «الصلب» كانت لهم قبيلتهم، وكانوا يمتطون الحمير ويعيشون في احتكاك مباشر مع الطبيعة. وكان «الصلب» يعرفون الأماكن التي يمكن العثور فيها على الماء على عمق قريب من سطح الرمل، وكانوا يتقنون فن الزحف متنكرين بجلد غزال للانقضاض على الطريدة من دون أن تحس بوجودهم. والعلاقة بين الجنسين أكثر تحرراً وانفتاحاً بكثير بين «الصلب» منها بين البدو، ونساؤهم معروفات ببشرتهن البيضاء وجمالهن وسلوكهن المتحرر. وكثيراً ما حلم البدوي ونظم القصائد عن مغامرة مع إحدى هؤلاء الغجريات المتقلبات الأهواء.

وعند البدو، كان «الصلبي» في مرتبة متدنية من فصيلة «الصانع»، أي الحداد وغيره من الحِرَفيين الذين يشتري البدو منهم أسلحتهم وسروجهم وأوانيهم وغيرها من لوازمهم البيتية. وحين يتجول البدوي في سوق المدينة ويتوقف عند ورشة يعمل فيها أحد هؤلاء الحدادين بمطرقته والعرق يتصبب من جبينه، يعرف أنه يقف وجهاً لوجه أمام باب جهنم. فإن ما كان يراه، رجل عليه أن يعيش بلا حماية من قبيلة، يقف في الدنيا ضعيفاً، أعزل ومحكوماً عليه بحياة من الكدح. وكما قال الشاعر ابن لعبون في هجاء عدوه قبل مئتي عام:

يا عبيد جدّ امك يفحّج على الكير
اصله من صليب يدق الصبارة
شطر بصنعه للحذا والمسامير
ودقنه خلاص الكير كلْه بشرارة

وحتى يومنا هذا ما من عائلة بدوية تسمح لابنتها بالزواج من «صلبي» حتى إذا كان مدير مصرف. والمدارس الفنية السعودية مليئة بأبناء قرويين شيعة و«صلب» وحرفيين ممن وصفهم ابن لعبون وليس من أبناء البدو.

تثاءب الأب ذو الوجه الفأري وعاد إلى الاستلقاء على البساط طاوياً ذراعيه تحت رأسه. ورداً على سؤاله أخبرته باختصار سبب وجودي هنا. وسألته بدوري إن كان يعرف أي شخصية كان شليويح. ضحك الرجل وبدأ في اللحظة التالية يلقي بلا تردد الأبيات الأربعين لقصيدة شليويح حول انتصار عتيبة على آل سعود في معركة طلال.

الرجلان لم يقدّما نفسيهما ولكنهما إذ قالا إنهما جاءا من ظلم المجاورة في الغرب، خمنتُ أنهما «خراريص». قالا، «لا، لكنك قريب». قلتُ «فراهدة» مجربا اسم القبيلة الثالثة التي يعترف أفرادها بشليويح شيخاً لهم. ردّا «لا، نحن من العضيان». سألت، «هل تربون الإبل؟» فأجابا، «لا، فقط الأغنام».

«كثير من الأغنام؟». «كان لدينا الكثير منها، كان لدينا في السابق 200 رأس والآن لم يعد لدينا سوى 50 رأساً فقط لأن الشعير باهظ الكلفة، وفي الصحراء عملياً لم يعد هناك شيء يؤكل بسبب الجفاف». «لماذا لا تذهبان وتعملان في جدة؟ مدينة لطيفة بميناء كبير ومعامل كثيرة». «كل من يبحث عن عمل يجده»، قال الوالد فلسفياً، ثم مال أكثر في إشارة إلى أنه لا يحب مواصلة الحديث في هذا الاتجاه.

الآن عرفتُ ما أتعامل معه. الاثنان كانا من «الشاويين»، أو رعاة الأغنام، أدنى درجة في سلَّم البدو الاجتماعي. فالأغنام قد تكون مربحة لكنها أكثر اعتماداً على الماء بكثير من الإبل. لذا، كان على الرعاة في الماضي أن يبقوا قرب الآبار، على حافة الصحراء، في سوريا والعراق. وهناك كان الشاويون على اتصال مباشر مع السكان المتوطنين والفلاحين. واكتسبوا عادات السكان وخضعوا لسلطات الحكومة في هذه المناطق.

بنظر البدو الأقحاح ـ بدو الإبل مثل الرولة في شمال الجزيرة العربية، الذين كانوا يجوبون الصحراء بحرية وكبرياء ـ يُعَد الشاويون بلا هوية. إنهم الحثالة والزَّبد الذي لفظته الصحراء على شاطئ الحضر من قرويي وفلاحي الهلال الخصيب على الحدود الشمالية للجزيرة العربية. وسخر البدو في قصائدهم من المحاولات العقيمة التي كان يبذلها الشاويون للحاق بقوافل الجمال حين تشد الرحال من مضاربها التي تقيمها صيفاً حول الآبار وتختفي بلمح البصر وراء الأفق.

كاد خالد يختنق في ضحكته القرصانية الساخرة حين روى ذات مساء قصة شاو كان يرغب بقوة في المشاركة في إحدى غزوات بخيت؛ شقيق شليويح. كان يدعى ساير التوم ولم يكن لديه أبناء، بل ابنة فقط اسمها قويلة:

كان ساير التوم شاوياً. لم يكن لديه سوى أغنام وماعز، وفرس بلا قيمة، مهرة ضعيفة كانت تخب قليلاً، «فريسةٍ خبلا قاصر ما فيها عدى». قال، « يا قويلة، أنا والله ابوك أبأغزى مع بخيت». استبد القلق بقويلة وقالت، «يا بوي، فرسك قاصر وبخيت والروقة يبي يغزون معه على خيلٍ سِبّق. فرسك تبا تقعد ثم يذبحونك القوم». قال ساير، «لا، أبأغزي مع بخيت، بأظهر وجهي مع الروقة وأظن الله يرزقني بأباعر ولاّ...».

أصر ساير، وإذ أُسقط بيد قويلة، قامت ذلك المساء وذبحت جدياً ثم طبخته وقطعته ووضعت اللحم في الخُرج، «في قلصٍ عندها». وفي اليوم التالي بحثت حتى عثرت على بخيت بين الرجال ورمت الخرج على ظهر بعيره (في الغزوات تخب الخيل إلى جانب فرسان الإبل ولا تُركَب إلا عند الاقتراب من هدف الغزوة وبدء الهجوم فعلاً). وشرحت بكلمات قليلة الوضع لبخيت قائلة، «هاك القلصِ واللى فيه وتراها تراها علاقتك علاقتى علاك في بوي، تراها أمانة الله ثم أمانتك ياصل معك لان تردّه لي».

نُفذت الغزوة حسب الخطة المرسومة. وسرق رجال الروقة جمال قبيلة البقوم ولاذوا بالفرار. وحده ساير انهارت فرسه من الإعياء، وهبّ بخيت لإنقاذه وحاول وخز الفرس بباطن رمحه الحاد لكي تنهض: «بخيت قعد عند التوم يعتّق فرسه وينغزها بالقنطار يَبْها تمشي، يَبْها تَدْرج». وعثر عليهما في هذا الوضع شيخ البقوم، قطنان، الذي حاول بلا جدوى اللحاق بالغزاة وكان الآن عائداً يجر أذيال الخيبة. قال، « يا بخيت، راعِ الفرس هذا والله ما يخاويك». قال بخيت، «يا قطنان والله ها أمانتي، أمانة الله الممدودة المردودة، والله ما ترتدّه». فاشتبك الرجلان وفي غمار المعركة غرز بخيت رمحه في فخذ قطنان ثم في قلب فرسه. سقط الخيال وفرسه وتُرك قطنان يلاقي مصيره. استعادت قويلة والدها، وبقصيدة وصف بخيت ما حدث.

شليويح وساير التوم: هذا هو الفارق بين البدوي والشاوي، بين فارس الصحراء وعامة الناس.

جلسنا نحن الثلاثة مستظلين بالسور حتى عاد خالد أخيراً، لا من البيت بل أطلق بوق سيارته عند البوابة. وفي الحوض المفتوح لسيارته البك آب ماركة «جي ام سي» كانت نعجة تثغو مدلية لنا لسانها الشاحب الطويل كله. نظر الأب والابن باستحسان إلى النعجة ووزنا ضرعها الثقيل بأيديهم. ثم نقلاها إلى حوض سيارتهما من طراز هيلكس وربطاها مسرعين بحبل، وانطلقا من دون إبطاء على الطريق السريع واختفيا في اتجاه مظلم.

في ضوء الغسق ساعة الغروب سرنا أنا وخالد إلى السياج حيث تربض الجمال. قال خالد قاطعاً حبل الصمت، «إنهم مساكين، متسولون». أعطاهما النعجة صدقة، حسنة لوجه الله. قال خالد، «مساكين، كسالى لا يعملون». الرجل الآخر، «الصلبي»، كان غادر من باب آخر مع الطبقين الكبيرين لتصليحهما في ورشته الكائنة في عفيف في زقاق منفصل يقدم منه مع أقرانه من الحرفيين الآن خدماتهم التقنية للبدو. في المزرعة فكرتُ بمفارقة اجتماعنا ذلك العصر: فئة دنيا من البدو العنيدين المعتمدين على إعانات الدولة، تستمتع بتعيير مواطن كدود على أنه شخص منبوذ.

فِطلّه

فقيه الله؛ العامل الزراعي الباكستاني، غادر ومعه مزعقه، وأنا كنتُ جالساً على سريري الميداني في الضوء الأخير قبل غروب الشمس. هبَّت نسمة معتدلة من الشرق. سرب من طيور الوروار الزاهية مرت محلقة، وللحظة توقفت ساكنة راكبة الريح، تزقزق وتصيء بلغة الطيور باحثة عن نخلة مناسبة تبيت فيها الليلة. فوقي بين الدعامات الطويلة والعوارض الممتدة في سطح سقيفتي كانت العصافير تتململ في أعشاشها وتُسقِط مطراً مدراراً من الريش وأعواد القش التي تهبط لافّة إلى الأرض. هذا المساء كنتُ أستطيع أن أتخيل نفسي سيد المزرعة.

بدأ النهار بداية سيئة. بدا أن ذهن خالد شارد في مكان آخر وكان يجيب عن أسئلتي حول القصائد بتأفف متزايد. أخيراً لم يتمكن من السيطرة على انزعاجه. قال بنكد «القصائد بسيطة بما فيه الكفاية ولكنك لا تفهم شيئاً منها». قلتُ محتجاً، «ماذا تتوقع. أنا لستُ بدوياً بل هولندي». وباحتراس أوضحتُ له أن اللهجة واللفظ ومخارج الحروف والرشقات المتتالية من الكلمات التي تتلاشى في تمتمة مع الأنفاس لا تجعل من السهل عليّ نقل الأشرطة على الوجه المطلوب. واختتمتُ قائلاً، «لذا فإن الأمر بالغ الصعوبة». «لا»، قال خالد، «انه بسيط جداً على كل مَنْ يفهم. ولكن معك عليّ أن أعيد كل شيء عشرين مرة! السعودي سيفهم في الحال ما أقوله».

كانت المشكلة تكمن هذه المرة في قصيدة من نظم شاعرة؛ مرسا العطاوية من قبيلة الخراريص. خالد شخصياً لم يكن يحب أن تمارس المرأة هذا النوع من النشاطات. وكان يعده خرقاً للقاعدة القائلة إن المجال العام حكر على الرجال. والشِّعر منح المرأة فرصة لاختراقه. لعل مرسا نظمت قصيدتها في المطبخ فيما كانت تطهو مع نساء أخريات الرز للرجال. وألقت إحدى النساء القصيدة لزوجها قبل النوم ونقلها الرجل إلى أصدقائه في اليوم التالي، وهكذا دخلت كلمات مرسا عالم الرجال في المجلس. وأخرج خالد لسانه الوردي وحرك يده إشارة إلى امتعاضه بملل قائلاً «هذر وهراء، شعر النساء هذا». ولاقيتُ صعوبة بالغة في إقناعه بأن يعيد لي ما سمعه من الآخرين.

بغية الإفلات من الحرب والجوع رحل الخراريص إلى مكة، ولكن مرسا لم تتمكن من التعود على حياة المدينة. وذات يوم رأت قافلة من جمال البدو تغادر المدينة. أيقظ المشهد فيها حنيناً قوياً إلى الصحراء، فعبرت عن مشاعرها بهذه الأبيات: يا اهل الركاب اللي سواة الحني العوج

مستدخلات هيام من غير عِلّة
ما تركبون اللي على نجد مدهوج
احب نجدٍ من محبّة هلٍ له
وليا وْصِلْتوا نجد فِكّوني أدوج
امشي مع الحيين وإن متّ لله
وجدي عليهم وجد من طاح في الموج
غدت به الأمواج ما أحْدٍ فِطلّه

الكلمات الأخيرة، «ما أحدٍ فِطلّه» أربكتني. سألتُ، «ماذا تعني؟»، جاء الجواب، «حسناً، لا أحد يراه ولا أحد يفطن إلى أنه طاح». قلتُ، «إذا أردتَ رأيي فإن فِطلّه ليست كلمة عربية». قال خالد بانزعاج، «إنها عربية قطعاً. وليست هناك كلمة عربية أكثر منها!». ثم اتضح الالتباس، «أها، ما عَنته مرسا هو «فطن له» بالنون بدلاً من اللام!» زمجر خالد قائلاً، «لا، بلا نون: فِطلّه».

لم أدرك إلا في ما بعد أن النون يُدغم في اللهجة البدوية باللام وان اللام يُشدَّد. ولكن خالداً ليس ملماً بقواعد العربية الفصحى. وقد فاتته تماماً طريقة الاستذكار التي استخدمتُها لفك مغاليق لهجة مجهولة مثل لهجة عتيبة من معرفتي اللسانية الأكاديمية. فهو، شأنه شأن غيره من حَمَلة الثقافة البدوية، من الأسهل عليه مليون مرة أن يلقي مئات الأبيات على أن يحلل كلماته ذاتها. ومواهبه التربوية تتناسب عكسياً مع حجم المادة المحفوظة في رأسه. الساعة ونصف الساعة التي كنا نقضيها على تسجيل النص وشرحه كانت عذاباً بالنسبه إليه. فخالد والبدو الآخرون لا يفهمون أن الغريب لا يكتنه كلماتهم على الفور، وليس لديهم أدنى فكرة عما ينطوي عليه تعلم لغة أجنبية، وبكل تأكيد تعلم لهجة لا تُدرَّس في أي مكان.

السعوديون العصريون المدينيون لا يهمهم عالم البدو القديم. فإما يكون المرء رضع هذه المعرفة مع حليب أمه أو لا يكون. وفي الحالة الثانية يمكن أن يعتبر المرء نفسه محظوظاً لأنه يكون خطا خطوة أخرى في العصر الحديث. وعلى الضد من ذلك، فإن أفق خالد وأصحابه لا يذهب أبعد من عفيف. وهم في هذه الدائرة يعرفون كل حجر وتاريخه. العالم الخارجي لا يهمهم في الواقع. القضية الفلسطينية لا يُعرف عنها شيء إلا بشكل ضبابي، وآخر ما سُمع عن أوروبا في الصحراء العربية كان الحرب العالمية الثانية. وحين قامت الثورات الديموقراطية في أوروبا الشرقية ظل حديث الساعة كما كان تماماً في المجلس. فالمجلس هو المقهى والجريدة والتلفزيون والمكتبة والمسرح، مجتمعة في منبر واحد. وكل حدث يؤثر في البدو يجد صداه هنا، ولكنَّ هناك ثابتين حاضرين على الدوام هما أنساب البدو والحروب والغزوات في الأيام الخوالي، «أيام العرب»، حين كانت كل قبيلة قانوناً قائماً بذاته. وقصص تلك الأيام تُستحضر وتُجتَرّ بلا نهاية. التكرار أبداً لا يصبح مملاً وله أفضلية أخرى هي أن كل جيل جديد يكون مشبعاً بماضي القبيلة. وبالنسبة إلى السعودي

الحضري فإن هذه الأحاديث بالكاد يمكن متابعتها: برغم أنه يتكلم اللغة نفسها من حيث الأساس فإنه يفتقر إلى الخلفية اللازمة. ويقول شليويح في قصيدة من قصائده إنه تسلق جبلاً خلال إحدى الغزوات: طالعت لي عِفْرٍ على شوف الابعاد

قد عوّد القنّاص والشوف دانى

يخلص شليويح من البيت الأخير إلى أن الوقت يكاد يكون ساعة الغروب. ولكن الصياد في الصحراء يعود قبل الظهيرة ورداءة الرؤية لا تمت بصلة إلى حلول الغسق بل إلى اهتزازات الهواء في أحرِّ ساعات اليوم. فالوقت صيف، لا يغامر بالغزو فيه إلا الأشد بأساً. قصيدة أخرى تبدأ بالمطلع التالي:

يا مل قلبٍ عانق الفِطّر الفيح
كنّه على كيرانـهن محزومى
ما ينعذل عنها يقع تعذل الريح
ولا يشدّ الضلع ضِلْع البقومى
يا ناشدٍ عنّي تراني شليويح
قلبي على قَطع المخافة عزومى
وفي مكان آخر من القصيدة يقول شليويح بالحرف الواحد:
وان قلّت الوزنة وربعي مشافيح
أخلّي الوزنة لربعي وأشومي

البدوي يعرف في الحال ما يعنيه شليويح. فحين نضب الماء خلال حملة صحراوية كانت هناك طريقة مجرَّبة لتقاسم المتبقي بعدل بين الرجال. كانوا يأخذون إناء معدنياً ويضعون حصاة فيه ويملأون الإناء حتى تختفي الحصاة، «المعيار» أو «الوزنة»، تحت الماء مباشرة. وبهذه الطريقة يستطيع كل واحد أن يرى أن الآخرين لم يحصلوا على نصيب أكبر للشرب، ويتم تفادي الاختصام. ولم يكن هذا تحوطاً غير لازم لأن الرجال كانوا مستميتين، من شدة العطش ومن الرغبة في الغنيمة. ولكن شليويح استغنى عن «الوزنة»: ضحى عامداً بنصيبه من الماء. وبذلك أثبت أنه يستطيع أن ينكر على نفسه أكثر من الآخرين وأنه قادر على تحمل أشد الحرمانات بصبر. لقد كان متفوقاً على رفاقه في قوة الإرادة والشجاعة والتحمل وضبط النفس. وآثر أن يؤكد ذلك على أن يأخذ رشفة أخيرة من الماء يرطب بها حنجرته الجافة من شدة الظمأ.

القادم المبتدئ إلى هذا العالم لا يمكن أن يتوقع مساعدة من الباحثين السعوديين أيضاً، باستثناء قلة. فالأساتذة الجامعيون يفضلون دراسة الأدب العربي الكلاسيكي بمعونة تعليقات كتبها باحثون ميدانيون من القرن التاسع وما سجلوه من أفواه البدو في تلك الأيام. فهم غير مستعدين لمغادرة مكاتبهم المكيَّفة في الجامعة من أجل إقامة غير مريحة في المناطق المحيطة حيث ما زال أحفاد ذلك الأدب أحياء يرزقون. إذ إن التحيز ضد اللهجة البدوية والتفكير في الحرارة والغبار والطعام والمعاملة التي عليهم أن يتحملوها من بدو أجلاف سليطي اللسان؛ كل هذا يتضافر لمنع الباحثين من النزول من أبراجهم العاجية المكيَّفة.

على أية حال، ما كان بمقدوري أن أتوقع أي تقدير من خالد. فأنا عنده مجرد تلميذ لا خير فيه. وقلتُ غاضباً، «حسناً، قل للوكيل حين نقابله معاً، كما تشاء، بأنه أرسل معتوهاً يناكدك». رد خالد متبرماً، «ليس الأمر بيدي. إذ من المنطقي أن أغضب حين يكون عليّ أن أعيد كل شيء عشرين مرة. كأننا في مدرسة هنا! هناك يتلقى الأطفال صفعة إذا رفضوا التعلم. عدا ذلك، بالي مشغول في الوقت الحاضر بالكثير من هموم قبيلتي. فماذا يُفترض بي أن أفعل مع مرسا هذه؟ إنها ليست أحد أجدادي، اذهب واجمع معلومات من أهلها!».

وإذ شعرتُ بالإهانة الكبيرة قفزتُ في سيارتي عصر ذلك اليوم وتوجهتُ إلى عفيف، لإعطاء غسيلي إلى المنظفين اليمنيين ولشراء أرغفة من الخبازين الأفغان ولبن رائب من البقال المصري. وأخذتُ مصباحي الذي يعمل بالبطارية إلى الكهربائي: سوداني عملاق، نحيل بلون الأبنوس من المنطقة الاستوائية، قال لي إنه يعيش وقتاً عصيباً في عفيف لكونه مسيحياً ومن أنصار زعيم المتمردين جون قرنق. بعد ذلك ذهبتُ لوداع منيف الذي كان على وشك المغادرة بسيارته إلى الكويت. كان ابنه مقبلاً على الزواج من فتاة أهلها غنانيم هاجروا إلى الكويت في فترة الجفاف والجوع.

شعرتُ بالأُلفة أكثر من أي وقت مضى في مجلس منيف ذي الأجواء المنفرجة. حتى الداخل البورجوازي صار فجأة أثيراً لدي: الرف وقد صُفَّت عليه كتب لم تُقرأ، مثل الدين الحق للشيخ سبكي المعروف بلقب «باعث الدين وكابح البدع»، والخزانة المراسيمية وقد عُرضت فيها باقة من الزهور البلاستيكية الحمراء والصفراء التي غطاها الغبار، وآيات مخطوطة من القرآن، ومبخرة كاذبة مرصعة بقطع من الزجاج الملون وصور مساجد في مكة والمدينة، والبساط الأحمر من النوع الرخيص والوسائد، والجدران التي عُلقت عليها من الأرض إلى السقف مناظر من جبال سويسرا ذات السفوح الصفراء في الخريف والوديان الخضراء والقمم المكسوة بالثلوج. وفيما كان خطيب الفتاة يدير القهوة والشاي من دوارق الترمس، كنتُ أنا أعبّ كل ذلك بامتنان.

وما كان أكثر مدعاة للغبطة أن الجميع استمعوا بكل اهتمام إلى قصة عدم الفهم الذي لقيته من خالد. وقال لي أحد المستمعين، وهو من الخراريص، إن فخذا من قبيلته أرسل قبل ستين عاماً وفداً إلى عمر بن ربيعان، شيخ الروقة كلها طالباً منه السماح له بسحب اعترافه بإمارة مشعان، والد خالد، عليه. وتسبب الوفد في مصيبة حلت بالقبيلة لأن الخراريص انقسمت منذ ذلك الحين إلى شقين، كل شق لا يني يخاصم الآخر. وتذكرتُ فجأة شكوى خالد من البدو: رعاع يرفضون طاعة شيوخهم. ولم يكن يتكلم على البدو بمعنى مواطنين من الدرجة الأولى بل بوصفهم صحراويين يعدهم رعاياه.

عدتُ ذلك المساء إلى محل إقامتي في المزرعة من دون أن أقوم بزيارتي المعتادة لخالد.

نهضتُ من سريري الميداني ومشيتُ إلى خزان الماء. تسلقتُ عاري القدمين على الحافة الإسمنتية وجلتُ النظر إلى ما وراء المزرعة. كانت السماء بلورية ومعالم الطبيعة محدَّدة بوضوح شديد. في الغرب، فوق الصحراء، كان المقطع الأخير من قرص الشمس الأحمر يغوص بسرعة مرئية بين مخروطين من جبال أجله المنتصبة فوق الأفق. وبعد زمن قصير، بينما كان لم يزل هناك ضباب أزرق خفيف في الغرب، ظهر كوكب الزهرة في الجنوب. ثم على مسافة بعيدة إلى الغرب وعند نقطة الهبوط تحت الأفق أطل نجم «السماك الرامح»، الأحمر. وأُضيئت أنوار السماء نوراً بعد نور. فوقي تماماً كانت البجعة ونجما الصقر اللذان يسمَّيان هنا «النسرين». وبالاستدارة 90 درجة وجدتُ النجم القطبي؛ الجَدي. قستُ المسافة بين النجم القطبي والمكان الذي غاصت فيه الشمس بين قمم أجله، بين الشمال والغرب، وفكرتُ: لو مشيتُ بخط مستقيم في هذا الاتجاه فسأصل إلى أهلي.

في غضون ذلك خمدت زقزقة طيور الوروار الرتيبة. ولكن، لسبب مجهول، طارت فجأة في هبة واحدة من الشجرة واختفت تصيئ في خِمار الليل الأسود.

*

صباح اليوم التالي جاء الخادم البنغلاديشي شافي الذي يقدم القهوة ليخبرني أني مطلوب في القلعة. توجستُ خيفةً. سألتُ، ما الخطب؟ شافي لف نفسه بدرع آسيوية لا يمكن اختراقها. ربما هناك «كلام» مع الأمير. خطفتُ على عجل عدداً من الكتب التي تُقدَّم هدية من صناديقي الكرتونية ثم سلمتُ نفسي إلى شافي لأكون في حمايته.

كان خالد يجلس في مكانه المعهود على الشرفة. دخل في الموضوع مباشرة. فرج، الذي كان المترجم في الأمسية الأولى، سُجن بسبب ديون غير مسدَّدة، والأكثر من ذلك أن في رأس خالد نفسه هموماً قَبَلية ينبغي التفكير فيها، ويحسن بي أن أغادر إلى وادي الدواسر وأعود في ما بعد لإنجاز العمل. ما رأيي بذلك؟ قلتُ إن فكرة السفر بالسيارة ألفي كيلومتر بين عفيف والوادي ليست فكرة جذابة. وأضفتُ أن الأنكى من ذلك كونها فكرة متعذرة، أولاً لأن خالداً أحسن مصدر معلومات صادفته، وعلاوة على ذلك لأن الوكيل يتابع تقدمي شخصياً ويتوقع مني أن أواصل مهمتي هنا. هدّأ هذا من روع خالد بعض الشيء، وقال غاضباً إنه انتظرني مساء اليوم السابق بلا جدوى على العشاء. كان عذري أني أردتُ على وجه التحديد أن أعطيه استراحة مني وأني ذهبتُ لوداع منيف. وكحبيبين تبادلنا العتاب المكبوت بيننا، ضربةً منه وضربةً مني، حتى كانت أوراقنا كلها على الطاولة. انقشع غبار الشك وتبددت المشاعر التي تقرحت إلى دمل من الغضب وحلَّ الإدراك أننا كدسنا سوء فهم فوق آخر.

كان عليَّ أن أعد بأن أحضر من الآن فصاعداً من دون تلكؤ لتناول الوجبات اليومية الثلاث، وأن أمحو كل ما سجَّلتُه من منيف والغنانيم، أو على أية حال ذلك الجزء الذي سجلتُه بطريق الخطأ على تسجيل صوت خالد. وكان خالد مستعداً لإعادة التسجيلات المفقودة، ولكن لدى استماعه إلى نص الغنانيم استبد به شك خبيث. وكان يخشى أن يكون منيف ورهطه يستغلونني من دون علمي كأداة في مؤامرة لتزوير عمله. ما كان يبتغونه هو تشويه كلماته وقلبها لإخفاء الحقيقة التي لا تعجبهم. واستخدم خالد كلمة «تحريف»، بمعنى غدر المسيحيين الذين أزالوا الإشارات إلى مجيء خاتم الأنبياء محمد من «الكتاب المقدس».

امتعض خالد بصفة خاصة لتحريف بيت عبر فيه شليويح عن طلبه يد ابنة شيخ العضيان القوي شالح الضيط: يا خال سق لي في هوى البال صفراك

سقها ولا تَركِز مثاني الشريفى[5]
وسِقْ اللفوحِ وبنت ضرمان تكفاك
صِفْرٍ توافى اذيالها بالخليفى
نسوقًها فى بنت ذبّاح الأتراك
مِرْكى على أرقاب السبايا الرهيفى
لا والله اللي جرّ قلبى بشباك
جرّ الرشا من فوق قامة عفيفى
راعي هدب عينٍ ليا طورق اشهاك
يضفي على محاجره بالرفيفى
يا ليتني ما جيتهم رحت منّاك
ما جيتهم مِستَرْدفٍ لي رديفى
جنّبت عنهم فوق دمّثات الأوراك
فجّ العضود منزّحات النكيفى
وان كان مقبل قلت يا زين حيّاك
ولا يتبع المقفين كود الضعيفى

بدلاً من «الخال» استخدم خصوم خالد اسم أحد الغنانيم من ذلك الوقت؛ حمود. فبدا وكأن جد خالد الأكبر جاء يستجدي الغنانيم أن يعطوه خيولاً يقدمها مهراً لخطيبته. وعدا هذا التزوير، لم يكن خالد يريد أن يدين بشيء لمنيف وأزلامه. باختصار، يتعين محو ذلك فوراً من الشريط. وقد وعدتُ بأن أفعل ذلك، على أقل تعديل في النسخة التي سأعطيها لخالد.

انفرجت الآن أسارير خالد. وإذا شئتُ فإن بمقدوري البقاء سنة، وسيكون متفرغاً لي عصر كل يوم. وهكذا عاد السلام. وفي أقل من خمس دقائق سوينا آخر المشاكل المتعلقة بأبيات مرسا.

5. كان أشراف مكة معروفين بكرمهم الماكر. إذ كانوا يهدون خيولهم الأصيلة شريطة أن يكون لهم الفلو الأول من الفرس.

الهراء

دخلتُ عصر ذلك اليوم نفسه من بوابة الفناء الأمامي متسلحاً بعدتي من الأوراق والكتاب الأخضر. ولكن نظرة إلى اليمين كانت كافية لتبديد أي آمال كانت قد انتعشت. فعلى البساط تحت السور الغربي جلس ثلاثة رجال لا أعرفهم بوجوه متجهمة. كان أحدهم يرتدي نظارتين ذاتي إطار عظمي تتناقض تناقضاً صارخاً مع حزام رصاصه العريض الأسود ومسدسه، الذي كان كعبه مرصعاً بشذرات معدنية. آخر كان يرتدي كوفية بيضاء باذخة ذات نقشة زرقاء. شعره يبدأ قصيراً ثم يتدرج متزايداً في قمة الرأس وله وجه أبيض أشبه بالروس الآسيويين. وإلى جانب هذين الرجلين الكبيرين في السن نسبياً جلس شخص أصغر ذو لحية كثة دأب على القول بغضب وازدراء إن لا جدوى في تحمله مهانة الانتظار أطول. ولأكثر من ساعة جلسوا متأففين يتطلعون إلى البيت المغلق تماماً من دون أن ينم عن أي أثر لحياة.

قدَّمتُ نفسي، ومن باب اللياقة شرحتُ أن سبب وجودي هو الرغبة في إجراء بحث ميداني في تراث الشاعرين العربيين الكبيرين شليويح وبخيت حيث هناك اهتمام كبير بهما في هولندا. الرجل الغاضب ذو اللحية الصغيرة سخر بازدراء وقال مهدِّداً، « لا تظن أنك تستطيع أن تضحك علينا. لا تستطيع أن تخدعنا بأن في هولندا مَنْ سمع ببخيت وشليويح. أسماء ملوكنا عبد العزيز، فيصل، فهد، نعم، ربما يعرفون هؤلاء في بلدك، لا أكثر». ولكني أصررتُ على أن شهرة فرسان الصحراء هؤلاء تمتد بعيداً خارج الحدود. وجادلتُ قائلاً «ليس هذا بجنون. أوليس شليويح واحداً من ثلاثة شيوخ سُميت بأسمائهم ثلاثة شوارع في الرياض، مع عمر بن ربيعان وراكان بن حثلين من العجمان؟». لم يكن لديهم جواب، ولكن تعبير مَنْ لا يصدق ظل مرتسماً على وجوههم.

قلتُ مشجعاً، «لا تقلقوا، خالد سيأتي قريباً». ولكن في اللحظة ذاتها رمقني الخادم شافي بنظرة توبيخ فحولتُ مجرى الحديث. سألتُ، «مَنْ أنتم؟ ما هي قبيلتكم؟»، قالوا باقتضاب، «عتيبة». « نعم، طبعاً، الروقة، طبعاً، ولكن ماذا بعد ذلك؟»، «ذوي عطية»، «ثم ماذا بعدها؟»، «الخراريص». «أها»، قلتُ موظِّفاً معرفتي التي اكتسبتها من منيف. «إذاً، أتوقع أنكم من المويه». كانوا الآن مندهشين حقاً، «ما هو ببسيط»، تمتموا مع بعضهم بعضاً. وهذا يعني أنك لا تستطيع أن تضحك عليه بسهولة، فهو يعرف أكثر، ولديه أفكار أعمق مما تتوقع من الوهلة الأولى.

كنتُ على وشك الخوض في حديث لمداعبتهم حول المحاجات المتبادلة لدى الخراريص، التي يعتمدون بسببها الآن على خالد، عندما ظهر نايف. كان نايف واحداً من الأبناء الثلاثة الكبار الذين تركوا لأسباب مختلفة وراثة والدهم مشعان للشقيق الأصغر خالد. ونايف، مثله مثل تركي، وهو شقيق آخر لخالد، يعمل مع المجاهدين؛ الجهاز الأمني المسؤول عن حراسة أنابيب النفط. ونُسِّب تركي إلى المحطة رقم 10 ونايف إلى المحطة رقم 11، على بعد : كيلومتر منها. وكانت العربية السعودية كلها تعرف أن تركي قتل بالرصاص سعودياً آخر أثناء مشادة كلامية وأفلت من العقاب المعتاد بقطع الرأس. ففي النهاية اتفقت العائلتان المعنيتان بالنزاع على دية وتمكن تركي من العودة من مكان اختفائه. ويعمل الأخ الرابع في دائرة حكومية بوصفه أميراً في ترُبة على الحدود مع الحجاز.

حين ظهر نايف ثار على الفور حوار محتدم. «أين خالد؟»، أراد الرجال أن يعرفوا. «لا تستطيع أن تخدعنا. إنه يختبئ منا!». دعك نايف عينيه ليطردَ النعاس منهما وظل صامتاً. دخل البيت وبدأ يقعقع بجميع المصاريع صارخا: «يا بو نايف، يا بو نايف، أين أنت؟». واختفى وراء البيت واخيراً عاد بالنبأ: خالد طريح الفراش محموماً. صاح الزوار، «هراء»، «مسخن عنا!». انحنى الرجل المسلح بالمسدس إلى أمام وأخذ يمسد الجانب الأسفل من لحية نايف الكثة ثم يقبل يده هو. الآخر ذو الكوفية الزاهية ضم أصابع يده في قبضة ثم دفعها إلى أمام وراحتاه مبسوطتان إلى أعلى من منكبيه في حركة مسرحية: «نايف، الله يجازيك، يا ابن ابيك، يا ابن مشعان!». ولكن نايف لم يتأثر وأصر على القول إن ليس بيده شيء. ومع اقتراب ساعة الغروب غادر الثلاثة بسيارتهم غاضبين.

فُتح الباب الأمامي وطرفت عينا خالد الذي يغالبه النعاس في ضوء النهار. طاقيته البيضاء مرئية تحت الكوفية التي انزلقت إلى الوراء. وتمصر ضاحكاً بحبور. قال، «وا وا وا، بدو»، مضيفاً من باب الإيضاح «رعاع، ضجة حول لا شيء. ممسوسون، هناك خيط فيهم جميعاً. دائماً يثيرون ضجة ويشترون الجدال بالمال، دائماً متاعب حول الأرض. ولهذا السبب لا أريد أن أراهم».

بعد صلاة العشاء انتقل بساط المجلس من الحائط إلى الحصى أمام شرفة الدار. كنا اتخذنا مجلسنا للتو حين توقفت سيارة خارج البوابة. قفز خالد وطار كالبرق إلى داخل البيت وصفق الباب المعدني وراءه. وفي تلك اللحظة تقدم اثنان من الرجال الثلاثة داخل الفناء الأمامي. الشاب الفظ، غير المهذب لم يكن معهما هذه المرة. ادّعيا أنهما رأيا خالداً، ولكننا ـ أنا ونايف وشافي ـ كذبنا بأن خالداً ما زال متوارياً عن الأنظار. ومرة أخرى تقدما مقتربين من نايف أكثر فأكثر، وبالحاف أكثر فأكثر. الرجل ذو المسدس ظل يدفع نظارتيه ذاتي الإطار العظمي إلى الوراء على أرنبة أنفه ويشد حزام الرصاص الذي يرتديه ليثبته على صدر جسمه المربوع مواصلاً في هذه الأثناء تمسيد لحية نايف بأصابعه. الرجل ذو الوجه الأبيض وضع كل قدراته على الإقناع في

عينيه الخضراوين نصف المغمضتين، ونظر إلى نايف مثبتاً عليه عينيه اللتين بدا أن ضراعة صامتة وتهديداً خفياً ينبعثان منهما. ومرة أخرى مد يده، «الله يجازيك، يا نايف، يا ابن ابيك!». وبقي نايف غير متأثر. وقال، «والله، لا أعرف. سنرى إن كان بوسعنا أن نفعل لكم شيئا، ولكن الأشياء التي ليس لنا قِبَل بها، باسم الله...». وأخيراً تراجعا بعد أن تلقيا وعداً بأنه ستكون لديهما فرصة للتحادث مع خالد في الصباح التالي.

*

وقت الفطور، سادت أجواء انفراج في بيت نايف في عفيف بين المفاوضين الذين يعرفون أن كل ما عليهم هو أن يؤدوا بعض الشكليات التي لن تهدد الاتفاق بعد الآن. الخراريص هدأوا وخالد جلس ضاحكاً مقهقهاً. من الواضح أنه كان يمارس اللعبة التي يتقنها. أوصل القضية إلى حل بسطوة وجدارة. أعطى قصاصة ورق إلى الرجل ذي الملامح الآسيوية الوسطى وأملى الرسالة التي سيذيلها هو نفسه بتوقيعه. ومن كلماته استشففتُ، في نتف، فحوى القضية. فلقد حفر الخراريص بئراً جديدة قرب الهجرة؛ أو القرية التي بنوها بموافقة خالد على أرض تعود له، ولكنهم حفروا البئر بمبادرة منهم فجاءت الشرطة وأمرتهم بردم البئر. وكانت الشرطة تنفذ بذلك أمراً من المحكمة في ظلم حيث رفع خالد دعوى. والرسالة التي أملاها خالد كانت موجهة إلى أمير ظلم وجاء فيها أنه قرر إسقاط الدعوى بعد أن بحث القضية مع «موفدين موثوقين وأمناء من القبيلة».

المسرحية التي مثلها مع أخيه في اليوم السابق لم يكن القصد منها إلا إفهام البدو أنهم لا يستطيعون الضحك على شيخهم. ومرة أخرى تعلم الخراريص درسهم.

الإسلام

ذات صباح سلمني خالد طرداً باسمي. كانت محتوياته ثلاثة أشرطة كاسيت مع يافطة أُلصقت عليه تقول باللغة الألمانية: يرجى تَسلُّم هذه المجموعة». كان المرسل «رئاسة الأبحاث الإسلامية والإفتاء والدعوة، قسم الجاليات الأجنبية». خالد نفسه لم يعرف كيف اقتفوا أثري إلى عبلاء، إذ يمكن توجيه انتقادات كثيرة إلى خالد ومنيف لأسباب عدة ولكن ليس بينها ملاحقتي بالدعاية للإسلام.

لا يعني هذا أن الحكومة والمسلمين في عفيف كانوا مقصرين في تحمسهم الديني معي. ولكن محاولاتهم لم تسفر عن النتائج المنشودة.

ولتفادي الخوض في أسباب عدم اعتناقي الدينَ الإسلامي، أوجدتُ عدداً من الردود لقطع النقاش. وقد اقتنع رئيس بلدية عفيف، على سبيل المثال، بالمحاجة القائلة إن لدى المسيحية والإسلام العظيم، برغم الاختلافات المتبادلة، مبدأ هاماً يشتركان به هو التوحيد، وهنا كنتُ لا أنسى أبداً أن أشير بسبابتي إلى الأعالي. هذا، على أية حال، ما ينسجم مع التقليد البروتستانتي الذي أنتمي اليه. وكان من الطبيعي أن أبقى وفيا بقلبي وروحي لتقاليد أجدادي العريقة مثلما يتمسك السعوديون بتقاليدهم. وسأل الأمير، «ولكن ماذا لو كان هؤلاء الأجداد في ضلال؟». كان جوابي أني لا أستطيع أن أتخيل أن أجدادي كلهم خرجوا عن الصراط المستقيم. وعدا ذلك فإن هناك أخياراً وأشراراً في العالم أجمع.

لكني لم أكن دائماً أتملص بسهولة. فإن مفاهيم مثل التعايش بين الأديان والتشارك في العلاقات الدينية والإيمان والاحترام المتبادل لم تترسخ في الجزيرة العربية حتى الآن. وقال لي مسؤول ديني في مكتب البريد في عفيف بصراحة إن لا مكان للاحترام المتبادل «لأن دينك بلا جذور».

في النهاية أدركتُ أن بإمكاني أن أوفر على نفسي كثيراً من المتاعب والمجهود الذي كان من المحتم أن يؤول إلى الفشل، بتأكيد النظرة السائدة إلى الحضارة الغربية بارتياح وثني. فذات يوم دعاني جازي شيخ السلسة إلى وليمة من لحم الضأن في بيت صهره خالد. في البداية اتخذ أكبر أبناء جازي، وهو مطوع لا يضع عقالاً على كوفيته ولديه نظرة نارية في عينيه، موقعه في الشرفة للتكبير داعياً إلى الأذان، ثم أمّ صلاة العصر في المجلس ضاغطاً جبهته في الأرض باستمرار خلال السجود خاشعاً.

بعد الصلاة جاء النقاش المحتوم. «دعني أسألْك»، بدأ جازي متطلعاً إليّ بتساؤل، «وعليك أن تعدني بأنك ستجيب بكل صدق. أصحيح، أصحيح، كما تقول بعض الأخبار التي تصلنا، أن للبنات في بلادكم أصدقاء؟ وهل صحيح أنهن أحياناً يأخذن هؤلاء الأصدقاء إلى بيوت أهاليهن؟ أو إلى كازينو أو متنزه أو فندق؟ وهل صحيح أنه يكون لديهن أحياناً أكثر من صديق؟ هل هذا صحيح، وما هو موقف الناس عندكم من تلك الآصرة التي ينبغي أن تجمعهم بعائلتهم، الرابطة التي رفعها الإسلام لتكون أساس المجتمع؟». قلتُ، «الأخبار صحيحة تماماً وتعطي صورة صادقة عن الواقع الأخلاقي في المجتمع الغربي. صحيح أن للبنات في بلداننا أصدقاء وأنهن يخترن هؤلاء الأصدقاء بأنفسهن. وهذا منطقي حين تكون المرأة متساوية من كل النواحي مع الرجل. وحتى في جيشنا وبحريتنا تخدم المرأة بالبزة العسكرية جنباً إلى جنب مع الرجل. ولدينا ملكة أيضاً».

نظر جازي وابنه إليّ كأنهما يريان جسم المجتمع الغربي في أشد حالات تفسخه. قال خالد، «هراء، فالمرأة ضعيفة وبلا عقل. والله، سبحانه وتعالى، حدد قيمة المرأة بنصف قيمة الرجل: في الشهادة أمام المحكمة، في الدية، في كل شيء».

في المزرعة تصفحتُ الكرّاسات التعليمية الصادرة عن الجمعية العالمية للشباب المسلم التي دسها في يدي موظف البريد. وفيها قرأتُ أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لا يمكن أن يُقارَن بالحقوق التي منّ بها الله، لأن الأولى لا تنطبق على الجميع في حين أن الثانية تنطبق على كل مسلم. «ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (سورة المائدة: 44).

صعود خالد إلى النجوم

ينشط خالد في حركة دائبة مساء إثر آخر كأنه سياسي في جولة انتخابية، وهذه المرة طُلب منه أن يشرّف بحضوره اجتماعاً يعقده الغنانيم، من دون حضور منيف بطبيعة الحال. وقرب محطة لتعبئة البنزين قبل عفيف مباشرة انحرف خالد بسيارته المصمَّمة لكل التضاريس شمالاً في الصحراء. المصابيح الأمامية التي تهتز صاعدة نازلة لا تضيء إلا طريقاً عارياً، ولكن بعد فترة قصيرة تنير لنا الطريق المصابيح الخلفية لسيارة بعيدة. هناك حوالى عشر سيارات بدوية ـ سيارات بك آب وتويوتا لاندكروزر ـ ، وبجانبها اقتعد الغنانيم الأرض في نصف دائرة حول نار من الفحم يُشوى عليها خروف. وعلى حافة البساط نزعنا صنادلنا لتنضم إلى الصف الطويل من أحذية البدو. يجلس خالد في المكان الذي أُشير إليه به على رأس المجلس متكئاً على وسادة. وبصفتي مؤرخه الشخصي سُمح لي بالجلوس إلى شماله. وفي وسط الحلقة وقف كالعادة الصبي الذي يدور بدلّة القهوة. وفي راحة يده أمسك برجاً من الفناجين الخزفية لا يزيد حجمها كثيراً على حجم الكشتبان، ومن عنق الدلة الطويل في يده الأخرى كان يصب القهوة في الفنجان الأول من البرج ـ «كخيط من الحرير» ـ بلغة الشعر. وبرغم ألياف النخيل المحشوة في فوهة الدلة فإن السائل الأخضر في فنجاني كان مليئاً بالهيل الذي يضيفه البدو لإعطاء قهوتهم نكهة زكية.

كانت سماء الصحراء متألقة فوقنا. في الشمال كانت نجوم الثريا تتلألأ كأنها تاج مرصَّع بالجواهر. وتحت، فوق الأفق مباشرة، لاح نجم الثور الأحمر ينبض كأنه قلب ذئب، كما توصَف النجوم الحمر في القصائد الموسمية القديمة.

وهذا على وجه التحديد ما هي فعلاً عليه، لأن النجوم إذا كانت عالية في السماء تسطع بضوء بارد منتظم، ولكن عندما ترتفع فوق الأفق تتلألأ وتومض كأنها تبرق إشارات.

أفلح خالد كعهده في الاستئثار بالحديث وبدأ يُتحف مستمعيه بقصص شليويح، جده الأكبر الشهير، وقصائده. وفي هذه الأثناء كان يجري امتحان معرفتي بالقصائد وأسماء الجبال ومواقع الآبار. أرادوا أن يعرفوا ماذا يعني شليويح بـ «الهضاب المزابير» (الجبال الشامخة ذات الشكل المخروطي). جربتُ جواباً غير مباشر: «شيئاً من قبيل «نابي الردايف» (الاستدارات البارزة في ردفي المرأة)؟»، بوصفه كليشهاً في الشعر الغنائي. هناك ضحك مكتوم حول النار، ويصيح أحدهم: «هذا ما تفعلونه أنتم، لا نحن!»، فيهتف آخر، «لا، نحن أيضاً نفعله».

مخزون خالد من القصص معروف للجميع، ولكن لا يبدو أن أحداً يملّ منه بالمرة. فهم لا يشبعون أبداً من سماع كيف كان شليويح شديد الذكاء أكثر من القبائل الأخرى مثل قحطان وشمر ومطير، وكيف كان يذيقهم سوء العذاب. نصف الحاضرين كانوا يَدْلون بدلوهم للمساهمة في سرد الماضي القبلي. ومطوع فقط، اعتمر كوفيته في طوية متقشفة حادة، مستدقة الطرف في مقدمة رأسه، اختلف قليلاً مع قصيدة حافلة بالحكمة الدينية. ثم انتقل الحديث إلى «أبي حنيك»، كما كان يُسمى غلوب باشا، قائد الجيش البدوي الأردني حتى منتصف الخمسينيات، بسبب حنكه الطويل. ما زال اسم غلوب باشا حياً في ذاكرة القبائل في الصحراء العربية أكثر بكثير من لورنس العرب الذي لا يعرفه أحد هنا.

أحد الغنانيم يتذكر أن بدوياً تحدى غلوب ذات مرة: «أربعة جنيهات لك يا أبا حنيك إذا تمكنت من نظم قصيدة كما نفعل نحن!». ولكن الشعر لم يكن من مواهب غلوب.

يتحسن المزاج. وإذ تجرفني هذه الحفلة الشعرية في غمارها أرمي نفسي في الحلبة بأغنيتي الأثيرة: «يا ضاق بالي قلت دنّو ذلولي! حطوا عليها كورها والقراميش!». هذا الشاعر، رضا بن طارف من قبيلة شمر في الشمال، صاحب هذه القصيدة، غير معروف لهم. يستمعون بانتباه حين أحدثهم عن تاريخ القصيدة وغدر الساعي الذي أرسله رضا إلى الحبيبة. يتذكر أحدهم، «هذا حدث في قبيلتنا أيضاً سوى أن هذا الساعي نجح في خطف المرأة من تحت أنف الرجل الذي أرسله». ولكن بعد جدال محتدم يتقرر أن من غير اللائق إسماعي قصيدة العتيبي المخدوع. يسألونني عن خبراتي مع قبيلة مطير في الربع الخالي وما هي الأغاني التي أنشدَتْها الراعيةُ القحطانية في كهفها بينما كان شليويح يستمع في الخفاء. ويخلصون إلى: «ما هو ببسيط».

لقد تمكنتُ من مشاطرة هذا الشرف مع رجل قبيلتهم موهق الغنامي لأنه هو أيضاً لم يكن «بسيطا». ونبأُ أني جئتُ من هولندا بكتاب يمكن رؤية موهق فيه بضفائره الطويلة وكامل قيافته، كان سبقني إليهم. لم يكن أحد كبيراً بما فيه الكفاية لمجايلة موهق، ولكن أسطورته ظلت حية كأنه إمام الغنانيم الغائب. كان البعض يعرف مقاطع من القصائد التي نظمها أو التي جاءت من مصر، التي اختارها موهق منفىً له. وبعد ستين عاماً كان مصيره وما إذا كان قد خلف ذرية، لم يزالا موضع تكهنات واسعة. ولكن ذاكرة البدو الجمعية لم تنس أن موهق كان في ما مضى يُدخل البهجة والانتشاء في نفوس رجال قبيلته في ليال كهذه، فضلاً عن ذكائه وسرعة بديهته وحكاياته المضحكة عن غزواته الفاشلة.

كان أمراً يكاد يفوق الخيال بنظرهم أن يكون غنامي وصل إلى مصر. ولم تكن لدى أحد منهم أدنى فكرة أين تقع هولندا. «كم يبعد بلدك حقاً يا مارسيل؟». الجغرافيا خارج الجزيرة العربية ليست مما يتقنه البدو. البعض كان يعتقد أن هولندا في أميركا، والبعض الآخر يبحث عنها باتجاه الهند. فلم

يكن هناك معنى في تعداد البلدان التي تفصل عفيف عن امسترادام. ومن باب الإيضاح لهم أجريت حساباً تقريبياً: «مئتان وخمسون شدّة بدو (الشدة تبلغ نحو ثلاثين كيلومتراً، وهي المسافة التي تستطيع قافلة جمال محمَّلة بكل ممتلكات القبيلة أن تقطعها في يوم) بهذا الاتجاه»، قلتُ مشيراً إلى بقعة في منتصف الطريق بين النجم القطبي والغرب. كان هذا في رأيهم تخميناً واضحاً على أقل تقدير.

بينما كان خالد يمسِّد لحيته العثنونية السوداء باستغراق باحثاً في ثنايا ذاكرته عن أبيات من الشعر، قالها أحدهم واتفق معه الآخرون: «لا نستطيع أبداً أن نعيش خارج ديرة قبيلتنا، وبالتأكيد ليس معك في الغرب». الغنامي الوحيد الذي سافر إلى أوروبا عاد غير متحمس لها. وفي هولندا أقام لدى عائلة حيث كان عليه أن يعود بحلول الساعة العاشرة تماماً في المساء. ذات مرة تأخر عشر دقائق فوجد الباب موصَداً لا يمكن فتحه. وفي لندن دعاه رجل إنكليزي ذات مرة إلى العشاء في مطعم. وفي ذلك اليوم كان التقى صديقاً سعودياً وأخذه معه إلى المطعم من دون إعلان، عملاً بالمبدأ السعودي: «عد أخيك وعد عشرة»، بمعنى «إذا قُلتَ صاحبك أيضاً فاحسب عشرة ضيوف إضافيين على الأقل». ولكن الإنكليزي لم يعرف شيئاً عن هذه العادات وارتكب ما كان بنظر السعوديين فظاظة لا يمكن تصورها بمنع الصديق من الانضمام إلى مائدته.

هنا، لا وجود للنقاش في السياسة الدولية، أو حول عالم المال أو تقارير البورصة. فالحديث يدور حول القبيلة؛ ماضيها وأهميتها لتقسيم البدو حسب الأنساب. وخالد يلح دائماً على حقيقة أن ذوي عطية أكبر فروع عتيبة. وهناك كلام يندد بالمعلومات الخاطئة في كتاب سعودي عن أمراء عشائر عتيبة قرأ منه خالد مقاطع بصوت عال. «هل أصبحتَ عتيبياً؟»، « أقول «نعم، ولكني روقي لا برقاوي». بمعنى «أنا أنتمي إلى نصفهم ولكني لا أنتمي إلى النصف الآخر من عتيبة». وهذا إعلان عام، نجاح رخيص كنجاح كندي الذي هتف عند جدار برلين Ich bin ein Berliner «أنا برليني». ولكن هذا هو النظام هنا: فأنتَ أولاً من الغنانيم ثم من ذوي عطية ثم من الروقة ثم من عتيبة، ويحيط ذلك غلاف رقيق من الهوية السعودية.

وهكذا، يجلس الرجال هانئين على البساط تحت السماء المرصَّعة بالنجوم في وسط الصحراء يستحضرون أحداثاً وقعت قبل أكثر من مئة عام كأنها وقعت يوم أمس وكأنهم يعرفون أبطالها جميعاً معرفة شخصية،وكأن هذا كله ذو قيمة راهنة أهمّ بكثير من التقارير التي نقرأها نحن الغربيين في الصحف.

«أنظر»، يقول خالد، «هذه هي حياة شليويح كما وصفها في هذه القصيدة القصيرة: عزّ الله إني ما عشقت الرعابيب

ما أدري طبع أو موقفتني قناعه
يا طول ما نركب على الفطر الشيب
وكم مارِدٍ جيته تعاوي سباعه
يا ما لمسنا قِرْصنا بالمشاعيب
ويا ما دفعناهن ورا الشمس ساعه
وكم ليلةٍ نوَختها تصرخ النيب
وزن البيوت اللي كبارٍ رباعه
واضوي عليهم كنّهم لي معازيب
ليا رمي عذب الثنايا قناعه
اهدّي الحامي وأخطي الاطانيب
وآخذ مهاوية الجمل باندفاعه»

«هذا هو شليويح»، يقول خالد باعتزاز. «غير هيّاب، في غزو دائم، أحسن سارق جمال في زمنه. الحب، النساء، الترَفيّات، كل ما هو ناعم ورقيق وضعيف، لم يكن يريد أي صلة به. كان يحتقر قصائد الغزل باستثناء مناسبات قليلة مثل المناسبة التي قال فيها: يا فدى عشيري من عظامه تقلّه

البدو اللي يلبسون الجزارى
وابن رشيد الشمّري فدوةٍ له
مغدي فراقين البوادى وقَارى
ومن عرض ما يفداه غوج نتلّه
وقطعاننا ومثَنْديات الصدارى
والشيخ يدمح لي ثمانين زلّه
واللاش ماني عن زراياه دارى

ولما سمع محمد العبد الله الرشيد، أمير حائل، هذه الأبيات، قال أفراد حاشيته « كيف يفدا بك شليويح العطاوي مرأة وأنت حاكم. فأجابهم، أنا أخو نورة، شليويح عليّ زلّة واحدة وطلب مني ثمانين وأنا ماني لا شي. وتمثل يقول: يا واصلٍ مني شليويح قل له

في سدّ وجهي من جميع المزارى
لا عاد شيخ وكل عقدٍ يحلّه
بالقيظ يتعب حافيات السمارى
والله ما ألومه لا فداني بخِلّه
حيث ان جارٍ له من الودّ جارى
قبله لطيف الروح حالي يتلّه
تلّ السلوك المبهمات الابارى»

يستمع البدو محبوسي الأنفاس: شليويح، ابن بوبح، كنّاس الخراء الذي ينازل كأنه ند لأقوى رجل في الجزيرة العربية يومذاك! إنهم واقعون تماماً تحت سحر الراوي. وما يسمعونه ليس صوت خالد بل صوت ابن شليويح، ابن حفيد شيخ ذوي عطية، ومن خلاله الفارس الهمام نفسه كان يتحدث للغنانيم.
وكما يستحضر فولكنر في رواياته روح جده الأكبر الأسطوري؛ العقيد الذي قاتل في الحروب وخاض مبارزات وشق طريقه من إنسان ذي أصول متواضعة إلى رأسمالي كبير، كذلك يتقمص خالد شخصية شليويح. ومن فمه تتدفق الأبيات، النوى في تمر قصصه التي كان جده الأكبر أول من رواها.

وفي مكان ما في البوادي المقمرة ينطلق شليويح فارساً لا يكل في واحدة من غزواته التي لا عد لها، شيخ الغنانيم وسائر عشائر ذوي عطية إلى أبد الآبدين.

الحج

في لايدن على قناة رابنبورغ هناك قصر منيف. وفي الأسكُفة فوق الباب الأمامي التزييني المزخرف بلفائف أنيقة حُفر الاسم «سنوك هورغروني» بأحرف من ذهب. وفي الطبقات العليا كان يعطي دروساً جامعية في العربية أحد تلاميذ هذا المستشرق الشهير الذي نهل من عيون الفقه الإسلامي طوال سنين خلال القرن الماضي تحت أعمدة المسجد الكبير في مكة. وكان هؤلاء العلماء يرتبطون بمؤسسي العلوم الإسلامية من خلال سلسلة طويلة من الشروح على تفسيرات شروح أقدم لكتب الفقه والشرع.

ما سجله المؤسسون كتابة كانوا بدورهم تلقوه من شفاه مراجع سلَّموا شعلة العلم إليهم بوصفهم الأخيرين في فريق من عدّائي سباق التتابع شفهياً. وعند المسلم لا يمتّ «العلم» بصلة إلى البحث الريادي في نظريات أو صوغها عن قوانين الطبيعة. للعلم عند المسلم المعنى الذي ما زال البدو يستخدمون الكلمة به اليوم، وهو العلم بما هو جديد، العلم بمعلومة.

والقول الإسلامي المأثور «اطلب العلم ولو كان في الصين»، لم يكن يعني أن على المسلم أن ينقل من الصينيين الطريقة التي يصنعون بها الألعاب النارية. إنه كان طريقة مترعة بالمعاني للقول إن بإمكان المسلم أن يزيد رصيده في حساب المصرف الإلهي بالبحث في أبعد أركان بلاد الإسلام عن تلك المصادر التي بحوزتها حديث نبوي أو مادة أخرى تتصل بالتاريخ المقدس. وكان العلم كل ما يساهم في المعرفة المطلوبة لتفسير القرآن، كلام الله الذي أملاه الملاك جبرائيل على محمد. كما كان العلم جمع معلومات عن السُّنة، طريقة حياة الرسول محمد وصحبه حسب تعاليم الله. وبرغم أن محمداً لم يكن سوى إنسان فانٍ ـ وإن كان معصوماً بحكم نبوته ـ فإن أفعاله كانت مرشداً للمؤمنين الذين جاؤوا من بعد.

على امتداد ألوف السنين تعيَّن على البشرية أن تسلّم بالحقائق الناقصة للأنبياء التوراتيين الذين يعترف بهم الإسلام أيضاً. ولكن محمداً نقل الرسالة بوضوح تام، وصحبُه في مكة والمدينة هم الصفوة التي كان لها امتياز السير في إشراقة النور الإلهي بكل بهائه. وكان موت الرسول خاتمة الوحي والتنزيل، عادت بعده ظلمات الجاهلية تلف العالم بدياجيرها. ولهذا السبب سجل أتباع محمد قدْر الإمكان كل ما نزل عليه في تلك الفترة المباركة وكل ما قاله وفعله الأبطال الكبار في الدراما المقدسة. وأصبح ذلك هو «العلم»، ما تم الحفاظ عليه من نقاط مضيئة، أولاً في الخلايا الضوئية للذاكرة ثم على الرَّق. فُقد الكثير، وفي الوقت نفسه علق بالمعرفة المقدسة الكثير من الشوائب. وبعد قول كل شيء وعمله بقي المحفوظ من الضياء من صنع أيادٍ بشرية. ولكن لم يكن لدى الأجيال التالية من دليل آخر تسترشد به وقد وهب الله قلب الإنسان القدرة على تمييز الحق من الباطل.

هكذا كان احتكاكنا، نحن الطلاب في القصر الواقع على قناة رابنبورغ، من خلال سنوك، مع العرب القيِّمين على العلم. ولكن دليلنا في خطواتنا الأولى كان يداً باردة ببرودة يد الجرّاح تيوليب أمام تلاميذه في لوحة رمبراندت «درس في التشريح». فدرجات السلّم ذات الصرير والدهاليز المؤطرة وغرف «دار سنوك»، كانت ديكور ضريح يُحمَل فيه العلْم الإسلامي والعقل الغربي يومياً إلى مثواهما جبناً إلى جنب.

لم نُدعَ إلى تسلق القمم الشامخة للأدب العربي إلا في السنة الثانية من دراستنا: المعلَّقات، التي بحسب الأسطورة، فازت بجائزة مهرجان الشعر في سوق عكاظ وعُلقت علامة مميزة على باب الكعبة في عصر الجاهلية. فكما في الدين كذلك في الأدب العربي، يصح قانون التقدم المقلوب: كلما كان أقدم كان أحسن.

وخطوةً خطوةً، تمكنّا من شق طريقنا عبر القصائد القديمة ـ نحن الذين بالكاد كنا قادرين على قراءة جريدة عربية ـ . وكان كل بيت يليه نصف صفحة من الشروح القاموسية والنحوية وغيرها بحيث كنا نعتبر أنفسنا محظوظين إذا تكلل كفاحنا بإنجاز بيتين في كل محاضرة. وقد وقع الخيار في ذلك العام على قصيدة امرئ القيس، وهو من أشهر الشعراء في الأدب العربي. وتذهب الحكاية إلى أن امرأ القيس طرده والده؛ الملك على ما يُفترض، من بيته لأنه وقع تحت سحر ربة الوحي. وقيل إن هذا حدث في مطلع القرن السادس. فبدأ امرؤ القيس حياة تشرد في الصحراء العربية. وقياساً على أشعاره عاش حياة ماجنة بلا نظير. وكل شيء حرمه الله في ما بعد ـ الخمر والميسر والفحشاء ـ انكب عليه امرؤ القيس بكل جوارحه غارقاً فيه حتى أذنيه.

وبنظر علماء الدين اللاحقين، كان امرؤ القيس تجسيداً للوثنية. لم تتأثر سُمْعته بهذا الحكم. فكل عربي على قدْر من التعليم يعرف الأبيات الأولى من معلقة امرئ القيس التي ظلت على مر القرون نموذجاً لمطلع القصيدة:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخولِ وحَوْمَلِ

هذا المقطع، الذي كان لقائي الأول بأول بيت شعري من بين كل الأبيات الشعرية العربية المكوَّنة من شطر وعجز، أثار فيَّ دهشة لم أفق منها خلال أيام دراستي. الدَّخول وحومل: أي نوع من الأماكن كانت هذه؟ كان الشرح مختصراً في الجغرافيا مثلما كان مستفيضاً في إعراب البيت. وكان كل ما لدى الشارح الفارسي يقوله بشأنهما أنهما مكانان في الجزيرة العربية. الدَّخول وحومل، حسناً، إنهما مكانان. ولكنْ، أي نوع من الأماكن؟ أوه، مجرد مكانين في الصحراء، وفي الصحراء كل شيء يبدو مثل كل شيء آخر. على أية حال، ما الفرق: إنه شِعر، وهذان الاسمان يستوفيان الوزن والقافية. وحتى إذا لم

يوجدا قط لما غيّر ذلك شيئاً. إذاً، كل ما يقوله البيت هو «مكانان» وإن كانا موزونَين ومُقفَّـيَين. ومع ذلك كان هذا أشهر مقطع شعري من أشهر قصيدة عربية.

محبو الأدب التقليديون يحجون إلى أماكن في العالم اختار معبودوهم أن يقيموا أحداثاً درامية فيها. الجسر الذي دفع فولكنر بطلَه كوينتن كومبسون إلى القفز منه في نهر تشارلز، جسر نسيو على نهر فال في نيميغين، الكاتدرائية الكائنة في روين حيث كان موعد إيما بوفاري مع حبيبها ليون، قصر النبلاء في لوبيك حيث سقط آل بودنبروك، البيت الكائن في إليير حيث تعرف بروست لأول مرة إلى مذاق كعكة المادلين الاسفنجية؛ هذه الجسور والكنائس والبيوت لا تختلف، في الحقيقة، بحد ذاتها، أي اختلاف، عن أبنية مماثلة في أماكن أخرى. والمواقع الفريدة حقاً مثل أهرام الجيزة أو برج إيفل أو عمارة إمباير ستيت لا تظهر إلا في أفلام من الدرجة الثانية. الحج الأدبي ينطلق متوقعاً أن يمنح صاحبه لحظة سحرية يردم فيها من خلال قوة تركيزه الفجوة بين الواقع والخيال. وتبوء التجربة بالفشل بطبيعة الحال، ولكن هنا على وجه التحديد بيت القصيد. فالحج كله ليس أكثر من حجة لتمديد الحلم بتجربة عزيزة أثيرة في القراءة. وبمعنى ما، كان امرؤ القيس يفعل الشيء ذاته على الأطلال التي ترجَّل عندها من مطيته. فهو أيضاً استسلم للحالة الرمادية بين الحياة اليومية العادية واللغز. وكما تقول الكلمات الأولى في سرد القصص العربية: كان يا ما كان. وهذا هو المكان الذي كان، هذا هو الرمل الذي لامسته قدماها. ولكن حتى آثار الأقدام مُحيت كأنها لم توجد قط برغم أنها بدت في حينه باقية إلى الأبد.

ولكن حتى إذا لم يكن هناك شيء خاص ينبغي أن يُرى في الرمل أو البيت أو الكنيسة، فإن هذا لا يعني أن مكان الحج كان من الجائز تماماً أن يكون أي بقعة اعتباطية. الحج الأدبي يقصد هذا المكان وليس مواقع لا تُعَد شبيهة به. ومثلما أن العاشق لا يحلم بمقايضة شعرة من حبيبته بملكة جمال الكون، فهو لا يبحث عن الكمال، بل ما يرومه هو الذكرى العزيزة لذلك المركّب الذي لا يُضاهى لما هي بحد ذاتها ملامح عادية تماماً.

بعد عشرين عاماً عثرتُ على الإجابة عن سؤالي في كتاب ضخم عن الجغرافيا السعودية وأسماء الأماكن في الشعر الكلاسيكي بعنوان صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار بقلم والد وكيل منطقة الرياض محمد بن عبد الله البُليهد. وعلى غرار مكانين آخرين يرد ذكرهما في القصيدة؛ مأسل ومويسل، فإن الدَّخول وحومل يقعان في عمق الصحراء بين بطاح الحجاز البركانية في الغرب وجبال طويق في الشرق، وهي هضبة إذا رؤيت من الغرب تبدو كأنها جبل منبسط كالمائدة. وعلى مسافة باتجاه الشرق، على الجانب الآخر من طويق، تبدأ صحراء الربع الخالي. كان فيلبي ورحالة آخرون عبروا الجزيرة العربية شمال تلك الصحراء على الطريق المؤدي من الرياض إلى مكة، أو إلى الجنوب عبر منطقة وادي الدواسر الزراعية، ولكن ليست هناك مؤلَّفات غربية عن المنطقة البرية والقبائل الموجودة بين هذه وتلك.

وإذ اغتبط الوكيل لسعادتي بالاكتشاف الذي توصلتُ إليه في كتاب والده الراحل الذي كان كثير السفر، وضع مفرزة من شرطة الصحراء تحت تصرفي. وفي إمارة رنية، في المنطقة التي تتوسط نجد والحجاز، التقاني أربعة رجال مجهزين بأسلحة وأحزمة مليئة بالرصاص، واعتمروا كوفيات ذات نقشة موحَّدة حمراء وبيضاء مثبتة بعُقل ثنائية الإطار. بدلاتهم لم تكن ناصعة البياض بل بلون الصوف البيجي: بدلة العمل التي يرتديها ابن الصحراء الحقيقي. انطلقنا في ثلاث سيارات عبر كثبان الرمل في عرق سبيع، أنا في سيارتي اللاند روفر المليئة بالكتب والملفات، وهم في سيارتين من طراز تويوتا لاندكروزر مليئتين ببنادق أم ـ 16 وأجهزة اللاسكلي. لم تكن لدى الأدلاّء بوصلة أو غيرها من عدة الملاحة، بل كانوا يسترشدون اتجاه الطريق بأعينهم فقط. ولكن القمم والهضاب التي يعتمدونها عادة في معرفة الاتجاهات كانت مخفية في غلالة من الضباب. فضلَلْنا الطريق، وحين اقتربنا من الدَّخول كان الوقت عصراً. وهذه الفترة من النهار، غير المعروفة في أوروبا، تبدأ في حوالى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر وتستمر حتى الغروب. وللعصر في الجزيرة العربية ألَقه المتميز. وحتى في الصيف تكون أشعة الشمس أرحم ويخرج الناس من بيوتهم لاحتساء الشاي واستنشاق بعض الهواء العذب على بساط في الظلال المستطيلة. ويُملأ الثقب الأبيض بلون الحليب في السماء، بلون أزرق فاتح رقيق، وفي الهواء الجاف تماماً تدب الحياة في ملامح الطبيعة، والشمس الواطئة تسبغ على الرمل والحجر وهجاً دافئاً لطيفاً.

بسرعة تزيد على مئة كيلومتر في الساعة شققنا أخاديدنا عبر صحصح شاسع، تحده تلال من الغرانيت وتتخلله نتوءات صخرية مبعثرة. وأشار الرجال إلى واحدة من هذه الأطلال: إنها الدَّخول.

كان مالك المنطقة؛ مقعد بن نوير ـ من الشيابين؛ أحد فروع برقا، النصف الجنوبي من عتيبة ـ يقيم في خيمة بيضاء من قماش القنب على الجانب الآخر من الجبل الشبيه بالقبة. وشد مقعد، وهو ثعلب صحراوي ذو لحية وشنب رماديين ويبدو كما لو أنه لفحته أجواء الصحراء، على يدي بقبضة كأنها كلاّبة، وضغط حتى كدتُ أخرُّ منهاراً. زأر «من هذا الدوكرة؟». سألتُ قائد فريقنا المرافق قاسم، «ما هو الدوكرة». قهقه وقال، «دوكرة يعني شاباً ما زال مبللاً وراء الأذنين، وابن نوير يبلغ من العمر تسعين عاماً ويريد أن يريك أنه ما زال قوياً بفضل لبن الإبل». «وكم عاش والدك يا مقعد؟»، «مئة وخمسين»، جاء الجواب بقدْر من السهوم، وفي تلك اللحظة أطلق يدي من كلابته.

بعد فترة قصيرة وقفنا على حافة بئر. نادى مقعد على عبده الأسود. كان الرِّق أُلغي رسمياً عام 1960 ولكن لم يطرأ تغيُّر يُذكر في الصحراء. وما زال العبيد يُعدون من «الموالي» أو الأرقاء الذين يعتمدون على إرادة أسيادهم الطيبة. أنزل العبد دلواً من فوق «المقام» (عارضة شوكية الشكل) على البئر ورفعه مرة أخرى بالتراجع عن البئر وهو يسحب الحبل. أمر مقعد «تذوق الماء». الوصف الذي أعطاه والد الوكيل في صحيح الأخبار كان في غاية

الدقة: الدَّخول جبل تحته ماء عذب. والأكثر من ذلك أن الماء البارد الزلال كان أطيب ماء شربته في الجزيرة العربية. قال قاسم «إن الدوكرة جاء بسبب امرئ القيس. وهو يريد أن يرى أيضاً كثبان الرمل وحومل». قال مقعد مصوباً «آه، يا القيس». من الواضح أنه تلقى زيارات سابقة من سعوديين متعلمين أخبروه عن الشاعر الكلاسيكي.

كانت حومل تبعد 16 كيلومتراً إلى الغرب. وهي قمة من حجر البازلت البركاني صقلتها الطبيعة، ترتفع أكثر من مئة متر، مطلة على البادية صوب بقايا أخرى من التكوينات الصخرية الشبيهة بأطقم الأسنان المتداعية. أقلع صقر من القمة ولم تعد هناك حركة أخرى. ومن حولنا على مدى البصر ساد هدوء ساكن مميت. غاصت الشمس وأصبح الرمل أكثر احمراراً، والظلال أطول وأنعم، وجاءت ريح الصحراء متسللة من البادية للفت انتباهنا إلى قصتها الحزينة بهبات صغيرة، مُستَرقة.

في منتصف الطريق بين الدخول وحومل طلب مقعد إيقاف السيارات أسفل صف من التلال الواطئة التي تنحدر وتتداخل مع بعضها بعضاً في ربية متآكلة تلتف بلا نهاية، جوانبها مكسوة بالرمل. «ربية»، قال قاسم. فأرعد مقعد، «سِقط اللوى، سِقط اللوى». «تلة يا القيس. لِوى هو كل ما يلتوي، وسِقط هي كتل الصخور التي تدحرجت وما زالت تنتأ من الرمل». وبقدمه أزال الرمل عن كتلتي غرانيت ورديتين مسطحتين. وتابع متأملاً، «هذا ما كنا نسمي هذه البئر، سقط اللوى. أردنا أن نحفرها ولكن جاءت المقطة من عتيبة، عشيرة ابن حميد، وقالت، «هذه البئر بئرنا». إننا نعيش هنا على الحدود. فهناك، إلى الشمال الغربي، المقطة، وهناك إلى الجنوب الغربي سبيع، والى الجنوب المخاريم الدواسر وإلى الشرق قحطان. وفي ما بعد جاءت الحكومة وطمرت البئر لتضع نهاية لكل الحقد والغضب بين القبائل. وحدث الشيء نفسه مع آبار الظيرين التي قاتَلْنا عليها المخاريم قبل عشرة أعوام».

وقال مقعد إن الحجارة على حافة البئر موجودة هناك منذ زمن طويل: «لا أحد يعرف عمرها. أحياناً تغطيها الريح بالرمال وأحياناً تنظفها الريح مرة أخرى من اتجاه آخر». تذكرتُ البيت الثاني من قصيدة امرئ القيس:

فتُوضِحَ فالمقْراة لَمْ يَعْفُ رَسمها
لِما نَسَجَتْها مِنْ جنوبٍ وشمألِ

كم بدت نائيةً الأروقة المعتمة لدار سنوك على قناة رابنبورغ، وكم بدت ضئيلة السنوات الألف وخمسمئة التي تفصلني عن أقدم شاعر في الصحراء العربية! حيث كنتُ أقف أَوْقفَ بعيره للبكاء على الأطلال. وهناك في الرمل تحت الرابية المتداعية غازل بدوية نارية لعوباً. وفي القرون التي مرت منذ ذلك الحين تناثرت رمال وتدحرجت صخور واختصم بدو. الشمس والنجوم طلعت وغابت، وطوال كل ذلك الوقت حلمت الصحراء أحلامها الخاوية ونفثت أنفاسها المضطربة على البادية... وكان ما كان.

هنا استسلم امرؤ القيس لحزنه على الأيام التي مرت ولاح له طيف الحبيبة. ومثل شاعر الدواسر الكبير الدندان، استمد القوة من الذكرى ذاتها للتغلب على أساه. ولكن بخلاف أحفاده المسلمين، لم يرتدع امرؤ القيس بكوابح دينية أو بثقل العِلم الساحق. فقصيدته رقصة حرب طويلة جامحة حول رجولته ذاتها. وبعد أن حضه أصحابه بالكلمات، «لا تهلك أسىً وتَجَمَّلِ!»، أعطى امرؤ القيس شذرة من صولاته مع الخمرة ومغامراته الإيروتيكية بلغة مكشوفة لا تُضاهى. ففي الحب لم يتورع عن شيء. وفاجأ الأميرة البدوية عُنيزة، حين دخل خِدْرَها على البعير. وصاحت السيدة المرتاعة على خِدْرِها المتمايل، «عَقَرتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانْزِلِ!»، ولكن بلا جدوى. ورد «دون جوان» الذي لم يعرف الخوف:

فقلتُ لها سيري وأرخي زِمامَه
ولا تُبعديني مِنْ جَناكِ المُعَلَّلِ
فمثْلِكِ حُبلى قد طرقتُ ومُرضعٍ
فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوَلِ
إذا ما بكى مِن خَلْفِها انْصرفتْ لَهُ
بِشقٍّ وتَحْتي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

حين أرخى الليل سدوله عدنا إلى الخيمة. في الخارج كان أبناء مقعد يشوون خروفاً، وفي مدخل الخيمة كان العبد الأسود يحضر القهوة على النار في دلال طويلة الأعناق. سُحب كثيفة من الدخان أسالت الدمع من عيني وعطّرت شعر رأسي وملابسي بالرائحة التي نشرها الحطب ذو النكهة الأروماتية.

سأل مقعد الأكثرَ بدانة من مرافقينا، «أين عرب قبيلتك؟»، فأجابه، «الكبرة في الأفلاج». «أها»، قال مقعد، «أنا ووالدي سرقنا إبلكم في الماضي». سألتُ، «والدواسر؟ هل سرقتهم أيضاً؟»، قال مجيد بزهو، «أوه، لم نكن نفعل سوى ذلك. ذات مرة خرجت عتيبة في غزوة على الدواسر، ولكنهم طاردونا. تغلبوا على رجل أسود من عتيبة وأخذوه رهينة إلى الوادي. سألوه، «هل أنت عبد؟»، قال، كلا، أنا من قبيلة ابن فهيد، الشيابين». «ولماذا أنت أصْدَف كالحصان وعيناك صفراوان؟». كسروا عصا على ظهره ولكنه رفض أن يعترف بأنه عبد. أرادوا بيعه للتعويض عن خسارة إبلهم. ولكن بسبب إصراره على أنه ليس عبداً، أخلوا سبيله».

ألقيتُ نظرة إلى الخارج، على عبد مقعد نفسه، ولكنه تصرف وكأنه لم يسمع شيئاً وكان يحدق بوجوم في النار أمامه. إن التاريخ السعودي، كما عاشه العبيد والنساء و«الصلب»، أو الحرفيون «المنبوذون» الذين كانوا يرافقون القبائل البدوية في حملاتها، ربما لن يُكتب أبداً.

في خيمة مقعد أيضاً بقيت النساء متواريات عن الأنظار. عندنا، نحن الغربيين، يكون حرمانهن من الفضاء العام دليل اضطهاد وضعف. أما الرجال السعوديون فلديهم نظرة مغايرة: إنهم يكنّون احتراماً مقدساً للشبكات غير المرئية التي تقوم النساء فيها بتسوية الأمور في ما بينهن. وهم يخافون الحكم القاسي الذي تصدره النساء على إنجازات الرجال. إذ إنهم قد يتظاهرون بالرجولة في المجلس، ولكن النساء يعرفن مَواطن ضعفهم وظنونهم ونواقصهم، ويعرفن كيف يستثمرن هذه المعرفة.

ومهما بقيت النساء بعيدات عن الأنظار في مخيم مقعد فقد كان لهن دور مرموق في حكاياته. وكنتُ وضعتُ مقعداً في المزاج المناسب لسرد القصص حين أخرجتُ الكتاب الأخضر وقرأتُ بصوت عال قصيدة من نظم بخيت، شقيق شليويح العطاوي. في تلك القصيدة والحكاية التي تقترن بها، كما أملاهما خالد، سخرية من هذّال بن فهيد الذي كان قبل قرن من الزمان شيخ قبيلة مقعد؛ الشيابين. كانت الذريعة موت فرس بخيت، «فردة»، والرثاء مُهدى إليها. فالفرس كانت أعز ما يُملَك. الإبل مناسِبة للنقل مسافات طويلة ولكن الجواد وحده سريع وقابل للمناورة به وشجاع بما فيه الكفاية لاستخدامه في ساحة الوغى. وبالتالي من دون جواد؛ دبابة الحرب الصحراوية، لم يكن بيد بخيت من حيلة.

ولكن ليس كل فرس لائقة للقتال، والبدو لا يبيعون الخيل الأصيلة. لذا، قرر بخيت أن يناشد رجال قبيلته التضامن معه. ومن الواضح أنه كانت هناك ثارات بين عشيرة شليويح وشيوخ آل ربيعان من فرع الروقة ذاته حتى في ذلك الوقت. وعلى أية حال، توجه بخيت إلى شيوخ برقا. أولاً طلب مساعدة هذّال. ودعا هذا الأخير أحد أبنائه ومستشاراً اسمه وديد، وخرج معهما مسافة في الصحراء. قال هذال إن «بخيت بن ماعز جا يبا له فرس، وبخيت رجّال طيب ما ينسدّ له فم، وش رأيكم فيه؟». قال ولده جهز، « إقعد على العلم الطيب، إفتّك من فم بخيت». ولكن وديد كان له رأي آخر: «لا يا هذّال، خيلك قليلات وعط بخيت الحصان وعطه ناقة وظيرها من البل وقل اشتر لك فرس». نادى هذال بخيت وقال، «يا بخيت، أنا خيلي قليلة وشاحٍ فيها، لكن إخذ من المغاتير ناقة وظيرها من البل وإشتر لك فرس وإخذ الحصان».

أجاب بخيت، «أنا ماني بجايٍ استرفد، أنا جاي أبالي فرس طلب، مطلوب، الرفدة، ماني جاي استرفد». وأضاف «أما الحصان، إخذ مني ها الأبيات فيه:

الغوج يا هذّال نِظِم عيونه
ما عاضني في سابقي عقب الأرجال
علّم جهز ووديد يستحلقونه
ولاّ انت يا هذّال تلقى له البال»

واصل بخيت المسير حتى وصل إلى مضارب ابن حجنة؛ شيخ النفعه ومالك فرسين رائعتين من خيل السباق، هما كروش وربدا. أخبره بخيت كيف استقبله هذّال فهتف ابن حجنة، «قم، قم، تخيّر في كروش وربدا، عانهن في العذرة... وإخذ واحدةٍ منهن. خيل الثنتين اصايل». ولكن بخيت لم يقبل بحرمان ابن حجنة من نصف خيله. وقال، «تجمّلت وبيّض الله وجهك وفرسك مأخوذةٍ موقّرة».

عندما سمع مقعد الحكاية كما سجلتها من فم خالد، وضع عصاه في حجره وقال، «هذّال لم يكن مخنثاً. إنه الشيخ الذي طرد قبيلة قحطان من هذه المنطقة». وحكى لي كيف جاءت الشيابين قبل مئة عام إلى بئر الدخول ومن هناك سارت باتجاه البئر المسماة سقمان.

وفي منتصف الطريق أرسل هذّال مستطلعين عادوا بقصة تقول إن ابن جرمان، شيخ قحطان، يقبض بإحكام على البئر. وقبل فترة قصيرة كان ابن جرمان مَحق قافلة من قبيلة سبيع، كما تشهد مِزَق الخيم وأعمدتها المتناثرة على الأرض.

وكما تقضي العادة استدعى هذّال جميع أفراد القبيلة إلى اجتماع. وأُشعلت نار عظيمة التف حولها الجميع: الأطفال والرجال والشيوخ. أوضح هذّال الموقف وقال، «ما رأيكم به؟». طلب المستشار وديد الإذن بالعودة وقال الآخرون، «والله يا أمير رأينا من رأيك، يا هذّال!». وكان الأمير أصدر أمراً بأن تتوثق النساء من ربط أعمدة الخيم ربطاً محكماً على الجمال لدى انتهاء الرجال من الصلاة. ثم دخلت الخيمة زوجته حصّة. وبما أن هذّال كان تزوج بامرأة أخرى «عليها»، لم يكن الزوجان يتكلمان مع أحدهما الآخر. ولمدة ستة أشهر لم يتبادلا كلمة واحدة: هي كانت تركب في خِدرِها على البعير وهو على فرسه بجانبها. وهكذا كانا يسافران بصمت عبر الصحراء. ولكنها جاءت الآن مندفعة داخل الخيمة وصرخت: «يا خبلان! يا ولد شاوي، يا راع! البدو تقاتل وإذا قُتل أحد فليكن. ولكن أطفالنا، أطفال الشيابين، لا ينبغي أن تدعهم يسافرون عبر الصحراء القاحلة. إنهم سيهلكون من العطش!».

خطف مقعد مدقة القهوة النحاسية الثقيلة ورمى بها عمود الخيمة.

هكذا رمى هذّال المدقة على رأس زوجته، وقال «كنتُ من الرأي نفسه يا امرأة، ولكن هؤلاء الجبناء جعلوني أتردد. اسمعوا! بعد الصلاة يتجمع كل واحد هنا ومعه بعيره وفرسه وبندقيته. وحين نبدأ الصلاة لا أريد أن أرى خيطاً في المكان الذي ضُربت فيه خيمنا». وهكذا خاضوا معركتهم ضد قحطان: جمال النقل محمَّلة بالخيم والآنية، قطعان الغنم والماعز والإبل نُشرت في البادية في أعقاب القافلة لترعى طوال الوقت، بينما ركب المقاتلون خيولهم وجمالهم السريعة. ورمت النساء حجبهن وفككن ضفائرهن ونهضن بطول قاماتهن في الهوادج لتشجيع المحاربين بزغاريدهن.

لم تكن هذه غزوة بل قبيلة كاملة انقضَّت على العدو بشجاعة المستميت. وسُحقت قحطان وسقطت بئرهم ومضاربهم بيد هذّال. ولم تكن لدى ابن جرمان حتى فرصة إخلاء زوجته زملة في الوقت المناسب.

«زملة رمت نفسها في التراب أمام هذّال وأمسكت قدمه متوسلة، الرحمة يا ابن ضمن، الرحمة يا أمير!». قال هذال، «وين حرمتك يا حرمة؟»، قالت، «حرمتي طق»، قال، «وراه يطق؟»، قالت، «والله قومه ذالٍ منك، يا هذال».

أُقنع هذال بأن يكون رؤوفاً وأعطى النساء جمالاً للنقل يغادرن بها مع حاجياتهن. ولكن المهانة الأكبر لم تكن حدثت بعد. فإن ابن جرمان وضع دِلال القهوة بين شجرتين من أشجار السَّنْط. وفي ظل هاتين الشجرتين كان من عادته وعادة رجاله أن يستريحوا بعد «طراد الخيل»، وفي الوقت نفسه لحراسة إبلهم. كان ذلك هو المجلس، المكان الذي توضع فيه دِلال القهوة حول النار والذي يرتبط عند البدو بالشعور بالرخاء والطمأنينة كما توحي لنا به تعابير مثل «لا مكان مثل البيت». طلب أحد رجال هذّال امتلاك البقعة واستجيب طلبه. وفي اليوم التالي توجه إليها المالك الجديد، وأقام سياجاً حول الأشجار وحفظ أغنامه وماعزه هناك خلال الليل. وبعد أيام قليلة دُفن آخر ما يذكّر بمجلس ابن جرمان تحت الروث.

*

كانت لدى قاسم أسبابه الخاصة لزيارة مقعد. فهو، مثله مثل جميع الموظفين الكبار في وادي الدواسر، ينتمي إلى قبيلة عتيبة. ولكنه بخلاف زملائه لم يعش في بيت في المدينة. فلقد كان قاسم أمير الحكومة على هضاب الدواسر، وهي الصحارى الشاسعة ومنطقة الجبال المنيعة التي تحمي الوادي شمال الكثبان. وكان موقعه مخفر شرطة أبي كعب على بعد 150 كيلومتراً جنوب الدَّخول و200 كيلومتر شمال الوادي. وعند تقاطع الوديان الثلاثة الضيقة بين الجبال يوجد الكوخ المكيّف النقال الذي أقام قاسم مكتبه فيه، وخيمة كبيرة من شعر الماعز للشتاء وخيمة مفتوحة بين نوعين مختلفين من أشجار السَّنْط. ومثل ابن جرمان كان مجلسه هناك حيث يُبقي النار مشتعلة لم يطفئها ذات يوم طوال السنوات الأربع التي عُين فيها أميراً. وكانت منارة الرماد بجانب النار وقطيع الغنم التي لم يتعين عليها قط أن تنتظر طويلاً لذبحها دليلاً على ضيافته كل العابرين بلا استثناء.

يتلقى قاسم أوامره ومعلوماته بجهاز اللاسلكي. وذات يوم ورد تقرير بأن سيارة شوهدت في اليمن محمَّلة بالكحول التي ربما كانت وجهتها العربية السعودية أو الخليج. وفي كلتا الحالتين كان من الممكن أن يمر المهربون بمملكة قاسم النائية. وقد أرسل رجال الشرطة لاعتراض الشحنة. يضاف إلى ذلك أن قاسماً كان مسؤولاً عن الحفاظ على السلام بين القبائل وملاحقة مهربي المخدرات واعتقال العمال المهاجرين غير الشرعيين ومنع حفر الآبار من دون موافقة الحكومة.

إنها وظيفة شيقة ومتنوعة، ولكن غياب الصحبة النسائية شديد الوطأة على رجال الشرطة. وصباح كل يوم في الساعة الخامسة يستنهض قاسم موظفيه من الفراش بالصياح ويحملهم على الركوع والسجود في صف متشنج ناعس باتجاه مكة. ثم هناك الواجبات المنزلية. ولما تبقى من اليوم أيضاً يحاول قاسم أن يُبقي رجاله مشغولين قدْر الإمكان. ولكن الانضباط لا يُنسي الرجل غياب شريكة حياته. ويُمنح رجال الشرطة إجازة لا تزيد على شهر سنوياً لقضائها مع عائلاتهم. والأمير وحده له امتياز قضاء عطلة الجمعة في البيت مرة كل شهرين، بالإضافة إلى زيارته الرسمية للرياض.

انتقلت زوجه قاسم وأطفاله السبعة إلى بيت والده. وهم يعيشون قرب نِفي، على بعد مسافة طويلة إلى الشمال، في أرض قبيلة الروقة. كان قاسم يريد أن يغير هذا الوضع. وأينما ذهبنا، كان يعلن أن الوقت قد حان لبناء عش زوجية محلي وأنه مستعد لتلقي مقترحات ملموسة في هذا الاتجاه. وقد فعل الشيء نفسه مع مقعد الذي تزوج والده من اثنتي عشرة امرأة في حياته التي استمرت 150 عاماً. وقال مقعد إن الزوجة الأخيرة ما زالت على قيد الحياة، امرأة قوية. ولو أخذها أحد زوجة له لحملت له أطفالاً حتى الآن. في غضون ذلك تضاعف إخوة مقعد وأخواته إلى عائلة يزيد عدد أفرادها على المئتين. لذا، كانت تحت تصرف مقعد تشكيلة واسعة من النساء الشابات في سن الزواج، ولهذا السبب أناط قاسم به الدور الرئيسي في مشاريعه لأن قاسماً كان يريد زوجة من نَسَب كريم، مهرة أصيلة، يفضّل أن تكون من عتيبة. وأضاف قائلاً لمقعد أن ينسى الدواسر من باب التحوط لا أكثر.

في اليوم التالي كنا جالسين حول دلال القهوة في مخفر الشرطة بينما كان الجندرمة محمد بن جربوع، من قبيلة يام، يشوي طائر حجَل على النار المشتعلة أبداً. «خطوط نمل»؛ قال قاسم عن الخربشات التي سجلتُها في دفتري. «هل تعرف لماذا يشيب شعر الرجال؟ من كثرة الجنس. انظر إلى ذلك الدوسري هناك: عمره ستون عاماً وليس في رأسه شعرة شيب واحدة بفضل لبن الإبل والانقطاع الجنسي هنا». ضحك الدوسري المحفور وجهه بآثار الجدري، مرتبكاً، غير متأكد إن كان عليه أن يفتخر أو يشفق على نفسه.

«وكيف تنكحون نساءكم؟»؛ سألني قاسم. بدأت جذوع رجال الشرطة تميل إلى الأمام، بآذان مرهفة، واقتربوا سنتمترات أخرى من النار. قلتُ مجرِّباً، «تماماً مثل امرئ القيس. نطرق المرأة وهي تتصرف لأطفالها». هز قاسم رأسه. «مثلنا إذاً، تستلقي المرأة على ظهرها وساقاها في الهواء». وأضفتُ أنا، «إن الشاعر حميدان الشويعر قال «حَناها وادّعى رجليها ما بين الكتف وصرصورة»». تابع قاسم، «إنها عادة إسلامية جيدة أن يسمي الرجل باسم الله الرحمن الرحيم قبل الإيلاج. وبعض الرجال يؤدون عدداً من الركع قبل مضاجعة زوجاتهم». سألتُ، «إذاً، لماذا يفعلها بدو آل مرّة في الربع الخالي بطريقة مختلفة؟ فإن رجال آل مرة قالوا لباحث غربي إنهم يجعلون زوجاتهم يتمددن على جنبهن وبهذا الوضع يأتونهن من الخلف». ضرب رجال الشرطة أفخاذهم من شدة الضحك. وأوضحوا أن رجال آل مرّة معروفون في كل الجزيرة العربية بأنهم منكّتون يحبون الضحك على الآخرين، وبالتالي فقد استغفلوا ذلك الباحث بطريقة جميلة.

قلتُ لقاسم، «قل لي، هل حقاً تحترم المرأة؟ ما دمتَ طلبت مني أن أحجز لك إحدى بناتي فإن هذا سؤال يجب أن أطرحه كأب». قال أحد رجال الشرطة، «نحترمها حين تضطجع على ظهرها». وقال قاسم، «بكل صدق، الابن يعني أكثر لنا لأن الله نفسه قال في القرآن إن الرجال قوامون على النساء. ولكن هذه الأيام بدأت المرأة تكون لها كلمة كبيرة. والشابة لا تريد إلا الزواج من شاب بعمرها. ولهذا السبب رجال أكثر فأكثر مثلي يتزوجون من أجنبيات. إنك شجاع كالذئب: تطوف وحدك وتذهب حيثما تريد من دون قبيلتك. لذا ستحمل بناتك أبناء شجعاناً لأن الأطفال يرثون شخصية خالهم. شَرْطي الوحيد أن يعتنقن الإسلام ويصلين كما يصلي المسلمون».

حان وقت النوم، ولكن كان يتعيَّن عليّ قبل أن أتمكن من تغيير وضعي الشاقولي إلى وضع أفقي، قضاء حاجة. فلقد كان للإفطار على لبن الإبل مع مقعد مفعوله. ولكن كيف كيف لي أن ألبي نداء الطبيعة، وتمويني من ورق التواليت قد نضب. الغريب أنه في ما قرأته من إرشادات لا تُعد ولا تُحصى عن السفر، ليس هناك سطر واحد يعالج هذه المسألة ذات الأهمية البالغة. قلتُ، «دعني أسألْ سؤالاً حساساً. كيف تحلّون هذه المشكلة هنا؟». قال قاسم، «بسيطة جداً، ننظف أنفسنا بالرمل وحباته الخشنة. أرض الوادي الزراعية لا تصلح لهذه المهمة لأنها ملوثة. ولكن ليس هناك ما هو أنقى من رمل الصحراء. ثم ألسنا مصنوعين من المادة نفسها؟ أولاً تُصنع العظام ثم يُعلَّق القلب والشرايين بينها، ثم يُغطى الهيكل العظمي باللحم. وبعد الممات يعود الجسم إلى التراب نفسه الذي خُلق منه. هكذا أراد الله بحكمته الواسعة».

الكتاب الثاني



الصحراء العربية

الصحراء العربية التقليدية هي ذلك الجزء من عمق الجزيرة العربية الذي رُسِمت معالمه وتضاريسه أول مرة في القرن التاسع عشر على أيدي مستكشفين غربيين. وكان داوتي وآخرون من رواد الصحراء شدوا الرِّحال جميعاً عبر البادية السورية وكثبان النفود الكبرى إلى العاصمة الشمالية حائل. وهناك استقبلهم آل رشيد، أمراء قبيلة شمر. ولم يذهبوا أبعد. فلقد قطع طريقَ الجنوب الوهابيون المتعصبون في الرياض الذين كانوا لا يريدون أي اتصال بمسيحيين متطفلين. لذا، كان غالبية الرّحالة يتوجهون من حائل شرقاً نحو العراق على امتداد طريق الحج من بغداد إلى مكة الذي شقته في القرن التاسع السيدة زبيدة، زوجة الخليفة هارون الرشيد، أو يتجهون غرباً نحو البحر الأحمر. وأول أوروبي تمكن من السفر بلا معوقات عبر قلب الجزيرة العربية كان سانت جون فيلبي، والد الجاسوس الكبير كيم. وكان قد اعتنق الإسلام، وبصفته المستشار الدبلوماسي للملك عبد العزيز كان دائم الحضور في بلاط الرياض. وكان حلم فيلبي أن يصبح ستانلي عربياً أو ليفينغستون عربياً وأن يفتح أكبر صحراء رملية في العالم هي الربع الخالي. ولكن عندما حصل أخيراً على موافقة الملك للرحيل أصيب بأكبر خيبة أمل في حياته. فإن إنكليزياً آخر هو بيرترام توماس سبقه إلى ذلك في اللحظة الأخيرة. ولم يكن على توماس أن ينتظر موافقة أحد. فاندفاعه بسرعة مخترقاً قلب الجزيرة العربية صوب الخليج كان من ظفار، وهي منطقة مرتفعة خضراء تطل على المحيط الهندي في دائرة النفوذ البريطاني.

«الجزيرة العربية الصحراوية» Arabia Deserta كانت تُمَيَّز عن «الجزيرة العربية السعيدة» Arabia Felix ؛ أرض البخور والمر وتوابل فاخرة أخرى والتي كانت تضم اليمن وجنوب الجزيرة العربية. ولكن الجزيرة العربية الصحراوية لا تعوزها السعادة. فهي أرض مترامية الأطراف قليلة السكان تمضي في طريقها هادئة، لا شيء يعكر صفوها، غير مبالية بالركض المحموم وراء التحديث المادي في القصيم والرياض جنوباً وعلى ساحل الخليج شرقاً، بمنأى عن الغليان السياسي في الشرق الأوسط شمال الحدود السعودية. ليست هناك صناعة بالمرة ولكنها ليست فقيرة. فإن عائدات النفط تُوجَّه إلى هذه المناطق النائية أيضاً، بمقادير متواضعة حقاً بالمقارنة مع ما تتلقاه الرياض والقصيم، ولكنها كافية لتحقيق نمط لطيف من الرخاء من دون ابتذال أو ثراء فاحش.

عاصمة هذه المنطقة هي حائل التي تبعد أكثر من ستمئة كيلومتر شمال الرياض. وبالمعايير السعودية، فإن للمدينة سحراً رعوياً خاصاً. فبادئ ذي بدء حائل نظيفة نظافة مدهشة: حاكم المدينة الأمير مقرن الذي وُلد عام 1943، وهو الابن قبل الأخير للأب الأكبر عبد العزيز، يتكفل شخصياً بألاّ تُترك قصاصة ورق واحدة مرمية في شوارعها وأن تفوز حائل بالجائزة السعودية لأنظف مدينة عاماً بعد آخر. وبفضل ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر فإنها أبرد بضع درجات من الرياض في الصيف. هناك بعض المتنزهات التي من سماتها خرير الماء في أرجائها، ومنطقة العمران تشكل دائرة متراصة نوعاً ما تستظل على نحو خلاب بهضبة جرداء من الحجر الأحمر والحجر الأسود، هي جبل آجا. وينتصب هذا النتوء الصخري الوعر الذي يمتد مساحة تبلغ حوالى 2500 كلم2، حاجزاً من الغرانيت بين حائل وصحراء النفود الكبرى في الشمال. ومع جبل سلمى إلى الجنوب قليلاً تكون هذه الجبال الوحيدة الجديرة بالذكر التي ترتفع فوق السهل في حدود دائرة نصف قطرها مئات الكيلومترات. وهي المكان الوحيد الذي نجا فيه عدد من الوعول الجبلية من مجزرة الطرائد على أيدي السعوديين من هواة الصيد.

حائل هي مركز جبل شمر، موطن تحالف قبائل شمر التي تمتد نحو العراق وسوريا، وينتمي اليها حسب الشمريين أنفسهم نحو مليون فرد. وبخلاف قبائل أخرى فإن مركز الثقل لم يتغير في شمر على مر القرون. عنزة، على سبيل المثال، هاجرت من وسط الجزيرة العربية على امتداد الحافة الغربية لأراضي شمر إلى الصحراء السورية. وانتقلت قبائل عديدة أخرى مثل مطير من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي باتجاه الخليج. ولكن في الخطوب كانت شمر تستطيع دائماً التحصن بجبل آجا؛ ذلك السد المنيع بما فيه من واحات وآبار تكفي للصمود سنوات تحت الحصار. وإلى الشمال تنداح صحراء النفود ـ بعد الربع الخالي أكبر صحراء رملية في الجزيرة العربية ـ كأنها خندق واسع حول حصن حجري. وكان جبل آجا حزام النجاة الذي طالما تشبثت به شمر بينما كانت القبائل الأخرى تجرفها رياح سكانية عاتية في البحر الصحراوي من حولها. ويُلاحَظ هذا حتى في اللغة: لهجة شمر تتميز عن لهجات جميع القبائل المحيطة.

في ربيع 1988 منحني الأمير مقرن إذناً بالتجوال لدراسة أوضاع البدو في الفلاة العربية القديمة. وفي البقعة التي يلوح فيها جبل سلمى بعيداً عن المناطق الزراعية المحيطة بمدينتي عنيزة وبريدة التجاريتين، أوقفتُ سيارتي الجيب أمام مطعم على جانب الطريق. وهنا كانت تبدأ الصحراء الحقيقية. استنشقتُ الهواء العذب ملء رئتي ونظرتُ إلى أشواك الزرقاء في قدمي وأجمات العشب الخضراء الحائلة التي كانت تكسو السهل على امتداد الأفق. حتى المطعم كان أقرب إلى مستكشفي الجزيرة العربية من أمثال داوتي وموسيل من الفنادق وأسواق السوبرماركت الرخامية في الرياض. وفي الهواء الطلق مُدَّت صفوف من المصاطب المعدنية الطويلة بمقاعد ومساند من الحبال المجدولة بجانب موائد ذات طلاء أخضر وأحمر مصنوعة من المادة

نفسها. يخلع الزوار صنادلهم ويرفعون أنفسهم ثم يجلسون عليها متصالبي الساقين قبل أن يطلبوا صحوناً من الرز والدجاج ولحم الإبل والبيض والطماطم والسَّلَطة. وبعد أن يأكلوا حتى الشبع يحين الوقت لأحلام اليقظة الكسولة أمام نرجيلة على البساط والاستلقاء على المساند في مربع محيطه جدار خفيض من الكتل الإسمنتية أُقيم خصيصاً لهذا الغرض بجانب الموائد.

في الشتاء، يجلس الرجال في الداخل. وإذ يلتَمّون في عباءاتهم الشَّعرية البُنِّية منكفئين تحت حطات الرأس، اثنين حول كل مائدة في الغالب، ينقضّون صامتين على جبل الرز والدجاج في الصحون المطلية بالنيكل. وخلف المطعم هناك مكان للمرافق الصحية: حفرة في الأرض مع خرطوم مطاطي للشطف. هناك أيضاً مسجد صغير بقسمين منفصلين للرجال والنساء. المكان كله محاط بأنقاض سيارات وبراميل بترول فارغة وصفائح صدئة ونفايات أخرى لا تلبث أن تجف وتتداعى، وسرعان ما تدفنها الرمال المنحدرة أو تذروها الريح. لذا ليست هناك أبداً أزبال متعفنة، والمكان كله يوحي بالراحة والبهجة، ولا سيما في الشمس المعتدلة لمطالع الربيع.

خارج المطعم تقف شاحنات بك آب من طراز تويوتا ونيسان، أصحابها البدو من رواد المطعم، بعضها محمَّل عالياً بالحطب لنار المخيم. وبعد الانتهاء من الأكل يغتسل الزوار من صنبور فوق حوض حيث توجد علبة برتقالية اللون من منظف «تايد» تكون جاهزة على الدوام. فهي شديدة الفاعلية في إزالة الدهون.

الطعام بسيط دائماً، مغذ وطيب المذاق بدرجة معقولة خاصة إذا لوحق بأقداح من الشاي القوي. لدى بعض المطاعم حفر من الإسمنت عليها غطاء مسود تُشوى تحته ماعز أو أغنام كاملة على جمر متوهج من الفحم. ويتباهى كل مطعم بموقد حجري. يصطاد النادل جمرات من تحت الرماد الحامي بملقط خاص ويضعها بعناية على التبغ ـ خليط من قشور الفاكهة ـ في الصحن المحمول على قمة أنبوب الماء. ويستند الحامل نفسه إلى لوح من الحجر يُمتص الدخان عبره. ومثل هذا الأنبوب يُسمى الشيشة، وكل سائق لوري هو، عملياً، مُشَيِّش ـ الشخص الذي يحتاج إلى نرجيلة وشاي قبل أن يخلد إلى النوم أو في فترة الغداء لاستكمال سعادته وتحقيق الحالة الشرقية المعروفة من الانتشاء الكَسول ـ .

في هذا النوع من المطاعم استمتعتُ بساعات لا عد لها من ذلك الشعور بالتحرر من الأعباء الذي ينتاب المسافر خلال رحلاتي عبر الجزيرة العربية: جذل تحت أشعة الشمس، الطريق يمتد مئات الكيلومترات في الاتجاهين، حيث يمر اللوري العابر هادراً من حين إلى آخر، على الجانبين سهوب لامتناهية تتخللها أجمات من الزرع، وعلى مبعدة قطعان من الإبل أو الغنم، وفي قمة السفح أو في ظل سلسلة جبلية هي أقرب إلى التلال يلوح الخط الأسود لخيمة بدوي محاكة من شعر الماعز.

شاعر الجبلين

بعد ساعات قليلة وصلتُ إلى حائل وانتقلتُ إلى فندق الجبلين في إشارة إلى آجا وسلمى. والجبلان هما عنوان المدينة. وبمقدور حائل أن تزهو بشاعر خلع على نفسه لقب «شاعر الجبلين». وبعد وصولي بفترة قصيرة أبلغني عن طريق مكتب الاستعلامات معلناً أن وجهاء المدينة عينوه دليلاً رسمياً لتعريفي بعالم حائل الأدبي.

وبشهادته نفسه، فإن مواطنيه الممتنين أطلقوا عليه لقب «شاعر الجبلين». آخرون قالوا لي في ما بعد إنه هو الذي أسبغ على نفسه هذا الشرف. وكان هذا، على ما يُفترض، أيضاً، السبب في أن النادي الأدبي الذي أسسه دليلي لإعلاء اسم حائل بين المدن السعودية لم يقلع قط بسبب غياب الحضور. حسد حِرَفي. ولم يمنع هذا دليلي من وضع اللقب بشكل بارز على غلاف ديوانيه المنشورين. وبصفته شاعراً شعبياً سُمح له أيضاً بإلقاء قصيدة مطوَّلة كُتبت بالبحر المنبري الصدّاح خطابياً ومهداة إلى خادم الحرمين بمناسبة الزيارة التي قام بها الملك فهد في ذلك الربيع ذاته. وقد اكتست المدينة حلّة قشيبة لأن الملك لم يكن أطلّ من قبل على هذه المنطقة النائية منذ اعتلى العرش في عام 1982. وشاء الحظ أن يهطل المطر مدراراً في ذلك اليوم، الشيء الذي اعتُبر بركة من السماء. ولكن الأمسية الشعرية كانت بسبب ذلك فشلاً ذريعاً. وقد وجد الملك مبرراً لتقديم اعتذاراته وناب عنه في الخيمة الاحتفالية المفتوحة على تيارات الهواء الأمير سلمان أمير منطقة الرياض الذي يأتي بالمرتبة الخامسة في السلم الأميري. وكان العزاء الوحيد لشاعرنا الشعبي نَشْرَ ثلاث من قصائده في «ملحق حائل» الذي خصصته صحيفة «الرياض» للزيارة.

في غياب الملك وُزعت القصيدة، التي أُطرت بخطوط من الحبر الذهبي، وقد كُتب تحتها «بمناسبة زيارة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود المفدى وصحبه الكرام إلى منطقة حائل، هذه القصيدة قدمها شاعر الجبلين عبد العزيز بن عبد الله بن سليمان الجريفاني بهذه المناسبة السعيدة: أهلاً وسهلاً بعاهلنا وقائدنا

أهلا وسهلا براعينا وسيدنا
أهلا بخادم حرمينا وحامينا
أهلا بقائد مسيرتنا ورائدنا
حائل وهلها وهل جملة قراياها
وجبالها والسهال اقصاه والأدنا
إمارة أبو فهد مقرن يواليها
الرائد اللي لنبع الخير وردنا
اهلا بفهد العرب باني حضارتنا
يا ابننا يا خونا وانت والدنا

ثم جاء دور الأمراء الآخرين حسب ترتيب وراثتهم للعرش (باستثناء الأمير مقرن، الذي مُنح بصفته المضيف مكانة الشرف جنب الملك في ترتيب المجلس شعرياً)، ثم بيت القصيد: الشعر إعلام للتاريخ نوحي به

مسموع، مشهود، مكتوب بجرايدنا
في صادق الشعر نشكر فضل مولانا
اللي علم صادق النية وساعدنا
وهب لنا مخلص وحد جزيرتنا
بأمر الولي ثم ابو تركي تساندنا
صقر الجزيرة جعل دستور وحدتنا
النص بالراية الخضراء يوحدنا
وصرنا سعودي اسم واحد هدف واحد
والنهج واحد تلاقت به روافدنا

وهكذا تمضي القبائل التي كانت منقسمة في السابق إلى المستقبل الوضّاء تحت راية الإسلام وآل سعود: نقدم بقوات برية وبحرية

ونسور جو واواكس في مراصدنا
خلف الملك والعلَم تزحف سرايانا
وقت اللقا ما يخاف الموت واحدنا
حنا اساس العرب حنا السعودية
حنا جنود الوطن لو ما تجندنا

يعمل الجريفاني في الحياة اليومية مفتشاً بريدياً. وحياته في الخدمة المدنية لم تكن كلها مفروشة بالزهور. وهذا ما يشهد عليه عدد من القصائد في ديوانه يشكو فيها لوزير الداخلية من تأخير ترقيته وتعيينه في أماكن بعيدة موحشة... إلخ. ولكن مَنْ ينضّم إلى معشر الباحثين عن الجمال من صاغة الكلام الذين يعمّدون دررهم في نار معاناتهم الروحية، يجب أن يسلِّم بحرمانات اجتماعية معينة. والجريفاني عاش موقناً بأنه كان سيصبح ذا شأن كبير

في الخدمة البريدية لو لم يهب قلبه للشعر. فلقد بدأ حياته الوظيفية على جهاز التلغراف مع قوات الحدود في الشمال البعيد على الحدود مع الأردن. وكان ذلك يوم كان البعير لم يزل وسيلة النقل الرئيسية، وبالتالي صار بوصفه ابن مدينة يعرف حياة البداوة كما يعرف راحة يده. وتضلَّع شاعر آجا وسلمى بلهجة البدو الرحَّل وصور شعرهم وتقاليده ونمط حياتهم وصفات الجمل. كما عرف الخشونة والصبر اللذين أوصى بهما الخليفة الثاني عمر بكل إلحاح للمؤمنين. ولكن الشاعر لم يصبح قط بدوياً حقيقياً واغتنم أول فرصة سنحت له للعودة إلى حائل. فحبه الكبير ليس للصحراء بل للجنائن الخضراء بين صخور آجا الرومانسية. وهو يمضي الكثير من ساعات العصر حالماً هناك، منشداً القصائد الأثيرية المرهفة لشعراء المهجر من اللبنانيين المسيحيين الذين كانوا أصحاب الريادة في إيجاد شكل أكثر تحرراً في الشعر العربي منذ أوائل القرن العشرين.

تزوج الجريفاني بامرأة من قبيلة عنزة. وحين اقتربت الزوجة العنيزية من سِن اليأس وصار له أحفاد، اتخذ الشاعر زوجة ثانية، هذه المرة من شمر، أنجب منها أيضاً عدداً لا يستهان به من الأطفال. وبمرافقة نسيب له ـ رجل أعمال ثري وصاحب شركة لنقل المحروقات من الخليج ـ إلى هذا الإقليم الفقير بالنفط، وثلة كبيرة من الأطفال، خرجنا في رحلة في أول يوم جمعة. النساء بقين في البيت ولم أكن رأيتهن هناك أيضاً. وحشرت الجوقة نفسها في سيارة الشاعر الجيب من طراز تويوتا التي انطلقت بهم إلى متنزه بلدية حائل، وهو بقعة متألقة من العشب كأنها مرج هولندي تخترقها جداول تصب في بركة حيث يستجم الناس في زوارق وعلى دراجات مائية، وحيث شلالات الماء تنهمر صانعة رغوة بيضاء لدى سقوطها من قمة صخرة عالية على جبل آجا. وبين الشلالات كان بساط من الطحلب الأخضر يكسو الجرف. لبرهة، وقفتُ لا أصدق عيني حتى أدركتُ أن الماء يُضخ إلى قمة الجبل بأنابيب مخفية. وفي ساحة وقوف السيارات كان شرطي ينظم حركة المرور المزدحمة بسيارات المستجمين. وفي كل مكان على أرض المتنزه مدت مجموعات من السعوديين شراشف وُضعت عليها ترمسات القهوة والشاي والمرطبات وصناديق التبريد. وكانت العلب الفارغة تُرمى في أي ركن بلا مبالاة عارفين أن عمالاً فيليبينيين من الدائرة الصحية سيجمعونها في اليوم التالي. وعلى حافة العشب أبدى شاعرنا تردداً. أي رقعة نفرش فيها بساطنا؟ هناك عند البركة! كلا، ثمة نساء هناك (تكورات سوداء في الخضرة تجلس تحت الصخرة وظهورها إلى بقية المتنزه). هنالك إذاً؟ كلا، هذا أيضاً قريب من النساء. وبعد كثير من البحث وقع الاختيار أخيراً على مكان بعيد بما فيه الكفاية عن النساء وقريب من حلقات الرجال الأخرى بما يكفي لأن لا تُجرَح مشاعر أحد.

سألتُ الشاعر هل يجوز لمن يستطيع مثله أن يحدو العيس بهذه الحمية أن يفضل هذه الأجواء على الصحراء وبدوها الحقيقيين. شرح لي الجريفاني أنه لا يحب ثقافة القبائل. «إن أناشيد الحرب هذه التي لا نهاية لها حيث يتغنى الناس بعدد الرؤوس التي جزوها من قبيلة أخرى، لا أطيقها. نحن جميعاً موحَّدون الآن، شعب واحد نعمل من أجل ازدهار الوطن ورخائه». وبالتالي ففي تقديره، كلما قلَّ الاهتمام بقصائد البدو كان ذلك أفضل. وبصرف النظر عن هذه المشاعر الخاطئة، فإن الشعر البدوي يستحق، لأسباب ذوقية، أن ينتهي في مزبلة التاريخ الأدبي. وهو يرى أن عمل زملائه في الصحراء بلا قيمة: أبيات مرصوفة بلا صنعة شعرية وخالية من أي موسيقية. هو نفسه يقدِّر الموسيقى والإيقاع أكثر من أي شيء آخر في الشعر. وحتى عندما يستمع إلى قصيدة تُلقى من مسافة، لا يفوته أبداً أن يلتقط أي زحاف أو خلل في الإيقاع برغم أنه لا يفهم الكلمات المنفردة.

شاعر الجبلين موظف يستطيع القراءة ولديه مكتبة. وعن طريق معبوديه من شعراء المهجر اللبنانيين، يسمع أيضاً المحرَّمات التي يهمس بها المسيحيون والماسونيون والمتصوفون برغم أنه نفسه لا يمتّ بصلة إلى ذلك. وهو ينظم قصائده بنوع من اللهجة المفخمة. ومثله مثل الكثير من الأدباء العرب، كلما تقدم به السن زادت محاولاته للاقتراب من المَثَل الأعلى للغة الفصحى. ديوانه الأول الذي يقع في جزأين صدر بعنوان الأصالة والانتماء . ويريد أن يسمي ديوانه القادم برهان الأصالة . وهو يرى أن الديوانين يسوقان الدليل على صدقه الشعري مثلما تكون إفادة الشاهدين دليلاً في الشرع الإسلامي.

من أسئلتي عن معنى كلمات غامضة باللهجة المحلية يستخدمها البدو، خلص الجريفاني إلى أني فيلولوجي، خبير في فقه اللغة يجمع المرادفات والكلمات النادرة. وأصر على رأيه هذا برغم كل المحاولات لإقناعه بخلاف ذلك. فما الذي يبتغيه المرء سوى ذلك بين هؤلاء البدو الأجلاف؟ وهكذا جلسنا على مقعد القيادة كأننا حوذيان، كل منهما يجادل حول طاقم خيول على جانبين مختلفين من العربة. لقد شاء القدَر أن يُعيَّن لي دليل كافح كل حياته للتحرر من البيئة التي كنتُ أفتش عنها. وحتى في قصائده الأولى، مارس لعبة القفز على تقاليد عريقة في شعر الصحراء. فبدلاً من تصوير بعير من نوع معيَّن ولون محدَّد له سيقان وسنام وصدر وذيل وصفات كذا وكذا، يصف الجريفاني سيارة كذا؛ موديلها وطرازها وسرعتها القصوى في الساعة... إلخ. خذوا مستهل قصيدته «واحن قلبي»: واحن قلبي حن فرتٍ لا استَمَرْ

يسوق به عبدٍ ابليسٍ شَايْلَه
تلق عيونه حُمر من زود السطِّرْ
وطاقيته من فوق راسه مايْلَه
تسمع قشيط المرو من حَدْر الكفَر
رصَّاص قوم مع بَعضْها صايْله
عليك ياللّي جامرٍ قلبي جمر
يا عنق ريم طالعت لَه زايْله

يا عود موزٍ ناعمٍ وسط الشجر
بظلال هيفٍ عن سموم القايْله
والعين عين اللّي من الجو انحَدَرْ
لا صادَه الشبَّاك في حبايْله
وخدّه قمر خمسة عشر توّه ظَهر
على الردايف ناسفٍ جدايْله

بدلاً من الإبل التي كانت تُستخدم في القرى لسحب الماء من الآبار في دلاء كبيرة يسوقها عبيد في النهار والليل، يستخدم الجريفاني صورة حديثة ـ صورة سائقي السيارات السعوديين السود المتحدرين من عبيد قدماء، يقودون سيارات أجرة أميركية ذهاباً وإياباً في مكة من دون عقال وكوفية باستثناء طاقية خفيفة تميل على قمة الرأس ـ . ويمكن أن يستشف المرء من القصيدة أن السيارة تنطلق عبر مشهد شائع في الجزيرة العربية: امتداد كامل الاستواء من الصحراء يغطي قاعدته الرملية موزاييك من الصوان المسطح. السعوديون يقودون سياراتهم على هذه البطاح بسرعة تزيد كثيراً على مئة كيلومتر في الساعة فتحفر إطاراتهم في الحصى وتقذفه بقوة كأنها رشقات رصاص من مدفع رشاش. التشبيه ليس فيه كثير من الإبداع، لأنه حتى البدو في الزمن الأول كانوا ينظمون قصائد عن القوة التي كانت إبلهم السريعة كالبرق الخاطف تقذف بها الحصى. وهذا على وجه التحديد هو الغرض. فالجريفاني يريد أن يبين لنا أنه شاعر زمانه ولكنه يتمسك بالقيم العربية القديمة.

نصف نتاجه الأدبي على أقل تقدير يتألف من مدائح موجَّهة إلى أفراد العائلة الملكية. وفي الجزيرة العربية يمكن أن تكون هذه تجارة مربحة. ففي جولة عبر صحراء النفود حملني دليل محلي ذات يوم على الخروج عن الطريق إلى الرمل والتوقف عند كوخ مبني من كتل إسمنتية على بعد مئة متر. رأيتُ بضع أغنام وأكوام من الحطب جُمعت من جذور نباتية ملتوية، هي النفايات المعهودة حول أكواخ البدو الذين استوطنوا في عهد قريب. دليلي توجه بالتحية إلى شيخ طاعن في السن كان يجر قدميه حول الكوخ، وبعد فترة وجيزة أُخرج أحد الأبناء مجروراً. كان الوقت قبل ساعة الغروب بقليل، وكان الصبي تطوع للصيام ستة أيام بعد انتهاء شهر رمضان. فكانت أفكاره منصبة أكثر بكثير على أول قدح شاي وأول تمرات سيفطر عليها في ذلك اليوم. ولكن والده قال له أن يلقي أولاً ثلاثة أبيات من شعر المديح في آلة التسجيل التي كانت معي. أحد الأبيات، مُهدى إلى ولي العهد الأمير عبد الله الذي وُلد لأم شمرية، أكسب الفتى عشرين ألف ريـال تعادل في تلك الأيام نحو عشرة آلاف دولار. تساءلتُ بصمت كم جنى شاعر الجبلين في سنوات. والغريب أن الجريفاني قال إنه لا يحب الشاعر العربي الكبير المتنبي «لأن يده دايماً تحت»، أي أنه لم يفعل لكسب رزقه سوى نظم قصائد في مديح الأمراء ـ أو هجوهم إذا أخفق في غايته ـ . استخدم الشعر بوصفه شكلاً من أشكال الابتزاز السياسي. الزهو والمفاخرة المنفلتان اللذان هما جزء من تقاليد الثقافة الشعرية العربية ـ والمتنبي مرة أخرى فارس فيهما بلا منازع ـ لم يكونا غريبين على الجريفاني.

ولكن الشاعر الشعبي ترك عندي انطباعاً من التواضع والوقار والترفع على أمور الدنيا والتحليق في الأحلام. فإن جذوته تحترق في الداخل، بعيداً عن الأنظار. ولا تتوهج النار إلا من حين إلى آخر، في ظروف معينة. قال لي إن «الشعراء مرهَفون بطبيعتهم». كان ذلك يوم رفض اقتراحي إلقاءَ قصيدته عن فن الشعر بحضور جمع من الشعراء البدو. قال لي «سيعدّونها انتقاداً، ولن يكون ذلك من باب اللياقة».

كان شاعر الجبلين يمقت كل ما ينافي اللياقة وحسن السلوك والاحترام الذي يدين به المرء للمقام والمكانة. ذات مساء وجدته يستشيط غضباً في بهو فندق الجبلين. كانت تلك ليلتي الأخيرة في حائل، واتفقنا على أن يأتي برفقة شاعر محلي آخر يُدعى أحمد الرفاعي، لزيارتي في الفندق لإحياء أمسية شعرية. وعلى شرفة غرفتي في الفندق أعددتُ كل شيء بما يكفل إشاعة أجواء مناسبة: قنديل وضعته في الخارج كان يُضيء المجلس المرتَجَل بنور خافت. مرت الساعة المتفق عليها من دون أن تأتي الطرقة التي كنتُ أنتظرها على الباب. ماذا جرى؟ سأل شاعرنا موظف الاستعلامات المصري البدين عن رقم حجرتي. وفي تلك اللحظة كان المصري على الهاتف، ربما يتصل بالقاهرة، وأشار إلى الشاعر بحركة مبهمة صوب المطعم قائلاً إنه سيجدني هناك. حين أُبلغتُ أخيراً بوصوله ونزلتُ السلم كان هناك هرج ومرج في بهو الفندق. ودليلي، المنضبط عادة، كان يرغي ويزبد على الرجل الواقف خلف المكتب. وأدلى ابن مالك الفندق السعودي الذي صادف مجيئه، بدلوه في الأمر، وبعد عشر دقائق اتصل الموظف المصري البدين بغرفتي ليقدم اعتذاراته الشديدة إلى الشاعر. في هذه الأثناء كنتُ أواجه صعوبة بالغة في تهدئة الجريفاني. وظل الشاعر يشتم المصري الذي جلس «يتصل بقريته الخرائية على نهر النيل على حساب الفندق»، بينما صرفه، هو السعودي، بحركة غير لائقة من يده.

إن هذا بلد السعوديين، نفطهم، مالهم، إسلامهم. والآخرون، حتى ولو كانوا من الناطقين بالعربية، يُحتَمَلون ولكنهم يستطيعون الرحيل إذا أساؤوا التصرف. ففي مقابل كل عامل مهاجر هناك مئة يتمنون المجيء لأخذ مكانه الشاغر. لاحظتُ ذلك من الخنوع الذي لا ضرورة له في تحية مجموعة من العمال الهنود الذين كانوا يزورون قبر طي، أبي شمر، أو من الابتسامة المهذبة على وجه راع باكستاني. هذه هي المعاملة التي كنا نحن الأوروبيين تعودنا عليها في ما مضى خارج قارتنا. وكانت ردود أفعال الآسيويين في العربية السعودية تبين أن الشعور بأننا أسياد الكون ليس حكراً علينا. في نهاية المطاف كانت لنا جلسة لطيفة. فقد حضر الشاعر الآخر أحمد الرفاعي الذي يملك ورشة لتصليح السيارات والآلات. وبحركة ساحر أخرج أحمد أولاً منديلاً أبيض فتحه وأراني مجموعة من النقود العربية البالية بدا أنها تعود إلى نحو ألف عام خلت. وأعلن باعتزاز «إنها هوايتي. لديّ متحف كامل منها في البيت». وسيعرّفني المرة القادمة إلى آل سويد من شمر، وهم عشيرة معروفة بمواهبها الشعرية.

ثم بتنا في أمسية أدبية حقاً على الطريقة العربية ـ لا تعوزها سوى الإنارة التلفزيونية ـ . قدم السادة قصائد بعضِهم البعض بحفاوة رسمية طنانة للميكرفون المربوط بآلة تسجيل عارفين أن عملهم يُسجَّل للأجيال.

قبر تحت السلّم

رن جرس الهاتف بينما كنتُ أحلق ذقني. كانت زوجتي تتصل من الرياض لتتمنى لي عيد ميلاد سعيداً. أنا نفسي نسيتُ المناسبة. هناك أماكن أسوأ للاحتفال بعيد الميلاد، خطر لي ذلك وأنا أُزيل بالماء رغوة الصابون عن وجهي. فندق الجبلين، ملتقى الثقافات. لاحظتُ أيضاً أن المصري عاملني بقدْر من التعالي عند وصولي. لم أشعر بالإهانة لأني أعرف من الفترة التي أمضيتها في القاهرة، أن كل خرّيج من مدرسة الفندقة المصرية يعتبر شهادته مدخلاً إلى عالم النبلاء. عدا ذلك كنتُ أستطيع بسهولة أن أتخيل نفسي واقفاً هناك: مترَب، متعرق، رائحتي مُشبَعة بالبنزين، أرتدي بدلة مهلهلة تغطيها بقع الزيت بعد حدوث عطل في سيارتي اللاندروفر على الطريق. مرت بضعة أيام قبل أن يُخال للمصري أني سفير هولندا، وهو انطباع خاطئ تعذر تبديده بين أهل حائل. ومنذ تلك اللحظة تغير موقفه.

المصريون يسيطرون على الصناعة الفندقية في العربية السعودية. ومن دون استثناء تقريباً، يمكن تمييزهم من نمط سلوكهم الذي، بخلاف السعوديين، لم يكن مخفياً في ثنايا أثوابهم وبشوتهم الفضفاضة. المدير كان يرتدي سروالاً، مخيطاً بلا عناية، أزراره لماعة من الطراز القديم، ينخفض عند الورك بما يفسح المجال لاندلاق كرشه. ومع طيات الشحم على الجانبين وفي المؤخرة كان كرشه مستوراً بقميص ضيق تكاد أزراره تنخلع من أماكنها. كانت هيئته كلها تشير إلى أنه مهني ينتمي إلى ثقافة متفوقة عريقة، وجد نفسه بين هؤلاء الهمج نتيجة خطأ تاريخي مأساوي. في مقدم رأسه الأصلع على قمة جبهته العريضة هناك رقعة وردية واسعة تضرب إلى الزرقة تبدو للعين غير المدرَّبة كأنها أثر لكمة أو وشم محلي، ولكنها معروفة في عالم الإسلام بأنها «الزبيبة» الشهيرة؛ علامة مميزة من النوع الذي كان الرئيس المصري الراحل أنور السادات يتباهى به: وسم نشأ من أثر السجود. الأمر الغريب أني لم أر الرجل ذات مرة يؤدي فرض الصلاة في ذلك الأسبوع. لكني رأيتُ مرؤوسه الهندي الذي لم تكن لديه زبيبة على الإطلاق يصلي. لعل المصري أوجد البقعة المرضوضة بحك حصاة على جبهته حتى ظهرت الزبيبة، كما كان يُقال عن السادات.

على أحد جوانب البهو، في موقع السلَّم، بُنيت فجوة في الجدار حيث أُلصقت ورقة مطبوعة على آلة الاستنساخ وقد رُسم عليها سهم يشير باتجاه مكة، كُتبت عليها العبارة «عقوبة تارك الصلاة». وطبقاً للملصق، فإن من تهاوَن في الصلاة عاقبه الله بخمس عشرة عقوبة منها ست عقوبات في حياة المرء وثلاث في القبر وثلاث يوم يُبعثون. ويحرم الله مرتكب الخطيئة من بركته. سيم الصالحين تُزال من وجهه ولا يكون له نصيب من دعاء الصالحين، وعندما يسلم الروح لن يصلي أحد على روحه. يموت ذليلاً، جائعاً لا يكفي ماء البحر لإطفاء ظمئه (واضح أن السعوديين ليسوا من رواد البحر). يمحقه الله في قبره ويعصره حتى تختلف ضلوعه. يشعل الله ناراً في قبره ويسلط عليه ثعباناً يسمى الشجاع الأقرع. وهكذا كلما ضربه يغوص في الأرض سبعين ذراعاً. وفي يوم القيامة يرمي الله بروحه إلى الجحيم. وينظر اليه بعين الغضب وقت الحساب فيقع لحم وجهه. يحاسبه الله حساباً شديداً ما عليه من مزيد، ويأمر به الله إلى النار وبئس القرار. وكفانا الله شر ذلك.

هذه الملصقات لا توجد في فندق إنتركونتننتال أو ماريوت في الرياض. فإن حائل في الأقاليم، والأقاليم لم تتعلم بعد فن الكلام بلسانين: لسان للزوار الغربيين ولسان للأخوة في المسجد. وقد لمستُ ذلك في اللحظة التي وطأت قدمي رواق الطابق العلوي من الفندق الذي كانت رائحته شبيهة برائحة مراحيض عامة من الطراز القديم. غرفتي كانت ذات تصميم حديث يعود إلى ثلاثين عاماً خلت. خزانات من الخشب الاصطناعي المحبَّب، مرشوشة ببقع بيضاء من مخلَّفات آخر مرة أعيد فيها دهن السقف. وعلى الحائط مونتاج فوتوغرافي مصمَّم في لوحة لقطتين زغبتين، واحدة بيضاء والأخرى بيج، بعيون وديعة تحيطها حلقات حمراء، تشمان وروداً حمراء على سياج واطئ من الحديد المطاوع حول المَزْهَر. وفوق أذن القطة ذات اللون البيج كان وجه ساعة جدارية مبنية في الحائط بأرقام رومانية. الساعة متوقفة، عقاربها تجمدت عند الساعة السادسة والنصف.

عشية «عيد الفطر» أو «العيد الصغير» في نهاية شهر رمضان، فتحتُ جهاز التلفزيون. صور صلوات جماعية حاشدة في مدن مختلفة من المملكة، ثم خطبة يلقيها كالمعتاد نموذج زاهد نحيل البنية، غطاء رأسه بلا عقال يضغطه في طوية حادة على منتصف جمجمته وبلحية كثة كالأخاديد المرصوصة لصخور آجا. الصلاة الجماعية في الفضاء المفتوح بمناسبة انتهاء شهر رمضان، توحّد الشباب والشيوخ، الدين والدولة.

في تلك الأمسية ذاتها أخذني شاعر الجبلين لرؤية رقصة السيوف؛ العرضة، التي تُؤدَّى احتفاء بقدوم العيد في العواصم الإقليمية. الجريفاني بدا أنيقاً. وفي عباءته السوداء المطرزة بالذهب خطا عبر العشب في متنزه البلدية. أردتُ الجلوس في مكان ما في المؤخرة لأني شعرتُ بأني خارج المكان بعض الشيء في لباسي الغربي. ولكن الشاعر دفعني إلى الصف الأمامي تحت سرداق الضيوف الكبار. وهناك وسط صف من المقاعد الضخمة قشدية اللون، مخصصة لضيوف الشرف، أُجلستُ على المقعد الذي جلس عليه الأمير مقرن قبل ساعة من وصولنا. ولا بد من أن يُسجَّل لصالح السعوديين أن لديهم إحساساً رائعاً باللياقة وقدرة على حسن التدبير والذوق السليم في كل الأحوال. فلا ريب في أني كنتُ محط الأنظار، وتصرفاتي موضع متابعة من طرف

العين، ولكن لا أحد من بين مئات الرجال صوَّب نظراته نحوي، كما يفعل المصريون. فلقد تصرف الحاضرون كما لو لم يطلّ بينهم رجل غريب الهيئة. لقد كنتُ بحماية رجل معروف من أهل المدينة أخذ على عاتقه تزكية سلوكي، وأصبحتُ بحكم هذه الحقيقة ذاتها سعودياً فخرياً.

بدأت بجانبي مراسم الاحتفال. توالى الحاضرون واحداً تلو الآخر لتحية الشاعر الشعبي. وأمامنا كان صفان من الرجال في مواجهة بعضهم البعض يثبون على ساق ثم أخرى والسيوف ترتفع وتهبط والأذرع متشابكة ذراعاً في آخر. وكان يفصل بين الصفين سعوديون سود ينقرون على الدفوف ويقرعون الطبول، وراقصون يتقافزون حول المكان مؤدين بسيوفهم حركات أرشق من جوقة المغنين المتمايلة على الصفين. بدا الغناء رتيباً، ولكن الوجوه كانت تشع وتتألق بما تبذله من مجهود. كانوا جميعاً مستغرقين في الأداء، حتى الأولاد الصغار الذين ارتدوا لباس الكبار، لم تكن حركاتهم متناغمة تماماً مع خطوات الآخرين، لكنهم كانوا منظراً مؤثراً في نهاية الطابور. تلقى الشاعر بعض التحيات جالساً، وفي بعض الأحيان كان ينهض من مقعده. الذين شعروا بأنهم ينتمون إلى درجة أدنى في السلم الاجتماعي تظاهروا بمحاولة تقبيله على الأنف، وآخرون ذوو مكانة مساوية قبّلوه ثلاثاً على الخد ـ بالخد على الخد فقط ـ وحين كان شخص عالي المقام يقدِّم نفسه كان الشاعر في الحقيقة يخطو بضع خطوات لملاقاته. وبعد أقل من ساعة بقليل غادرنا الحفل. إذ لا يمكن الاستئثار بمقعد كهذا طوال المساء، ومن الجهة الأخرى لا يمكن إجلاس «سفير» في مكان آخر بكل بساطة. فكان أفضل الحلول أن نغادر.

مقرن

الأيام القليلة الأولى في حائل وُهبت للفعاليات الرسمية. وسواءً أكانت الزيارة خاصة أم لم تكن، فإن المرء لا يريد بأي حال من الأحوال أن «يُضبَط مقصرا». فهذه قضية شرف. بداية، أقام «الوكيل»، نائب الأمير، مأدبة غداء. الضيوف الآخرون كانوا الشاعر وأمين غرفة التجارة ومدير الفرع المحلي للبنك السعودي ـ الهولندي (احد فروع بنك آي بي أن في الخارج) وغيرهم من الوجهاء. كان الوكيل نُسِّب حديثاً من قبل وزارة الداخلية في الرياض ولم يعرف طريقه بعد في الأقاليم.

أراني سراً ألبوم صور فوتوغرافية: ها هوذا لا يرتدي اللباس السعودي التقليدي، بل سروال جينز على قنطرة فوق إحدى قنوات أمستردام، أو التقطه ضوء العدسة في نادي ديسكو يغمره الدخان، أمامه كؤوس على المائدة، وعلى كتفه ذراع صديق ناعس النظرات طويل الشعر. في حفل الاستقبال كان غاية في الأدب، ولكن لا بد من أن الأسباب التي قدمتُها لزيارتي بدت له غير معقولة. فلقد طاف العالم ولمَّح إلى أنه يفضل أن يكون في أي مكان آخر، غير حائل.

قبل أن تتخذ الجماعة مجلسها للغداء كحّلت عيونها بشريط فيديو: رحلة الصيد التي قام بها الأمير مقرن في الشتاء الماضي. وسبق أن قيل لي إن العائلة الملكية مارست الصيد في مكان ما على الحدود الشمالية في ذلك الموسم. الآن ظهرت الحقيقة. فنحن على الطرف البعيد من الحدود مع العراق[6]. وعلى هذا الجانب، السعودي، أُبيدت غالبية الطرائد منذ زمن بعيد. الترخيص بممارسة القنص، كان معروفاً صغيراً من صدام حسين مقابل بلايين الدولارات من المملكة دعماً للحرب ضد إيران. لاند روفر طويلة ذات ستة إطارات، مسقوفة بغطاء، تنطلق عبر البادية. وعلى مقعدين جلديين بجانب السائق يجلس مقرن وأخوه عبد المجيد، أمير المدينة الذي ورث قامة والده الطويلة. وبحركة أريستوقراطية من الرسغ يرتدي الأمير قفازاً كبيراً من الجلد، ويستدير ليوعز إلى سائس الصقور في مؤخرة السيارة أن يسلمه صقراً. يُرفع القناع عن رأس الصقر وينهض الأمير ويطلق الطير في الهواء. تنتقل الكاميرا إلى الطريدة وهي حبارة، ترتفع بحركات ثقيلة وبطيئة تماماً على مبعدة. الحقيقة أن الحبارة طائر أقرب إلى الطيور الماشية. يلاحق الطائران أحدهما الآخر. ينقضّ الصقر على الحبارة فيخطئها، يستدير ويخر ثانية على طريدته. الحبارة تفقد سرعتها وتتجه نحو الأرض ثم يهوي الصقر من السماء عليها كأنه حجر. الريش يتطاير والحبارة تصْفق جناحيها وتحاول الإفلات بلا جدوى، وفجأة تنتهي العملية. الأمير قاد السيارة بنفسه إلى موقع القنص حيث يخرج وينحني على طائره والطريدة. وبيده ينتزع أطيب اللقمات من أحشاء القنيصة، الكبد والقلب، ويطعم بها الصقر. وهكذا يستمر العرض، رتيباً كشريط فيديو يصور سباق سيارات شاهدتُه ذات مرة برعاية «الجمل» (السيجارة التي تحمل ماركة «الجمل» Camel لا الدابة نفسها): سيارات لاند روفر تشق طريقها بلا نهاية عبر الطين الأحمر لغابات زائير، حيث تعْلَق وتُسحب من الوحل ثانية. وحبارة تلو أخرى تموت مقنوصة، إحداها تنجو من القنص دقيقتين، أخرى ثلاث دقائق، وليس من حبارة تفلت. الجو بارد في هذه الصحارى الشمالية. الناس تخبط الأرض وتشفط من مناخيرها ملفعة بمعاطف صوفية غليظة. إنه الطقس السنوي لطبقة من النبلاء العرب.

الأمير مقرن مالك أرض زراعية أيضاً. مزرعته تُدعى العزيزية وهي من أجمل المزارع التي رأيتها في حياتي. وإذ تحيطها أميال من الأشجار الغامقة الشبيهة بأشجار السرو، تتخلل حقول القمح جنائن تجريبية حيث تُجرى، مثلاً، اختبارات على سبعة أنواع مختلفة من البطاطس الهولندية. وهناك بساتين مليئة بأشجار التفاح والمشمش والنخيل. وفي مجمع من البيوت الزجاجية مساحته هكتار تُزرع حبات ضخمة من الطماطم والخضار الأخرى بمساعدة أحدث الأجهزة في مجال الزراعة المائية. وكان الأمير يعتزم زراعة نباتات بيتية في قسم صغير من تلك المساحة. الأمير نفسه، الذي كان يرتدي ملابس غير رسمية من الطراز الراقي، بسروال جينز وقميص حرير إيطالي مفتوح، أخذني إلى هناك بسيارته المرسيدس المصمَّمة للعمل في كل التضاريس. وفي البيوت الزجاجية أراني مجموعته من المزروعات وشرح لي بالتفصيل كيف تُقطع الفروع الغضة من النبتة الأم وتُستنبت في مكان آخر. ويخطط الأمير لاستيراد خط كامل للإنتاج الزراعي التكاثري المكثف من هولندا. فالمال ليس مشكلة.

في وسط البقعة يقع بيت المزرعة، وهو بيت حديث مسطح من طابق واحد أُنجز بناؤه حديثاً. ويذكِّر داخله بالبيوت المدارية للحدائق النباتية: بحر من النباتات من كل صنف، زاوية فيها أنواع لا تحصى من الصبّار، وأخرى مزروعة بالهيل وكل أنواع المنكهات التي تُستخدم في القهوة العربية. وفي مركز الفضاء المصمَّم على شكل حرف L بطول 40 متراً، هناك مساحة بيضاوية عميقة للجلوس تحفها أرائك جلدية سوداء على طريقة المجلس، وبين الأرائك مناضد رخامية لوضع الأكواب ومطافئ السجائر. وكما في المجلس التقليدي فإن الوسائد تغطي أذرع الأرائك التي تكفي لاستقبال خمسين شخصاً على أقل تقدير. وعلى الجانب القصير من حرف L تمتد مائدة خفيضة طولها 25 متراً حيث يستطيع الضيوف أن يأكلوا جلوساً على الأرض، مع ما يكفي من الأواني الذهب لاستضافة قبيلة كاملة. وفي أحد الأطراف مجموعة من أحواض الاغتسال بحنفيات من ذهب لإزالة شحم الضأن من اليدين بعد العشاء فيما يمسك العاملون مناشف جاهزة للاستعمال، ويرشون ماء الورد على الأيدي من قارورة.

تناولنا الطعام على الجانب الآخر من منطقة الجلوس حول مائدة جنائن بيضاء مستديرة، على كراسيّ بيضاء تحت مظلة لطيفة في مشتل ذي زجاج ملون من حولنا وفوقنا. أطوال من الستائر على بكرات شأن تلك التي تعلو الأزقة في سوق شرقي، تخفف من الضوء العربي الباهر. نباتات في كل مكان حولنا، وأكاليل أيضاً من نباتات الأصص المعلقة من سلاسل في الهواء يُبخ فوقها ضباب شفيف بين فترات محدَّدة. وباستثناء الأجواء المصطنعة بعض الشيء يحس المرء كأنه في إجازة في سان تروبيز، إلا المشهد الذي تطل عليه نافذة المشتل الزجاجي: الحقول الخضراء تحضنها التلال الحمراء لصحراء النفود. وادٍ ساحر شبيه بالجنينة التي تحيط قلعة «الحسناء النائمة» ـ غنَّاء، يسودها السلام وتنعم بوفرة نثرتها يد خفية من السماء ـ . جنة، قاسية بكمالها، يحكمها أمير عادل حيوي شاب لا هم له سوى خير رعيته والتقدم العلمي. كل ما ينقصه هو الأميرة في حكايات الجن. فإن زوجات الأمير وأبناءه الخمسة عشر يعيشون في حائل.

باستثناء الشاعر الشعبي، كان الضيفان الآخران هما مدير المشروع الزراعي ربورتو دي لوبيز، وهو أميركي ذو أصل مكسيكي من لوس أنجيليس، والعالم البريطاني الذي يرأس مختبر الأمير الزراعي الضخم. يضاف إلى ذلك أنهما يشتركان في الإشراف على الحاصدات العملاقة وبقية الآلات الحديثة، وحديقة حيوانات الأمير: نعامات، غزلان، قرود من نوع البابون، خيول وجمال أصيلة، بضع عينات باقية من مئات الحبارات التي اصطادها الأمير وقدمها هدايا، طواويس، طيور من الحجل التجميلي وكلاب سلوقية عربية. الذئب العربي كان هرب لتوه.

أشار الأمير إلى أن لون إحدى الحمائم ليس كما ينبغي. وعد روبرتو بأن يلقي نظرة على الفور. روبرتو يكاد يكون كاريكاتيراً بشعره الطويل المسرَّح إلى الوراء، وسرواله الجينز وجزمة رعاة البقر المكسيكيين، وحزامه العريض من الجلد المنقوش تحت كرشه الثقيل، وشعر صدره الكث الذي يظهر مجعداً من فتحة قميصه عند الصدر، يصك بأسنانه دائماً على سيجار هافانا بحجم صاروخ باليستي. إنه ليس المدير فحسب، بل بهلول سيده ومدلِّكه النفسي أيضاً. مهمته غير المكتوبة هي أن يبقى بشوشاً ومتفائلاً طوال الوقت، يتبِّل حديثه على الدوام بمدائح ماكرة للأمير ويصور كل شيء على العموم بألوان زاهية. باختصار، عليه أن يقوم بدور الصديق الذي لا يتوانى عن الاستجابة بحماسة لسيل لا ينتهي من نوازع الأمير وأفكاره الجديدة، ولكن من دون أن يرفع الكلفة ـ على سبيل المثال، أن يضيف عبارة «صاحب السمو» بين كل بضع جمل ـ . ربورتو مرافق، لُقية حقيقية، فرد من أفراد الحاشية يتيح لأميره أن يستمتع بمسرّات الصداقة ويوفر عليه الأعباء. واحسب أنه رفيق أيضاً بوصفه فرداً من أفراد الحاشية يتقن فن الإيحاء بالوفاء فيحاصر سيده بين نرجسيته وعذاب الشك.

لعل لكنة روبرتو البرية الأميركية الخشنة وأسلوبه المسترخي في الظاهر، كان يراد بهما أن يطفئا حنين الأمير إلى أميركا: فترة تدريبه على الطيران. فلا ريب في أن شكلاً خطيراً من أشكال الاغتراب يعذب الأمير في وادي البركة هذا. إنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له، يطلق العنان لنزواته وهواياته، يستطلع سماء الليل من قبة مرصده الدوّار المجهز تجهيزاً محترفاً على سطح بيته البنغل، يمتع نفسه في المختبر مع الكومبيوترات التي تحلل عينات التربة والبذور، يستمع إلى موسيقى رباعية الأصوات في مضيفه، ويدعو بين حين وآخر الشعراء وأدباء المنطقة إلى جلسات شعرية، ويلقي المحاضرات على مجلس تعاونية حائل الزراعية عن أفضليات نظام الاقتصاد الحرّ الأميركي... إلخ، لكنه بعيد عن الرياض ومركز السلطة. إن الأمير مقرن يتوازن توازناً قلقاً على حد الموسى بين عالمين. وهو نادراً ما ينام، و ينغمر دائماً، بطاقة لا تنضب، في مشاريع جديدة. ولكنه يذكّر المرء بمحرك سيارة في سباقات الفورمولا واحد يهدر في الفراغ، أو بطفل أُطلق له العنان في مخزن لُعَب في الشارع الخامس ويستطيع أن ينال منها ما يريد. ولكن المفقود وجود هدف حقيقي، حيث الواقع لا يضع في طريقه العقبات التي يتعين على الفانين الاعتياديين تذليلها لبلوغ مراميهم. ولا حتى في الزراعة. إذ مهما بلغ زهوه بغلَّته البالغة عشرة أطنان من القمح للهكتار الواحد، فإن الدليل على ثمرة جهوده غائب ما دام نظام الأسعار والدعم يضمن الربح، وبمخصصه الأميري يستطيع أن يشتري أحسن ما في العالم من خبرة وتكنولوجيا. كما لو أنه يحتاج إلى روبرتو لإقناعه بالعكس.

الشاعر الشعبي يجد ذلك كله رائعاً. «لهذا السبب نحن ديمقراطيون إلى هذا الحد»، يشرح لي في طريق العودة. «الفضل لحكام مثل الأمير مقرن يتكلمون، من مستواهم، مع كل فرد، ويبقون مع ذلك نموذجاً للتواضع».

6. جرت رحلة الصيد قبل اندلاع حرب الخليج.

النفود

مر يومان على البروتوكول وكنتُ متلهفاً إلى النزول إلى الميدان. الشاعر الشعبي كان حائراً إلى حد ما بقضيتي. إذ يكاد لم يبق بدو أقحاح، ليس في هذا الموسم على أية حال. وغالبية الرعاة عمال مهاجرون من الهند وسريلانكا وباكستان، وأفراد شمر استقروا عشائر في قرى حديثة. وفي هذا الوقت من السنة، حيث هطل القسم الأعظم من أمطار الربيع، تكون قطعان الإبل على الحدود السعودية ـ الأردنية على بعد مئات الكيلومترات إلى الشمال. وهي لن تعود إلى جبل شمر قبل بداية موسم الحر. قال الشاعر، « لا أستطيع اللف على البيوت معك طارقاً الأبواب». وكل ما استطاع أن يوفره كان شلة من الإخوة وصاحب ورشة، وجميعهم من الشعراء الذين لم يُنشَر لهم عمل. ولكن 80 في المئة من السعوديين شعراء لم يُنشَر لهم عمل.

شعرتُ بأني حبيس شبكة من الأدب الجم: كنتُ أريد البحث عن حياة عربية حقيقية في الصحراء، ولكن السلطات الإقليمية وموظفيها أرادوا ربطي بمآدب غداء وعشاء وسفرات إلى المتنزهات البلدية لا نهاية لها، إما لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه هي الطريقة التي يجري بها استقبال الدبلوماسيين، أو على أمل التخلص مني بهذا الأسلوب. في المساء اتصل بي هاتفياً مدير العلاقات العامة ليسألني إن كنتُ راضياً على الشاعر الشعبي والبرنامج. قلتُ، «نعم ولكني أريد أن أذهب وأرى البدو!». لا ضير، سيحدث ذلك، أكان اليوم عطلة أو غير عطلة.

صباح الجمعة أخذتني من الفندق سيارة لاندكروز ذات هوائي كبير لجهاز الإرسال يقودها مطوعة، وهو ثعلب صحراوي قديم نذر السنوات الأخيرة من حياته لله وجهاز الاستخبارات في حائل. كان يعرف شاعر الجبلين من أيام عملهما معاً في حرس الحدود. جلسنا ثلاثتنا باسترخاء في المقعد الأمامي، وما لبثت أن انطلقت أغاني الجمَّالين تصدح في أذني ذات اليمين وذات الشمال. كان هدف الرحلة قنا؛ وهي قرية في النفود. سرنا فوق قمة تل رملي وفجأة انداحت في حوض منخفض واحة مترفة ـ نخيل وحقول محروثة وبساتين ـ كأنها بقعة خضراء قاسية من الدهان وسط الرمل الأصفر الضارب إلى الحمرة. وعلى شرفة الإمارة أو دار البلدية المطلي بالأبيض البراق والمغطى بالسجاد الفارسي، استقبلنا الأمير، أو شيخ القرية. وبمساعدة رفوف تحوَّل جانب من الحائط إلى خزانة لعرض عشرات من الدِّلال النحاسية ذات الأعناق الطويلة. وفوقنا كانت ثريتان تتحركان حركة بالكاد تكون محسوسة في النسمة الخفيفة التي تحدثها المروحيتان السقفيتان. وإذ اتكأنا على الوسائد المرصوفة على امتداد الجدار نظرنا من فوق قمم النخيل والتلال الرملية التي اختفت في زرقة السماء الأثيرية كأفق البحر في يوم رائق ضبابي بعض الشيء. مكان للجلوس في الأمسيات بعد رحيل آخر الضيوف وإطفاء الأنوار، ولاقتفاء أثر الدب الكبير في اتجاه الدب القطبي. حينها، تطلعنا شمالاً عبر النفود.

شيئاً فشيئاً امتلأت القاعة بسكان القرية وقاطني التلال الرملية. وصل الشاعران البدويان حميدي المغيليث ومحشم الجهيلي وبدآ يخطبان. استمعتُ مندهشاً إلى سيل الكلمات يتدفق من حنجرتيهما بسرعة البرق وبصوت جهوري عال. المناشدات الداعية إلى الهدوء لم تجد نفعاً. وما إن انتقل الشاعران إلى وتيرة أبطأ حتى ضيعا رأس الخيط وبدآ يخلطان نتفاً من القصيد. من الواضح أنهما حفظا قصائد أجدادهم غير المكتوبة في الذاكرة كتلة واحدة ذات إيقاع محدَّد، وهما الآن لا يستطيعان إلا الغناء كاسطوانة قديمة سرعتها 78 دورة في الدقيقة. لذا، اقترحتُ تسجيل القصائد برمتها على شريط ثم إسماعهما مقاطع وأجزاء على أن يفسرها فيما بعد مَنْ نقلوها إلى الأجيال التالية. وقد ساعد ذلك بعض الشيء ولكن بدا واضحاً في الوقت نفسه أن الشاعرين لم تكن لديهما فكرة عن معنى الكثير من الكلمات ـ مشكلة كثيراً ما تحدث مع مصادر تكون أميّة بالكامل أو شبه أميّة، كما علمتُ لاحقاً ـ . وهكذا غدوتُ صاحب صناديق مليئة باشرطة قصائد ملقاة بسرعة تفوق سرعة الصوت، لا أنا ولا غالبية البدو نفقه شيئاً منها.

في غضون ذلك، دارت القهوة، ورُفع الغطاء الزجاجي الذي كان يحمي حفنة من التمور المهروسة من الذباب في قارورة لها شكل الجرس مطلية بالفضة، وغُمست قطع من التمر المهروس في صحون عليها دهن ضأن مائع. التمور المقطوفة من واحتهم ذاتها كانت تذوب كالعسل على اللسان. ومع اقتراب موعد صلاة العصر أسرع الجميع إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة. كان الشباب بصفة خاصة، يعتزون اعتزازاً غيوراً بالدين، هو من دون ريب نتيجة الحقيقة الماثلة في أن غذاء جيل كامل يتكون الآن ولأول مرة في تاريخ البلاد من أعمال إسلامية متزمتة يتعلمونها في المدارس الحكومية. الابن الصغير لشيخ القرية انتحى بي وقال: «هل ترى تلك الكثبان الرملية، هل ترى تلك السماء، هل ترى الشمس والزرع على الأرض؟». قاطعته قائلاً، «نعم، نعم، أعرف ما تعني، إن الله خلق كل هذه الأشياء لينعم بها الإنسان، على أقل تقدير إذا تصرف الإنسان كما يليق بمؤمن حقيقي. ليس لدي مشكلة مع ذلك. لكني مسيحي، بروتستانتي، كما تعرف، ولستُ واحداً من الكاثوليك. فنحن نوع من الوهابيين الذين يعلنون أن الله واحد لا شريك له. والفارق الوحيد بيننا هو أننا في يوم الحساب يقودنا المسيح ونعتمد على شفاعته لنا، وأنتم يقودكم محمد».

طالب كان يمضي عطلته المدرسية في قنا، اعترض قائلاً إن محمداً هو خاتم الأنبياء وأكملهم. وذهب إلى أن لا عذر بالمرة لاستمرار المسيحيين في التشبث بالأنبياء الذين ولّى زمنهم من قبل محمد. صرختُ، «ولكن ماذا عن أهل الكتاب. اليهود والمسيحيون الذين يعترف بهم القرآن والذين لهم تراث مقبول؟». وجاء الجواب القاطع «لا رجاء لهم». احتججتُ، «ولكن ماذا عن كل أولئك المسيحيين الورعين. هل تريد أن تقول إن بلايين المسيحيين في

هذا العالم، وهم أكثر بكثير من المسلمين، حتى مَنْ عاشوا حياة ورع وتقوى، يُلقَون في جهنم وبئس المصير؟ وإن المسلم مهما يكن ما يتعين عليه التكفير عنه، لا يحتاج إلا إلى أن يحج مكة ليغسل كل ذنوبه ويمحو ما بذمته من دَين؟». «الكفار سيحترقون في النار»، قال الطالب بيقين هادئ وجذل مَنْ يعرف أن كل شيء مكتوب بعقلانية ووضوح. والحكم على مَنْ يرفضون الاستماع إلى صوت الحقيقة هو «أنتم استنزلتم ذلك على أنفسكم».

بعد خطبة الجمعة عاد الرجال في حشود أكبر من ذي قبل. وفي غرفة بجنب الشرفة كان هناك طبقان على كل منهما جبل من الرز يعلوه خروف. اتخذت والشاعرين وشيخ القرية والضيوف الآخرين، مجلسنا حول أحد الجبلين، والأدنى مرتبة حول الجبل الآخر. الآخرون يستطيعون الاستمتاع بالفضلات. لم تكن هناك خطة لإجلاس الحاضرين. إذ كان يُتوقع من كل واحد أن يعرف بنفسه أي خانة ينتمي إليها. هناك، بالطبع، حالات غير واضحة الحدود. ولدى خروج مجموعتنا استهجن الرجال الجالسون في الخارج أحدَ رفاقي في الوليمة فغادر غاضباً.

كان من المحتم أن تكون أحسن اللقم من نصيبي. الجهيلي ـ الشاعر الأميّ القادر على إلقاء مئات الأبيات، وهو إنسان ضخم له صدر جاموس وصوت كزئير الأسد ـ مد يده وانتزع اللسان من بين الفكين ووضعه أمامي. ولو أكل اللسان أحد آخر لكان عليه أن يلقي فوراً قصيدة شعر أو تكون الذبيحة القادمة على حسابه. اكتفى الحاضرون بالضحك: بوصفي ضيفاً أجنبياً فإن القواعد المتّبعة في البلد لا تنطبق علي. كانت قطع ريّانة تُرمى لي من كل جانب. وكان من المحال أن أتمكن منها جميعاً، فكنتُ أعيد بإصرار نصفها إلى جيراني. فجأة نهض الجميع جافلين كأنهم سرب حجل طار من الحقل صافقاً أجنحته للبدء بهضم الشحم على الشرفة.

بعد ذلك، حان الوقت لجولة شرف نزور خلالها بيوت حوالى عشرة وجهاء. وكانت الطُّقوس نفسها تنتظرني في كل مكان: أولاً فنجانان من القهوة الخضراء، ثم الشاي، فالقهوة مرة أخرى. بعض البيوت كان لم يزل على حالته الأصلية. الجدران الطينية لغرفة الاستقبال محروقة، مسودّة بدخان الحطب في الموقد الخزفي، الحرارة تصل إلى درجة الغليان، والضوء الوحيد في عتمة الغروب يسقط من خلال ثقب حُفر في السطح المصنوع من سعف النخيل لتمكين الدخان من النفاذ. الشخص الوحيد الذي لم ألتقه كان الشيخ القبلي لبدو محليين. في ما بعد أدركتُ أن هناك جفاء بين الشيخ وأمير القرية. ولكن إذا كان هناك نزاع بين البدو، فإنه يُترك عادة لشيخ القبيلة أن يتوسط فيه أو يحضر أمام السلطات نيابة عن البدو. لم ألتقِ إلا أهل الشيخ حين عدتُ إلى القرية في اليوم التالي بمبادرة مني.

خلال الجلسة في شرفة الأمير في قنا، أعلن الشاعر البدوي؛ حمد حميدي، أنه سيلقي قصيدة من نظم الشاعر الشمري الأسود دندن الفهيم الذي ذهب وقت المجاعة لطلب العون من شمر الجربا التي كانت عبرت إلى داخل العراق. وفي بلاط الأمير الشمري مطلق الجربا عومل دندن في البداية على أنه متسول أسود حتى القى القصيدة التي نظمها وأفحم بها الأمير حتى أبكاه، فأغدق على دندن الهدايا وأرسله إلى قريته في النفود ومعه قافلة من الطعام. ولكن عندما ألححتُ على حمد أن يلقي القصيدة خانته ذاكرته على حين غرة. لم أفهم سبب ذلك، ولكن دليلي المحلي شفيق قال لي، غامزاً، إن حمداً لم يجرؤ على إلقاء قصيدة في مدح أمراء شمر على الشرفة المكتظة. ففي شمال الجزيرة العربية كانت شمر تقليدياً ألد أعداء الوهابيين والسعوديين.

في عام 1791 ـ الذي يبدو بعيداً لكنه في الصحراء كالبارحة ـ قطع السعوديون أوصال القائد الشمري المعروف بلقب «حصان إبليس». وأسفر الحادث عن الموجة الأولى من الهجرة: قسم من شمر أذعن، وقسم آخر، بزعامة مطلق الجربا، هاجر إلى العراق. وتكرر ذلك في القرن العشرين. ففي عام 1920 استولى «الإخوان» على جبل شمر ونزحت موجة جديدة من شمر إلى العراق لمواصلة القتال ضد الوهابيين والسعوديين من هناك. وفي العربية السعودية الحديثة، أي إشارة إلى هذا الماضي المشحون بين شمر والسعوديين إنما هي من المحرَّمات، ولكن هذا ليس من شأنه إلا إبقاء الذكرى حية. وإلى نحو عشرين عاماً خلت لم يكن مسموحاً للشمري بالعمل، على سبيل المثال، في صناعة النفط في الخليج. لذا، انضم والد أحد أدلائي إلى عتيبة لينال في بطاقته الشخصية الحرف «ع» الذي يرمز إلى هذه القبيلة بدلاً من الحرف «ش» الذي يرمز إلى شمر. ولعل هذا هو السبب في نوبة النسيان التي انتابت حمداً بحضور هذا العدد الكبير من المخبرين المحتَمَلين. لذا، قدتُ سيارتي بنفسي في اليوم التالي متوجهاً إلى حمد في زيارة خاصة.

كان حمد يعيش في خيمة مستطيلة سوداء مصنوعة من شَعر الماعز على قمة كثيب مرتفع يطل على مشهد رائع وراء الظلال البنفسجية لجبل آجا. وبخلاف البطاح الرملية والحجرية في الغالب لصحراء الربع الخالي، فإن كثبان النفود تكسوها أعشاب خضراء، وخاصة نبات «الأرطى» ذا الساق السميكة، المعقد الذي يمنح وقوداً عابقاً بالعطر لمواقد البدو. وعلى بعد مئات من الأمتار انتصبت خيمة أخرى نصف مخفية بين منحنيات مثيرة من كثبان الرمل. عدا ذلك لا شيء سوى القفر الجليل. شخصياً، كنتُ أستطيع أن أشاطر حمداً تفضيله قمة ذلك الكثيب ولكن هوائي التلفزيون البارز من سطح الخيمة كان يبين أن هناك، حتى لبدوي مثل حمد، حدوداً للعزلة. أطفاله يذهبون إلى المدرسة كل يوم بسيارة جيب من طراز تويوتا وهي ليست سيارة الصالون الفارهة بل من النوع البدائي المتين بلا مكيّف هواء أو أي ملحقات ترفية أخرى: السيارة العملية لأشخاص عليهم أن يشقوا طريقهم في الرمال كل يوم. أدركتُ ما يعنيه هذا حين توجهنا إلى الخيمة التي تبعد عشرة كيلومترات عن قنا. الرمل الناعم كان ساخناً بحيث لا يمكن ملامسته بالقدم العارية. ولم نتمكن من الوصول إلى قمة السفح إلا مندفعين بأقصى سرعة بصرف النظر عن الطقطقة الهادرة نتيجة اصطدام سيارة الجيب بقاع المنحدر في بداية الصعود. كان السائق توقف في وقت سابق لتعديل الإطارات عند المنتصف كي يتمكن من تثبيت السيارة على نحو أفضل في الرمل الساخن الذي يكون

في هذه الحالة أكثر زلقاً. ولكنه بعد ذلك احتاج إلى كل ما لديه من مهارة لتفادي الغوص في الرمل. لا أعرف ما يفعله البدو حين يعلقون حقاً. على أية حال ليس هناك بدوي يقود السيارة مجهزاً بسلالم للرمل في سيارته مثلي أنا.

حيّانا حمد بحرارة كما يقتضي أتيكيت الصحراء. نُبشت النار في الرماد الخامد وبدأ حمد يطحن حبات القهوة بمدقّ نحاسي مغنياً ومنشداً قصائد شعر خلال عملية السحن. ولكن عندما سألتُ عن دندن اكفهر وجهه. ومرة أخرى خانته الذاكرة. لعل السبب أني كنتُ برفقة الابن الأصغر لشيخ القرية، وهو تلميذ نابغ بالكاد يستطيع الوصول إلى دواسات السيارة بقدميه. فكر حمد في الأمر على ما يُفتَرض مرة أخرى في وكر النسر الذي يعيش فيه وحيداً، وقرر ألاّ يقْدم على أي مجازفات من أجل أجنبي، وبالتأكيد ليس بحضور الابن المتيقظ لأعلى مسؤول حكومي في قنا. فحتى أبسط البدو في النفود يعرف أن مديح أسياد حائل السابقين لا يلقى تشجيعاً من المراجع العليا. ويُفضَّل عدم التفوه باسم الإمارة الأخيرة، إمارة آل رشيد. وعلى الشرفة في قنا كان أحدهم بدأ يشرح لي أهم فروع شمر. قال في لحظة خلال الحديث، «ومن ذلك الفرع جاء آل رشيد». فجاء الرد الفوري من صفوف المستعمين، «أوه، كفى بالله عليك! ما جدوى إثارة الأمر؟». وبرغم كل الولاء المعلن بحماسة للملك والمملكة بدأتُ أتساءل ما إذا كان هذا النوع من الرقابة مؤشراً إلى تيارات مضادة دفينة في الوعي السياسي. هل كان هذا الصمت اليائس نوعاً من الدليل الضمني على أن النزعة الشمرية لم تُخلِ الطريق حتى الآن للهوية السعودية برغم كل التثقيف بها؟

ولكن كان هناك تفسير محتمل آخر أيضاً لفقدان الذاكرة الذي أصيب به حمد بصورة غامضة. ففي طريق العودة طلبتُ من نجل شيخ القرية أن يُنزلني عند بيت والد شفيق. وقد ظهر شفيق، دليلي في قنا خلال اليوم السابق، يتصبب عرقاً ويرتجف من جراء إصابته بالزحار. ولكن برغم المرض أصر على أن يأخذني إلى دار محمد خشرم؛ شقيق شيخ القبيلة المحلية والشاعر والمعلم في مدرسة القرية. كان الوقت في بداية العصر، وبعد كثير من الطَّرْق على الباب الحديدي المطلي بالأزرق سمعنا وقْعَ أقدام. فتح الباب شخص يغالب النعاس من دون غطاء الرأس المعهود. إنه محمد خشرم. ومر نصف ساعة قبل أن يتمكن محمد من معرفة السبب وراء هذه الزيارة الغريبة. جلسنا على بساط قذِر في غرفة معتمة لصق الفناء الرملي. الثروة النفطية للبلد لم تترك أثراً في هذا البيت ولكن هذا هو منزل أكثر رجال القرية علماً وثقافة. هرش محمد رأسه وخلف أذنيه طويلاً، ثم نهض وبدأ يفتش بين المجلدات المتربة في خزانة زجاجية من طراز دورادو. بان أخيراً دفتر مستطيل مجلَّد بغلاف أسود وبين دفتيه ورق مخطَّط بالأحمر والأسود من النوع الذي يُستخدم في مسك الدفاتر. وفيه كانت قصائد ورثها من والده؛ شيخ القبيلة. حوالى مئة صفحة مليئة بخط يد حنون دقيق. محمد سجل قصائده بنفسه على ثلاثة أشرطة. ولم تكن هناك مشكلة في نقلها معي إلى حائل لاستنساخها. الشيء نفسه لم يصح على القصائد الموروثة. سؤالي إن كان لي أن أستنسخها، قوبل بتحفظ. فذلك هو الكنز الذي كان يريد الاحتفاظ به لنفسه. لكنه أبدى استعداده لقراءة نحو عشر قصائد أُسجلُها على آلة التسجيل التي كانت معي. كما أعطاني قصيدة دندن التي رفض حمد إلقاءها أو لم يكن قادراً على ذلك: إبتديْ وأقُولْ في ذِكر الإله

جَلْ رفَّاع السمَا باسِطْ وِطاهْ
الْفِهيم اخْتار زَيْناتْ البيوت
الغرايبْ كلْ ما دارَهْ لِقاهْ
جاكْ قيل مِثلْ هيضاتْ الجرادْ
والجراد مطَوِّحٍ يَثْلي رْحاه

ثم يصف كيف يندفع مطلق الجربا، أمير شمر الذي هرب إلى العراق، في ساحة الوغى مردداً اسم شقيقته، أنا أخو جوزا». وإذ ألهبته زغاريد النساء اللواتي رمين حجبهن وكشفن صدورهن، يسحق مطلق أعداءه منشدا: جاكْ اخو جوزا على الشَّقرا الطْوال

وَرِّدَهْ حَوْضَ المنِيَّة مِنْ نَخَاه
عاش من عَدَّل مِصاعيب الرجال
في حْدَاد الهِنْد طوَّع مِنْ وِتَاه
عاش من خَلَّى خَبَط دُوْنَ العَدَام
مِثْل سَدْح الجذع في سيفه حِماه
عاشٍ من تَفْرِس بجرّتْه السباع
والذِّيابة مَعْ نسورهْ مَعْ حْدَاه
والجَنايزْ عِقْبَهَم لازِم تْشُوفْ
بَهْ نسُور بالمُعارَهْ مِدبْحاه
والجنايز كِنَّها وَصفَ الهشيم
مِثِل غَثْو مِجْنَبَ الوادي نِفاه

يصيب أعداءه بالعمى، ولكن لديه أيضاً القدرة على مداواة الشر من جديد. وحين لا يلقى شيخ شمر ـ الطَّنايا أو المستشيطون غضباً، كما يسمون أنفسهم ـ مقاومة يكون غاية في الكرم.

كِنْ ضْيُوفهْ لا مْحَلَنْ غِبْر الليالي
والقَرا ما عادْ يُوجَد مِشْتَراه
مِثِلْ وِرْدَ البدو طَلْعَة سْهَيل
وِانْ تَعاطَوا مَنْهَلٍ حِلْوٍ جِبَاه

ذاتْ قَوْلي والمَلالي يَشهدون
كِلْ أنا ما قُول في حقَّهْ عَطاهْ
ذاوْ صَلّى الله على سيِّد قريش
ما اعتلى القِطْريْ في عاليْ سِماه

اخبرته عن حمد وفقدان الذاكرة الذي أُصيب به فجأة. فهم محمد السبب. إن قصيدة دندن كانت من القصائد «الصعبة»: ليست صعبة الفهم بل يصعب العثور عليها. وكان حمد يعتبر تلك القصيدة جزءاً من «مدخراته»، كنزاً يُصان ولا يُسمح بتداوله فيفقد قيمته. جنون مقتنين لا يجمعون القطع الفضية القديمة بل القصائد الأثرية النادرة. ربما أن حمد كان خائفاً من الصعوبات التي قد يواجهها من القوى السائدة؟ كان ذلك لغزاً لم أتمكن، قط، من التوصل إلى حله.

لدى عودتي إلى الفندق رن جرس الهاتف. سألني مدير العلاقات العامة بلهجة متزلفة إن كان يومي مُرضياً. كان لديه طلب واحد: هل يمكن إعطاؤه نسخة من أشرطتي؟ ترددتُ، ولكسب الوقت، قلتُ إني لم أعرف أن لديه اهتمامات شعرية: أوه، نعم، جداً، في الطريق وأنا في سيارتي، دائماً أستمع إلى قصائد مسجلة!». وبعد نحنحة وتململ قررتُ أن أترك للمدير شريطاً مسجلاً على الوجهين في مكتب الاستعلامات. في اليوم التالي عاد المدير إلى الاتصال: «شكري الجزيل على الشريط، ولكن هذا قطعاً ليس كل ما سجلته؟ أليس لديك أي قصائد عن الأمير مقرن أو آل سعود أو آل رشيد؟ أوَلا تعرف أني مجنون بالشعر». أجبته «كلا، لا شيء، هذا كل ما لديّ».

لدى عودتي إلى الرياض كتبتُ رسالة طويلة إلى المدير واحلته على كتاب «الازهار النادية من أشعار البادية»، الجزء الثالث، صادر في الطائف، العربية السعودية، عام 1960. فيه سيجد كل القصائد التي يهفو اليها قلبه عن الحروب بين آل سعود وآل رشيد، لأني كنتُ أعرف أن المدير مهتم على نحو خاص بالشعر الذي يتناول هذا الموضوع.

الرقابة

بعد أيام قليلة على عودتي من حائل تحدثتُ مع فهد العُريفي، مدير مؤسسة اليمامة للصحافة وهو من أكثر أفراد شمر ثقافة. لفتت انتباهي مقالة صحافية بقلمه أطرى فيها المستشرقين الغربيين السابقين والحاليين على مساهمتهم التي لا تُعَوَّض في معرفة تاريخ الجزيرة العربية وثقافتها: موسيل، داوتي، يوتنغ، هوبر وسائر الآخرين. وفي المقالة نفسها حمل بشدة على السعوديين الذين يعارضون، لأسباب أيديولوجية، البحث في الأدب الشعبي والشعر المنظوم باللهجات المحلية. إذ يُنكّر ذلك الماضي لأنه، على ما يُفتَرض، يقف حائلاً دون توحيد البلاد والعالم العربي بمساعدة العربية الفصحى وتحت راية القرآن ولأنه، كما يُزعم، يُلهي عن الإسلام. لم يكتب فهد ذلك بالحرف الواحد ولكن بالامكان قراءته بين السطور: احتجاج على الامتناع عن السماح بمناظرة حرة حول هوية الأمة الحقيقية خشية تقويض العقائد الجامدة السائدة. وفي المنطقة الرمادية بين التسامح والتحريم، فإن كل قبيلة سعودية تعتز بشعرها بوصفه ديوانها الحي الذي يسجل ما هو في الوقت الحاضر ماض مدان مهما بلغت مكافحة ذلك مكافحة مستميتة بمحاجّات مثل: كلنا واحد الآن و«عجرفة» القبائل كُسرت إلى الأبد، واننا موحَّدون في دعوة عربية إسلامية جديدة.

سألتُ فهد «لماذا يُنشَر شعر قبيلة عنزة (عدو شمر اللدود)، ولا يُنشَر شعر شمر؟». كان الجواب «لأن شعر شمر يدور في الغالب حول الحروب مع القبائل الأخرى». ولكن لدى عنزة من أغاني الحرب ما لا يقل عن أغاني الحرب عند شمر. السبب الحقيقي هو، بلا ريب، أن آل رشيد، الذين كانوا في السابق أخطر منافسي آل سعود، هم من شمر. عنزة من الجهة الأخرى كانت الحليف التقليدي للسعوديين. وبرغم أن الأمير مقرن متزوج بامرأة تنتمي إلى آل رشيد، فإن ذكر اسم آل رشيد ما زال من المحرَّمات في حائل بعد مرور ستين عاماً على قهر المدينة. وكان مَنْ تبقوا من أفراد آل رشيد أُجبروا على مغادرة حائل، ونقلهم عبد العزيز إلى الرياض ثم أُفرج عنهم في النهاية بشرط ألاّ يتدخلوا بعد الآن في السياسة. ومنذ ذلك الوقت، بقي غالبية آل رشيد في الرياض وانخرطوا بهدوء في النشاط التجاري.

الحكومة تريد وئاماً، هدوءاً، سلاماً اجتماعياً. وهي تعرف أن هناك، تحت السطح، غلياناً من التعصب الديني والعصبية القبلية ومشاعر مريرة لا تجد لها متنفساً في الحاضر المحروس بعيون ساهرة. ولهذا السبب حاولت هذه المشاعر أن تكتسب الطابع شبه الموضوعي للماضي، مثلما برقع خالد ثورته برداء جده الأكبر شليويح.

ولكن الدولة السعودية وحدها تملك أن تقول رأيها في هذا الشأن. وبخلاف الاتحاد السوفياتي السابق، فإن هذا لا يحدث من خلال مشروع يُدار مركزياً لتزوير التاريخ. فهو يعمل في العربية السعودية بطريقة أكثر ذكاءً. إذ يجري ببساطة التستر على كل المعلومات التي لا تتفق مع الصورة المثالية، أو يجري تمويهها. ولكن من سمات الأسلوب السياسي الذي تتبعه الرياض، إبداء قدْر من البرغماتية في هذا المضمار أيضاً. فالأشخاص الذين لا مفر منهم، ولا يتخطون الحد المرسوم، يستطيعون أن ينشروا ما يعرفونه في الخارج. وهذه الإجراءات الوقائية التي تتخذها الحكومة لم تُفرَض من دون سبب لأن هناك حالة مسجَّلة كاد فيها حتى النشر في الخارج يؤدي إلى حرب قبلية.

ففي عام 1981 نشر محمد السديري ـ أواصر قربى تربط آل السديري بآل سعود ـ ديواناً في بيروت بعنوان أبطال من الصحراء . وكان الأمير يعني بالأبطال شيوخ عشائر عنزة وشمر وزعماءهما الذين اقتتلوا بضراوة في شمال الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، وكانوا سيواصلون الاقتتال لو أتاحت الحكومة لهم الفرصة بناء على الشعارات المخطوطة التي وجدتُها على بعد مئة كيلومتر من حائل حين ذهبتُ لأخذ قيلولة العصر تحت جسر على واد قاحل: «اللعنة على كل شمر، حتى على جنينهم في بطن أمه».

محمد السديري كان نفسه شاعراً معروفاً وكان يهوى تدوين شذرات ملحمية من هذه الحروب القبلية مأخوذة من شفاه البدو الذين كانوا يأتون لزيارته. ولكن المجموعة سرعان ما وجدت طريقها من بيروت إلى الجزيرة العربية، وأثارت زوبعة من الغضب بين شمر. إذ اعتقدوا أن صاحب المجموعة عمل بصورة انتقائية ليبدو وكأن عنزة هي المنتصرة. وكان هذا بمثابة صب الزيت على نار المبارزة الشعرية التي تشتبك فيها القبيلتان حتى هذا اليوم. والهدف في المقام الأول ليس تمزيق «العدو» شفاهاً على أمل أن يأتي اليوم الذي تعقب فيه الكلماتِ أفعالٌ، بل الحفاظ على الإحساس بالمشاعر القبلية حيا. وكما تعرف الأمم الأوروبية أيضاً، فإن أفضل وسيلة لبناء مثل هذا التلاحم هي معاداة جيرانك.

لهذا الغرض، تعقد شمر اجتماعات «سرية»، يُفضَّل أن تكون في كثبان النفود شمال حائل. وفي بقعة لا يستطيع أن يعثر عليها في ظلام الليل إلا البدو، تقام خيمة ضخمة مصنوعة من شَعر الماعز، وفي الأمسية المتفق عليها تحضر سيارات الجيب من طراز تويوتا شاقة الطريق على إطاراتها العريضة المصمَّمة للرمل. ويُزيَّن الموضوع الرئيسي للمنتدى القبلي بالضأن المشوي وبراميل من الشاي والقهوة. ويجري إحياء المحاربين القدماء الذين عاش بعضهم في زمن معركة واترلو، ويُستثار الحاضرون بأفعال الغدر وخرق أعراف الصحراء المبهمة بقدّر ما هي أزلية، لتبقى ذكراها حية بتوارثها من جيل إلى آخر. وتُفتح جروح قديمة ويُدعَك فيها الملح بلا حساب، وتنهض ثعالب صحراوية صعبة المراس وتلقي أناشيدها في مدح قبيلتها وذم عنزة وسط

تصفيق حاد داخل الخيمة. ولأمسية واحدة يعود الوضع كما كان عليه من قبل: شمر فوق الجميع. الحكومة، بالطبع، تعرف ما يجري ولكنها لا تتحرك إلا إذا هددت الأمورُ بالانفجار حقاً. وحينذاك، يُمنَح أسوأُ قادة الحلقة من المغالين شعرياً بعضَ الوقت في زنزانة حتى تهدأ أعصابهم.

مأساة بلد مثل العربية السعودية، تتمثل في أنه قد لا يوجد حل وسط بين الرقابة والفوضى. فكل من يريد أن ينشر كتاباً في العربية السعودية يأخذ مخطوطته أولاً إلى وزارة الإعلام. وهناك يُفحص الكتاب بحثاً عن أي إشارات دينية أو أخلاقية غير مقبولة، ويعاد إلى المؤلف مصحوباً بتعليق إذا اقتضت الحاجة. الصفحات التي لا اعتراض عليها تُعطى ختماً أحمر ويُسمح لها بالانتقال إلى المطبعة. ولكن غالبية السعوديين متمذهبون مذهبة جيدة بحيث إنهم يسهّلون على الموظفين حياتهم من خلال تطبيق رقابة ذاتية صارمة. وعادة تكون غاية المؤلف من نشر الكتاب نيل استحسان أصحاب السلطة السياسية: شخصيات مرموقة بين الوف من أمراء آل سعود والعائلات المرتبطة بهم أو فئة علماء الدين ذات السطوة الكبيرة بزعامة الشيخ الضرير ابن باز.

التعليق النقدي الذي تبديه سلطات الرقابة لا تكون عواقبه غير السارة محسوسة فوراً على المؤلِّف. فعلى النقيض من أنظمة دكتاتورية عربية دموية مثل عراق ـ صدام حسين، لا يُمارَس في مثل هذه الحالات عنف أو ترويع جسدي في العربية السعودية. والمشاكس العنيد يواجه بكل بساطة خطر بقاء أبواب معينة مغلقة بوجهه، وتعامُلَ السلطات معه بلغة متحفظة لا يُقدَّم لها تفسير كامل، وسقوطَه في منطقة الظل مع المواطنين غير المشمولين برعاية الجهاز البيروقراطي وأصحاب السلطان.

بالمقارنة مع الوضع قبل حوالى ثلاثين عاماً، فإن هذه الرقابة أو الرقابة الذاتية أصبحت أشد صرامة. ويعود هذا إلى حقيقة أن جهاز الدولة البدائي إبان الستينيات نما إلى بيروقراطية مكتملة فضلاً عن تزايد الوعي السياسي الذي تحقق من خلال التعليم الشامل. إنه، باختصار، التقدم. وكما لو كانت معجزة، يبدو أن بعض الشعراء القدماء أفلتوا مع ذلك من الرقابة. ويصح هذا مثلاً على نشر عمل حميدان الشويعر مؤخراً. والشويعر هجائي مرير وسوداوي عاش في بداية القرن الثامن عشر في قرية من قرى أكواخ الطين بين الرياض والقصيم. لعل هذه الأبيات أقدم من أن تثير متاعب مثلها مثل العجائز اللواتي يستطعن نزع الحجاب ويتحركن بحرية في مجتمع الرجال. خذوا القصيدة التالية عن مانع نجل حميدان الذي كان عاقّاً بنظر والده: مانع خيَّال في الدَّكَّة

وظَفْر في راس المقصورة
واذا صاح صيَّاح من برَّا
وايق هو ويَّا الغُندورة
اليمنى فيها الفنجال
واليسرى فيها البربورة
والى ظهر يَمَ السِّكَّة
تاخذ جوخته السَّنورة
تلقاه من الخوف يرهبن
كنَّه حدَاة ممطورة
لو تفتَّش ثوبه تلقاه
نجَّس ثوبه من هرْهُوره[7]
وينْخَى بلْسانه ويثاثي
والذِلّه سدَّت حنجوره
وعنده عذرا مثل الحورا
نورها يقادي البَنُّورة
كتف وردف ونهد زامي
وشاخة في شبر مشبورة
تلقاها من طيب المعلف
مثل الحَمْنانة مزكورة
تعبا المثلوث من الجهمة
من ليل يرعد تنوره
وتبج الكحلة من بكره
تبي به حكّ بحتوره
والزبدة تجرعها عذْله
تبي به ضيق وحرورة
وعندها رجل ثور جيد
أجم يرعى في هوره
اقصى ما يبْعِد للطاية
والمطبخ وردِه وصدوره
لا قالت عجِّل جا يركض
دايم ما يظهر من شَوْره

تريده يَبْرد ما فيها
لا حل القارص بشفوره
حنَاها وادْعى رجليها
ما بين الكتف وصرصوره
ثم تنخر وهو يشِخر
إلى دخَّل فيها الطَّنفورة
فالي شبك هذا في هذا
حالتهم ما هي مستورة
تسمع بالسوق مكالخهم
إلى دلّي يكْرُب كوره
ما هيب حرَيْمَة قرَّاش
يجيها يقطر نِخْروره
بالليل يلقيها صرمه
ويدلّي يذْرا صُنبُوره

7. البدو والقرويون في الجزيرة العربية يقضون حاجتهم تقليدياً بالجلوس ورفع ثيابهم.

110 فولت

كان الصيف في ذروته، وأشفقتُ على المليوني حاج في مكة الذين حان لهم وقت «الوقفة»؛ اليوم الذي يقضونه واقفين على الصخور العارية اللاهبة لجبل عرفات. في ذلك اليوم كنتُ أزور معارف قدماء في قرى صحراء النفود شمالي حائل، كما كنتُ أريد التعرف إلى فلجا؛ وهي شاعرة بلغت من السن ما يجيز للمرأة أن تلقي حجابها وتختلط بالغرباء من دون حرج. قال لي أحمد الرفاعي، وهو باحث عن الكنوز وميكانيكي وجامع قصائد شعبية، إن فلجا البالغة الآن الثمانين من العمر، امرأة سليطة اللسان. وهي نموذج للمرأة البدوية المستقلة الفخورة، في الفراش تقاتل كاللبوة، مهرة جامحة تعترف بالهزيمة لكنها لا تسمح لنفسها أبداً بالخنوع، وتتملك الرجل كما هو يتملكها، النقيض التام للّحم الذي يقبل بأن يُسجن بين الجدران الأربعة لكوخ قروي من الطين. فلجا تزوجت ثلاث مرات وطُلقت ثلاث مرات. وبحسب أحمد، فإنها تحدثت له بصراحة كبيرة عن حياتها الجنسية مع أزواجها الثلاثة السابقين. «أحدهم كان له قضيب يصل إلى هنا»، قالت مشيرة إلى حنجرتها، «وآخر قضيبه بحجم الخنصر، لكنه كان الرجل الذي همتُ بحبه».

سنوات العمر حررت فلجا ومنحتها الحق في قول ما يخطر لها بعفوية. لم أُفلح قط في لقاء فلجا، ولكن أحمد أسمعني شريطاً سجلت عليه قصائدها: صوت شجي ذو نغمة دافئة ينتقل إلى الإيقاع المتهادي لفتاة راقصة. الكنّة التي فتحت باب بيتها في النفود لتقول لي إن فلجا غير موجودة، كانت رشيقة رشاقة غير متكلفة في حركات راحتيها المصبوغتين بالحنّاء، صوتها صوت فلجا الحسي العميق نفسه، وتحت الحجاب نصف الشفاف لاحت معالم أنف مكتمل الشخصية. وكانت تتعلق بأذيالها طفلة ساحرة، الذكاء بادٍ عليها: إنها حفيدة فلجا. قالت لي المرأة إن فلجا ذهبت إلى مروت على الجانب الآخر من النفود لقضاء عيد الأضحى مع ابنها صيحان؛ الرجل نفسه الذي قالت عنه في أحد الأبيات:

وخطو الولد لو كبر له زب
مثل قهوة بلا بهار

هذه المرة تسلَّم أحمد الرفاعي دور المضيف من شاعر الجبلين. ولكن اختيار الوقت لم يكن موفَّقاً لأن وضعاً من السلام المسلح كان سائداً في بيته. أحمد انسحب إلى سقيفة ذات حجرتين بُنيت ملحقاً ببيته. وفي ذلك البيت كانت زوجته تجلس ساخطة تأكلها الغيرة. فالحقيقة أن أحمد اقترن بزوجة ثانية قبل شهر ونصف الشهر من وصولي. نجل أحمد البكر كان تخطّى العشرين فاعتبر أحمد أن الوقت مناسب لامتلاك مهرة أخرى. الجدالات اندلعت عالياً بينه وبين زوجته الأولى، حتى ان أحمد لم يجرؤ على دخول بيته بعدها، وأعدَّ عش حبه الثاني في الملحق. لم يكن يتواصل مع زوجته الأولى إلا من خلال أحد أبنائه.

أراني أحمد ألبوماً فيه صور فوتوغرافية لحفلة الزفاف التي أُقيمت في سوريا. كانت العروس من قرية فلاحية في حوران، وهي هضبة عالية جنوب دمشق. كان البرد لم يزل قارساً، كما يتضح من الصور. وأحمد الذي بدا أكثر شباباً بكثير من سنواته الخمس وخمسين، كان يرتدي كنزة وسترة «سبور» على ثوبه العربي. وكان يقف في الصورة بين والدي العروس وأشقائها وأقاربها في البيت الفلاحي المؤثث بتقشف. وجوه متعافية بوجنات تفاحية مدورة. النساء غير محجبات كما في العربية السعودية، بل وضعن أوشحة زاهية الألوان حول رؤوسهن. ورُسمت بالرتوش حُمرة خفْر متألقة على وجنتي العروس. الفتاة في الخامسة عشرة من العمر، وهي بالمعايير العربية ليست صغيرة على الزواج. فالكثير من الآباء العرب يزوجون بناتهم ما إن تكون علائم البلوغ بادية عليهن، خشية أن تدفعهن الهورمونات على طريق الضلال وتثلم شرف العائلة.

ربما كانت الفتاة تفكر في الزواج من ثري سعودي وتحلم بحياة في قصر منيف محاطة بالخدم والحشم. ولكنها، وقت وصولي، كانت تجلس محبوسة في الغرفة المجاورة للملحق تحدق في الحائط الأصم الذي يمر من ورائه أحد الأزقة الفقيرة في حائل. وطوال الساعات الكثيرة التي أمضيتها مع أحمد لم ألمحها مرة واحدة. أعدّت لنا الشاي في حجرتها، وطرقت الباب في إشارة إلى أن أحد أبناء أحمد الصغار يستطيع أن يأتي بالصينية. وعلى الجدار عُلِّقت يافطة خُطّت عليها عبارة «أهلاً بالعروس القادمة من الشمال!».

سألتُ أحمد، «هل يُسمح لها بالخروج إلى الشارع أحياناً، للتسوق أو للتمشي؟». وكان الجواب حاسماً «كلا، قطعاً لا. هذا لا يحدث هنا». أصررتُ قائلاً، «ولكن هل ستكون قادرة على تحمل ذلك؟ أقصد أن النساء في حوران متعودات على التنقل بحرية بعض الشيء وعلى الخروج إلى الشارع من دون حجاب. هل تستطيع التعود على هذه الحياة الجديدة؟». قال أحمد متجهماً، «شاءت أم أبت، سيتعين عليها ذلك. على أية حال لديها كل ما تحتاج إليه في غرفتها: فيديو، تلفزيون، طعام وشراب... وأنا بالطبع!».

حين عدنا إلى سقيفة أحمد بعد رحلة، وجدتُ رواية شعبية مصوَّرة رمتها العروس على الأرض. حملتُ القصاصة المجعدة ورأيتُ أنها عن قصة الحب الحزينة بين قيس وليلى. قيس الذي جُنَّ ونزع ثيابه وهام عارياً في الصحراء حين زوِّجت حبيبته برجل آخر. رواية رومانسية من قديم الزمان تعرَّف العشاق العرب منذ قرون إلى معاناتهم فيها. ومن الواضح أن الرسام اللبناني أو المصري كان يعرف عن الجزيرة العربية بقدْر ما تعرف العروس، لأن الرسوم الساذجة لا تصور «بيوت الشعر» العربية، بل بَدْواً يعيشون في خيم من النوع الذي يستخدمه فتيان الكشافة الغربيون. شعرتُ بالإشفاق على

الفلاحة السورية التي سمحت لنفسها من دون أن تدري بأن يستدرجها الذئب العربي إلى وكره. ويوماً بعد آخر، عليها أن تُشبع شهواته الجسدية. ولكن لقيتي على الأرض كانت تبيّن أن البنت البريئة التي ما زالت عروساً، وكانت تحاول الصمود باستماتة.

أحمد أفضل حالاً مما يوحي به وضع بيته. فهو يملك كنزاً من الأسلحة والقطع الأثرية العربية الأخرى المحفوظة في متحف المدينة من باب الاحتياط. وأثمن مقتنياته مجموعة تضم مئات القطع النقدية القديمة: نقود قديمة مصرية ويونانية وفارسية ودراهم من زمن الخلافة العربية في دمشق وبغداد ودولارات ماريا تيريزا. قيمتها الإجمالية تربو على 500 الف دولار. وتولُّع أحمد بالسفر أخذه إلى أماكن غريبة بالنسبة إلى سعودي. فهو عن طريق الكويت طاف الكتلة الشرقية السابقة لاستثمار دولاراته النفطية في صناعة البصريات الروسية ونساء براغ. أحمد مهووس بالأجهزة الالكترونية: يسجل كل مكالماته الهاتفية. وبينما كنا مشغولين في قراءة القصائد المنظومة باللهجات المحلية كان أحد أبنائه يصوب كاميرا فيديو علينا، وكنتُ أستطيع أن أرى نفسي باستمرار على شاشة التلفزيون.

هذه الحماسة التقنية وحبّ التكنولوجيا، ليسا من صفات السعوديين المعهودة. كما استغربتُ أن مثل هذا الرجل الثري يعيش في شارع خلفي من شوارع حائل. تفسير ذلك قدمه شاعر الجبلين. فقد سرني الجريفاني بأن صديقه أحمد ما هو إلا «110 فولت»، أي أنه ليس من العرب الأقحاح، بل من أفراد هتيم التي تسمى أيضاً رشايدة. وأصل هذه القبيلة المنبوذة ليس معروفاً على وجه التأكيد. وتقليدياً، يُعتقد أنهم تحدَّروا من قوم رفضوا في صدر الإسلام الركوب مع النبي في حملاته. ويُفتَرض أن الرسول قال عنهم «هتّموهم، قاطعوهم، تجنبوا كل احتكاك بهم!». ومنذ ذلك اليوم ولاحقاً، نظر العرب الأقحاح إلى قبيلة هتيم باحتقار.

كل جريمة ارتكبها أحد أفراد هتيم ـ وإذا دعت الحاجة تلوكها الألسن طوال قرون ـ إنما هي دليل على الانحطاط الأخلاقي للقبيلة بصفة عامة. وعلى سبيل المثال، أن قتل الباحث الفرنسي هوبير في عام 1884 يُنسب إلى هتيم بإجماع شعبي. من الصعب العثور على دليل ولكن لهذا التفسير على أية حال أفضلية تتمثل في أن الشخصية الجمعية للبدو الأقحاح ليست ملطخة بهذه الفعلة، وأن وضاعة هتيم تتأكد بها. وكان هوبير، وهو فرنسي، ويوتينغ وهو باحث ألماني، انطلقا معاً لتحقيق سَبْق علمي في الجزيرة العربية. وكانت وجهتهما حجر تيماء الذي اكتشفه داوتي، وهو لوح تذكاري توجد عليه نقوش كان يُعتقد أنها ستعطي مفاتيح هامة لفك رموز اللغات السامية القديمة. ولكن الباحثَين المتلهفَين تجاهلا التحذير المكتوب على الحجر التذكاري لكل من يدنس الضريح: «لتمحقه آلهة تيماء وتكنس ذريته وتمحو اسمه من وجه تيماء!». وقد ابتُليَ المشروع الفرنسي ـ الألماني منذ البداية بمنافسة متبادلة، وسرعان ما تدهور إلى نزاع غير نظيف حول الهدف من البحث. وفي النهاية وجد الحجر طريقه إلى متحف اللوفر، ولكن شرف المبادرة إلى النشر كان من نصيب المانيا.

بعد الخلاف مع يوتينغ، بدأ هوبير يطوف الجزيرة العربية بمفرده. وفي طريقه إلى حائل قُتل. ولكن بيد من؟ إن من أخطر الانتهاكات التي يمكن أن تُرتكب ضد عرف الشرف في الصحراء هو خيانة «الخوي» ـ الدليل الذي يتفق مع مسافر على أن يرشده إلى الطريق وقبل كل شيء حمايته بحياته إذا اقتضت الحاجة ضد اعتداءات أفراد قبيلة «الخوي». وبرغم أن الواقعة المهلكة حدثت عام 1884، فإن حائل كلها ما زالت تعرف على عاتق مَنْ تقع مسؤولية هذه الجريمة.

كان «خوي» هوبير ينتمي إلى قبيلة هتيم فلم يكن مستغرباً أن يكون أبلغ أفراد قبيلته بأنه يعتقد أن هوبير يحمل معه كنوزاً ثمينة في شوالات إبله. وفي بقعة متَّفَق عليها استُدرِج هوبير إلى كمين وقُتل تحت أنظار دليله الذي وقف متفرجاً لا يحرك ساكناً.

لدى أحمد ورشة لتصليح الآلات والسيارات في المنطقة الصناعية في حائل. وبرغم أنه يستخدم عدداً من العمال الهنود فإن أحمد ليس كسولاً يتقاعس عن التشمير عن ذراعيه. «السعوديون الحقيقيون لا يفعلون ذلك، السعوديون الأقحاح يحتقرون الذين يعملون بأيديهم»، أعلن بصراحة شاعر الجبلين وفي الوقت نفسه مفتش الخدمات البريدية. وهكذا كان أحمد حِرَفياً بنظر مواطنيه الذين يعتبرون أنفسهم من البدو أو أفراد قبائل عربية أصيلة. وبصفته هذه، فإن أحمد يعادل «الصلبي»، الذي ينتمي إلى فئة «المنبوذين». ومنذ القرون الوسطى كُتب في تعليق عربي على بيت شعر، أن هتيم ضِعاف النفوس، صيتهم سيئ لافتقادهم الشخصية ولنمط حياتهم البائس ومكانتهم الوضيعة. وهم يركبون الحمير ويقتاتون على الجيف والديدان. والبدوي يفضل أن يقتل ابنته على تزويجها لهتيمي أو «صلبي». وفي حائل يعيش جميع هؤلاء المنبوذين في حارة منفصلة، هي الغيتو غير الرسمي من الأزقة المحيطة ببيت أحمد.

يتمتع أحمد بشعبية بين أهل مدينته بصرف النظر عن مكانتهم الاجتماعية، وذلك بسبب استعداده للمساعدة واهتماماته الثقافية. وأحمد نفسه شاعر معترف به ويحفظ مئات الأبيات التي نظمها آخرون. ولكن هذا لا يعني أن أصله يُنسى حتى للحظة واحدة. والمثل العربي يقول ـ حتى في غابر الزمان ـ إن الهتيمي يبقى هتيمياً. في اليوم الثاني من ذبح الأضاحي في نهاية موسم الحج صدمتني هذه الحقيقة بطريقة غريبة. ففي حوالى ساعة الظهيرة توقفتُ لزيارة أحمد من دون موعد مسبق. وكان أحمد يهم بالمغادرة لحضور وليمة غداء كبيرة بمناسبة العيد يقيمها رجل أعمال مرموق، ودعاني لمرافقته. أوقف أحمد سيارته أمام البيت بين عشرات السيارات التي كانت غالبيتها لاندكروزر. وعلى الباب استقبلنا الرجال من أفراد عائلة المضيف. قال أحمد إنه

ذاهب للاغتسال لحظة ويعود. أنا توجهتُ مباشرة إلى إحدى غرفتين مخصَّصتين للضيوف. وبقدْر من الاستغراب نهض السعوديان الجالسان هناك ومدا يديهما في مصافحة فاترة. جلستُ على إحدى الأرائك التي رُتبت في دائرة حول الجدران. «اميركي؟»، «لا، هولندي».

لم يذهب الحديث أبعد من ذلك. وبسرعة فائقة امتلأت الغرفة بالضيوف الآخرين. كان الناس ينظرون إليّ باستغراب: مصافحة مقرونة بتمتمة من الكلمات من دون تواصل من خلال تبادل النظرات. بلا أسئلة أو ملاحظات عابرة أو تحيات حارة كما يقضي العرف الصحراوي. نحو عشرين شخصاً جلسوا معاً صامتين في الغالب داخل الحجرة. هنا وهناك كان يجري تبادل عبارات بالهمس، ومن طرف العين أُخضعتُ للفحص خلسة، وحين كنتُ أبادلهم النظرات كانوا يشيحون بأنظارهم سريعاً.

بقي المكان إلى يميني على الأريكة شاغراً. وقد تغير ذلك بقدوم مجموعة جديدة بينها شيخ ذو لحية بيضاء تنتأ مدببة إلى أمام، وتصرفات فظة بعض الشيء. كان من النمط الذي تعلمتُ التعرف إليه بوصفه من المطوعة، أو أفراد الشرطة الدينية، ولكنه، بمعنى أوسع، شيخ طاعن في السن نذر ما تبقّى من حياته في خدمة الله. نهضتُ لتحيته ومددتُ يدي إليه. ولكن لدهشتي أنا الذي تعودتُ على معاملتي باللياقة المطلوبة، تجاوزني وخطف بود يد مطوع آخر كان يجلس إلى شمالي. واضطر لضيق المكان إلى الجلوس إلى يميني وعقد أصابعه النحيلة على رأس عصاه التي غرسها أمامه في الأرض.

ومن نتف الحديث خلصتُ إلى أن جاري خطيب بعد صلاة الجمعة. وانطلقت إشارات من أريكة أخرى: تعال هنا، ما زال هناك 70 سنتمتراً من الفراغ. وكانت هناك حركة فانتهز الخطيب فرصة الجلوس على بُعد وسادة مني، متكئاً على الحافة الخشبية المذهبة لذراع الأريكة وبدأ حديثاً حيوياً مع جاره على الأريكة الملاصقة له. كل هذا كان يشير إلى أنني متطفل غير مرغوب فيه. وبرغم أني كنتُ أرتدي ثوباً أبيض اتسخ في هذه الأثناء من كثرة الإقامة في الخيم، فإني كنتُ الوحيد الذي لا يرتدي غطاء الرأس التقليدي. ربما حُسبتُ من العمال المهاجرين. وإذ شعرتُ فجأة بالحرج تلفتُ حولي متسائلاً ماذا حدث لأحمد. نهضتُ وغادرتُ الغرفة إلى المجلس المنعقد على الجانب الآخر من الحائط. كان أحمد يجلس هناك بين عدد من الضيوف الآخرين الذين افترشوا الأرض متكئين على وسائد. كان واضحاً أن هذه منطقة الاستقبال للطبقة الأدنى. رميتُ نفسي في زاوية من الغرفة. لم يولني أحد اهتماماً، وهنا أيضاً كان مجيء الذبيحة يُنتظر بصمت. أحمد كان يقلب مع جاره صفحات مجلة مصورَّة بدا من تصميمها أنها مجلة «أهلاً وسهلاً»، للخطوط الجوية السعودية.

ما جدوى البقاء هنا؟ جلستُ القرفصاء بجانب أحمد وهمستُ في أذنه أن لديَّ في الحقيقة موعداً في قنا، وعند التفكير في الأمر فإني أُفضل المغادرة. هل يستطيع نقلي بالسيارة إلى بيته حيث أوقفتُ سيارتي؟ في الطريق اعترفتُ بالسبب الحقيقي لرحيلي قبل الأوان. قال أحمد بلهجة تصالحية، «كل ما في الأمر أنهم لا يعرفون مَنْ أنت. فذلك لا يعني شيئا». قلتُ غاضباً، «إذاً، لماذا لم تقدّمني بحق الجحيم؟ قال أحمد بلا مبالاة «الغريب إبليس. ربما فكروا في أنك فني أجنبي لأن المضيف كثير التعامل مع شركات أجنبية».

كنتُ أحسب أني أوسع علماً. الشيء الحاسم لم يكن مظهري الغريب، بل الحقيقة الماثلة في أن كل مَنْ يُعَد ضيفاً غير مدعو مع الجماعة لا يستحق أكثر من مكانة دليله و«خويه» أو رفيقه في المجتمع المحلي. وأحمد، بيديه العماليتين الخشنتين وأصابعه الغليظة ذات الأظافر السوداء، لا يسجل علامات متميزة في حائل. وبرغم أن الحكومة تبذل جهوداً لتشغيل سعوديين في المهن الصناعية والتقنية وبالتالي تقليل اعتماد البلاد على العمال المستوردين، فإن المتحدرين من القبائل المنبوذة والحدادين وحدهم المستعدون عملياً للقيام بذلك.

الرجل الهادئ

أوصلني أحمد وانتقلتُ إلى سيارتي اللاندروفر ومضيتُ في طريقي إلى قنا. كانت حائل مقفرة تماماً. عملياً، لم تكن هناك سيارات على الطريق. وخارج المدينة مباشرة أدركتُ أن أحداً يتبعني. وفي مرآة السيارة التي تعكس ما ورائي رأيتُ سيارة شيفروليت كابريس بيضاء تتألق في ضوء الشمس الساطعة. ما من سعودي طبيعي وراء المقود يبقى بسيارة كهذه عالقاً وراء لاندروفر. وكانت الشرطة السرية تعلمت درساً بعد الحادث السابق فبقيت هذه المرة على بعد مسافة لائقة. ولكن لديّ حساسية من أجهزة الاستخبارات. أسرعتُ بسيارتي اللاندروفر هابطاً من المنحدر الحاد واندفعتُ في سحابة ضخمة من الغبار عبر الصحراء عائداً إلى المكان حيث توقف في هذه الأثناء فيه مَنْ كانوا يتعقبونني. ولكن قبل أن أصل اليهم استدارت الشيفروليت واختفت باتجاه حائل.

اليوم السابق انتابني شعور مزعج في طريقي إلى أحمد بسبب سيارة مازدا بيضاء كانت ورائي. توقفتُ عند محطة تعبئة فتوقفتْ. انطلقتُ مرة أخرى واستدرتُ في شارع جانبي وسرتُ دائراً حول قاطع من المباني ثم توقفتُ في المكان نفسه أمام محطة البنزين. هذه المرة مرت سيارة المازدا متجاوزة سيارتي وعلى بعد نحو عشرين متراً اندفعت بين السيارات الواقفة. خلتُ أني رأيت السائق ينحني إلى أمام ليتحدث في شيء تحت لوحة أجهزة القياس. أعدتُ تشغيل سيارتي وحشرتُ سيارة المازدا بإيقاف السيارة. أنزلنا زجاج نافذتينا. سألتُ، «لماذا تتعقبني؟ إني ضيف على مجلس المدينة»، وسلمتُ السائق ظرفاً رسمياً عليه الشعار السعودي. «هاك، رسالة من الوكيل تقول إني أجمع قصائد شعر ويطلب فيها المسؤول إبداء كل تعاون معي».

أعاد إليّ «الرجل الهادئ» الظرف من دون أن يفتحه: «ليس ضرورياً فذلك معروف لنا. إنما نحن مهتمون بحمايتك فقط. أنت لا تعرف أبداً مَنْ قد يرميك بحجارة أو يهاجمك بسلاح». قلتُ، «شكراً جزيلاً. إن العربية السعودية، والحمد لله، أكثر بلدان العالم أماناً. ليس هناك ما أخشاه. أرجوك أن تتركني وشأني». برغم ذلك واصلت سيارة المازدا تعقُّبي إلى أن توقفتُ أمام بيت أحمد في الزقاق الضيق.

تعبير من القلق ارتسم على وجه أحمد حين رويتُ له القصة. كان عليّ أن أخرج برهة لإحضار شيء من السيارة، ولدى عودتي أخبرت أحمد أن الزقاق يعج برجال المباحث. قلتُ مداعباً «إنهم يدبون كالنمل». لا أعرف ماذا ـ ربما الإدراك أنه ينتمي إلى طبقة دنيا أو أن ولعه بجمع الشعر القبلي أدى به إلى الاحتكاك بـ«الاجهزة» ـ . ولكن مهما يكن الأمر فإن أحمد بدا مغتماً. «اتصل بالوكيل فوراً!»، القول إنها كانت مجرد مزحة لم يُدخل الاطمئنان إلى نفسه. ومن تلك اللحظة، لم يعد الأمر مسلياً عند أحمد.

بعد أيام مررتُ على ورشته لوداعه. وحين خرجتُ من السيارة رأيتُ «الرجل الهادئ» الذي شاهدته في اليوم السابق. شماغه ذو النقشة الحمراء والبيضاء ملفوف بطريقة لا يظهر معها من وجهه سوى العينين والأنف، وقد مر بسيارة بك آب من طراز داتسن وتوقف على بعد مسافة قصيرة.

سألتُ، «كيف الأمور؟». أخبرني أحمد أن المباحث ظلوا يجوبون زقاقه طوال أيام. شربنا «بيبسي» معاً ثم اعتذر أحمد: كان عليه أن يغادر بسرعة ويقتني بطارية من مكان ما. وحين غادرتُ المنطقة الصناعية تمكنتُ من إرغام سيارة البك آب على التوقف. كان صبري قد نفد: «لماذا تقود سيارتك ورائي؟ أهذه روسيا! ها؟». رفع الرجل حاجبيه لا يفهم شيئاً مما قلته. بعد استعمالهم لمراقبتي سيارات جديدة يقودها سعوديون بلباسهم التقليدي، أخذوا الآن يجربون سيارة يابانية عمرها 15 عاماً يقودها سائق يبدو كأنه عامل باكستاني وافد. ولكن بلا جدوى. فإن غريزتي في التقاط العملاء السريين شُحذت حتى باتت معصومة من الخطأ في غضون أيام قليلة. والرجل كان تجسيداً نموذجياً للمباحث التي تشهد ازدهاراً كبيراً في العالم العربي. صندل أبيض صقيل، استدارة كرش بارز تحت الثوب الأبيض الفضفاض، على الوجه تعبير من الحلاوة السقيمة والطمأنينة المزيفة، وتحت ذلك كله قسوة وخطر داهم. ومن فمه انبعثت القصة المألوفة: إنهم ببساطة يريدون أن يفعلوا كل ما بوسعهم لتأمين راحتي وسلامتي.

حين تودعنا نصحني أحمد بأن أكتب رسالة إلى الوكيل مع تقرير عن خبرتي، وأن أضيف فيها «إن خبراتي في حائل أثبتت كم كانت درجة التلاحم الاجتماعي كبيرة في هذه المدينة الجميلة». أومأتُ موافقاً برغم عدم اقتناعي. لقد كنتُ أجري بحثاً في الشعر القديم باللهجات العربية المحلية وليس في التلاحم الاجتماعي. لماذا كانوا يشعرون بالتوتر العصبي من أجنبي يتجول بقدْر طفيف من الاستقلال؟ ألأني واحد من الغربيين القلائل في المنطقة؟ أم لأني دبلوماسي، وهي مهنة تعادل التجسس في الشرق الأوسط؟ ولكن أليس من المستبعد أن أكون جاسوساً وأنا في سيارتي اللاندروفر غير المعهودة وبالتالي السافرة بلوحتها الدبلوماسية الخضراء؟ بيد أن الحقيقة البسيطة هي أن المنطق والحس السليم يقومان بدور ثانوي في العالم البيروقراطي لأجهزة الاستخبارات العربية. وقد جرى تذكيري بقصة مجموعة من رجال الأعمال الهولنديين الذين زاروا مدينة جبيل الصناعية الجديدة. وقبل أن توزَّع عليهم بطاقات الصعود إلى الطائرة في مطار الظهران للتوجه إلى الرياض كان عليهم أن يعيدوا الصور الفوتوغرافية التي أعطاهم إياها المدير العام للمجمَّع. لم

يكن مهماً أن هذه الصور الفوتوغرافية نفسها نُشرت مئات المرات في مجلات اقتصادية وكراسات دعائية. فقد رأى ضابط أمن المطار في إحداها منشأة لتحلية ماء البحر، وخلص إلى أنها منشأة صناعية حساسة، وربما تكون هدفاً محتملاً للصهاينة أو مرتزقتهم من بلدان أخرى!

كرم الضيافة

الالتزام الصارم بالشريعة الإسلامية هو أشد الشروط المطلوب التقيد بها من المواطن السعودي. ولكن الصفة التي تحظى بأكبر قدْر من الاحترام بين البدو هي كرم الضيافة. وفي مدخل كل مدينة ذات حجم معتبَر توجد أعمال فنية كثيرة تعبِّر رمزياً عن الطقوس وثيقة الارتباط بمفهوم الضيافة: تحضير القهوة: الدِّلال ذات الأعناق الطويلة والصحن الذي تُحمَّص فيه حبات القهوة والهاون والمدقّ النحاسي الثقيل، الذي يذيع برنينه كأجراس كنيسة صداحة على امتداد أميال حول الخيمة، الرسالةَ القائلة إن الجميع موضع ترحيب للمجيء واتخاذ مجلسهم حول النار؛ كل هذا يرمز إلى الود الذي يستقبل به السعودي ضيوفه متوقعاً منهم أن يبثوا في ترحالهم أنباء كرمه مسافاتٍ بعيدةً. نكران الذات المسيحي غريب عن البدو. ولهذا السبب كانوا يلطخون رقاب الجمال بدم الذبائح لكي يُسأل ضيوفهم في كل محطة لاحقة عن منشأ هذه الخطوط.

لمدينة حائل، بصفة خاصة، صيت ذائع بتفوقها في هذا المضمار. وفي التاريخ العربي القديم، أن أبا شمر الأسطوري؛ حاتم الطائي، أوعز لعبده أن يشعل ناراً عظيمة على قمم جبال آجا يستدل بها المسافرون إلى مضيفه. ويمكن التعرف إلى الأريستوقراطية الروحية للصحراء من الاستعداد الأهوج لنحر آخر رأس من الأغنام والإبل حتى في أوقات القحط والجفاف من أجل عابر سبيل. وكان أمير قبيلة شمر في مدينة رفحا فخوراً بأن بيته مفتوح نهاراً وليلاً لكل ضيف يصل إليه. والشخص المحتقر أشد الاحتقار في رفحا رجل بخيل يبعد بيته قليلاً عن قمة تل. وهو، على أية حال، لم يكن شمرياً بل مستورد من قرية بها الجبلية في الجنوب الغربي، وهي منطقة سيئة الصيت بين سكان الصحراء بسبب روحها العشائرية التافهة ولؤمها. والشمري الوحيد الذي استقر في بها عاد خائباً بعد سنتين لأن سكانها أبقوا أبوابهم مغلَقة بوجهه. الرجل القادم من بها كان من النمط نفسه. لم يكن يفعل شيئاً سوى الجلوس في دكانه وعدّ نقوده. ويقول الشمريون إنه من البخل بحيث لم يكن يدفع أجور السَّفَرات المدرسية لأطفاله.

يا له من تعارض مع البدو الأقحاح! ذات يوم، كنتُ مسافراً مع أحمد الرفاعي وشاعر الجبلين إلى آل سويد، وهي عشيرة شمرية تعيش على حدود أراضي عنزة، ولهذا السبب، فإن مشاعرها الشمرية أقوى منها لدى عشائر شمر الأخرى. كنا مارين بـ «ربع المغنّي»، وهي كناية عن أغاني الفرح التي كان محاربو شمر وعنزة ينشدونها لدى عبور هذه الحدود والوصول سالمين إلى ديرتهم، عندما اعترَضَنا كوخ مبني من كتل إسمنتية (بلوكات). طلب مالكاه، وهما رجل كبير في السن وآخر أكبر سناً يتوكأ على عصا وله لحية مصبوغة بالحنّاء، أن ننزل في ضيافتهما. وعلى الفور سحبا نعجة سوداء ذات رأس أبيض. الأصغر سناً منهما، الذي قال إنه حارب في فلسطين عام 1948، أحضر سكيناً وحصر بين ساقيه عنق النعجة التي كانت تنظر إلينا هانئة ترمش راضية، وقال، «باسم الله نذبح على شرفكم!». وتعين علينا أن نلجأ إلى الحيلة للخروج من هذا الموقف. زعم أحمد أننا طاقم تلفزيوني من الرياض ولدينا موعد عاجل لإنتاج برنامج عن الشاعر المعروف وناقل الشعر التقليدي دبيس العلوي، ولهذا السبب نحن في عجلة من أمرنا.

وصلنا من دون حوادث إلى المعترضة؛ وهي القرية التي كان دبيس يرأس فيها عشيرته المتديّنة جداً. وقد احتل مسجد حديث البناء ذو منارة كاملة حوالى نصف مساحة «الهجرة» التي كانت تحيط بها من الجانب الآخر أنوار على حواف الأسوار. «هذا من فضل ربنا»؛ كان رد فعل الرجال ذوي اللحى البيضاء معتزين كما ينبغي بالمديح الذي كاله أحمد والجريفاني. عند الغروب، تُركتُ بمفردي بينما ذهب الرجال للوضوء في بيت الاغتسال بجانب المبنى ثم توالوا على دخول المسجد واحداً إثر آخر. شاب من القرية حضر متأخراً ورأيتُه يُجلَد جلداً رهيباً في باب المسجد. قال أحمد في ما بعد مخففاً، «إنهم مؤمنون متعصبون جداً». بعد الصلاة جاءت صحون التمر الذي كان يُغمَّس في زبدة بلون العسل مصنوعة من حليب الأغنام. «سمن عربي»؛ يقول السعوديون عن الرجل الذي بلغ أعلى درجات الرقي في الشمائل العربية.

حانت ساعة الأداء الشعري، ولكن دبيس كان متردداً. فالميكرفون والشخص الغريب ونفاد صبر المحتشدين من سكان القرية؛ كل ذلك أثار حنقه. وهو قد بلغ من السن ما يدفع مجايليه إلى الدهشة من تدهورهم المتسارع. وكان يدرك الثقوب التي ظهرت في ذاكرته، ولم يكن يريد إفشاء هذا السر للجمع المحتشد. أشار أحدهم إلى دلة معدنية ضخمة كانت موضوعة على طاولة في منتصف الغرفة، وصاح، «قل له ما قلتَ في هذه الدلة يا دبيس!»، وبدا أن شيئاً يتحرك في دبيس؛ عواطف استحضرتها ذاكرة سَرَت كالماء الدافئ في جسمه وبددت الإحساس بالانكشاف الذي أصابه بالشلل. تململ في مقعده وتنحنح، ثم بدأ ينشد: وا دلتي وقوة صبره علينا

خمسين عام ما فهقته من النار
مستملس عرقوبها من يدينا
من كثر ما نشرب به الكيف وبهار
من عقب ذا قامت فتوقه تبينا
من حر صلو النار به بان شيشار
وتطلّبن لا تفهقن لي سنينا
خلن توال النار وقبال الأخيار

ما دمت حي بخدمتك صابرينا
عمر قضى معك على العسر وبيسار
ودوّر لنا ستاد يربن وزينا
واصير مثل اول عشاقه هلّ الكار

الأنبوب العابر للجزيرة العربية

لكسب الوقت، تركتُ اللاندروفر عند فندق الجبلين وسافرتُ في رحلة جوية داخلية عبر صحراء النفود الكبرى إلى بلدة عرعر، ونُقلتُ بسيارة ثلاثمئةَ كيلومتر على امتداد أنبوب التاب إلى رفحا لزيارة ممدوح، الابن البكر لشيخ القبيلة المحلي. وتتبع رفحا إدارياً لسلطة الأمير مساعد الذي يحكم الإقليم الحدودي الشمالي منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وإذ تقدم به السن وركضت به سنواتُ العمر، فإنه يمارس الحكم الآن من خلال الاتصالات الهاتفية حصراً تقريباً مع مرؤوسيه، مثله مثل أمير رفحا. وبخلاف والد مضيفي شيخ قبيلة شمر المحلي محمد الخزعلي، فإن رئيس بلدية رفحا كان غريباً في المنطقة، إذ جاء من قرية قرب الرياض. وتتعمد الحكومة في سياستها إناطة الإدارة المحلية بغرباء لا يدينون بالولاء إلا لها. والخزاعل، شأنهم شأن جميع زعماء القبائل في العربية السعودية، لا يتكلمون على ممثل الحكومة إلا بنبرة استجهان في صوتهم.

محمد الأب كان شخصية أخّاذة برغم سنواته التي تربو على الثمانين. إذ عقد شعره الفاحم المترف في ضفائر طويلة تتدلى على منكبيه. وكان بدوياً حتى النخاع، من بقايا حقبة أكثر نبلاً، يعامله أفراد قبيلته معاملة المشاهير. كان بيته يغص نهاراً وليلاً بالبدو الذين يأتون ليعرضوا عليه مشاكلهم. كان محمد معروفاً على نطاق واسع بوصفه خبيراً في أعراف الصحراء، وشخصاً يحاول صادقاً حل النزاعات من خلال التوسط وممارسة الهيبة الأخلاقية بعيداً عن المصلحة الذاتية. والفائدة الوحيدة التي يجنيها الخزاعل من ذلك، هي الحفاظ على سمعتهم بين أفراد قبيلتهم وتهميش دور ممثل الحكومة قدْر الإمكان.

في سنوات شبابه، كان محمد قناصاً معروفاً بصقوره. وكان مجلس البيت مزيَّناً بصور فوتوغرافية ملوَّنة ومكبَّرة لصقوره في وقفتها الظافرة بأجنحة نصف منشورة فوق الحبارة الدامية أو الأرنب الدامي تحت مخالبها الحادة. وكانت الأجنحة المقصوصة للحباري مثبتة تحت الصور بسلك معدني. كانت هناك أيضاً صورة فوتوغرافية للصقر المفضَّل عند الملك خالد؛ وهو طير يبلغ سعره في السوق نصف مليون دولار، وصورة شخصية لولي العهد الأمير عبد الله. خالد كان «الأكثر بداوة» بين الملوك السعوديين، وبالتالي المفضَّل عند القبائل.

بعد وفاة خالد ورثه في هذا الموقع ولي العهد عبد الله الذي يتمتع بشعبية استثنائية بين شمر بصفة خاصة. ويُعتقد أن عبد الله يميل إلى قبيلة شمر لأن أمه فهدة؛ ابنة عاصي شريم، كانت من شمر. ويُفتَرَض أن هذا ما تشي به طريقته في لبس العقال على شماغه، أي منكَّساً بعض الشيء نحو المقدمة، وهي الطريقة الشمرية في الظهور بمظهر الأنيق أو الشديد البأس. عدا ذلك، فإن عبد الله ابن الصحراء البار، يعشق الخيل والصقور، ولا تفوته أبداً رقصة العرضة، ويتعامل مع البدو ببساطة غير متكلِّفة ليستمع إلى الحكايات الطويلة عن الماضي التليد. « يضاف إلى ذلك»؛ همس لنا الدليل الذي أرانا مقطعاً من طريق الحج القديم من بغداد إلى مكة؛ طريق زبيدة، زوجة الخليفة هارون الرشيد، «يضاف إلى ذلك أن عبد الله لا يحب الأميركيين بسبب إسرائيل، ويراهن أكثر على الروس». وهذه طريقة أخرى للقول إن عبد الله قد يكون أكثر تعاطفاً مع انتهاج سياسة قومية عربية. وباستثناء عبد الله، فإن الملك خالد وحده الذي ترحَّم عليه الدليل. سألتُ، «وماذا عن الملك فيصل؟ ألم يفرض مقاطعة نفطية خلال حرب تشرين الأول/أكتوبر عام 1973، وألم يكن معروفاً بصرامته وتقواه؟». «كلا، كله استعراض. إذ كان فيصل متزوجاً من امرأة تركية متغربنة».

في رفحا، على بعد كيلومترات قليلة من الحدود مع العراق، بدأ الشرق الأوسط الذي يستأثر بالعناوين البارزة في الصحف ويمور بالغليان السياسي، يجعل نفسه محسوساً. وبين أفراد عتيبة والدواسر، في عمق الجزيرة العربية، كانت هذه قضايا يسمع بها المرء، بيد أنها لا تترك أثراً بليغاً. ولكن شمر تمتد أبعد من سد الصحراء الواقي والحميَّة الدينية، التي عزلت طوال قرون قلب نجد عن العالم الخارجي. وكانت فروع كبيرة من القبيلة هاجرت في الماضي إلى ما يُعرف الآن بالعراق وشمال سوريا. ومنذ ذلك الحين انتشرت شمر في شريط عريض يمتد من حائل إلى الموصل في شمال العراق. ويعيش نحو نصف أفراد القبيلة في العربية السعودية والباقي في العراق وسوريا. ولهذا السبب، فإن أفراد شمر، حتى إذا أرادوا، لا يستطيعون الابتعاد عن مشاكل الشرق الأوسط. وفي بيت محمد كان الحاضرون يتحدثون باحترام كبير عن أمراء أنبل فروع شمر، وهم آل الجربا الذين أنشد الشمري الأسود دندن قصيدته في مدحهم. وقيل إن رئيس المشيخة الحالي نواف موجود حالياً في شمال شرق سوريا. وبحسب أصدقائي في رفحا، فإن أهم الأعمال عن تاريخ شمر وأشجار عائلاتها محفوظة في مكتبة في دمشق.

الحقيقة السياسية الأشد مدعاة للأسى هي الحدود التي تفصل شمر ـ السعودية عن أفرادها شمالاً في العراق. وإلى ما قبل 15 عاماً خلت كان البدو ما زالوا يتنقلون من دون عائق عبر الصحارى من جبال الأناضول إلى مكة، ومن البوداي الإيرانية إلى الربع الخالي. وكانت كوفية عليها عقال وبضعة قطعان من الإبل والأغنام تكفي لعبور الحدود المرسومة في الرمل من دون حواجز. ولكن الحرب بين إيران والعراق أطلقت رصاصة الرحمة على نمط الحياة التقليدي لبدو هذه المنطقة. فخوفاً من المتسللين الإيرانيين، وربما حتى من صدام حسين، قرر السعوديون وضع نهاية لتنقل البدو بحرية عبر الحدود. وعُقد اتفاق مع العراق لتقويم جميع الزوايا المتعرجة في منطقة الحدود، وأُجبر البدو على الاختيار بين الجنسية العراقية والجنسية السعودية.

وكان نواف بن شريم، خال ولي العهد الأمير عبد الله، الذي توفي عام 1983، قرر الذهاب إلى العراق ثم ندم على قراره، وعاد إلى الجانب السعودي من الحدود. وبعد مفاوضات مديدة مع الحكومة في الرياض سُمح له بالاستقرار هناك. ابنه ممدوح يقيم حالياً في «هجرة» التي تبعد 45 كيلومتراً عن رفحا. وبرغم أن نواف وأفراد قبيلته مُنحوا حق الإقامة، فإنهم في عام 1988 كانوا ما زالوا ينتظرون البت في منحهم الجنسية. وإذا هطل الآن مطر وفير في الأردن مثلاً، فإن البدو ما زالوا قادرين على عبور الحدود الوطنية مع قطعانهم ولكن عن طريق شبكة من المعابر ومخافر المراقبة الشديدة. ومثل هذه البيروقراطية تتناقض مع طبيعة البدو ولا ترفع المعنويات. ولعل هذا كان غرض السلطات.

التقيتُ ممدوحاً في الرياض بوساطة شاعر طلبتُ منه أن يوصلني إلى شمر. كان في الثلاثين من العمر وبرتبة رائد في الحرس الوطني بقيادة ولي العهد الأمير عبد الله. شقيقه بندر الذي يصغره بخمس سنوات، عُين بعد أن أنهى دراسته في ولايتي إيوا وفلوريدا، مديراً لشرطة المرور في رفحا. وفي أوقات فراغه يطالع كتباً مثل المدير الكفء . كان بندر يدرس لتقديم رسالة دكتوراه موضوعها المرور.

في اليوم الثاني قال ممدوح، «أين رسالة التوصية بك من إدارة حائل؟ لقد آن الأوان للذهاب ومقابلة رئيس البلدية. يوم أمس كان في المجلس رجل أمن من الجوف، الرجل الذي أسميناه «مدير السجن»، أتذكر ذلك؟ رآك والأفضل ألاّ يخبر رئيس البلدية بوصولك». في بيت شقيق ممدوح لم يكن هناك أثاث، وفي الحديقة الخلفية انتصبت خيمة سوداء ضخمة كاملة التجهيز بكل اللوازم المطبخية لطقوس تحضير القهوة. بيت رئيس البلدية بدا مختلفاً تماماً. كان العمدة حضرياً في أصوله ـ سبب آخر لاحتقاره ـ وجهز بيته بـ «مرافق» بورجوازية غربية مثل الخِزانات والمقاعد الوثيرة والأرائك. القاضي الواهن بلحيته المدببة المصبوغة بالحناء وساقيه الصغيرتين المتدليتين كدودتين من على حافة الأريكة، استمع بانتباه إلى شرحي. وكان اقتراحه أن أبدأ بضم أعماله إلى أنطولوجيتي عن شعراء رفحا والمنطقة المحيطة. استدعى أحد أبنائه لتسجيل أبياته من فمه لصالحي. ولكن ما فهمه الفتى من لهجة والده كان حتى أقل من فهمي أنا. وبعد نصف ساعة من إسماعي قصيدة في مدح الملك فيصل أصبح المجهود فوق طاقة أبي المدينة. وعندما انتهى اللقاء سأل ممدوح، «حسناً، هل دعاك إلى العشاء؟ آه، أوَلا ترى أنه لم يصرّ!». وخاطب الرجال المتحلقين على البساط قائلاً، «ها ها، مارسيل رأى عمدتنا على حقيقته. فهو لم يلح، ها ها! وتلك القصيدة التي ألقاها؟ ها ها، لا شيء أكثر من مديح بلا قيمة لآل سعود. مارسيل لم يسجلها إلا لإرضاء الرجل. وهي لا علاقة لها بشمر».

في أشهر الصيف القائظة تستمر الحياة مع الخزاعل بتثاقل. كنتُ أنام في الخيمة السوداء المنصوبة في الحديقة بين أشجار التين والزيتون وأحراش النعناع العطرة. وفي الصباح كانت أيادٍ غير مرئية تقدم لي الفطور من باب في البيت لتناوله في زاوية ظليلة من الفناء. وكان باقي اليوم يُقضى في المجلس حيث كان مكيّف هواء مصاباً بتسرب يئز من دون أدنى تأثير محسوس في الحرارة التي شقت طريقها إلى الداخل من الباب المفتوح. كان الناس يمضون اليوم كله متكئين على المساند بنصف عين على جهاز التلفزيون. ولم يكن يقطع ذلك سوى الصلاة التي تؤدَّى في مواعيد محدَّدة في مسجد العائلة الخاص. وكان الوقت الممتد بين الغداء وصلاة الظهر والساعات الأخيرة من العصر يُقضى في النوم.

في المساء كان الناس يعودون إلى الجلوس على البسط المفروشة في الحديقة متكئين على المساند المستطيلة. «ارْتكِ يا مارسيل، لماذا لا تريح كوعيك على الوسائد يا مارسيل!». كل ذلك التمدد والكلام كان أحياناً يرهقني. كنتُ أريد أن أجمع قصائد وأن أجد لها شرحاً، لكن قوة تركيز مضيفي كانت لا تصمد أكثر من عشرة أبيات. وحينها يكونون قد تعبوا، أو أن الحديث مع السيل الذي لا ينتهي من الزوار كان يستأثر باهتمامهم. كانت القهوة الخضراء والشاي السكري شديد الحلاوة يتدفقان من الترمسين. لم يكن هناك من سبيل إلى العمل بجدية. إن حياة الأريستوقراطية البدوية تتألف بالدرجة الرئيسية من الجلوس واستقبال الزوار، أياً كانوا، بهدوء ووقار. ربما كنتُ أطلب المستحيل. ما كنتُ أريده ربما كان سخيفاً سخْفَ مَنْ يتوقع من دوقة غيرمانتيس وهي تستضيف زواراً في بيتها، لا أن تتحادث ودياً مع زائر من سكان تاهيتي الأصليين فحسب، بل أن تجد الوقت لتعريفه بكل شعر فكتور هوغو أيضاً.

في بعض الأمسيات كان ينضم إلينا خبير مائي فرنسي، عاش في رفحا خمس سنوات وكان ضجراً. كان معه دائماً راديو ترانزيستور روسي ـ اشتراه في الكويت ـ وكان يُسمعنا منه الأحاديث التي تجري بين الطائرات المحلقة على ارتفاع عشرة كيلومترات فوقنا وبين أبراج المراقبة في بغداد ودمشق والكويت ودول خليجية أخرى. كانت الحركة الجوية بين الشرق والغرب كلها تمر عبر هذا الرواق بين أوروبا وجنوب شرق آسيا، الذي يتبع مسار أنبوب التاب مثله مثل الطريق الوحيد المعبد في المنطقة. لذا، كنا جالسين تماماً تحت ما يعادل قناة السويس في حركة الطيران. ومثل حيوانات السرطان في قاع بحر مداري كنا نرنو إلى بطون السفن العابرة.

كنا نرى الطائرات، من بسطنا المفروشة في الحديقة شديدة الحرارة والرطوبة، تخترق السماء فوقنا، صامتة بسبب ارتفاعها الشاهق، ولكن في ليل الصحراء الجاف، الرائق، كانت تبدو واضحة وضوحاً أثيرياً بحيث يكاد المرء يلمسها. وكانت ترسل، مثل اليراعات، إشارات بأضوائها الحمراء والبيضاء في الجناح والذيل، لا تُرى إلا من وميضها بإيقاع منتظم وألوانها وليس من قوتها في سماء الليل المرصعة بالنجوم من حولها. وعلى راديو «أف أم» كنا نسمع الموقع ـ «نمر الآن برفحا» ـ والارتفاع والأحوال الجوية في مطارات تبعد آلاف الكيلومترات عنا. كيف يستطيع المرء أن يكون أبعد عن العالم منه في رفحا، لكنه مع ذلك يبعد عشرة كيلومترات فقط تحت أكثر شرايين حركة الطيران ازدحاماً بين أكبر قارتين سكاناً؟

اليهودي

في مناسبات قليلة كان ممدوح يلقي عليَّ محاضرات عن مخاطر الصهيونية ويهود العالم ـ قال الاثنان واحد لا فرق بينهما ـ . لم أعرف في الحقيقة كيف أرد على هذه التجريمات الكاسحة. وكان هو بالكاد قادراً على أن يفترض أني ليست لديَّ أحكام مسبقة في الموضوع. هل كان يختبرني، ليرى أي سمكة سياسية أو ديك سياسي يتعامل معه؟ اتفقتُ معه حول الظلم الواقع على الفلسطينيين، لكني كنتُ عاجزاً عن الاتفاق مع قوله إن اليهود هم المسؤولون أساساً عن كل شرور العالم، وإن لهم ضلعاً في كل حرب، وإنهم يحيكون المؤامرات وينصبون الفخاخ في كل مكان. وفي رأي ممدوح، فإن اليهود هم مَنْ أشعلوا الحرب الأهلية في سريلانكا بين التاميل والآخرين (كان يعني السنهاليين)، وهما جماعتان تعايشتا بسلام حتى بدأ اليهود يعكرون الأوضاع. العراق وإيران كانا مثلاً واضحاً آخر. والقادة الإسرائيليون أنفسهم قالوا إنهم يأسفون لانتهاء تلك الحرب. كان ذلك صحيحاً في هذه الحالة. مثال آخر: ال- 200 عاهرة المصابات بمرض نقص المناعة المكتسبة (الأيدز) واللواتي هرَّبتهن إسرائيل إلى مصر لمحو سكان هذا البلد. «فكر في كل هؤلاء المصريين المساكين الأبرياء... إنهم حقاً وراء كل حرب!». «وكمبوديا؟»، اقترحتُ بحذر. «كمبوديا أيضاً!»، «وكذلك منظمة الدرب المشرق في بيرو؟». قلتُ إن أفكاره عن قوة اليهود أفكار غير معقولة. كلا، خطأ، فمن طبيعتهم الوحشية أنهم يريدون دائماً الاستيلاء على السلطة، في كل مكان، وإن كان ذلك بمكائد غير مرئية من وراء الكواليس. «لهذا السبب هم مكروهون ومحتقرون في كل أنحاء العالم لأنهم يبقون معزولين، لا يريدون الاختلاط إلا مع اليهود الآخرين، ويرفضون الالتزام بالعمل من أجل الصالح العام». سألتُ، «مثل جارك من بها في الجنوب الغربي؟». «تماماً، ما قلته هو عين الصواب! وليس في ذلك مصادفة لأن الكثير من اليهود عاشوا في الماضي في تلك المنطقة وفي نجران». كان علي أن أتحمّل هذه المحاضرة مرتين أو ثلاث مرات. ثم جاء السؤال المحتوم: «هل هناك يهود كثيرون في هولندا؟». «كلا، ليسوا كثيرين، غالبيتهم قتلهم الألمان». لم تكن هناك قط إجابة عن ذلك.

كانت ظاهرة لم يكن لدي تفسير لها. ممدوح كان هادئاً، لطيفاً، إنسانياً، وحكيماً، نقيضَ المتعصب. محاجته ضد العدو اللدود لم تكن صاخبة أو متشنجة أو تناحرية شأن محاجة المتعصبين في مصر وغيرها من بلدان الشرق الأوسط. وبدا أن توجهه يشير إلى أن رأيه مجرَّد، ويقول حقيقة واقعة ولكن بقناعة داخلية راسخة.

السؤال الذي طرحته على نفسي هو كيف كان الناس ينظرون إلى اليهود في هذه المنطقة قبل مئة عام. أحسب أنهم لم يكترثوا كثيراً. ففي عمل ألويز موسيل؛ قس هابسبورغ وعم الكاتب روبرت موسيل، الذي كان رائد الدراسة الأنثروبولوجية عن البدو في أواخر القرن الماضي، لا يظهر اليهود إلا في حكاية عن مجيء البعير. إذ كان البدو يعتقدون أن العرب، في الأصل، سرقوا الجمل من قبائل يهودية في الحجاز. يقودني إحساسي إلى أن كره اليهود اشتد مع تزايد معرفة المرء بالقرآن ـ في الماضي كان غالبية البدو لا يعرفون القرآن إلا سماعاً ـ ومنذ اندلاع النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني.

القرآن يقول إن اليهود أعداء الله ولهذا السبب نزلت عليهم لعنته. «... كلما أوقدوا ناراً أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين» (القرآن، سورة المائدة، 64). المسيحيون أيضاً كفار ولكنهم أقل خطراً بكثير من اليهود. «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون» (القرآن، سورة المائدة، 82).

التاريخ الحديث لا يفعل سوى تأكيد ما عرفه المسلمون منذ قرون من القرآن. وخيانة القضية العربية في القرن العشرين ليست أكثر من تكرار لغدر اليهود بالرسول في المدينة، سوى أن انتقام الله منهم لم ينزل حتى الآن، ولكن صبر المؤمنين عظيم.

اسمان من التاريخ الغربي حُفرا في ذاكرة ممدوح: سايكس وبيكو. أي تلميذ هولندي يعرف اسمي هذين الدبلوماسيين المغمورين؟ لكنهما في رفحا ما زالا يمثلان المؤامرة الصهيونية الاستعمارية الكبرى: المفاوضان البريطاني والفرنسي اللذان نكثا بعد الحرب العالمية الأولى بالوعود التي قُدِّمت للعرب واقتسما الشرق الأوسط بينهما وأجهضا وحدة العرب الطبيعية، وزيادة في المهانة اقتطعا أرض فلسطين لإعطائها إلى ألد أعداء الله. هذا هو التاريخ الحديث كما يُدرس في العربية السعودية وبلدان أخرى، وممدوح لا يفعل سوى نقل الاعتقاد السائد إلي.

انتحاري

الأمور لم تجر على ما يرام مع الشعراء في رفحا. فالهدف الحقيقي لرحلتي كان رضا بن طارف ـ صاحب القصيدة الأثيرة عندي ـ لكنه كان في العراق وقتذاك. ممدوح عرّفني إلى عدد من متذوقي أغاني الحرب التي نظمها شعراء شمر، ولكن اتضح أنهم بلا فائدة. فإن لديهم، مثَلَهم في ذلك مثَل الشعراء في قنا، عادة سيئة هي أن يلقوا بسرعة البرق أبياتاً يفهمون أقل من نصفها قبل أن يندفعوا بصرخة «والسلامة» إلى خط النهاية بسرعة العدّاء بن جونسون، رافعين الأيدي عالياً لتقبل تصفيق الجمهور المعجب، والحائر مثلي، كما أدركتُ تدريجياً.

كان هناك خياران لعودتي إلى حائل حيث تركتُ سيارتي. الطريق المعبد الذي سيأخذني في دائرة واسعة شرقاً إلى نقطة تبعد 200 كيلومتر عن الرياض. وكانت تلك رحلة إلى حائل تمتد إجمالاً أكثر من ألف كيلومتر. الخيار الثاني كان رحلة لا تزيد على 350 كيلومتراً عبر صحراء النفود مباشرة. وفي منتصف الصيف لم تكن هذه بلا مخاطر، ولكن لأسباب شتى فضّلتُ الخيار الثاني. كنتُ طرتُ فوق النفود ثلاث مرات من قبل، وفي مناسبات عدة كنتُ أتأمل منحنيات الكثبان المغرية ذات اللون الوردي الفاتح من حافة الصحراء. إن أياماً من الجلوس واحتساء الشاي والانتظار والكلام الفارغ جعلتني متلهفاً للعمل. الخطر المحتمل لم يكن عائقاً. وعدا ذلك فإن جميع الرحّالة الكلاسيكيين في الجزيرة العربية عبروا النفود في طريقهم إلى حائل، التي بدت لهم، بعد كل ما تحملوه من حرمانات، اكتشافاً عظيماً. باختصار، كنتُ مضطراً ومصمماً على عبور صحراء النفود.

بحلول مساء الخميس بدا أن ممدوح رتب كل شيء. أوعز لي أن أكون مستعداً للرحيل في اليوم التالي، صباح الجمعة الباكر، قبل الفجر، وفي حوالى ظهر اليوم نفسه سأكون في حائل. ولهذا السبب انسحبتُ من المجلس في ساعة مبكرة من المساء، ولم أتمكن من النوم بسبب لهفتي. وفي الساعة الرابعة صباحاً، مع دعوات الأذان الأولى، كنتُ صاحياً ومستعداً للانطلاق. سكان البيت كانوا نائمين وظلوا مستغرقين في النوم. في الساعة الخامسة ذهبتُ للتحقق من كل شيء عند المدخل. وهناك لم أجد إلا ضيفاً آخر، رجلاً ضخماً طاف في الماضي مع قطعانه كل الصحراء الممتدة بين تركيا ومكة. كان ممدوح قد قال لي إن هذا البدوي طرح أرضاً ذات يوم جملاً مجنوناً لم يتمكن منه عشرة باكستانيين، وأوثقه. كان الرجل ينتظر والد ممدوح منذ بضعة أيام ليطلب منه المساعدة في حل مشكلة أو أمر ما. ولكن محمداً انكفأ على غير المتوقع إلى مضاربه التي تبعد مسافة طويلة عن رفحا. ولم يكن البدوي يثق بأبناء محمد فكان الآن ينتظر أيضاً نقلة موعودة إلى المكان الذي يقصده.

دقت الساعة الثامنة. أطل ممدوح وبندر. وكما في كل يوم، تناولنا الفطور تحت شجرة الزيتون. قررتُ أن أتصرف بوقار العربي ولا أطرح أسئلة محرجة. بهذه الطريقة كنتُ أعبّر عن إيماني المطلق بالله ثم بمضيفي. أكل ممدوح وبندر البيض المعَدَّ لهما مرتاحَي البال وكأن كل شيء على ما يرام. أخيراً، عند الساعة الحادية عشرة وصل فهد، وهو مرؤوس عند ممدوح في الحرس الوطني عيَّنه لقيادتي بسلام عبر الصحراء إلى الوجهة التي أقصدها. فهد سيكون «خويي»؛ الدليل الذي سيتكفل سلامتي بحياته.

أوقف فهد سيارة بك آب من طراز داتسن خارج البوابة. صديق تبرع بتوفير السيارة ولكن فهداً قال إنها غير صالحة للرحلة. فلاختراق صحراء النفود، وخاصة في الصيف حين تصل درجة الحرارة إلى حوالى 50 درجة مئوية، لا تصلح إلا سيارات من موديل هذا العام أو العام السابق على أبعد تقدير. سأل فهد، «لماذا لا يذهب بالسيارة مع أحد آخر على الطريق المعبد؟». سليقتي أخبرتني أنه لم يكن يريد الذهاب، وبالمكر الفلاحي لجندي نفر كان يحاول التملص من هذا الأمر غير المعهود تماماً من ضابطه. فكرتُ في أن أشاطر ممدوحاً ظنوني هذه، ولكن تبين أن ذلك غير ضروري. فبعد فترة قصيرة قال ممدوح، بلامبالاة في الظاهر، «يا فهد، تعال في الداخل لحظة». وفيما كان الاثنان يجريان حديثاً مطولاً في المجلس بقينا أنا وبندر غارقين في أفكارنا تحت شجرة الزيتون. وفي النهاية غادر فهد. بقعة الظل تحت الشجرة انكمشت وانتقلنا جميعاً إلى الداخل. سألتُ، «ماذا يجري؟». لقد ذهب فهد لإحضار سيارة جديدة من آليات الحرس الوطني من الثكنة التي تبعد ثلاثين كيلومتراً عن رفحا، كما أخبروني لطمأنتي.

مرت الساعات وقُدِّم الغداء وتمتعنا جميعاً بخطبة الجمعة في مسجد الرسول في المدينة من على شاشة التلفزيون. كان الخطيب شيخاً ذا لحية عريضة بيضاء وشفتين غليظتين كشفاه السود. ظهر حافياً عند مدخل المنبر وبدأ يتسلق الدرجات بمشية مترنحة واختفى عن الأنظار قبل أن يظهر من جديد على المنبر. وعلى امتداد ساعة أفحم الحضور بمقتطفات واقتباسات من أحد المؤلَّفات الإسلامية الكلاسيكية من دون أن يستعين بنص. ولكن كان واضحاً من عينيه أن كل ما يفعله هو تشغيل شريط في ذاكرته وأنه كان يتوق إلى انتهاء هذه المهمة الشاقة. في الحقيقة لم يكن يتكلم من قلبه. سألتُ، «أهو سعودي؟». «نعم»، قال ممدوح، «من المدينة المنورة. كلهم اسودّوا من الشمس هناك». أمعنتُ النظر للتوثق إن كان يتكلم مازحاً لأن الشمس في المدينة لا تزيد عنها في رفحا. ولكن وجهه كان جاداً كالمعتاد. بعد الخطيب استمر البرنامج عند مكتب عالم دين إسلامي في مدينة الرسول، وهو رجل متورد البشرة دأب على نزع نظارتيه ووضعهما على سطح المكتب أمامه ثم إعادتهما على عينيه. وعلى غير عادة علماء الدين كان أحياناً يستخدم كلمات عربية باللهجة العامية في شرح مناسك الحج المعقدة. وظل يردد، «شو؟». لقد كان سوري الأصل، كما أوضح ممدوح.

الحجاز، أرض مكة والمدينة، ما زالت موضع قدْر من الشك بين عرب العمق الأقحاح. فالمؤمنون من سائر أنحاء العالم الإسلامي يمددون إقامتهم بعد الحج لمتابعة دراساتهم اللاهوتية، وكثيرون منهم استقروا بصورة دائمة في المدينتين المقدستين. وبهذه الطريقة اكتسب السكان طابعاً عرقياً أكثر اختلاطاً بكثير من باقي أنحاء الجزيرة العربية. وسكان نجد، وهي قلب الجزيرة الذي انطلق منه توسع المملكة السعودية، ما زالوا يعتبرون الحجاز إقليماً تابعاً. و«الإخوان» ـ القوات النخبوية من المحاربين البدو الذي استعاضوا عن ولاءاتهم القبلية بالأخوّة الإسلامية وخوض الجهاد تحت القيادة الأيديولوجية لعلماء الدين ـ كانوا ينظرون إلى رعايا عبد العزيز الجدد بأكبر قدْر من الشك. إن عبث الحجازيين الطبيعي بل حتى لهجتهم القريبة جداً من اللهجة المصرية؛ كل شيء كان يشير بنظر الفاتحين القادمين من نجد إلى فساد متأصل نتيجة قرون من «الاختلاط» مع عناصر مسلمة، لكنها برغم ذلك غريبة وغير نقية. وللحؤول دون عودة المفاسد القديمة عمد المحاربون المتدينون من الرياض إلى تحجيم الحجازيين والضرب بحزم على أي خروج عن الأخلاق المفروضة من عمق الجزيرة.

الوقت يمرّ سريعاً. الساعة الثانية، الثانية والنصف. أخيراً وصل فهد. رأيت على الفور أن شيئاً ما قد حدث. زعم أن «سيارة الحرس الوطني في الكراج لغرض الصيانة». فأعلن ممدوح، «إنه يوم جمعة. يستحيل ترتيب أي شيء اليوم». ذهبت توسلاتي سدى. واستبد بي يأس أسود. دفنتُ وجهي في يدي وحاولت أن أتمالك أعصابي. قال ممدوح بتفاؤل لا يُصدَّق، «ستكون في حائل في منتصف الليل». انطلقنا بسرعة متوسطها 120 كيلومتراً في الساعة، لمدة ثماني ساعات بلا توقف على طريق معبد رتيب يبعث على النعاس مع سائق يعاني أصلاً من قلة النوم؟. لاح لي الخطر في ذلك أكبر منه في الرحلة عبر صحراء النفود. جلس فهد على جانبي الآخر وكزَّني بكوعه برفق هامساً، «لا تزعل سنعبر صحراء النفود في كل الأحوال. فقط صن لسانك، ولا تقل شيئاً لهما»، مشيراً برأسه إلى ممدوح وبندر. ضغطتُ على ذراعه بفرح وهمستُ بدوري أنه يستطيع الاعتماد علي.

ننطلق. نتمون بالماء من متجر بقالة. لدى فهد خمسون دولاراً مخصصات سفر دسها ممدوح في يده. اشتريت مبرِّد ماء وجلب فهد أربع قنان من ماء «صحة» المعدني مجمداً في قطع من الثلج. سعر القنينة الواحدة 25 سنتاً. وزيادة في الحيطة قررت شراء صندوق آخر يحوي 12 قنينة لحملها في صندوق السيارة. فمن يدري، ثلاثة دولارات، في هذا الموسم الحار، يمكن أن تعني الفرق بين الحياة والموت، أقول لنفسي بميلودرامية. فهد يزمجر، «هذا الماء سيكون حاراً في لمح البصر. شيء مقرف!».

ننطلق غرباً على الطريق المعبد بضعة كيلومترات ثم ننحرف فوق أنبوب التاب نحو طريق ترابي ثم إلى داخل الصحراء. يزفر فهد، «حار واجد». الكيلومترات المئة الأولى تأخذنا عبر صحراء من الحجر والحصى الذي يتلألأ في جحيم من الضوء الأبيض. يقود فهد السيارة بسرعة جنونية. قبضتاه الداكنتان إلى حد السواد تقريباً والصلدتان كالصخر تشبكان المقود وتديرانه ذات اليمين وذات الشمال بسرعة البرق. سباق باريس ـ دكار لا يقارَن مع قيادته السيارة. ينتزع السرعة القصوى وأكثر من السيارة البك آب. السيارة تثب وترتفع كأنها حصان جامح في مسابقة لترويض الخيول العنيدة. يبقي أطراف شماغه الأحمر والأبيض بين أسنانه، وأنا لففتُ شماغي حول رأسي في لثام بحيث لا تظهر سوى العينين. طيّاران انتحاريان في مهمة قتالية. وفي لحظة معينة يصل مؤشر السرعة إلى 130 ونادراً ما ينزل إلى أقل من مئة. ليس لدي إلا مقبض فوق الباب أتشبث به وحقيبتي الدبلوماسية تحت قدمي. جسمي كله يطير بانتظام في الهواء وأعود هابطاً على المقعد بكل ثقلي ـ ليست هناك أحزمة أمان ـ . رأسي يرتطم بالسقف وشماغي وعقالي الثخين يتطايران باستمرار من خلال القمرة. الحديث مستحيل عملياً. أصرخ فوق الضجيج، «هل تتمرن على هذا في الحرس الوطني؟»، «فقط في عربات مدرعة ليست بهذه السرعة»؛ يجيب. يقول فهد إنه قطع هذا الطريق بالسيارة ست مرات من قبل. أريد أن أهنئه على مهاراته المثيرة في قيادة السيارات، لكني أقرر، بعد تفكير، الانتظار حتى نكون على الطرف الآخر من الصحراء.

سيارة البك آب لا تسير كما يريد فهد. يتوقف فجأة ويخرج لإحضار خرطوم بلاستيك ويبدأ إفراغ خزاني ماء معدنيين كبيرين مثبتين على كل جانب من مؤخرة السيارة. «ثقل كبير في المؤخرة، يمكن أن يسبب بنتشرا». حتى بعد ذلك من الواضح أن السيارة لن تفعل المستحيل الذي يطلبه فهد منها. لا نطير مرة، بل مرتين، خارجين عن الدرب قبل أن نسقط في حفرة وبين الصخور على جانب الطريق في صدمة ارتجاجية. فهد يخرج لاعناً، وينظر تحت السيارة ليرى إذا كان الماء يتسرب من جهاز تبريد المحرك. يقول، «إنها الإطارات، صغيرة جداً وليست قوية بما فيه الكفاية للثبات على الأرض». لا يخطر بباله أننا سنحقق تقدماً أكبر لو سرنا بسرعة تقل ثلاثين كيلومتراً في الساعة عن سرعتنا وتوقفنا مرات أقل. وفهد، مثله مثل ناقلي الشعر التقليدي الأقل شأناً، لا يعرف إلا طريقة واحدة هي الانطلاق بعمى كالثور الهائج. أقرر أن فهداً ليس سائقاً ماهراً من سائقي سباقات الرالي أو ساحراً وراء المقود، لكنه شخص تفكيره أخفّ من غريزة الجمل. وأصمم على أن أقول لممدوح إنه أعطاني حماراً ليكون دليلي ومرافقي.

بعد فترة قصيرة يحدث المحتوم: بنتشر في إطارنا الشمالي الخلفي. فمع درجة حرارة تبلغ 45 مئوية والانطلاق على أحجار وصخور حادة تكون خلال اليوم قد سُخنت ربما إلى ثمانين مئوية وبسرعة تفوق المئة بكثير؛ مع كل هذا، حتى أقوى المواد لا توفر حماية. الآن فقط أفحص إطاراتنا. وهي بكل تأكيد ليست مصنوعة من أقوى المواد. فكاوتشوك الإطارات مُحي بالكامل تقريباً والمطاط محبِّب كأنه جدار طيني متآكل بفعل عوامل الطبيعة ومنخور بعدد لا يحصى من الشقوق والتمزقات. وعلاوة على ذلك فإن الإطارات، وهي من نوع سبورت الأصغر حجماً، ليست مناسبة في الحقيقة للصحراء. تأوه فهد، «سيارة غير نافعة. كان علينا أن نأخذ الطريق المعبد». صحّحت له قائلاً، «ليس هناك عيب في السيارة. الإطارات وحدها غير صالحة. فإطارات

جيدة وإطاران احتياطان هما الحد الأدنى لمهمة كهذه». في ما بعد أسمع من فهد أن الصديق الذي استعار منه السيارة توسل إليه ألاّ يأخذ طريق الصحراء بأي حال من الأحوال.

الإطار الاحتياط ليس في حال أحسن ولكنه من النوع المعهود، المصمَّم لكل التضاريس. المشكلة الوحيدة أن حجمه يزيد درجة على حجم الإطار العاطل بحيث تميل السيارة إلى الأمام وتنحرف جانباً. أسأل فهد، والعرق يتصبب مني بسبب تبديل الإطار، ماذا سنفعل إذا حدث بنتشر آخر. يقول متجهماً، «نكون في مأزق حقيقي». في ذات اللحظة أسمع هسيساً خافتاً على الجانب الآخر من السيارة. أضع أذني على المطاط. الإطار الخلفي الآخر يُفرغ هواءه بكل تأكيد. أرى الذعر والخوف من الموت يرتسمان على قسمات فهد التي أثقلها الهمّ الآن. كان رمى شماغه منذ زمن طويل. أيادينا وثيابنا التي كانت ناصعة البياض ملطخة بالوحل وبقع الزيت ووجوهنا تتصبب عرقاً.

فهد يرمي نفسه وراء المقود ويبدأ السوق عشوائياً على أول كثبان النفود. يتأوه فهد، «لا شيء هنا، لا أحد. ماذا عسانا أن نفعل؟».

ولكن، بمعجزة، نرى من قمة كثيب أولى علائم حياة. فهناك على مبعدة بعض الأكواخ وأشكال سيارات. نندفع صوبها في خط مستقيم عبر الفلاة مرتطمين ومختضين على الهضيبات الرملية وأجمات العشب الصحراوي. نجر إطارنا العاطل معنا كطير مهيض الجناح، بينما، قريباً منا، يلوذ ثعلب صحراوي بالفرار بوثبة كبيرة، ذنبه الصوفي الأبيض منتصب كما الزعنفة.

كان فهد يأمل في العثور على ورشة ولكننا لا نجد إلا آثار مخيم مهجور وهيكل خيمة زاهية الألوان لتقديم المرطبات. لعلها بقايا فورة نشاط في الربيع حين ينصب الكثير من البدو خيمهم هنا. ولكنّ هناك خزان ماء إسمنتياً كبيراً يغطي جزءاً منه وحْلٌ من الطحلب الأخضر. عند الحوض بدوي يملأ خزان سيارته المرسيدس بالماء. إنه غير قادر على مساعدتنا ولكنه يشير إلى خيمة سوداء على بعد كيلومترين أو نحو ذلك عبر الرمال. وحين نصل إلى هناك يتضح أن صاحبها يملك سيارة بك آب وهو مستعد لإعارتنا إطاراً احتياطياً. لا يهم متى نعيده، بعد شهر إذا اقتضت الحال. يساعدنا على تغيير الإطارين، ويعتذر عن عدم تمكنه من مرافقتنا ليدلنا على الطريق لأن لديه نساء في الخيمة، ويتمنى لنا التوفيق. ثمانون كيلومتراً أخرى إلى أول واحة: ترُبة.

بدأنا مسيرنا الآن عبر الفلاة التي هلك فيها سعوديان قبل عامين. فقد ضلاً طريقهما بعد ترُبة خلال السفر من حائل إلى رفحا وعلقا في الرمال. وبعد خمسة أيام أخذت عائلتاهما تشعران بالقلق. جاءت مروحية من الرياض ونُظمت حملة تفتيش. عُثر على السيارة وكان الرجلان ميتين. من الواضح أنهما لم يكونا شديدي القلق على مصيرهما في البداية لأنه كانت هناك دلائل على أنهما في الحقيقة استخدما تموينهما من الماء للاغتسال. ولكن قبل وصول اللحظات الأخيرة شربا كل الماء من جهاز تبريد محركهما.

الشمس تقترب من الغروب، وكما لو بقوة سحرية تكشف صحراء النفود عن بهائها المتوهج الأحمر القاني والمدوَّر، برقّة. إن هذه الصحراء عشيقةٌ حسناء وقاسية. وبعد الحادث المميت الذي وقع قبل عامين كان الطريق مؤشَّراً ببراميل نفط ذات ألوان براقة. في هذه الأثناء وقعت البراميل بأيدي البدو، وما تبقَّى منها سقط على جانبها وكان من الصعب رؤيته. وبما أن متوسط المسافة الفاصلة بين برميل وآخر يبلغ نحو نصف كيلومتر، لذلك لم يبق الكثير من علامات الطريق.

يخفف فهد السرعة قليلاً بين حين وآخر، استجابة لمناشداتي. عشرة كيلومترات أخرى تفصلنا عن ترُبة. هكذا كانت تخميناته بعد حين، وينطلق مرة أخرى بأقصى سرعة. كنا قطعنا الكيلومترات العشرة حين تعرضنا لبنتشرنا الثالث، هذه المرة في الإطار الذي أعاره البدوي لنا. تحيط بنا بطحاء دامسة الظلام، ولا أثر لواحة ترُبة. ولكن، الحمد لله، فلقد أخذت تقترب منا ببطء قاتل أنوار سيارة خلفنا. تدنو مخشخشة كأنها قاطرة عجوز ثم تتوقف. إنها سيارة بك آب، محملة فوق ارتفاعها مرتين بمعدات مخيم ولوازم منزلية. فهد يستدير نحو الشيخ الذي ينظر اليه من نافذة الركاب ويسأل، «هل ترُبة بعيدة؟». «ترُبة؟ لا أعرف. على أية حال ليس لدينا ما نساعدكم به». وتمضي سيارة البك آب مطقطقة في طريقها يتبعها كلب يركض ولسانه يتدلى من فمه مخترقاً سحب الغبار وراء أصحابه. يلاحظ فهد، «كانت امرأة تقود السيارة». «ماذا عسانا أن نفعل؟»، يقول فهد، «نواصل المسير. ليس هناك شيء آخر نفعله».

السيارة مائلة، الإطار المبنتشر يختض ويشخط على الأحجار ويدير أوصاله من المطاط بعنف عبر الرمال، ولكن برغم ذلك يتمكن فهد من زيادة السرعة إلى 40 كيلومتراً في الساعة. نتجاوز البك آب الذي تقوده امرأة، والكلب، ونرى أنواراً تنحرف وراءنا نحو خيمة تبعد مئتي متر عن الشاحنة الصغيرة. يقدِّر فهد، «ثمانية كيلومترات أخرى. ترُبة في هذا الاتجاه، وراء خط المنحدر التالي».

قطعنا 30 كيلومتراً على الدولاب الداخلي الحديد قبل أن ندخل أخيراً ترُبة. يحضر باكستاني ليبدّل، وهو نصف نائم، أحد الإطارات «المبنتشرة». الورشة لا تعمل إلا في تصليح الإطارات وبيعها. أشتري إطارين خلفيين جديدين بسبعين دولاراً. الإطار القديم لا يزيد عن كونه خرقة ممزقة حول دولاب الحديد الذي طُعج وأصبح شكله مربعاً. نسير من ترُبة 60 كيلومتراً أخرى، تُقطع كالمعتاد بسرعة قصوى وبوثبات كأن سائقاً مغامراً يهوى الألعاب الخطرة وراء المقود على طريق مفروش بالزفت قبل الوصول إلى الإسفلت المنقذ. ومن هناك لا تبقى إلا كيلومترت قليلة إلى بيت أهل فهد في قرية بقعا. مؤشر السرعة يشير الآن إلى 160. مقدم السيارة يتأرجح أحياناً بخضات خفيفة ذات اليمين وذات الشمال بينما يقبض فهد على المقود بيد

واحدة وبالأخرى يعدّل هندامه. يعيد ترتيب شماغه ويمد يده ليخرج قنينة عطر من الجعبة الموجودة في جانب الباب ويرش يديه ووجهه، يتلوى لإخراج علبة سجائر من جيب ثوبه ويمزق الغلاف فاتحاً العلبة بيده الطليقة ويشعل سيجارة مرة أخرى؛ كل ذلك من دون أن يخفف السرعة.

في فناء بيت عم فهد، لِصق بيت والده، كان بعض الشباب ما زالوا يجلسون حول أباريق الشاي ودِلال القهوة في هذه الساعة المتأخرة. أحد أبناء عمومة فهد يجلس بجانبي. فتى بشوش يتكلم بسرعة البرق. أسأل، «مَنْ سيأخذني المئة كيلومتر الأخيرة إلى حائل؟». «بودي أن أفعل ذلك»، يقول ابن العم، «لكني لا أستطيع الوقوف». يرفع ثوبه قليلاً ويريني الأنبوب المطاطي المربوط بكيس لجمع البول. «حادث سيارة»، يبتسم بشيء من الحزن. «انقلبت سيارة البك آب في كثبان الرمل وقُصِم عمودي الفقري من القاعدة، الساقان مشلولتان شللاً دائماً». سألتُ، «أحسب أنك كنت تقود السيارة بسرعة فائقة؟» يومئ برأسه مؤيداً، «نعم، السرعة الفائقة ليست جيدة». يسأل إن كنتُ أرغب في العمل سائقاً له. سيجزلون لي العطاء، ولن يكون عليّ أن أفعل سوى توصيلهم أحياناً إلى حائل. أرفض شاكراً له عرضه. «زوجتي وأطفالي ينتظرونني في هولندا». يقول الفتى بزفرة حالم، «أوووه، أنت متزوج. كم بودي أن أتزوج».

الكتاب الثالث

الدواسر

الوادي

أول بقعة من الخضرة يصادفها المرء في أوكر الصحراء وصفرتها بعد قطع الـ 1500 كيلومتر من جبال عُمان عبر الربع الخالي ـ على افتراض أن أحداً تسوِّل له نفسه القيام بذلك ـ هي وادي الدواسر: الوادي الذي تسكنه قبيلة الدواسر. والوادي، كما تُعرف المنطقة اختصاراً، لا يخلو من المعالم الجذابة، على أقل تقدير بالمقارنة مع البطاح الوعرة التي تحيط بالوادي من كل جانب. وبين الكثبان الشقراء التي ترسم حدود نجد الجنوبية، تكمن قرى الواحات كأنها عقد طويل بين بساتين النخيل الكثيفة. إلى الجنوب والغرب تم استصلاح الصحراء: أمواج من سنابل القمح في حقول دائرية تُروى بمنشآت رش ضخمة تزحف دائرةً كأنها عقارب ساعة من دون أي حركة محسوسة. الطبيعة أنعمت على الوادي بإمدادات تكاد لا تنضب من المياه الجوفية التي ادّخرها الله على امتداد ملايين السنين قبل أن يكافئ ثورة المسلمين بالكشف عن هذه الكنوز المطمورة.

مشكلة الوادي الوحيدة، في الحقيقة، أنه مأهول بالدواسر. القبيلة نفسها لا تدرك ذلك ولكن القلة من الزوار الغربيين والسعوديين الذين يفدون من مناطق البلاد الأخرى يلاحظون بلا استثناء التناقض بين اعتداد الدواسر بأنفسهم والانطباع الذي يتركونه لدى الغرباء. فإن روح «الإخوان» ليست حية في أي مكان كما هي في هذا المكان، وليس من مكان آخر في الجزيرة العربية بلغ فيه السكان درجة أكبر من الكمال في فن استيراد التكنولوجيا الحديثة من دون أي تنازل للثقافة الغربية.

قد يكون لموقع الوادي دور في ذلك. فالجزيرة العربية من منظور الجغرافيا طريق مسدود، والوادي هو نهاية الطريق المسدود. وعلى بعد مسافة إلى الجنوب تقع نجران التي تشكل بداية اليمن التاريخية، وهي بلاد ذات توجه كوزموبوليتي أكثر حيث تعايش المسلمون الشيعة والسنة واليهود دائماً بجانب بعضهم البعض، وحيث أفق السكان يمتد أبعد باتجاه أفريقيا والهند. إذاً، بالمفردات الثقافية، يكون الوادي أعمق نقطة في الجنوب العميق: ليس من مكان يبدو الأفقُ فيه أقرب منه هنا. الجلافة هناك مركَّزة كبول البعير، واللاتسامح مع الرأي الآخر لا يخفف من غلوائه أي تأثير باتجاه الاعتدال. الغرباء لم يكونوا ذات يوم موضع ترحيب بحق في الوادي. وفي المقابل، فإن الرحّالة الغربيين، بعد إشباع فضولهم على جناح السرعة، كانوا دائماً يتنفسون الصعداء للنفاذ بجلودهم من تعصب السكان الأعمى. وهم على أية حال لم يكونوا يبقون فترة طويلة بما فيه الكفاية ليكتشفوا أن الوادي هو أيضاً موطن البعض من أكبر شعراء الجزيرة العربية.

كان هاري سانت جون فيلبي واحداً من أوائل الأوروبيين الذين وطأت أقدامهم هذه الأرض. ففي عام 1918، انطلق فيلبي بموافقة الملك عبد العزيز ومرافقة مفرزة مسلحة من الرياض، عبر منفذ في جروف طويق، وسرعان ما وجد نفسه في موقف معهود: قريتان من الدواسر تتنافسان في التعصب الديني بدافع الحسد والكراهية المحض بينهما. القرية الأولى أعدّت لاستقبال فيلبي، ولكن القرية الأخرى، التي لا تبعد إلا مرمى حجر، سارعت إلى اتهام جارتها بتدنيس الوادي بقبول كافر بين ظهرانيها.

وكلما توغل فيلبي بعيداً في عمق الوادي تعاظمت المقاومة ضد «الكافر». وفي عاصمة اللدام ـ «التي يبدو أنها بؤرة للتعصب والقلاقل»، كما كتب فيلبي في تقريره إلى المكتب العربي ـ البريطاني في القاهرة ـ بدأت حشود تتجمع لدى وصول أول أنباء الرحّالة التي سبقته إلى القرية. ولكن حاكم المنطقة لم يكن لديه خيار سوى طاعة أوامر الملك. وحين اقترب فيلبي وقافلته من البلدة رأيا من بعيد أن السكان تجمعوا على الأسطح لمشاهدة دخول «الكافر». وعلى مرأى من المتفرجين وجد راكبو الإبل أنفسهم بطريق الخطأ داخل مقبرة مهجورة يدوسون على شواهد القبور عبر الأرض المحروثة، وخرجوا من الطرف المقابل لأسوار البلدة. و«لمدة خمس دقائق ـ خمس دقائق من أشد التوترات التي عرفتُها حدةً ـ سرنا بصمت متجهم على امتداد السور الجنوبي تحت أنظار الحشود الغاضبة مدركين أن صرخة متعصب واحد أو طلقة مجنون يمكن أن تفجر أزمة سنكون بلا حول ولا قوة في مواجهتها، لأننا، والحال هذه، كنا تحت رحمة كل سطح من الأسطح».

ولكن فيلبي وصل قصر الحاكم المبني من الطين من دون حادث.

بعد ستة عشر عاماً، عام 1932، مر فيلبي ثانية بقرية اللدام بعد إكمال رحلته الكبرى عبر الربع الخالي. وكان سمى نفسه عبد الله فيلبي بعد أن استقر بصورة دائمة في العربية السعودية واعتنق الإسلام. ولكن هذه المرة أيضاً كان الاستقبال أقرب إلى الفتور. القاضي الإسلامي الذي هرب عام 1918 إلى الصحراء لكيلا تكون له صلة بتدنيس فيلبي للوادي، كان حاضراً في مجلس الحاكم. وكان صمت القاضي المطبق يتكلم مجلدات، وعندما ضاق ذرعاً نهض في إشارة إلى جميع الضيوف الآخرين بالمغادرة.

الزائر التالي للوادي، على مضض، كان ويلفريد ثيسيغر. ففي عام 1948 انطلق من المحمية البريطانية على ساحل الجنوب العربي مخترقاً الربع الخالي. وما إن وصل إلى الرف الآخر من الصحراء حتى اضطر إلى التمون مجدداً في الوادي. واستباقاً لأوامر الملك قام أهل القرية باعتقال ثيسيغر واقتياده أسيراً عبر شوارعها.

كتب ثيسيغر عن تجربته، «الجميع (...) كان متعصباً وبغيضاً. كبار السن كانوا يبصقون على الأرض لدى مرورنا، والأطفال كانوا يتبعونني هاتفين باحتقار «النصراني»، «النصراني»، الاسم الذي يُعرَف به المسيحي عند هؤلاء العرب، «والآن سيقطع الملك رأس المسيحي ورؤوس مرافقيه». شرح الأمير أن الملك منح الدواسر إذناً للقيام بغزوات انتقاماً من غارات النهب التي تشنها القبائل الأخرى في جنوب الربع الخالي. ولو صادف ثيسيغر مجموعة من هؤلاء الدواسر في الصحراء فإن «أي واحد منهم كان سيقتلك في الحال، ولا شيء يمكن أن ينقذك إذا وجدوا أن أحدكم مسيحي. فهذه القبائل هي آخر مَنْ تبقّى من «الإخوان». وحتى في هذه القرية، حيث هم تحت المراقبة، تستطيع أن ترى مدى كراهيتهم لك بوصفك كافراً». نظر إلي، هز رأسه وقال مرة أخرى، «والله أنت محظوظ»».

في ليلى؛ وهي واحة غالبية سكانها من الدواسر تقع في منتصف الطريق بين الرياض والوادي، استُقبل ثيسيغر وأدلاؤه مرة أخرى باللعنات والكز على الأسنان والبصاق. وأعلن أهل القرية بالفم الملآن عن أمنيتهم في أن يموت مع مرافقيه من العطش في الصحراء. أصحاب المتاجر رفضوا أخذ نقودهم إلا بعد غسلها أولاً أمام الملأ. وفي ساعة الصلاة حين يكون باقي الرجال في المسجد كانت أسراب من الصبيان الساخرين تطوق ثيسيغر. وقد أنقذه من هذه الورطة فيلبي الذي أقنع الملك بغض الطرف عن انتهاك ثيسيغر الوقح للسيادة السعودية هذه المرة. وشرح فيلبي لزميله الأصغر سناً أن تعصب «الإخوان» بقي في ليلى والوادي بعد سقوطهم كدولة سياسية وعسكرية داخل دولة. وتساءل فيلبي في معرض تعليله، إن لم يكن الثبات الذي يبديه هؤلاء المتعصبون للعقيدة في التمسك بمبادئهم، الضمانة الأفضل لبقاء الصفات التي كانت موضع إعجابه وإعجاب ثيسيغر عند العرب في قلة من المناطق النائية.

كانت تلك محاجة لاقت هوى عند ثيسيغر. واستشف فيلبي بفطرته أن لدى ثيسيغر المعروف بعدائه المعلن للسيارة وغيرها من الاختراعات الغربية، ما يشترك به مع الوهابيين المتزمتين أكثر مما كان هو نفسه يظن. وكان من الجائز أن يدعم ثيسيغر بكل قلبه المطالب التي قدمها شيوخ قبائل مطير وبرقا المتمردون من قادة ثورة «الإخوان»، إلى عبد العزيز، وهي «منع السيارات والتلغراف والراديو والهاتف وكل مخترعات المسيحيين وإبليس الأخرى منعاً باتاً!».

أرض وقرض

رمال الجزيرة العربية Arabian Sands هو آخر كتاب من كتب الرحلات يأتي فيه ذكر الوادي. وربما لم يحدث تغير يُذكر في السنوات العشرين الأولى بعد إقامة ثيسيغر بين الدواسر. بعد ذلك جاء ما يُعرف في العربية السعودية بـ«الطفرة»؛ أو موجة الازدهار الذي عمَّ البلاد نتيجة ارتفاع أسعار النفط. وما وصل الوادي لم يكن أكثر من غدير شحيح بالمقارنة مع الموارد المالية الضخمة التي تدفقت على العاصمة والقصيم وجدة، ولكنه كان مع ذلك كافياً لتغيير الوادي تغييراً جذرياً. فالعداوات والأحقاد القديمة بين القرى والقبائل والعشائر تحولت إلى ضغط شديد على خزائن الدولة المترعة. وكلما كانت القبيلة كبيرة وقوية كان نصيبها أكبر من المال العام. وكلمة السر في هذه السياسة هي «أرض وقرض» تمنحهما الحكومة.

ن حيث المبدأ، فإن لكل سعودي الحق في قطعة أرض ونصف مليون ري-ال (وقت الطفرة النفطية كانت تعادل 200 ألف دولار) لإقامة مزرعة، وأشكالاً شتى من الدعم لشراء آلات وأسمدة كيمياوية وبذور وغيرها. وبسعر سوق قدره 80 سنتاً للكيلو وشمس وماء مضمونين، فإن فشل المحصول لم يكن وارداً إلا ما ندر. ولم يكن مطلوباً إلا سداد نصف القرض الممنوح بلا فائدة، خلال فترة تمتد إلى 25 عاماً. ومنحت الحكومة بالشروط نفسها قروضاً قدرها 300 ألف ري-ال لبناء فيلا. في تلك السنوات كانت العربية السعودية مكاناً مثالياً، والذين يطمحون إلى تحقيق ثراء فاحش، حقاً، وحدهم الذين كانوا يبذلون مجهوداً. ومهما يكن من أمر فإن الدنيا أقبلت على غالبية البدو الذين ملأوا قصورهم حديثة البناء بمكيفات الهواء والثلاجات وأجهزة التلفزيون، وفي الباحة الخلفية نصبوا خيمة سوداء يحتسون فيها شايهم وقهوتهم ويتبادلون الحكايات بعيداً عن المنغصات. وبهذه الطريقة جرى الحفاظ على الرومانسية من دون أن يعانوا شيئاً من شظف العيش في حياتهم السابقة.

هكذا كان الوضع في الشمال، مع شمر. ولكن الدواسر كانوا في نزاع بينهم على كل شيء. ومن وجهة النظر الاقتصادية، فإن هذا كان يوفر تربة خصبة لمنافسة دامية على مشاريع زراعية أكبر ومحاصيل زراعية مدعومة أبداً. وكل مَنْ لا يملك العلاقات المناسبة أو لا يحظى بدعم قبيلة مرهوبة الجانب، أو بكل بساطة لم تكن لديه الموهبة لخوض ما يلزم من صراع سياسي مرير، كان يخرج من السباق. وعلى سبيل المثال، فإن أكبر شعراء الدواسر؛ الدندان، دُفع إلى أطراف الوادي كأنه بعير خائر القوى يُسمح له بالتقاط قشات قليلة هنا وهناك، أما أقرانه فمتخمون، يتزاحمون في ما بينهم، يلتهمون كل شيء، من دون أن يتركوا شيئاً لأحد.

كانت هناك وفرة مالية ولكن الوادي كان يفتقر إلى العمل لتحويل سيل الذهب المتدفق من الرياض إلى إسمنت وحقول مروية. في الماضي كان العمل في بساتين النخيل يؤديه جيش من العبيد السود. ولكن هؤلاء العبيد أصبحوا في هذه الأثناء مواطنين سعوديين، وكانوا هم أيضاً يتلقون ما يكفي من المال لينظروا إلى العمل الشاق على أنه لم يعد يليق بمقامهم. لذا استُقدمت أعداد كبيرة من العمال والتقنيين من مناطق أخرى من العالم العربي، وكان بمقدور الانتعاش أن يبدأ. وتنامت قرى الواحات معاً إلى شريط واحد غير منتظم من العمران، وامتدت مساحة الأرض المزروعة أكثر من مئة كيلومتر في الصحراء الغربية، بعيداً عن آخر أشجار النخيل. إلاّ أنه على الجانب الشمالي وحده بقي كل شيء كما كان في السابق. خضرة النخيل الخشنة ما زالت تتغير بصورة مفاجئة إلى صفرة كثبان الرمل، وبعيداً تنداح المنطقة الصحراوية للدواسر البدو ـ الهضب التي تقيم على حدودها قبائل عتيبة وقحطان وسبيع ـ .

بعدما بقي الوادي مغلقاً بإحكام على امتداد قرون بقرار من سكانه، اجتاحه فجأة سيل من الغرباء. ولكن هذا لم يعنِ أن الحقد الدفين على العالم الخارجي سيخلي الطريق لنظرة أوسع أفقاً. بل على العكس، فتحْتَ مَشاهد الشوارع الشبيهة بعمران بابل بقيت الروح القبلية حية بعناد وشراسة. والعمال الآسيويون في مناطقهم البائسة أُبقوا بلا رحمة تحت طائلة الرقابة الإسلامية للشرطة الدينية. والمدرِّسون المصريون والسوريون الذين يُسمح لهم باستقدام عائلاتهم معهم، يُجنَّدون من الأوساط المتعاطفة مع «الإخوان المسلمين». ولا تظهر زوجاتهم في الشارع إلا محجبات وبرفقة أقارب من الرجال.

الغربيون يحتلون موقعاً استثنائياً بين العمال الضيوف في العربية السعودية. وعلى سبيل المثال، لم يُعدم أميركي أو أوروبي في حين أن رؤوساً عربية وأفريقية وآسيوية تتدحرج بانتظام في الساحات العامة السعودية. ولكن اقتصاد الوادي البدائي لا يحتاج، نوعاً ما، إلى خبراء ذوي كفاءات عالية، وبالتالي ظل الدواسر في غنى عن هذه الفئة الأخيرة من الوافدين. وكان ظهور النساء الغربيات على ندرته حدثاً ما زال حياً في ذاكرة الدواسر الجمعية.

في حوالى عام 1975 وصل فريق من الوافدين الغربيين لبناء طريق. وذات يوم دعا متعب بن قويد، وهو أحد أشقاء شيخ مشايخ الدواسر، أعضاء الفريق إلى مأدبة غداء عربية من لحم الضأن، لإعطائهم فكرة عن بعض العادات العربية السائدة في مجال الضيافة. وكان متعب أصبح خلال إقامته المديدة في جدة رجلاً عليماً بأمور الدنيا فبدت له فكرة لطيفة أن يدعو زوجات العاملين في بناء الطريق أيضاً. وبنظر أفراد قبيلته، كان هذا مثالاً لا يمكن تخيله في الابتداع. ورفضوا بالإجماع الجلوس مع نساء حول أطباق الوليمة وانزووا ساخطين في ركن من غرفة الطعام. وفي وقت لاحق من عصر ذلك اليوم كادت تندلع أعمال شغب حين قامت إحدى النساء برحلة إلى السوق. وإذ لاحقها جمع من شبان المدينة الذين كانوا ينظرون بأفواه فاغرة إلى هذا

الطيف السافر ذي العينين الشيطانيتين الزرقاوين كأنها شبح صحراوي فيما شيَّعها أصحاب المتاجر بالبصاق من دكاكينهم، فإن المرأة المنكودة لم تعرف كيف تعود من حيث أتت بأقصى سرعة ممكنة.

أصدقاء لي من عتيبة وقبائل أخرى هزوا رؤوسهم لدى سماعهم بمشاريعي. كانوا يخشون أن يتكون لديّ في عمق الصحراء انطباع خاطئ عن البدو. فبغية التعرف إلى النبل العربي الحقيقي والكرم العربي الشهير والشيم العربية الأخرى، عليّ أن أكون مع القبائل الكبيرة في قلب الجزيرة العربية وفي شمالها: عتيبة، مطير، شمر، عنزة. فهؤلاء هم البدو الحقيقيون! وأرجو ألاّ أكون أسأت فهم كلماتهم ولكن عليهم أن يقولوا بحق إن الدواسر ليسوا أقحاحاً. فالقبيلة شديدة الاختلاط بدماء غريبة ـ عبيد سود وعناصر مقتَلَعة من قبائل أخرى سُمح لها بالاستقرار هناك ـ بحيث ضاعت فيها القيم التقليدية الأصيلة. وإزاء إصراري على المضي قدماً بخطتي وجد الأصدقاء أنفسهم مرغمين على أن يقولوا بصراحة ما كان عليه الوضع: إن الدواسر شكوكيون ومناكدون وانعزاليون وغير موثوقين وغدارون.

لكن قراري كان نهائياً. وفي الرياض بلغني أن واحداً من أكبر شعراء البدو في الجزيرة العربية؛ الدندان، يجوب الصحراء حول الوادي. يضاف إلى ذلك أني قرأتُ في مكان ما أن الدواسر بدو وحضر في آن: في بعض المواسم كانوا يقودون قطعانهم عبر الهضب، وفي مواسم أخرى يعيشون في قرى طينية للعناية بنخيلهم. لقد توحد القطبان المتنافران اللذان سادا حياة الجزيرة العربية منذ غابر الزمان في قبيلة واحدة وأحياناً في فرد واحد: البدوي والقروي، روح الصحراء القبلية والإسلام؛ هذه هي الخيوط التي تحاك باستمرار فوق ومن خلال بعضها البعض في السجادة العربية. وإذا صحت الحكايات فستتاح لي فرصة أن أرى بنفسي كيف تضافرت هذه العناصر بتوتر أقصى في الدواسر. وبعد أربعين عاماً على مرور ثيسيغر، بدا لي أن الوقت قد حان لجسّ نبض الدواسر.

قصائد من أجل المال

بعدما عبرتُ صحراء الشاعر الجاهلي امرئ القيس بحثاً عن الكثيب الواقع بين الدَّخول وحومل، أوصلني قاسم والحراس المسلحون من مركز الشرطة الذي يعمل فيه إلى إمارة الخماسين التي هي اليوم عاصمة الوادي. وهناك وُضعتُ تحت حماية عبد الله؛ مفتش التعليم وراعي التراث الثقافي المحلي. وفي السنة التي سبقت وصولي كان عبد الله نشر في الرياض عمله المؤلَّف من جزأين واحة الشعر الشعبي ، وهو أنطولوجيا لقصائده وقصائد أفراد قبيلته الأميين في الغالب. وفي هذه المساهمة النادرة في حياة الدواسر الفنية اطّلعتُ لأول مرة على عمل الشاعر البدوي الكبير؛ الدندان.

برغم أن عبد الله يعتبر نفسه بدوياً فهو قروي في الأصل. لكنه في أيامه الأولى كان صياداً متحمساً وبات يعرف الصحراء معرفة معقولة. كان اختصاصه رمي الغزلان من سيارة جيمس متحركة. وفي الطريق كان يحتسي القهوة في الخيم لمغازلة الفتيات البدويات. كان هذا قبل أن تُطبَّق تعاليم القرآن عن خفض العين من باب التواضع والاحتشام، تطبيقاً حرفياً في الصحراء أيضاً. وعندما حل اليوم الذي قُتل فيه آخر غزال وأخفت فتيات الصحراء مفاتنهن وثيابهن الضيقة ذات الألوان الزاهية تحت عباءات سوداء، كان عبد الله قد انتهى من مجون الشباب.

عبد الله يسهر الآن على أخلاق التلاميذ. وفي إطار التعاون الدولي في هذا المجال قام قبل سنوات بزيارة عمل إلى باكستان ممثلاً لجمعية الدعوة الإسلامية. لم يكن رأيه بالغرب إيجابياً. فمن وقائع رحلة سياحية في أوروبا أخذته بالدرجة الرئيسية إلى ميدان بيغال، احتفظ في ذهنه بصورة من الانحطاط الكامل عن الغرب. وبوجودي كشاهد إثبات من الدرجة الأولى، كان يسرد في كل مجلس حكايات مرعبة عن شباب في الغرب يقضون أيامهم في المضاجعات الجنسية على مصاطب الحدائق العامة. وكان المستمعون كثيراً ما يطلبون حينذاك مزيداً من التفاصيل مثل حقيقة التقارير الصحافية عن عادة الهولنديين في القفز عراة بصورة جماعية في ماء البحر بمناسبة عيد رأس السنة.

كان عبد الله يعترف بأن الانحطاط الأخلاقي أخذ يحقق اختراقات في العربية السعودية أيضاً. وعلى سبيل المثال، أن بعض الآباء يبيحون للمخطوبَين أن يلتقيا تحت المراقبة وأن ينظر أحدهما إلى وجه الآخر قبل عقد القران. وكان عبد الله فخوراً بالارتباط بزوجته من دون أن يراها عملاً بالتقاليد العريقة. وكان يرى أن المهم ليس مظهر المرأة بل حَسَبها ونَسَبها. فالأصل هو الشيء الرئيسي لأن الطفل برأي السعوديين يرث شخصية خاله.

بنت عبد الله البكر في سن النضج ببلوغها العشرين، وهي تنتظر في غرفتها الرجل المناسب للزواج منه. حفظت القرآن عن ظهر قلب، ولم تخرج إلا محجَّبة بالكامل ولا تتفوه بكلمة احتجاج واحدة إذا قيل لها أن تفعل شيئاً ما. وبحسب عبد الله، فإن هذا يعني أن لديها كل ما تحتاج إليه المرأة لإسعاد الرجل. وكان ثري مناسب تقدم لطلب يدها ولكنه شوه سمعته بالزواج من سلسلة عذارى مصريات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة فاضاً بكاراتهن ليعيدهن بعد أسبوع إلى أهلهن ومعهن ورقة تقول إنهن طالقات. وهذه ليست تجارة رخيصة لأن النساء اللواتي يوفرهن وسطاء الزواج المصريون يكلفن بين ألفين وأربعة آلاف دولار لكل واحدة، تُدفع إلى أب الفتاة أو وليّ أمرها أو إلى الزوج إذا كانت متزوجة أصلاً. وهذا هو النوع الحديث من «زواج المتعة» القديم في الإسلام، وهو شكل شرعي من أشكال الدعارة شجبه في ما بعد الإسلام القويم. ولكن كل ما يهم مسلمي الوادي هو تلبية المتطلبات الشكلية. وكانت فرائص عبد الله ارتعشت رعباً بإعلاني أن للمرأة الأوروبية حق تطليق زوجها. «في هذه الحالة، كل رجال العربية السعودية سيكونون مطلَّقين غداً». من حسن الحظ ليس هناك خطر كهذا لأن الله في القرآن جعل الرجال قوامين على النساء.

عبد الله، مثله مثل غالبية الرجال السعوديين، اقترن بزوجة ثانية حين اقتربت الأولى من سن اليأس. وهو مثل كثير من السعوديين الآخرين استسلم لإغراءات العالم العربي الأوسع: هناك النساء أفتح بشرة وأحلى وأرخص. وقد استورد امرأة سورية من المنطقة المحيطة بقرية ملولة الآرامية. وهي بشهادته نفسه فلاحة غبية ذات وجنتين حمراوين. قلتُ مندهشاً، «لكنك تنتظر من ابنتك أن تحفظ القرآن عن ظهر قلب». شرح عبد الله بصبر أني أخلط بين شيئين. وعليَّ أن أفهم أن سوريا بلاد غارقة في الفساد. فالنساء يتجولن بحرية حاسرات الرأس. يضاف إلى ذلك أن سوريا متأثرة بانفلات جارها لبنان حيث يعيش الكثير من المسيحيين، وعلى مرمى حجر من دمشق أرض اليهود: وهي بؤرة للفساد الروحي تنفث في العالم العربي سمومها التي تضعف الإيمان. ولهذا السبب، من الأفضل أخذ إنسانة بسيطة من منطقة كسوريا وتربيتها هنا.

بدلاً من صيد الغزلان وغرامياته في الصحراء، وجد عبد الله رسالة أخرى كمؤرِّخ وداعية لثقافة الوادي. ولكنه ما لبث أن اكتشف أن الطريق محفوف بالعقبات والمنزلقات. فكل من يدَّعي التزامه بالصالح العام يكون على الفور موضع شك بين الدواسر. فهم يعرفون أن المصلحة الذاتية كثيراً ما تكون مقنَّعة بإعلانات طنانة ويفضلون أن يجدعوا أذناً على أن يمدوا يد العون لدوسري آخر. «القصائد يمكن أن تُشترى بثمن»؛ شعار كثيراً ما يُسمع في سائر أنحاء الجزيرة العربية. ويذهب الاعتقاد الشعبي السائد إلى أن جامعي أشعار ماهرين مثل عبد الله يبيعون كنزهم من الأبيات القديمة مقابل أسعار باهظة في مراكز المال والسلطان السعودية. وإن وجود أجنبي مثلي دليل على أنه حتى الدول المسيحية المقيتة ترسل الآن عملاء لاستغلال هذه السوق المربحة.

شكا لي عبد الله من أن عائلات عديدة في الوادي رفضت التعاون لأنها تعتقد أنه يمول بناء بيته الجديد بعائدات القصائد في حين أنه لم ير قرشاً واحداً حتى الآن من أنطولوجيا شعراء الدواسر التي قام بإعدادها. لذا كان ظهوري في الوادي أكثر من موضع ترحيب بالنسبة إلى عبد الله. وكان قد روج في الخارج أني في مهمة رسمية: ليكون على عاتق كل واحد واجب وطني في منحي فرصة الاطّلاع على كنزه من القصائد الشعرية. وكانت لدى عبد الله، بوصفه دليلي الرسمي، ذريعة لدخول بيت أي فرد من أفراد قبيلته في أعقابي. وكان أقل ما ينتظره مقابل خدماته من أجل الآخرين، أن أعطيه نسخة من الأشرطة بعد الانتهاء من جولاتنا. كان يريد جمع مطبوعه القادم منها لإقناع النخبة في العاصمة بالمساهمة التي يمكن أن يقدمها الجنوبيون المنسيون في النتاج الثقافي الوطني. لذا كانت مصالحنا تمضي متساوقة في ذلك الوقت.

وهكذا، توصلنا إلى تفاهم أخوي، على مقعد سيارة البك آب المضعضعة من طراز تويوتا التي وضعها أمير الوادي تحت تصرفي. وانطلقنا معاً مختضين على طرق الوادي الترابية إلى القرى التي توطنت فيها عشائر وقبائل مختلفة. وفي فيلاتها المبنية بناءً بدائياً من الإسمنت، كانت تداري تحاملاتها وإحساسها بالحق في القصائد التي نقلتها اليها أجيال فاضلة من قبلها. «صلب جدي»، كما يقول البدو عن أنفسهم لأنهم يعتقدون أن البذرة التي تأتي منها الذرية محفوظة في صلب الرجل.

مسيحي كافر!

من أول ناقلي الشعر التقليدي الذين وقعت أنظارنا عليهم، الشيخ ابن هدلا، وكان ينتمي إلى قبيلة عبد الله نفسه ـ قبيلة الرجبان ـ . وقد بدا البطريرك النحيل عجوزاً بما فيه الكفاية لأن يكون شهد دخول فيلبي عام 1918 عبر أسوار اللدام، أو له ضلع في التآمر على تحجيم هذا المتطفل الغربي درجة أو درجتين. كان ابن هدلا قاتل مع «الإخوان» المتعصبين. كان ذلك معروفاً لي، لكني كنتُ آمل في أن يكون مرور الزمن وتقدم الحضارة الغربية أوجدا قدراً أكبر من الانفتاح في الفكر الديني لـ «الإخوان».

توجهتُ، بآمال عريضة عقدتُها على الحكايات التي كنتُ موعوداً بها، مع عبد الله لحضور اجتماع جمع من أحفاد بطل الحرب. ولكن أول سؤال طرحه علي ابن هدلا كان، «ما هو دينك؟». «مسيحي»، أجبتُ من دون أن أكون صادقاً تماماً في إجابتي. «ليس هناك أخذ وعطاء مع الكفار»، تمتم الشيخ، والتزم ما تبقى من المساء صمتاً عنيداً.

«الرجبان ذائعو الصيت بفظاظتهم»؛ هكذا كتب فيلبي في تقريره إلى مسؤوليه في القاهرة، وبدا أن ابن هدلا عقد العزم على أن يُري «النصراني» الزائر أن حكم فيلبي ما زال صحيحاً. وحاول النخاع الجماعي لصلب ابن هدلا ـ قيل لي إن لديه أربعين ابناً من ثلاثين زوجة ـ أن يحمل البطريرك على تغيير موقفه بلا جدوى. وقد اعتذر أبناؤه لاحقاً قائلين، «إنه متيبس، وإن عقله تحول إلى حجر». وكان حكم عبد الله أنه «صار مخصياً».

لم يبق سوى متابعة الأخبار على التلفزيون حيث ظهرت الصور الأولى لاستقبال الملك سيلَ الزوار في بلاطه.

أخيراً، وصل النبأ الذي كان الجميع بانتظاره. فقد التقط المذيع ورقة وتلا بياناً جاء فيه أنه في إطار الجهود التي يبذلها خادم الحرمين الملك فهد بن عبد العزيز لإبقاء هذه الأرض الطاهرة بعيدة عن التلوث، نُفذ حكم الإعدام اليوم في الرياض بحق... وأعقب ذلك بقراءة السجل الإجرامي للمعدومين، مختتماً بالتأكيد أن الحكومة عازمة على مواصلة العمل بحزم ضد هذه الممارسات. كان الأشخاص الستة الذي قُطعت رؤوسهم، وهم ثلاثة من الشيابين وثلاثة من عشائر أخرى من عتيبة، ارتكبوا جرائم سطو مسلح. وأنزل القضاة الإسلاميون بهم حكم الإعدام على أساس نص في القرآن ضد من يعيثون في الأرض فساداً.

أبناء ابن هدلا والضيوف الآخرون نظروا إليَّ بفخر كأنهم يريدون القول: الآن تستطيع أن ترى بأم عينك بركات الدولة الإسلامية. وأنا بوصفي ممثلاً للغرب المتحلل، أستطيع أن أضع هذا المثال على العمل الحاسم والعدالة السريعة في غليوني وأدخّنه. أُغلِقَ جهازُ التلفزيون وبدأ نقاش حيوي. وفي ذلك الوقت على وجه التحديد، كان الناس شرعوا يتحدثون في كل مجلس عن هجوم نفذه بدو في وضح النهار على مصرف في مدينة إقليمية جنوب الرياض. ولقي عدد من الأشخاص مصرعهم في الهجوم. في غضون ذلك أُلقي القبض على الجناة، وكان المتوقع عموماً أن ينالوا أقصى عقوبة بقطع رؤوسهم. وإمعاناً في تعذيبهم سيُوثَقون إلى أعمدة ويُعمِل الجلاد سيفه في أجسامهم ذات اليمين وذات الشمال ليكونوا أمواتاً من جراء التعذيب قبل أن تُقطع رؤوسهم. انتهز عبد الله الفرصة ليدعو بصوت عال إلى إجراءات قاسية ونقل الإعدامات حية على شاشة التلفزيون. ويمكن للمرء أن يخلص من التصفيق إلى أن المشاعر الشعبية في الوادي كانت أكثر تشدداً بكثير من موقف الحكومة نفسها.

الحكومة قليلة الكلام عن الخراب الأخلاقي الذي ينزل بالبلاد. ولكن الشائعات، برغم ذلك، تسري كالنار في الهشيم من مجلس إلى آخر. وفي كل مكان قيل لي إن جرائم العنف ازدادت زيادة هائلة في العام السابق. فالثارات والنزاعات بين القبائل تِركة معروفة من الماضي، تستطيع السلطات أن تبقيها في نطاق السيطرة من دون صعوبة كبيرة. ولكن الفساد الجديد الذي يُنذر بخطر أكبر بكثير يتمثل في ظاهرة التحلل الاجتماعي بالارتباط مع سياسة التحديث السعودية: عمليات سطو مسلح يقوم بها بدو مهمَّشون وتعاطي المخدرات على نطاق متسع. وليس من المصادفة أن «النسيم» على وجه التحديد، وهي منطقة واسعة من مناطق الرياض توطَّن فيها بدو سابقون من سائر أنحاء البلاد، أصبحت تُعرف مؤخراً بأنها «شيكاغو الرياض».

في اليوم التالي، وصلت رسالة بأن قوى الأجيال الجديدة نجحت متضافرة في إقناع ابن هدلا بالتعاون. وتم الاتفاق على موعد جديد في بيت أحد الأبناء. وفي المجلس قال لي عبد الله إن رب البيت تزوج مؤخراً. وابن هدلا، بوصفه عضواً سابقاً في «الإخوان»، يتقاضى راتباً تقاعدياً سخياً من الحكومة ـ اعتراف بحقيقة أن هذه القوات الإسلامية الخاصة، برغم تجاوزاتها في ما بعد، فتحت المملكة للسعوديين ـ . وكما في كل مكان في الجزيرة العربية، فإن المال يأتي بعد المكانة، وليس العكس. والمكانة تنعكس في الزيجات التي تمارسها العشيرة. والمهر الذي يدفعه العريس أو والده لا يمتُّ بصلة إلى الحاجات المادية، ليس لدى الرأي العام على أقل تقدير، غير أنه يمتُّ بكل صلة إلى الموقع الاجتماعي الذي تنسبه العائلات لنفسها.

لكن الجشع يتستر ببراقع مختلفة. وقد همس عبد الله لي، أنه دفع 450 ألف ريال للبنت برغم أنها ليست على ذلك القدْر من الجمال ومن عائلة عادية جداً. ولكن الأم طالبت بهذا المبلغ! إن 100 ألف دولار مبلغ كبير، حتى في الوادي. ولكن بحسب ما يقوله عبد الله فإن 40 ألف دولار مهر اعتيادي

للزواج في أوساط المواطنين الأثرياء. وللأشخاص الذين لديهم مكانة يُعتَدُّ بها فإن عشرة آلاف دولار هي الحد الأدنى الذي لا يمكن النزول دونه بأي حال من الأحوال.

ابن هدلا كان في مكان ما من البيت ولكنه يرفض الظهور، كما قيل لي حين أبديتُ تأففي. سأل أخ آخر، «لماذا لا تعتنق الإسلام؟». كان سافر كثيراً في العالم، وفي كل مكان زاره وجد عجائب الخلق. «هل تعرف على سبيل المثال ما هي النجوم؟ إنها صعدت إلى السماء من انفجارات بركانية على الأرض. وكما يعلمنا القرآن، فهي ترجم الشياطين على الأرض. (كان يعني النيازك والشهب التي تضيء سماء الصحراء في الليل). وحين يريد الله أن يرجم شيطاناً على الأرض فإنه يترك نجماً يسقط عليه. انظر، ها هي تقف في السماء كأنها فناجين قهوة خزفية صغيرة! إن علامات الله هي في الحقيقة في كل مكان! خذ تلك القصة المعروفة عن رائد الفضاء الأميركي أرمسترونغ. حين مشى كأول رجل على سطح القمر سمع صوتاً لم يفهمه. في ما بعد كان يزور مصر وأدرك فجأة ما هو الصوت: كان صوت الأذان من مئذنة!».

نهضتُ متذرعاً بأن نوبة من حموضة المعدة تمنعني من حضور وليمة الضأن. رافقني الابن إلى الباب مودِّعاً إيايَ بالاحتجاجات. «هل لديك حقاً ألم في المعدة أم أنك غاضب لأن الشيخ مختف؟». قلتُ إني أكلتُ الكثير من لحم الضأن في الأيام القليلة الماضية، وإني حقاً أشعر بحال سيئة. «طيب»، قال بحبور، «إذاً أنا وعبد الله سنأتي لزيارتك ذات يوم في هولندا لاختيار عروس جديدة لنا!». وإذ انحنيتُ انحناءة مزدوجة تقريباً بالظهر والساقين معاً، أسرعتُ الخطى متوارياً في الظلام.

يوم الحساب

ألقيتُ، في مجلس عبد الله، بيتاً من قصيدة الدندان «عامرٍ تو الكلاب مورّدينه» عن متعة القيادة في سيارة جيمس، وهي سيارة البك آب من طراز «جي أم سي» التي حلت محل الجمل عند الكثير من البدو، وكانت «الكلاب قامت بتوريدها جديدة تماماً». لم يزعل أحد من ذلك. فإن الدندان لم يفعل أكثر من تسجيل واقع قائم. ذلك أن الكفار كدحوا وكدوا في معاملهم، والله برحمته الواسعة قضى بأن يجني مسلموه ثمار جهودهم. وعلى الكفار أن يفرحوا بأن يُعطَوا مقابل ذلك النفطَ الذي تفضل الله بخزنه تحت رمال المملكة بقيادتها السديدة.

لم يكن على المسلمين أن يقلقوا بشأن المستقبل إلا إذا ضلّ قادتهم طريق الإسلام. وحين تورط الزعيم المصري الثوري جمال عبد الناصر في حرب اليمن إبان الستينيات بهدف إضعاف المملكة العربية السعودية، دفع شعبه ثمن استكباره. فكانت هناك شحة كبيرة كما في زمن الفراعنة الظالمين، وقال عبد الناصر، ليس هناك خبز يكفي فحدِّدوا نسلكم. ولكن الشيخ كشك؛ الخطيب المصري الذي كانت مواعظه ذات شعبية واسعة في العربية السعودية أيضاً ويجري تداولها مسجَّلة على الأشرطة في كل مكان، سخر من ذلك قائلاً إن الله يرزق عباده المسلمين، وليس عبد الناصر!

سألتُ، «إذاً، هل أنا كلب أم وغد؟». أسعفني فلسطيني من غزة يعمل في مكتب عبد الله وقال بلهجة تصالحية، «في مصر، في فلسطين، في سوريا، تتعايش جميع الأديان بسلام في ظل الاحترام المتبادل». ولكن عبد الله حمل عليه وعليّ. وقال، «الدندان مصيب بالطبع، ولكننا في الوادي مستعدون للعمل معك بصفتك كائناً بشرياً».

اعترف أحد نسباء عبد الله بأنه كان يقع أحياناً تحت إغراء الكفار. وقد استمع من إذاعة «مونتي كارلو» بالعربية إلى عالم دين مسيحي يجادل بأن من الأفضل تنظيف إناء الطبخ من الداخل ثم من الخارج. وهذ الجمع بين الإشارات العملية والمعاني الأعمق استهواه على نحو لا يُنكَر. ولكنه كان يخشى أن يكون الاستماع إلى هذه النتف من الحكمة من فم مسيحي، خطيئة عند الله، وسيكون عليه أن يدفع جزاء ذلك في الآخرة عذاباً أليماً. فإن الأصوات القادمة عبر الأثير لا تخلو من الخطر، وكان هناك اتفاق عام على ذلك.

قال آخر بحماسة، «إن المسيحية ليست إلا تشويها وتزويراً للحقيقة». كيف يمكن للإسلام والمسيحية أن يتعاملا مع أحدهما الآخر على قدم المساواة؟ فالمسلم يبني رصيداً لدى المصرفي العظيم في السماء، وهو ادّخار بفائدة عالية يستطيع أن يدفع به رسم الدخول إلى الجنة. المسيحي، من الجهة الأخرى، يقف هناك صِفر اليدين في يوم الحساب. كان يعرف من خبرته الشخصية ما يقول لأنه زار لندن ذات مرة واكتشف هناك إفلاس جميع القيم الإنسانية. فالكبار يهملون آباءهم في شيخوختهم، والصغار ينشأون بلا رقابة ويفعلون ما يحلو لهم. الانحطاط والتحلل الأخلاقي؛ هذا هو الواقع الدينوني لمجتمع أخرج حتى المرأة من البيت لكي تعمل، مجتمع لم يعد فيه مكان ووقت للأُلفة والتربية بحقائق الوحي المنزلة والعناية بالقريب المحتاج. الظلام والجهل والبؤس الروحي هي السائدة هناك.

أصر عبد الله، «الآن، قل لي بصدق، هل صحيح أن الرجل والمرأة في بلادكم يلتقيان على انفراد من دون زواج ومن دون حضور الوالدين أو ولي الأمر؟». كان سؤالي المقابل هو: أليست العلاقة السليمة من دون زواج أفضل من تعدد الزوجات والطلاقات الكثيرة في الوادي؟. رفض عبد الله ذلك. فإن ما قضى به الله وحده الفصل في ذلك، والإسلام الحق لا يبيح للمرأة أن تراها عين غريبة. «عندنا يجري الالتزام بهذا التزاماً صارماً. وعلى سبيل المثال، حين تنتهي من الوضوء لأداء الصلاة، وإن لمست في طريقك إلى المسجد، بطريق الصدفة، يد امرأة، فعليك أن تعيد الوضوء مجدداً. حتى النظرة التي تتواصل وتقع على اليد أو أي جزء من جسم المرأة تُبطل الوضوء».

قلتُ في معرض الرد، «في الحجاز لم يعترض أحد حين كانت النساء الأكبر سناً يأتين لحضور المجلس برغم وجودي هناك». «تحلُّل، ليس الإسلام الحق»، قال عبد الله باستهجان. وبحسب عبد الله، فإن اختلاط الجنسين يفتح باب الفتنة والفوضى والانحطاط الأخلاقي، التي عمّت حين أُثيرت الفتنة بين المسلمين وأخذ المؤمنون يقتتلون بينما وقف «الكفار» يتفرجون ويضحكون.

قال آخر، «تعال معنا إلى المسجد للصلاة بعد قليل. كن مثل العمال الفيليبينيين والتايلانديين الذين يهتدون جميعاً! سترى أي راحة تشعر بها في ما بعد، وأي عبء أُزيح عن كاهلك. وحين تذهب إلى القاضي لتسجيل هدايتك سندعو كل الوادي إلى وليمة ونخدمك «بعيوننا». اهتمامك بالأدب الشعبي واللغة العربية رائع، ولكن أي فائدة تجنيها من ذلك مقارنة بالإسلام؟ ألا تخاف نار جهنم الحامية؟ خفِ اللهَ يا أخ!».

أجبتُ قائلاً، «إن شاء الله سأفعل ما بوسعي». شيخ من أعمام عبد الله ضرب عصاه بالارض متأففاً، وقال، «إنك جمعت الكثير من قصائدنا. والآن لا أريد منك إلا كلمة واحدة: لا إله إلا الله». أعربتُ عن الأمل في أن يلقى جميع الأخيار، مؤمنين وغير مؤمنين، جزاءهم العادل. أما الباقي فقد شعرتُ بأن علينا بكل بساطة أن ننتظر ونرى ما يحدث بعد الموت. «ستُلقى في النار»؛ كان الحاضرون يعلمون ذلك علم اليقين.

قلت، «طيب، عليكم أن تعرفوا أن الناس عندنا ليس لديهم أي إيمان بالقرآن، وأن الكثير من المسيحيين يتوقعون بالقدْر نفسه من اليقين أن مسلمين سيحترقون في نار جهنم»؛ كان ذلك قنبلة حقيقية. «استغفرِ الله! هل تسمع ما يتجرأ هذه المسيحي على الادعاء به؟». نظروا إلى بعضهم البعض. عم عبد الله العجوز نظر إليّ بصمت ولسان حاله يقول: «ستدفع ثمن ذلك يا صاحبي، فإن الله يعدك بعذاب شديد». لقد شُطب عليّ بالكامل.

مراتب وطبقات

ذات مساء، التقيتُ في بيت مترك؛ وهو ابن عمومة انتقل الشاعر الدندان للعيش معه، بشاب من أفراد العائلة يعمل في البلدية المسؤولة عن تنظيف الشوارع من بين أشياء أخرى. أعطاني نصيحة مخلصة بأن أعتنق الإسلام. من جهتي، سألتُ لماذا كان تنظيف الشوارع بهذا المستوى المتدني برغم اليافطات التي كُتب عليها «النظافة من الإيمان»، وورعِ مسؤولي البلدية. كيف يمكن تفسير الحقيقة الماثلة في أن هناك من الأماكن التي تُرمى فيها الأزبال كيفما اتفق بقدْر ما هناك من المساجد؟ ولماذا يوجد أكبر تل من الروث وجبال من النفايات ذات الرائحة الكريهة والتي يغطيها الذباب، تحت حائط المستشفى وعلى بعد شارعين من البلدية؟ أو أن السكان الوحيدين الذين يولون مظهرهم قدْراً من الاهتمام هم العمال الوافدون الفيليبينيون؟.

الموظف الصغير لم يشأ الطعن في صحة ملاحظاتي. فبادئ ذي بدء هناك مقاومة عنيدة بين سكان الوادي ضد التقدم. علاوة على ذلك، لا بد من الاعتراف بأنه إخفاق في السياسة. فإن مدير البلدية السابق عُزل بعدما آل مشروع مبدع إلى فشل ذريع. أراد المدير تجميل المدينة بوضع أعمال فنية مصنوعة من الجص على كل مفترق: أعمدة من الطراز اليوناني ـ الروماني تعلو حوالى متر ويحيط بها سياج من الجص المزخرف في قمته بمثلث معماري. ساد سلطان الخيال فترة قصيرة، ولكن المشروع انتهى الآن إلى كِسَرٍ من الأنقاض. فلقد سقطت الأعمدة وتهشمت مثلها مثل العديد من التماثيل، بعدما سحقتها معاول العابرين الإسلاميين الذين استبد بهم الغضب. هل كان غريباً أن يرتاب السكان المحليون بأن البلدية لم توجد إلا للسخرية من عقولهم الراجحة؟

كانت البلدية تثبت وجودها بانتظام في الشوارع المحيطة بمكتب الأمير. وهناك رأيتُ ذات مرة حافلة تتوقف وتنزل منها مجموعة من الصبيان كانوا جميعاً يرتدون سراويل جينز زرقاء من الطراز الفضفاض وقمصاناً بزرقة ماء المحيط، شعرهم مصفف أكمل تصفيف، وفي أحذيتهم الرياضية جوارب بيضاء. وبقيادة مصري ذي نظارتين يرتدي قميصاً لونه أوكر وسروالاً من اللون نفسه، انقضوا على النفايات بالمكانس والمجارف. كان المصري يسوق فريقه من المنظفين أمامه كراع بالرغم منه. «يا الله، يا الله»، هتف بهم. وبين حين وآخر كان يرفع ذراعه ويبسط راحته في تلك الحركة من العجز والجزع التي يلجأ اليها المصريون حين يريدون إلقاء المسؤولية عن الخطأ على عاتق غيرهم. وظل يصرخ، «إيه ده»، «ما هذا الذي تفعلونه، أتسمون هذا عملاً؟». في هذه الأثناء كان تلاميذه يتوقفون عند كل قصاصة ورق أو علبة سجائر فارغة ليحاولوا رفعها بمجارفهم. وإذا سقطت القطعة المستهدَفة من المجرفة برغم مهارتهم في التوازن فإنهم يتركونها هناك ليجربوا قوتهم مع قصاصة الورق التالية. وهكذا كانوا يتحركون ببطء هابطين على الطريق المنحدر بينما كان إشراف ناظرهم المصري يتناقص شيئاً فشيئاً.

كشفت الاستفسارات أن فريق التنظيف لم يكن من العمال الوافدين كما افترضتُ، بل من تلاميذ مدرسة للتأهيل المهني. وكان الصبيان يتلقون درساً عملياً في خدمة المجتمع. فالبدو حيثما أمكنهم يتجنبون العمل اليدوي. وهم تقليدياً، يتركون هذا النوع من العمل لـ «الصلب» والحضر. لذا، يكون تلاميذ المدارس المهنية من أبناء الفئة الثانية في الغالب.

*

ولكن، بما أن غالبية البدو استعاضوا عن خيمهم بفيلات، فإن تغيراً غير محسوس طرأ على انقسام العالم إلى بدو وحضر. واليوم يسمي جميع السعوديين أنفسهم «بدواً» إذا كانوا قادرين على التباهي بشجرة عائلة أصيلة من نَسَب يعود إلى إحدى القبائل أو العشائر المعروفة والمعترف بها من البدو الآخرين. وجميع الدواسر الذين ينتمون إلى عائلات أصيلة يسمون أنفسهم بدواً. وحتى الدواسر الذين عاش أجدادهم قروناً في قرى بين أشجار النخيل ولم يشدوا الرحال قط عبر الصحراء على ظهور الجمال، يعتبرون أنفسهم بدواً. وهم بذلك يريدون أن يشيروا إلى أنهم مواطنون من الدرجة الأولى، وبالتالي من حقهم أن يكونوا مشمولين بالاحترام والامتيازات التي تتمتع بها هذه الطبقة.

كلمة الحضري لم تعد تُستخدم بمعنى القروي. وأصبحت كلمة «الحضر» اسماً جماعياً للعمال اليدويين والسعوديين الآخرين الذين استقروا في الوادي لهذا السبب أو ذاك. ولم يكن هذا التوطن ممكناً إلا بموافقة وحماية شيخ أو عائلة تنتمي تقليدياً إلى النخبة المحلية، أي إلى الدواسر الذين يسمون أنفسهم الآن بدواً. وهؤلاء الوافدون الجدد لا يمكن أن يكونوا من البدو بالمعنى الدارج حالياً للكلمة: أياً يكن ما يقوله المهاجرون عن أصولهم فليس هناك أحد في الوادي يستطيع أن يؤكد ذلك بشهادته. يضاف إلى ذلك أن حقيقة لجوئهم إلى الدواسر ذاتها تثبت أن القادمين الجدد أحرقوا مراكبهم القبلية وراءهم، وأنهم الحطام الطافي على بحر الصحراء، وخاصة بعد هبوب عواصف عاتية ألقتهم على كثبان الوادي.

الحضر، بالطبع، يحاولون الإفلات من المكانة المتدنية التي فرضها البدو عليهم. لذا، فإن الحضري عادة لا يسمي نفسه حضرياً بل دوسرياً، مشيراً بذلك إلى أنه جزء من أسرة الدواسر الكبيرة. وإذا ألححتَ في السؤال عن فروع الدواسر الرئاسية والتابعة التي ينتمي إليها فسيجيب بأن المستويات

المختلفة لا تعني شيئاً تحت خيمة الدواسر التي يستظلّ بها الجميع. وتتعارض الأسئلة التي تُطرح في هذا الاتجاه مع جهود الدولة السعودية للحد من العصبية العشائرية والقبلية. فالفرد دوسري وسعودي وكفى الله المؤمنين شر القتال.

ولكن البدو لا يقتنعون بهذا التعبير عن الوطنية. وهم يؤمنون إيماناً راسخاً بأن الحَسَب والنَّسَب سيظهران في نهاية المطاف: نبلاء الصحراء يمكن تمييزهم فوراً عن الطبقات الأدنى بسلوكهم الأريستوقراطي وصفاتهم الفروسية.

في الوادي، بدأت آلة التسجيل التي أحملها معي تدور بسرعة أكبر مما ينبغي، وكنتُ أتردد كثيراً على ورشة صغيرة يتولى فيها فنيان فيليبينيان تصليح أجهزة التلفزيون وراديو الكاسيت المعطَّلة. وذات يوم اندفع صاحب الورشة، وهو رجل بغيض ذو لحية شاحبة، وأمر أحد العاملين بأن يجمع بلا إبطاء عدته ويذهب في مهمة إلى مزرعة سعودي آخر. «لا»، قال الفيليبيني بوجل، «إني أعمل هنا ولا أريد الذهاب».

«ماذا»، صرخ السعودي، ورفع ذراعيه على عامله في حركة يستخدمها البدو لهش الإبل، ثم بدأ يرشقه بقطع تلفزيونية. «حيوان، كيف تجرؤ على الرفض!». انكمش العامل، وكبقرة تعرف أنها تقاد إلى المجزرة وافق على شحنه في السيارة المنتظرة.

قال لي الفيليبيني الآخر إن زميله وافد جديد. وإنه نفسه كثيراً ما تخاصم مع رب عمله. وقال ببشاشة، إن رب عمله «يخاف من السفر بعد الآن إلى الفيليبين خشية أن أكلف قاتلاً مأجوراً بتصفيته».

عبد الله قدَّم على الفور تفسيراً جاهزاً لهذا المثال على استغلال السطوة: إنه التصرف المعهود من حضري. وبحسب عبد الله، فإن الحضر يختلفون اختلافاً أساسياً عن الدواسر الأقحاح. ولأنهم بلا جذور تنسبهم إلى عائلة أصيلة فإنهم بلا معايير ولا مبادئ أخلاقية. وأضاف من باب التوضيح، «إن الحضر هم نوى التمر الذي نبصقه».

ولكن الدواسر ما زالوا يدركون بعمق أن سمعة البدو المتفوقة على الحضر كانت حتى عهد قريب ترتبط بانقسامهم إلى بدو وقرويين. ويتبدى هذا بوضوح حين يسأل المرء عن صرخة الحرب «النخوة» التي تطلقها قبيلة الشخص. فالقروي في أصله، مثل عبد الله، شديد الافتخار بمكانته كفرد من طبقة البدو، حاول في البداية أن يتهرب من سؤالي. وأوضح أن جميع السعوديين يعيشون اليوم في أخوَّة ومساواة أمام الشريعة الإسلامية، وبالتالي فإن من العبث التذكير بصرخات الحرب وغيرها من رموز الانقسام القديم والفوضى السابقة. ولم يهز عبد الله كتفه ويبلغني بأن «النخوة» التي كانت قبيلته تتبعها هي «خيال الجنفا»، بوصفها الاسم الذي أطلقه أجداده على بساتين نخيلهم، إلا بعد إلحاح شديد مني.

كل من يدافع عن النخيل ينتمي إلى الحضر، أو الناس الذين يتجمعون خائفين في أكواخ من الطين داخل حدود قريتهم. إذ ليس من الوارد أن يضعوا أنفسهم في مصاف فرسان الصحراء على خيولهم وجمالهم، أو البدو الذين عيونهم كعين الصقر، لا يقف عائق بينهم وبين الأفق الرحب المفتوح. كان ذلك شيئاً فضَّل الحضري السابق عبد الله ألاّ يُذكَّر به وهو الذي انتمى حديثاً إلى طبقة البدو.

يأتي بعد الحضر في السلم الاجتماعي في الوادي، العبيد السود السابقون ـ الموالي ـ . وكانوا يضطلعون بالأعمال الشاقة في المزارع في حين كانت زوجاتهم يأخذن على عاتقهن العناية ببيوت العائلات الكبيرة. وكانت العبودية أُلغيت قبل أكثر من ثلاثين عاماً، ولكن العبيد السابقين ما زالوا يعتمدون في نواح عديدة على نفوذ أسيادهم السابقين ـ أعمامهم ـ . وفي الدرجة الأخيرة من السلم يأتي الخضارة أو الخلاسيون لأن السعوديين يضعون حتى في العبيد نقاء العرق قبل كل شيء آخر. هكذا، ينتظم الهرم الاجتماعي في الوادي. والبدو لا يخفون ذلك: يعلنون لكل من يريد أن يسمع أنهم يتبعون سياسة فصل ـ سياسة أبارتهيد ـ ولن يقيموا أبداً أواصر من خلال الزواج مع أعراق الوادي الأخرى.

العبيد المعتوقون يتقاضون اليوم أيضاً رواتب تقاعدية من الدولة، والأعمال الوضيعة يؤديها الوافدون. المتاجر والورشات الصغيرة على امتداد الشارع الرئيسي ـ سحابة كبيرة من سيارات البك آب التي تمر مخشخشة ـ تعج بجنسيات مختلفة: هنود وفيليبينيين وتايلانديين وبنغلاديشيين وباكستانيين ومصريين ويمنيين. وكنتُ كل صباح أجلس على قارعة الطريق مع السودانيين في مطعم الخرطوم وأتناول صحناً من الفول مع قرص من الخبز كان الخباز اليمني لِصق المطعم أخرجه للتو من الفرن بمبسطه الخشبي. كنتُ أشعر كأني مع أهلي بين البروليتاريا والمعذَّبين في الأرض. كان مرافقي المواظب هرّ مريض وعاجز يأتي ليستعطي لقمة أكل. كان الحيوان النحيل يدعك جسمه بساقيّ ويرفع رأسه أشعث الشعر متطلعاً نحوي وهو يموء بصوت خافت. لم يعد الهر يكترث حتى بطرد الذباب الطنان الذي كان يحوم حول السائل المنساب من طرفي عينيه العميتين اللتين أطبق عليهما جفونه.

كان زبائن المطعم يتألفون في الغالب من سودانيين يتبادلون أطراف الحديث بأدب، ولكن هذا الإيقاع الهادئ كان يعكره أحياناً دخول سعوديين من عابري السبيل. وذات يوم دخلت مجموعة يقودها شاب بدين. وعلى قدمين منتفختين مسطحتين في صندل يتدلى من طرف إبهامه، ولباسه الداخلي حول خصره الضخم المربوع مرئي من تحت ثوبه الأبيض الشفاف، جر قدميه متبختراً نحو إحدى الموائد. كان هناك صياح وطقطقة أصابع وبدأ السودانيون الهادئون عادة يتراكضون جيئة وذهاباً كأن حياتهم في خطر. وفي حين أن رفاقه انكبوا فوراً على الأكل محشين أفواههم بقبضات من الطعام ومالئين المطعم بتلمضاتهم عديمة الذوق، توجه البدين إلى عامل وافد كان جالساً بمفرده إلى مائدة قرب الباب وأخذ يحدق فيه طويلاً. ولكن الرجل لم ينجر إلى الاستفزاز. دس أنفه في صحنه ومضى يأكل بسرعة كأنه أرنب مذعور، من دون أن يجرؤ على أن يرفع عينيه. وفي لمح البصر أتى السعوديون على لحم الفراخ وحولوا المائدة إلى ساحة معركة تتناثر فيها حبات الرز وفتات الخبز والعظام. وتلى مزيد من الزعيق على السودانيين. ثم خرج الرجال

بخطى متثاقلة، أذرعهم وراءهم كأنهم طيور البطريق للحفاظ على توازن كروشهم بينما كانوا ينقلون عيدان تنظيف الأسنان في أفواههم من زاوية إلى أخرى ويتطلعون حولهم بنظرة قرف وملل.

يخاف العمال الوافدون ربَّ السعوديين بقدْر خوف السعوديين أنفسهم. كان الشارع كله يتوجه، خمس مرات في اليوم، إلى كوخ من كتل إسمنتية لِصق المخبز، يقوم مقام المسجد. وكان الإقبال كبيراً، حتى أن الذين يأتون متأخرين كانوا يقفون في صفوف طويلة على جانب الطريق. وكانوا على اختلاف جنسياتهم يركعون وراء الإمام باتجاه مكة موحَّدين للحظة تحت راية الأخوّة الإسلامية. كان الوافدون لا يجدون راحة حقيقية إلا في المساء. ففي تلك الساعة يتجمعون حول أجهزة التلفزيون على الرصيف أمام المطاعم والمقاهي. كانوا ينظرون مأخوذين بينما «هولْك» بشعره الأبيض الطويل لا يستره سوى لباس أسود صغير، يطرح العدو تلو الآخر أرضاً ويرقص على أجسادهم بجزمته ذات الخيوط. أي غريزة كانت تتوجه إليها هذه الأصوات الصادرة عن ارتطام لحم رجل بلحم رجل آخر؟

العمال الوافدون في الوادي ينقسمون أيضاً إلى مراتب وطبقات. ففي القعر الهنود غير الماهرين. ويكون التعاقد معهم بين 80 و 120 دولاراً في الشهر ولكنهم أحياناً لا يتقاضون أجورهم طوال شهور. الطاهي المصري أو البنّاء التركي يتقاضى ما بين 200 و 280 دولاراً والممرضون الفيليبينيون 400 دولار مع حرية ترك شقتهم المحروسة مرة في الأسبوع تحت إشراف سائق الحافلة للذهاب من أجل التسوق. الطبيب الذي فحص، بطلب مني، ساق الشاعر الدندان المشلولة يتقاضى 1200 دولار في الشهر، حوالى عشرة أضعاف ما كان سيتقاضاه في الهند. زميله المصري عليه أن يرضى براتب يقل مئة دولار عنه ولكنه يستطيع أن يعزي نفسه بالتفكير في أنه هنا أحسن حالاً عشرين مرة منه في بلاده.

المال ليس أكثر من لزقة على جرح الاغتراب. وفي عطلة الجمعة يصطف العمال الوافدون في طوابير طويلة أمام أحد أكشاك الهاتف البرتقالية الأربعة التي من خلالها تشفط مصلحة الهاتف السعودية جزءاً كبيراً من دخلهم عائدة به إلى خزينة الدولة. المصريون، بصفة خاصة، ينفعلون على الهاتف بحيث لا يتوقفون عن إطعامه بريالاتهم التي كسبوها بعرق جبينهم. نساء ملفعات بالسواد يحمن حول الكشك ويتناوبن على الهاتف لسماع صوت الست، أي الجدة، ويهتفن «الحمد لله، إزيكم». وينتهي الصراع بين الريالات وحنينهم إلى الواطن دائما بهزيمة ماحقة يُمنى بها الأخير.

الهوشة

عبد الله مصاب بالزكام. وفي الطريق إلى قرية المخاريم ظل يتمخط في طرف شماغه أو يدس يده في صندوق محارم الورق على لوحة أجهزة القياس. وكان يرمي خرقه المشبعة بالمخاط كأنها رقائق ثلجية على المقعد بين أقدامنا. نصحته بأن يستشير طبيباً. «كلا»، قال عبد الله بين نوبتي عطاس. وبتعبير عن السلبية المأساوية أضاف، «سأتحلى بالصبر إلى ما شاء الله».

حين وصلنا اتضح أن المخاريم جمعت كل شيوخ القرية في بيت واحد لأن القاعدة المتبعة في الثقافة المنقولة شفاهاً تقول إنه كلما كان المصدر أكبر سناً كان ذلك أفضل. وأُوحي لنا أن الوصلة الأهم في الجلسة ستكون من أداء أبي ذراع البالغ من العمر 150 عاماً. فلقد عاش ورأى كل شيء بنفسه. ولكن، للأسف، فإن معايشة شيء ونقله أمران مختلفان تماماً.

هتف أبناء الجيل الأصغر في أذن أبي ذراع أنه يستطيع أن يبدأ، وهي رسالة لم تسقط في بئر ذاكرته العميقة إلا بعد لأي. وقد بذل أبو ذراع مجهوداً ليجمع بقايا ذاكرته. ألقى عدداً من الأبيات بصوت مرتجف، تردد، بدأ من جديد ثم اختلطت عليه قصيدة بأخرى اختلاطاً لا خلاص منه. بدأ الآخرون يتدخلون، كل واحد يطلق تعليقات أو يقدم نسخته من القصيدة، وضاع الاتصال مع أبي ذراع ـ الذي كان صعباً بما فيه الكفاية على أية حال ـ في غمرة التوبيخات المتبادلة وزعيق الشيوخ المتخاصمين. أبو ذراع لم يعد يعرف متى يبدأ وأين يتوقف. مضى في الإلقاء فترة كحصان أعمى حتى القى رأسه على الوسادة وغط في نوم صاحب الشخير فاغراً فمه الهرم.

عبد الله شبك يديه على رأسه يائساً، وتأوه قائلاً، «هوشة، يا ربي كيف يمكن أن يتوقع أحد منا أن نستخلص أدباً من ذلك؟». الشيوخ كانوا منهمكين في جدالاتهم حتى أنهم لم يلاحظوا انسحابنا بهدوء مع شاعر أصغر عمراً إلى زاوية أخرى من المجلس.

كان اسمه بخيتان ويوزع وقته بين العمل في مكتب هيئة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وتجارته بالشعير وغيره من أعلاف الإبل. وكان قبل سنوات قليلة اشتهر في الوادي بلفتة كريمة أنقذ من خلالها حياة رجل من أفراد قبيلته. ففي ظروف لم تكن واضحة، ربما خلال العبث بالأسلحة، أطلق رجل القبيلة المذكور النار على نسيب له وأرداه قتيلاً. وقام أهل القتيل بتكبيل الجاني في الأصفاد وطالبوا بالثأر على أساس مبدأ العين بالعين والسن بالسن. وتقدمت عشيرة آل خوران القوية من ديرة نزوا بوسيط تمكن في النهاية من إقناع الأهل بالتنازل عن هذا الحق. ولتسهيل الأمور أضاف بخيتان «إكرامية» من جيبه ونظم قصيدة في مديح آل خوران: يا مسيّر بتروح سلّم على الخوران

سلّم عليهم عدّ ذارى هبايبها
على تركي وعرار ومحمد وهيصان
عليهم عموم صغار سنٍ وشايبها
وعلى محمدٍ وإثني سلاميٍ على بقيران
أهل الجموس اللى شكا الضيم راكبها
أهل فعولٍ ماضية من على الجدّان
أفعالهم تتعب قلم من بيكتبها

ثم يستعرض بخيتان مآثرهم ضد عتيبة وسبيع لينتهي بطلب من سائقي السيارتين من طراز «جي أم سي» اللتين تسمَّيان اختصاراً «جيمس» ـ صيغة حلت محل الاستهلال الكلاسيكي الذي يخاطب راكب الجمل ذي اللون الكذا والصفات الكذا ـ لإيصال القصيدة إلى من يخاطبهم: الله يعتق خبرةٍ اعتقوا فلحان

من النار لا شبّت سعاير لهايبها
عندي لهم بيضاً على عالية ما بان
أقولها وأبغي الإذاعة تذيع بها
تغنّى به الورقة على عالية الاغصان
ومندوب لا من جيت نزوى فغنّ بها

كان المخاريم يتنقلون دائماً بين حياة البداوة والإقامات الدورية في قراهم. وفي الصحراء كانوا يدافعون عن حدود الهضب ضد عتيبة وسبيع في الشتاء والربيع، وفي الصيف كانوا يستريحون في الوادي ويراقبون عمالهم اليوميين السود بانتظار محصول التمر في الشتاء.

إن المخاريم كانوا، عند الدواسر، بمعنى من المعاني، الفيلق الذي يرابط في مخافر المملكة الموحشة وجهاً لوجه مع البرابرة. ويُعرف الفصل الأخير من قصة المخاريم الملحمية بـ «معركة الظيرين». ففي عام 1981 اندلع نزاع مسلح عند البئر التي تحمل هذا الاسم مع عدوهم التقليدي؛ الشيابين ـ العشيرة العتيبية الجنوبية التي ينتمي اليها مقعد بن نوير، مالك الدَّخول ـ.

وكما في أحيان كثيرة، كانت جذور الحادث تكمن في الأحقاد ومشاعر الحسد المتبادلة بين الدواسر أنفسهم. وتعني كلمة الظيرين حرفياً ناقتين مدرَّبتين على رضاعة صغير ناقة ثالثة بعد موت صغيرهما فور ولادته (تتمثل أفضلية ذلك عند البدو في توفر حليب أكثر للاستهلاك البشري وعدم وجود فحول

أكثر من اللازم في القطيع). وأُطلق هذا الاسم على المكان لأن الظيرين تتألف من بئرين على كل جانب من الجبل كمربيتين ترضعان جملاً صغيراً وتدللانه بحليبهما. وكانت إحدى البئرين تعود إلى الرجبان، قبيلة عبد الله والدندان، والأخرى مُلك المخاريم.

قبل ما يربو على 40 عاماً خطرت لأمير الرجبان فكرة أن يعير بئره للشيابين نكاية بالمخاريم. ومرت 30 عاماً قبل أن تنفجر هذه القنبلة الموقوتة. وقد شعر الشيابين بأن الساعة أزفت للمطالبة بحق أمومة الجمل ذي السنام الكبير من دون منازع وتنحية الغريم جانباً. فحمل المخاريم أسلحتهم وسقط في المعركة التي أعقبت ذلك قتيل وعشرة جرحى من الطرفين. وسارعت السلطات في الرياض إلى التحرك. وكما يحدث عادة حين تتنازع قبيلتان على لقمة واحدة، طُمرت البئران بالرمل والحجارة.

الماء في الصحراء أثمن من الذهب، ولكن الشرف أثمن منه عند القبائل. ومثلما يبني المسلم رصيده عند الله حسب نظام الحسنات في الشريعة، كذلك يحفظ البدوي سجلاً بالخسائر التي يلحقها فريقه بالقبائل الأخرى. وهذا يسمى بلغة الصحراء «زود»؛ بمعنى القيمة المضافة، ولكنه يُستخدم تعبيراً عن الزهو والافتخار اللذين تتباهى بهما القبائل أمام بعضها البعض.

وكان الله أعلن من خلال رسوله أن تبختر القبائل في الصحراء عمل مشين. وبعد أكثر من الف عام كشف الله عن إرادته. وبرغم كل الجهود التي تبذلها الحكومة بحكمتها، ما زالت القبائل تتصرف وكأنها سادة الخليقة. في غضون ذلك توطن غالبية البدو قرب المآذن المرفوعة، وهم يلهجون نهاراً وليلاً بمُثُل الإسلام، ولكن ضغط «الزود» يرتفع في عروقهم مجدداً عند أبسط ذريعة. وتنطلق الهوشة، كمن يصب الزيت على النار.

وهكذا، يكون من الجائز أن الحادث التافه عند الظيرين تطور في خيال الدواسر، ولا سيما المخاريم، إلى حملة ذات أبعاد بطولية، ومأثرة في السلاح جديرة بأجدادهم. وبخيتان، برغم أنه يتقاضى راتبه من الشرطة الدينية، إلا أنه استبدت به الحماسة، حتى أن مخيلته تفتقت عن أنشودة حرب وثنية من نظمه. وبذلك الشعور اللذيذ الذي ينتاب المرء حين يعرف أنه يقوم بعمل مشاكس، شجعناه على أداء رقصته في الانتصار مرة أخرى: يومٍ على الظيرين مفطومه يشيب

من الصبح لين العصر حلّ وجابها
يوم المشوّك تصطلى ناره لهيب
اللى حضر منّا كفى غيّابها
لاد المنيعي هم عمى عين الحريب
معهم بلاجيكٍ تغرّى رقابها
تغرّيه من دمّ المعادي والطليب
ومن دمّهم يخضب عليها خضابها

وتُنسج القصيدة على هذا المنوال إلى حين. ويشمت بخيتان بالحزن الذي لا بد من أن يشعر به والد القتيل العتيبي. ويسخر من دهشة الأطباء في مستشفى مدينة بيشه حين يرون هذا العدد من الضحايا، ويتوقع أن الجرح الموجع في بطن رجل يدعى ابن جهز لن يلتئم أبداً. ومَنْ لا يتعلم فعليه أن يحس: «الهضب والله من على وقت النهيب[8]

تهابها الأصحاب هي واجنابها»

ولكن برغم تبجح بخيتان بالنصر فإنه أمين بما فيه الكفاية للتلميح إلى أن النصر لم يكن كاملاً. ويقول في أحد الأبيات إنه لو وصل جندرمة الأمير سلمان إلى المكان في الوقت المناسب لبقيت عتيبة هادئة. ولكن هناك المزيد مما يستحق الاحتفاء به: يا هيتينٍ بينهن وقتٍ قريب

سبوع للى عارفين حسابها
فعلٍ غريب وجا بعد علمٍ عجيب
حيّا العلوم الطيّبة حيّا بها

بعد هذا النفير يأتي تقرير الحملة الثانية مخيباً. فإن أحد رجال المخاريم أطلق النار على قاتل والده في مكان ما في الصحراء، وبعمله هذا نفذ ما كلفه والده به قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. عملية ثأرية مألوفة لكنها جديدة بما فيه الكفاية لتشكل جزءاً من «القيمة المضافة» في رصيد القبيلة.

بعد أسبوعين على الجلسة مع المخاريم كنتُ ماشياً في الشارع الرئيسي في الخماسين حين قُطع الطريق، ووجهت سيارات الشرطة بمكبرات الصوت حركة السير كلها إلى شوارع فرعية. بعد قليل دخل المدينة هادراً رتل طويل من الشاحنات العسكرية تليها سيارات جيب بمدافع رشاشة منصوبة في الحوض الخلفي على طريقة الميليشيات اللبنانية. وظهرت من جميع النوافذ مواسير البنادق والهامات المتوثبة للجنود وأفراد الجندرمة البدو الذين تستخدمهم الحكومة للحفاظ على النظام في الصحراء.

كانت بعض التعزيزات متمركزة في باحة الإمارة بينما انتشر البعض الآخر في الوادي وأقام حواجز ونقاط تفتيش على جميع المنافذ. معارفي من بين أفراد الجندرمة المحليين لم يقولوا الكثير ولكني خلصتُ من كلامهم المقتضب إلى أنه في وقت سابق من ذلك اليوم مزق بدوي من منطقة وادي تثليث المجاورة جسمَ قحطاني من فرع آخر بالرصاص في الشارع الرئيسي للوادي: ثأر. وبسبب خطر اندلاع مواجهة شاملة بين القبيلتين تحوطت الحكومة لجميع الاحتمالات. واحتُجِز شيوخ القبيلتين مؤقتاً كضيوف على السلطات. وزيادة في التحوط ضد أي أعمال متهورة استُقدمت تعزيزات كبيرة من القوة النارية لتشكيلات شبه عسكرية من مناطق أخرى.

خلال تلك الأسابيع، كانت الأنوار في مكتب الأمير تبقى مضاءة حتى ساعة متأخرة من الليل. لدى وصولي إلى الوادي كان الأمير، وهو عتيبي، قال لي بعبارة واحدة إن مشروعي يحظى باهتمامه الكبير وإن مواضيع دراستي تسبب له متاعب كثيرة. الآن رأيتُ ما كان يعنيه: إن المهمة الرئيسية لمسؤول الدولة في هذا الجزء الجامح من الجزيرة العربية، هو منع القبائل والعشائر المتنازعة أبداً من الاقتتال في ما بينها. وأنا ببراءتي الشعرية أو حماقتي، لم أراع بما فيه الكفاية الحقيقة الماثلة في أنه ربما كانت هناك أسباب عملية كثيرة لموقف السلطات المتحفظ من إطلاق القريحة الشعرية لدى البدو. فإن هذا لم يكن شعرا كهواية رقيقة يمارسها متذوقو الفكر بل كانت هذه القصائد البدوية الوقود السري الذي يُبقي نار المرجل القبلي مشتعلة.

8. قبل أن يضع عبد العزيز نهاية لغزوات البدو.

الكتاب الرابع

الدندان

أغنيات ما فتئت تجوب على جناح الريح
تنتقل من فم إلى فم
من الأب إلى الابن
يان ياكوب سلاورهوف، النهاية

كسّار العظام

اتفقنا على اللقاء وقت صلاة العصر تقريباً. وعند صوامع الحبوب على الطريق إلى أبها واليمن انحرفتُ يميناً باتجاه كثبان الرمل. على بعد مسافة من الطريق كانت تقف شاحنة المرسيدس مع خزان الماء والخيمة ومئة من الجمال الداكنة يملكها عطران؛ أنجح مربي الإبل في قبيلة الدواسر. وهناك، وسط الحقل حيث كانت الدواب تأكل التبن المتبقي بعد الحصاد، وجدتُ الرجل الذي سافرتُ من أجله حوالى ألف كيلومتر جنوباً من الرياض: الدندان، وهو واحد من آخر الحلقات في سلسلة الشعراء الأميين الجوالين المهدَّدين الآن بالانقراض، بعدما غنوا للحياة في الصحراء منذ 1500 سنة أو أكثر.

كنتُ سمعتُ اسم الدندان أول مرة في الرياض. وقد أسمعني جامع تسجيلات للشعر البدوي شريط كاسيت أُنشدت فيه مجموعتان من الدواسر أبياتاً متبادلة من الـ «الرزف»، أو شعر الحرب. وحتى من دون فهم اللهجة المحلية، كان واضحاً وضوح الشمس أن الدواسر المسجلين على الشريط كانوا يلطمون الصدور بحرقة ويُقْسمون بكلاشينكوفاتهم ألاّ يتنازلوا أبداً عن شبر من أرضهم.

تبدأ القصيدة على النحو الآتي:

يا الله يالّي تكسر العظم وان شاء جبر
طالبينك طلبةٍ ما يغلّق بابها
طلبةٍ ترجع غصونَ الهشيم من الشجر
ما تجي رحمةً من الماء إلا بها
هاض ما بي هرجةٍ واسمعوا يا من حضر
هرجةٍ منها العذارى رمت باسلابها
قلتْ أنا إخلص يا ردي النصيب ولا إعتبر
حجةٍ لا رحم إبوها وإبو من جابها
ترسخ الجزلا على السيف والماو الحمر
والمحبّب والمصبّب رقيق ثيابها

في ما بعد، سمعتُ القصة الحقيقية من الدندان نفسه. فقبل أربعة عشر عاماً تعرضت مجموعة من الدواسر، بينها الدندان، لهجوم عند بئر القيعة شنه، في ساعات الصباح الأولى، رجال الفرع الجنوبي لقبيلة قحطان، الذين كانوا يعيشون في وادي تثليث المجاور. وأسفر تبادل إطلاق النار بالمدافع الرشاشة عن سقوط قتيلين عند البئر. لم تكن المواجهة بحد ذاتها حدثاً هز العالم. اللافت أكثر كان العواطف التي ألهبها لدى القبيلتين. فإن شيخ الدواسر ابن قويد لم يتردد لحظة واحدة. وما إن وصلت الأنباء منطقة الوادي حتى أرسل إلى البئر سيارتي بك آب من طراز «جي أم سي» مسلحتين تسليحاً ثقيلاً. عبد الله؛ ابن قبيلة الدندان وجامع التراث الثقافي المحلي، نظم على الفور قصيدة ظافرة من 130 بيتاً صارت لاحقاً تُلقى في الكثير من مجالس البيوت.

كان رد فعل الحكومة كالمعتاد: فقد طُمرت البئر التي تقاتلت عليها القبيلتان. وقبل أن تتفجر المشاعر وتلتهب الروح النزقة في سعير التحريض الشعري، فرضت الحكومة منعاً شاملاً على الشعر: كل من يُضبط وهو يلقي قصيدة «رزف» كان يوضع فوراً وراء القضبان.

منذ المنع الذي فُرض على الشعر صمت عبد الله صمْتَ القبور بشأن قصيدته الملحمية. فالمصالح المهدَّدة بالخطر كانت كبيرة جداً، منها النجاح الذي يتمتع به على أعمدة صحيفة الرياض التي تصدر في العاصمة. ومن خلال الكتابة فيها بوصفه شخصاً من الأطراف متحمساً لترك بصمته، كان يحاول أن يلفت انتباه نخبة المثقفين في الرياض. ووقت وقوع الحادث أقام الدليل على وطنية قبيلته. وبعد ذلك ظهر مواطناً مسؤولاً بالتزامه جانب الصمت. وبهذه الطريقة بقيت صفحته ناصعة في الوادي والعاصمة.

الدندان، من الجهة الأخرى، لم يكن لديه ما يخسره باستثناء جماله الأربعة والعشرين وسمعته الشعرية. وإذ كان أعزب وبلا أطفال، أمياً وجاهلاً أيَّ شيء وراء أفق الرقعة التي تقيم فيها القبيلة، فقيراً مدقعاً بلا أي طموح، فإنه ظل على الدوام بوهيمياً في الصحراء. في القيعة كان الدندان على خط النار. حمل رشاشه وأُصيب برصاصة اخترقت كتفه. في ما بعد ألقى الدندان أبياتاً أضفت بعداً فنياً على الانتصار الذي أُحرز على قحطان. ودفع الدندان ثمن شجاعته الجسدية وجرأته الشعرية، سبعةَ أشهر في السجن.

ولكن بعد الإفراج عن الدندان من السجن لم يلق أي تكريم من أهله. فالولاء القبلي شيء جيد، ولكنْ، مَنْ يتمادَ ويفتقر إلى العلاقات اللازمة للبقاء بعيداً عن السجن، يكُن من الخاسرين.

الشيخ الذي جلستُ بجانبه على حقل التبن لتسجيل قصائده للأجيال القادمة، لم يوح بكونه محارباً هماماً. فهو، بشعره الأشيب ونظارتيه ذاتي الإطار العظمي، كان أقرب إلى الجد الوديع، شارد الذهن قليلاً. وبلا أي تردد في صوته الأجش، ألقى الشاعر الأُمي ما نظمه في حياته الشعرية: مئات ومئات من الأبيات التي ترسم صورة أزلية تكاد تكون ساكنة للأحداث المتكررة دورياً في حياة البدو. وصف بأدق التفاصيل جِماله الحبيبة والتحول الذي تمر به

الصحراء بعد هطول المطر ومفاتن النساء اللواتي عشقهن عن بُعد، وخاصة الجبال التي كان يتسلقها كلما شعر بأن ربة الوحي نشرت جناحيها حوله باحثاً عن العزلة لصوغ الأبيات التي كانت تتصاعد داخله، في وزن وقافية.

حولنا، كانت جِمال عطران مربي الإبل، تغثو باحثة عما تأكله. أجسامها السمراء كانت تلقي ظلالاً غريبة على الحقل. نظرة الدندان كانت تهيم بين حين وآخر باحثة عن الخطوط المتموجة لكثبان الرمل التي تتوهج حمراء في شمس الأصيل. كان من الواضح أن أفكاره في مكان آخر، ولكن الأبيات استمرت في التدفق بإيقاع متواصل: شايبٍ والقلب يرجي في البذارة

ودّه انه يرجع اللّي كان فاتى
ولّ يا قلبٍ تزايد في عباره
وإن نهيته ما حصل عنده ثباتي
غاصبه بالعقل والاّ إنّه خباره
ناصحه دون الخطأ بالمقدياتى
بكرتى خبّى عساك الله مجاره
جارك الله ما يجى رجلك حفاتى
إلعبي للجري في حامي قراره
لِعْب غرثان البني المترفاتي
لِعْب رسمة يومها في البيض شارة
فرقها جورٍ على شقح البناتي
عينها عينٍ أسمرٍ حقق مطاره
في طويلات الرجوم النايفاتي
داملٍ صافي عفاره بالصفارة
والجدايل لا الردوف منقّضاتى
والمناكب مثل ممطور الزبارة
والنهود من الجبينٍ مزبّراتي
والردايف مثل شطٍّ في حوارة
بين ظيرينٍ عليها مهملاتي
حقها جهّالك ان العلم شارة
ترتحل للزّين شيخات البناتي
عند منعورٍ صبورٍ بالخسارة
والذرب منّه العلومِ الطيباتي

غاصت الشمس تحت الأفق. الجمال تغثو وعطران، وذراعاه مكسوتان بالنخالة بعدما أطعم الدواب علفها، تقدم نحونا وقال، «لا إله إلا الله» مستهجناً لأن تحول الأبيات الماجنة التي واصل الدندان إلقاءها إلى دعاءات لم يفته. وكان يقصد بالشهادة أن وقت الصلاة قد حان. تناول الشاعر عصاه ورفع نفسه بصعوبة بالغة وجر قدميه بخطى متثاقلة إلى خزان الماء من أجل الوضوء.

الدندان هو الاسم الفني الذي أطلقه على الشاعر أفراد قبيلته. والكلمة مشتقة من الدندنة بجرس موسيقي. الأبيات تكاد تكون ملموسة عنده، وهي تأتيه خافقة أجنحتها من كل حدب وصوب، وتغطي قلبه كأسراب الجراد الذي يحط على شجرة في المساء. ونظْمُ الشعر عنده فعل لاإرادي. الدندان لا يستطيع أن يغير أبياته حتى إذا أراد.

عبد الله، الذي نشر جزءاً من عمل الدندان، اختار الأبيات حسب مشيئته هو وأسقط مقاطع كاملة واستعاض عن أسماء الأشخاص أو الكلمات البذيئة بنقاط ـ كل ذلك بنية تمييع كل ما يمكن أن يجرح مشاعر المسلمين الورعين والحكومة، أو تشذيبه، أو الحكم عليه بالنسيان ـ. وعلى سبيل المثال، هناك في إحدى القصائد ثمانية أبيات مفقودة يرتجف لها أفراد قبيلته في رهبة مقدسة. فعملاً بأعراف دائرة الشعر الشفهي تلقّى الدندان بواسطة نديب قصيدة من أقرب غرمائه الذي كان شاعراً ضريراً تبعد خيمته 300 كيلومتر شمالاً. وفي هذه الأبيات يصف هذا المدّعي عرشَ الشعر المحلي، قصائده بأنها حصن منيع. وإذ استبد الغضب بالدندان على هذه المحاولة الانقلابية في مملكة الشعر، أعاد له هذه الأبيات:

أنا هاض ما بي اعوذ بالله من الشيطان
أفصّل على شفّي بكيفي ولا فيّة
لفانا الكلام وشفت أنا الحال منّى شان
قضى ما خذى حالي من الطيب مَثْنِية
عِزي لمن هو كل يومٍ وهو في شان
كثير الحثايم لا بدى له شفى نية
فيا مِلّ قلبٍ حلّ فيه الدبى الحنّان
جثيله على قلبي تعاقب معاشية
يالله ياللي كل ما راد بأمرٍ كان
ألنّك تعاونّى ليا جاز لي نية
أنا وين ادوّر لي مع ذا اللسان لسان

يعاون لساني لا يبين الخلل فية
أنا بأحمد الله يوم جالي على ما زان
تهيض العبار اللي من العام مَكْنية
تفهّمت في قافٍ ومرنى به الرحمن
تلاحت مزاميره وغارت مراكية
طرأ لي جميع اللى يطرّى وهو ما كان
ليا فاح صدري مثل فوح الحساوية
كليت السما وأرضه ولا وقّت اللحيان
مع العرش كلّه ما يجي لقمةٍ لية
سحنت الجبال دواً ولا تكحل البرمان
وجميع الشجر ما ميّل العين هذية
كليت القمر والشمس وأمسيت أنا جوعان
ولا عاد به شنّ آكله عزّتا لية
كليت السنين وكاسرٍ بيرق الشيطان
وشربت الهبايب والجّنون سجدت لية
لبست النهار ثويب خامٍ على الأمتان
وسواد الليالي لي بشّوتٍ شمالية
وجمعت النجوم ونيّة الخبثْ للعدوان
على شان أبيهم يسكنون الحرامية
وتراني دخيل الله ولي عظيم الشان
وباقي الخلايق ما لهم عندي دعيّة

الباقي وصف طويل للبعير الذي سيمتطيه مبعوثٌ لنقلِ هذه الرسالة إلى الغريم. ولكنَّ نصْل القصيدة المسموم يكمن في مدخلها. وبالمعايير السعودية يكون الدندان تجاوز الحد المقبول بهذه المبالغات. ودفع الدندان ثمن كبريائه وتشبيهاته البلاغية ساقاً معطوبة، أو هكذا تقول الأسطورة الشعبية على الأرجح. فقبل ست سنوات أصيب بالتهاب المفاصل، ومنذ ذلك الحين يتعين عليه أن يستعين بعصاه وسيارة بك آب من طراز تويوتا أضحت، بعد اصطدامات لا عد لها بالحواجز في الصحراء، بمثابة طعجة كبيرة واحدة.

*

في اليوم التالي طلب مني الدندان أن أفحص سيارته. محركها لا يريد أن يشتغل. فتحتُ الباب وألقيتُ نظرة على الداخل. غطاء المقعد ممزق، وعلى الأرضية أكياس من النعناع والشاي، وقارورة مطروحة يتسرب منها سائل لزج أسود اللون، وقطع من الألبسة وفراء شتائي قذر؛ تلك هي ممتلكات الدندان. وتحت غطاء المحرك كتلة من الرمل معجونة بالزيت بالكاد يمكن أن يعرف المرء أنها محرك السيارة. كانت البطارية ميتة وقضيب العمق لقياس الزيت كان جافاً تماماً باستثناء كتلة من الزفت عالقة في نهايته. شرحتُ أن عليه أن يبدل الزيت بعد كل ألفي كيلومتر على أقل تقدير. سأل، «وكيف أعرف ما هو ألف كيلومتر؟». «بالنظر إلى عدّاد الكيلومترات»، قلتُ، ثم أدركتُ في اللحظة نفسها عبث هذه الملاحظة. لم تكن هناك أجهزة قياس مرئية تحت اللوحة المضعضعة لاجهزة القياس.

في غضون ذلك، كان الدندان يستطلع الأفق بقلق ـ هذه المرة استخدمَ نوعاً من النواظير التي يستخدمها القراصنة ـ. تنهدَ متحسراً على فَقْد ماله. ففي اليوم السابق على لقائنا الأول تاه قطيعه كله ولم تعد الإبل ليلاً من كثبان الرمل لتورد وتأكل نصيبها من الشعير. السيارة كانت حطاماً، وساقه المعطوبة استبعدت أي ملاحقة على الأقدام، وعطران مشغول مع إبله بحيث لن يتمكن من تقديم يد العون.

في الماضي تعاطى عطران تجارة رابحة، كما قال لي الدندان. فقبل عشرة أعوام، في ذروة الطفرة النفطية، بلغ سعر جِماله السمر 40 ألف دولار للرأس الواحد. والدواسر كافة يعرفون حكاية التاجر الذي عرض 140 ألف دولار لشراء فحل ثمين. رفض عطران السعر، وفي اليوم التالي نفق الفحل. جرى التهامس بأن الحادث «نضول» ـ بمعنى أن عين التاجر الحسود كانت «قوية»، وأنه رمى الفحل بنظرة خارقة كأشعة الليزر فخر الفحل صريعاً ـ. عطران باع الكثير من الإبل الأخرى ولكن كل ماله أُنفق على فيلا وشراء بستان من أشجار النخيل.

في غضون ذلك، انهارت سوق الإبل وما زال عطران بلا ابن. زوجته لم تنجب إلا بنات والاقتران بزوجة ثانية ابنة حَسَب ونَسَب يمكن بسهولة أن يكلف 40 ألف دولار. وفي وقت أصبحت تربية الإبل أسرع طريق إلى الإفلاس، لم يكن بمقدوره توفير مبلغ كهذا.

لذا تزوج عطران قبل أشهر من فلاحة مصرية متفجرة حيوية مقابل أربعة آلاف دولار فقط. كساها باللباس البدوي ولكنه لم يتمكن من تغيير سلوكها أو لهجتها المصرية ذات الإيقاع الرتيب. وهي، إذ لم تُبْدِ أي اكتراث لوجود زوار من الرجال، كانت تتنقل بين الإبل متأنقة كأنها تؤدي دوراً في مسلسل مصري تجري أحداثه قريباً من الأهرام. كانت كما لو أنها تتمتع باستعراض نفسها في زيها البدوي أمام أنظار «كافر» مثلي دافعة زوجها إلى اليأس والقنوط من سلوكها العفوي.

بينما كنتُ ألتقط صوراً فوتوغرافية للدندان والإبل، وقفت المصرية أمام الخيمة ومعالم أردافها اللدنة بارزة بحدة تحت الثوب الأخضر البراق الضيق، مع ثغر صغير تحت خِمار أسود ذي ثقوب للأنف والعينين المكحلتين بإفراط. وبحركة ساحرة، رفعت يديها البضتين بحيث كانت حلي الذهب حول معصميها الأبيضين مرئية لدى انحسار الكمَّيْن. «يا عطران، بص كده!»، «انظر إلى الكاميرا يا عطران»، نادت بلهجة مصرية عريضة، على زوجها الذي كان يحلب ناقة.

زوجة عطران الأولى، وهي امرأة سعودية أكبر سناً بكثير من ضرتها، بدت مسلِّمة بالمحتوم من دون مقاومة. جاءت وجلست معنا للاستماع إلى إلقاء الدندان، وكانت في هذه الأثناء تغسل فناجين الشاي الزجاجية في إناء معدني وتصب شاياً جديداً. شربَتْ شايها بطريقة غير مرئية. فمع كل رشفة كانت اليد تختفي مع الفنجان تحت الرقعة المتدلية من أعلى النقاب.

كان عطران ينتظر ضيوفاً ذلك المساء. ويعني ذلك أن على أهله أن يذبحوا نعجة. توجهت إحدى البنات إلى قطيع الغنم ثم غطست برأسها بين الأغنام قبل قدميها وأمسكت إحداها. جاء عطران راكضاً ووضع السكين على رقبة النعجة وأمرني قائلاً، «ردد معي باسم الله»، «والآن قل لا إله إلا الله». وبعد تردد لبيتُ طلبه. «الآن قل وأشهد أن محمداً رسول الله». أصبحت اللعبة أكثر مما أحتمل فتوقفتُ عن اللعب. نخر عطران بازدراء ومرر السكين بطقطقة وقرقعة مخترقاً المريء إلى الفقرات وترك النعجة المنتفضة تنزف حتى الموت.

بعد الغروب وصل الضيوف. مُد بساط على حقل التبن وأشعل عطران ناراً وربط مصباحاً ببطارية إحدى السيارات. وما لبث أن كان البساط يعج بخنافس ضخمة ظهرت من بين روث الجمال. وعلى حافة دائرة الضوء كانت الجمال تتعثر وترتطم بسيارات البك آب المتوقفة.

في البداية وقف الضيوف وصلّوا في صف طويل بين الجمال. ومن موقعي، وحيداً، استمعتُ إلى أصوات تضرعاتهم الخارجة من الأنف تختلط برغاء القطيع وقباعه. وفور عودة الجميع إلى البساط واجهتُ السؤال الأول: هل أنا مسلم وكم مسلماً يعيشون في هولندا؟. وكالعادة دائماً، كان رد فعل الحلقة غضباً ممزوجاً بالدهشة على جوابي بأن عدد المسلمين لا يزيد على نسبة مئوية ضئيلة، وأن الإسلام في بلدي يعتنقه في الغالب مهاجرون من مجتمعات إسلامية غريبة. تمتم أكبرهم سناً، «كفار، زنادقة، مشركون». أدركتُ أن بقائي بصحبة المطوعة ذوي الشماغات من دون عقال لم يعد موضع ترحيب فنهضتُ. نادى أحدهم عليّ قائلاً إنه سيرسل لي كتاباً أجد فيه كل شيء عن الإسلام، وعن «الهراء» الذي يقوله المسيحيون حول ابن الله وانبعاثه وصعوده والثالوث المقدس.

كنتُ أسير مفرقعاً بسرعة 70 كيلومتراً في الساعة في سيارة الإمارة البك آب المستهلَكَة من طراز هيلاكس خارج المنطقة المبنية مباشرة، حين تعين علي فجأة أن أبطئ السرعة لأن سيارة من طراز سيارتي نفسه، ومضعضعة أكثر، كانت تنحدر على الطريق نافثة سحب دخان سوداء. وبرغم أن السيارة كانت تزحف بسرعة لا تزيد على 40 كيلومتراً في الساعة، فإنها كانت تتأرجح بحدة بين الجانب الشمالي من الطريق وحافته كأن سائقاً مخموراً بشدة وراء المقود. قمتُ بمناورة لتجاوزها، ونظرتُ إلى جانبي فرأيتُ رأس الدندان الوقور بشيخوخته هادئاً غير مبال فوق المقود. توقفتُ عند الحافة ونزلتُ ثم أشرتُ له أن يتوقف. أدخلتُ رأسي في النافذة وسألت، «لماذا لا تأخذ سيارتك إلى الكراج؟ إنها تحرق الزيت. ألا ترى الدخان؟». أجاب، «إيه، ليس لدي إلا قليل من المال. دعها تدخن». قلتُ، «أنا أدفع». قال الدندان وقد انفرجت أساريره، «سنعود أدراجنا على الفور».

قاد سيارته أمامي إلى كراج على بعد كيلومترات قليلة من حيث أتينا باتجاه المنطقة المبنية. جاء لملاقاتنا سعودي بملابس عمل اعتيادية، كانت حبات الرمل ما زالت عالقة على جبهته من السجود على الأرض خلال صلاة العصر. قال، «أوه، نعرف هذه السيارة. كم مرة كان علينا أن نقطرها من مكان ما على جانب الطريق». طلبتُ منه أن يرى أين العطل ويقول لي كم يكلف إصلاحه. قال صاحب الكراج، «أستطيع أن أُخمّن بمجرد النظر. سيتعين تفكيك المحرك كله وتغيير الحشيات. ماذا تريد، قطع غيار يابانية أصلية أم تقليداً كورياً؟».

الصداقة الناشئة ـ أو لنقل التكافل ـ بيني وبين الدندان، أثارت أقاويل كثيرة في الوادي. لم يكن هناك مجلس إلا ويجري فيه التعليق بإسهاب على كل حلقة جديدة من حلقات هذا المسلسل المتميز. أعلن عبد الله لكل من يرغب في الاستماع، أن المسيحي يمكن أن يكون بالمصادفة كريماً أيضاً. وكانت هناك في أحيان كثيرة كلمات قاسية في ذم عطران، مربي الإبل الذي كان الدندان يتطفل عليه. وتناهى إلى سمعي أن «يده اليمنى مخنزة»؛ بمعنى أنه يستخدم اليد التي تؤدي وظيفة الكرم وغيره من الأعمال النبيلة، للقيام بعمل اليد اليسرى، أي مسح عجيزته.

الحقيقة أني طوال أشهر ترحالي في الجزيرة العربية، نادراً ما أُتيحت لي الفرصة لإنفاق قرش واحد. ولم يكن عندي ما أردُّ به كرم مضيفيَّ السعوديين. ظروف الدندان المادية الصعبة كانت استثناء. وعدا الدندان كان هناك شخص واحد فقط من سكان المملكة بمقدوري أن أصنع معه معروفاً صغيراً. فقد كنتُ جالساً في مطعم صغير مقابل الإمارة في الخماسين حين تقدمت نحوي امرأة. كانت ترتدي عباءة سوداء تحتها ثوب أحمر براق وعلى وجهها نقاب ذو شقين للعينين. كانت راحتا يديها سوداوين من صبغة الحناء ويتشبث بأذيالها صبيّان حليقا الرأسين. كانت تريد أن تقدم عريضة إلى الأمير لكنها لا تعرف الكتابة. فطلبت مني أن أكتبها لها.

ما أملته بلهجتها المحلية كان يعني بهذا القدْر أو ذاك: إلى حضرة الأمير، إن زوجي في سجن جدة. أمه باعت سيارة الشفروليت كابريس وهي ترفض إعطائي ثمن السيارة. لدي خمس بذور (أطفال) عليّ إطعامهم وليس لديّ ما أشتري به الطعام. التوقيع بنَّة.

سمعتُ في ما بعد أن هذه المذكرة المختصرة وجدت طريقها عبر الأمير إلى محكمة الشرع.

*

بعد أيام قليلة على ترقيع سيارة الدندان، دخلت باحة الإمارة دراجة نارية من طراز هوندا يقودها شخص ببدلة نايلون زرقاء وخوذة حمراء، وتوقف عند صالون الضيوف. نزع الرجل خوذته وقدم نفسه باسم علي ومهنته «رحالة» يجوب العالم للتعرف إليه. وبعد أن رويتُ حكايتي صافحني وقال إننا زملاء وسيكون من دواعي سروره أن يرافقني خلال ما تبقى من إقامته.

كان عائداً من جولة في أنحاء العربية السعودية. وكان علي يريد أن يؤلف كتاباً عن التطورات التي حققتها بلاده على طريق الحداثة. كان يحمل على رف الأمتعة حقيبة ثقيلة مليئة بالتقارير والكراسات عن معالم الحداثة البارزة مثل السياحة الداخلية في جبال أبها الباردة، والصناعة البتروكيميائية في ميناء ينبع على البحر الأحمر. ولكن هذا لم يكن إلا النزر اليسير من حصاده، لأنه أرسل إلى الأهل من محطات سابقة رزماً من هذه التقارير والكراسات الزاخرة بالصور الملونة. وهذه الجولة كانت جزءاً من التحضير لمشروع أكثر جرأة. وحدثني علي بحماسة عن خططه للتجول حول العالم على دراجة هوندا بمحرك ذي ست أسطوانات. وفي ضوء رحلته الدراسية الحالية سيذيع في القارات الخمس جميعاً ما حققته المملكة من طفرات كبيرة إلى الأمام في مجرى تطورها الحديث.

ولتنفيذ هذا المشروع الوطني مُنح علي إجازة خاصة من وظيفته الاسمية في الحرس الوطني حيث يحمل خاله رتبة عالية. المال لم يكن عقبة، حسب المعلومات التي قدمها بشكل عابر عن ظروف عائلته. فهو من ناحية والده ينتمي إلى عائلة من كبار التجار والمقاولين في القصيم، تولوا، على سبيل المثال، توفير الركائز الخرسانية للجسر الذي يربط بين العربية السعودية والبحرين.

علي، نفسه، كان يفكر في تعاطي التجارة في نهاية المطاف، وهو يقوم من الآن بإطلاق بالونات اختبار في كل مكان لالتقاط المجالات الاستثمارية الواعدة. وكان يشعر بأن الفرص المتاحة لرجال الأعمال الشباب نضبت عملياً في العربية السعودية، وسوق الألبسة النسائية وحدها التي تنمو متسعة. ولهذا السبب يوجه أنظاره الحصيفة تجارياً نحو الخارج. وفي مكان صغير توجهنا اليه لتناول وجبة خفيفة اغتنم علي الفرصة ليسأل النادل المصري عن القطاعات ذات الإمكانات الاستثمارية الواعدة على ضفاف النيل. أجاب الرجل بلا تردد، «المطاعم. فانا أدخر المال لأتمكن من فتح مطعم حسن التجهيز في الجيزة، المنطقة التي أعيش فيها من القاهرة. ثمانية ملايين فم جائعة. لا يمكن أن تخسر». سجل علي كل شيء بمثابرة. أغلق دفتره وبدأنا نتبادل الخبرات.

بعد التشجيع والثناء اللذين رافقاه في كل مكان في بلده، تلقّى علي مفاجأة غير سارة بالأجواء الثقافية التي وجدها في الوادي. وكان مستهل جولته ـ مقابلة مع مدير التعليم، وهو رئيس عبد الله ـ خيبة أمل له قبل أن يبدأ. إذ قال المدير إنه مما يتنافى والأخلاق الإسلامية أن يطوف المرء على «ضباب» دراجة بخارية، لا لشيء سوى لفت الانتباه إلى نفسه، وإنه كان يستطيع أن يجمع مادة دراسته بسيارة. شعر علي بإحباط بعض الشيء بسبب هذه الموعظة لأنه بطريقته الخاصة كان مسلماً صادقاً لم يتخلف عن الصلاة، وكان يشاطر الآخرين اعتزازهم بالدين الذي أنزله الله على الأرض بلسان العرب.

ولكن علي كان في قرارة نفسه يحفظ سراً، ويبدو أنه كان أكثر اعتزازاً به. فبعد أن تقاسمنا العيش معاً أخرج محفظة وفتحها ودفع صورة فوتوغرافية تحت أنفي. كان علي يقف فيها بملابس الرقص في أندية الديسكو وذراعاه تطوّقان خصر فتاة ذات شعر أسود متموج كانت تلتصق به. «هذا أنا مع حبيبتي في ناد ليلي في كوباكابانا. البرازيل بلد رائع!». وبرغم اهتمامه العام، أو ربما بسبب هذا الاهتمام، أُخذ علي على الفور بدراستي حول بقايا التخلف في العربية السعودية. ولكنه بكل بساطة لا يستطيع أن يفهم لماذا سأبقى طوال أشهر في الوادي من أجل هذا الغرض. كانت فكرته أنه ينبغي أن أطوف، مثله، أنحاء البلاد، وآخذ بضع قصائد من كل منطقة في أمتعتي، وبذلك أقتنص الجزيرة العربية بتنوعها الساحر. أراد علي أن يرى باحثاً ميدانياً وهو يعمل فرافقني لزيارة الدندان. كان الاتصال مع الشاعر فُقد منذ حين. فلقد توارى الدندان عن الأنظار حالما تم تصليح سيارة البك آب واستعاد قدرته على الحركة. لم يعرف أحد مكانه. وبرغم أن قصائده تجتذب جمهوراً متلهفاً في كل مجلس فقد بدا أن هذا التقدير لا يمتد إلى شخصه. كان الناس لا يعرفون سوى أنه صعلوك، من مخلَّفات الحياة البدوية السابقة، بلا مأوى.

بعد بحث عثرتُ على الدندان في اليوم السابق في حقل تبن آخر، هذه المرة خلف الفرعة، وهي الحدود الغربية لبساتين النخيل. كان أحد البدو المحتشدين هناك شاهد الدندان وقال لي إنه وإبله في حال سيئة. وبسبب تأخر الوقت قررتُ أن أعود في اليوم التالي ومعي علف لإبله.

توجهتُ مع علي بالسيارة إلى سوق الشعير في الخماسين وأخذت مئة كيلوغرام نُقلت من أحد اللوريات العديدة قبل الانطلاق إلى الفرعة. كان من الصعب تمييزنا عن البدو الأقحاح في سيارتنا البك آب المقرقعة، مكسوة بروث الطيور ومحملة في المؤخرة بكيسين أخضرين من الشعير، وقد دفعتُها دفعاً إلى السير فوق الحفر متواثبة على نوابضها المهترئة لتفادي الغوص في الرمل الناعم.

توقفتُ لدى وصولنا إلى حافة الحقل العاري. كان هناك ألف جمل على أقل تقدير تبحث عن تبن من مخلفات حصاد الحبوب. وفي فوضى الجمال والخيم وناقلات الماء، كان من المحال أن نعرف مكان الدندان. سألنا هنا وهناك، وفي النهاية أشار أحدهم إلى خيمة سوداء خارج الموقع مباشرة تحت أول كثيب. هناك، قيل لنا، كثيراً ما يتردد الدندان.

لم يكن يوجد في الخيمة سوى امرأتين جالستين. الأصغر سناً تمسك طفلاً في حضنها وتبحث عن القمل بين عقصات شعره الأسود المجعد. وعلى عادة المرأة البدوية التي تقوم بواجب الضيافة في غياب الرجل، تكلمت المرأتان معنا بلا وجل. قُدم لنا إناء من حليب الإبل سرعان ما أخذت أولى الذبابات من السرب المحيط بنا تصارع للنجاة من الغرق فيه. أكدت المرأتان أن الدندان يشاطرهما أحياناً طعامهما أو يأكل مع الرعاة السودانيين الذين كان «أعمامهم» يمدونهم يومياً بالخبز والفاصولياء السمراء والفاكهة. ولكنه لم يطلّ حتى الآن في ذلك اليوم. وقالت لنا المرأتان إنهما ليستا من الدواسر بل من سبيع، وبعد أربعة أيام ستتوجهان إلى رنية، منطقة قبيلتهما، لأن الحقول هنا تكاد تكون قاحلة من كثرة الرعي فيها.

شكت المرأتان من المعاناة التي يقاسيها البدو. لقد كان سكان الصحراء يتقلبون مع دولاب «الوقت»، كما يُسمَّى موسمُ الجفاف. وكانوا يكابدون تحت وطأة «الدهر» الذي ينهال عليهم بمطرقته العملاقة منذ عشر سنوات. وبعد فترة قصيرة ستُزرع الحقول من جديد ويتعين على القطعان أن ترحل عنها وتعود إلى الصحراء. ولكن باستثناء أجمة العشب وأشجار السنط التي يمكن للإبل أن تقضم منها، فإنه قلما ينمو شيء صالح للأكل هناك بعد الآن. وبصيص الضوء الوحيد في نهاية النفق كان بداية فترة البرد حين لا يتعين جلب كميات كبيرة من الماء بالناقلات، ويستطيع البدو أن يتنقلوا بعيداً عن الآبار لتمشيط الصحراء. وأخيراً هناك الأمل، في أن الله ـ الذي يحرك الغيوم ويُسقط المطر متى يشاء فيحيي ما ذبل من خلقه ـ سيرحمهم في تضرعاتهم.

كانت إبل المرأتين الخمسة عشر تستهلك ما قيمته بين 400 و600 دولار شهرياً من الشعير والبرسيم والنخالة. عائلتاهما لا تستطيعان توفير هذا المبلغ إلا ببيع ما تربيانه من أغنام. وقد أوقعهما «الوقت» في ضائقة بحيث صارتا تفكران في الإقدام على ما لا يُقْدم عليه البدوي إلا بقلب ميت، وهو بيع إبله. ولكن «الوقت» يعني أيضاً أن الجمال التي كان البدو يبيعونها قبل عشر سنوات بمبالغ تصل إلى 20 ألف دولار أو أكثر للرأس الواحد، لا تجد من يشتريها. وفي كل مجلس في الوادي تُروى قصة البدوي الذي لم يعد قادراً على تدبير معيشته فعرض جماله الخمسة والعشرين للبيع في السوق وتعين عليه أن يقبل بثمن بخس قدره 180 دولاراً عن كل جمل.

فجأة، رأينا، أنا وعلي، المشهد الساحر الذي لاح من فتحة الخيمة بعيون جديدة. ما رأيناه لم يكن احتفاء بالحرية والآصرة الحميمة بين الإنسان والطبيعة، بل كان الجحيم الذي يعيشه آخر مَنْ تبقوا من سكان الصحراء الحقيقيين. وكان الاحتمال كبيراً في أن ينحدر هذه المرة بريق القمر الفردوسي الرقيق إلى الأبد تحت أسواط الشمس ـ تلك الساحرة الشرسة والجشعة التي تدير جحيم البدو ـ . أبدت المرأتان مخاوفهما من أن يحمل الجفاف، إذا استمر، آخر البدو على الهرب من الصحراء كالجرذان المذعورة.

عثرنا أخيراً على الدندان، لكن كان واضحاً أن مزاجه لا يسمح بتسجيل أي قصائد. لقد عادت إليه إبله. كانت سرحت حوالى 300 كيلومتر إلى بقعة للرعي قرب بئر جخجوخ. وكان مترك ابن أخي الدندان اقتفى أثرها إلى ذلك المكان وساقها عائداً بها. وهي الآن في قطيع واحد مع مئات الجمال الأخرى التي تحاول أن تقتات على ما يكفي للبقاء حية في الحقل.

كان مشهد يبعث على القنوط لشخص مثلي ما زال يؤمن برومانسية حياة البداوة. وحين وصلتُ بسيارتي كان الدندان يقوم بمحاولات غاضبة لجر كيسين من الشعير، زنة الواحد منهما 50 كيلوغراماً، من الحوض الخلفي لسيارته البك آب. وحين طرحهما أخيراً على الأرض لم يتمكن من العثور على سكين يفتحهما بها. استنجدنا ببدوي عابر سبيل. بسط الدندان شوال شعير عتيقاً في التراب ثم مد أنبوباً مطاطياً من أنابيب العجلات الداخلية بعدما فتحه ليكون مِعْلَفاً يضع فيه الحبوب. ولكنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية لتفريغ محتويات الكيس فيه. في هذه الأثناء كانت الجمال الجائعة تتدافع بعنف مهددة بسحقنا تحت أقدامها. كان القوي ينحي الضعيف جانباً ويلتهم ما يتسع له فمه من الشعير من المِعْلَف ويرفع رأسه ثانية لمضغه من دون أن يتحرك من مكانه. سحبنا الكيس نصف الممتلئ إلى أنبوب مطاطي آخر لبقية القطيع. وخلط الدندان نخالة حنطة بالماء للدواب الصغيرة واقتعد الأرض لعجنها في حوض معدني. وفي غضون ذلك ناح معبراً عن محنته. فنتيجة لما قاسته الإبل من حرمان، لم تكن هناك قطرة حليب واحدة في ضروعها.

كان اليأس بادياً على الدندان. كان يتعين إجلاء الحقل. آخر مرة هطل فيها المطر بوفرة كافية لينبت فيه زرع كانت قبل عشر سنوات. كان يتعين إطعام الجمال علفاً إضافياً ولكن شوال الشعير يكلف 24 ريالاً. وفي أيام الخير، قبل عشر سنوات، كان سعره ثمانية ريالات. وأسعار الجمال حينذاك كانت تزيد عشر مرات على أسعارها اليوم. كان ذلك في عهد الملك خالد الذي يعتبره البدو «عصرهم الذهبي».

بعد أن فرغنا من علف الجمال، وعدتُ الدندان بأن نذهب معاً إلى السوق لشراء مزيد من الشعير. جلسنا مستظلين بسيارة الدندان. وبصوته الأجش الصداح، دونما أثر للشفقة على نفسه، انطلق في قصيدة: دنّ القلم وإكتب كلام التعاجيب

قاف نحلّي به على قولة الميم
يا شيخ قلبي قالبته الدواليب
وغنّى بقافٍ هشَّم الحال تهشيم
وضاق الضميرُ وجا لصدري تضاريب

وكنّه يجرّ غصون قلبي محاجيم
في البرّ كنّي في مضيق اللهابيب
لين اختلفت وهبّ في القلب تنسيم
أشوف في صدري كما سايح السيب
يشرب على ماه الجهام الرواديم
القلب زرعه ودّعته الهباهيب
حتّ الورق وأصبح غصونه مصاريم
لاعه سمومٍ تلهب القلب تلهيب
واهجر خضاره عقب ما هم مناعيم
ياالله يا ربّ الفطير المراقيب
اللى غدت من طول مسّ الدهر هيم
اللى وزت بقلوبهن اللواهيب
وما تاكل إلا محرقات العراقيم
وشعوفها اللى كان سودٍ غدت شيب
وجيهها الطيّار قد هي مهاديم
شفت الخلايا الخِلْف قد هي مذاهيب
واسلاب أهلها مثل وصف الفحاحيم
وأحرق بخص الأقدام حرّ المشاهيب
ومن كدّ من حبّ العنازيم ما ليم
وذبنا وذاب الحال والمال تذييب
إلاّ يردّ اللى يفكّ الخواصيم
واعمومست الاريا وضاعت الاطابيب
ونرضى على دِبْرة ولي الحواكيم
الإنسان لو يشك ما جا بما جيب
يذكر وليه في الليال المقاديم
ويصبر على ما جا من الله لياصيب
ويقنع بحكم الله ويرضى المقاسيم
والله ومر فى كل شيٍ تسابيب
والنقص في مال المخاليق تعليم
وما جات بالدنيا من الخبث والطيب
تاليه يدعى فى نفاده بتعديم
يا الله بليلٍ ماه يملا المحانيب
يصبح غثيره من غبابه مجاثيم
جعله على قمرا حدته المجاليب
وأمطر على الجزلا سحابٍ مغاييم
نوّه عقابه مثل صفْع المهاضيب
وأنْحى مقاديمه كما شرّد الريم
يرفض ربابه فى ترابه مكاهيب
كنّه مقاهير الجهام المجاهيم
يسقى فروع الغَرْس صفر الكرانيب
هِذْب الجريد اللى حثرها مكاميم
يسقي مراد مخضّب القرن بالطيب
اللى نباته ناعمٍ ما بعد سيم
اللى حديثه يسلب العقل تسليب
وبنّة عذابه في الدجى يقعد النيم
حلوٍ كلام العذب زين التعاجيب
يا زينٍ في عشره صفيف الخواتيم
اىّ العسل وأيّ حديثه لياذيب
باحلى حديثه من حليب المشاحيم

*

طلب مني الدندان أن أساعده في الاتصال بعبد الله. كان يعرف أن عبد الله أدرجه في أنطولوجيته الشعرية ولكنهما لم يلتقيا منذ سنوات، والدندان لا يعرف عنوانه الحالي. توجهنا معاً بالسيارة إلى الفيلا الجديدة التي بناها عبد الله في اللدام. أبناؤه الصغار، بطاقياتهم البيض على رؤوسهم، وقمصان كُتب عليها شعار «لا للمخدرات» في إطار حملة مدرسية، فتحوا لنا الباب وطلبوا منا الانتظار في المجلس والتحلي بشيء من الصبر.

«هل تعرف ما هذه؟»، سأل أحد الصبيان من أجل أن يقول شيئا ما مشيراً إلى ذرات الغبار التي كانت تتراقص في حزمة من ضوء الشمس سقطت من خلال الباب المفتوح.

«غبار»، قلتُ مجيباً.

«كلا»، قال ضاحكاً. «هؤلاء هم الكفار الذين يسقطون في نار جهنم. وإذا لم تهتد فسينتهي المآل بك أيضاً هناك».

«حسناً، عليّ إذاً أن أذهب إلى جهنم»، قلتُ مفكراً في هذه الأثناء في الصحبة الشيقة التي سأجدها هناك بحسب دانتي.

«هووه، أتظن ذلك!». وثب الصبي واقترح علينا متكرماً أن يجلب جمرات من المطبخ وأن يضعها على باطن قدمي. «ثم فكِّرْ في أن ما تشعر به سيدوم إلى الأبد. الله سيتكفل بعودة الجلد المشوي إلى النمو من جديد، ثانية بعد أخرى، في حين أن المسلم في الجنة سينال كل شيء يتمناه قلبه: ماء، فاكهة، 72 حورية لكل مسلم وأكثر».

«وماذا عن كل أولئك البلايين من المسيحيين واليهود والبوذيين والكونفوشيين الأخيار وغيرهم من الأتقياء؟»، قلتُ مبدياً اعتراضي المعهود.

«كلهم إلى جهنم»، قال الصبي بلهجة من يريد أن يقول «قُضي الأمر». «فكر! مَنْ خلق الإنسان من نطفة؟ مَنْ يوفر له رزقه؟». كانت لدي أخيراً إجابة عن هذا السؤال الأخير: «حكومتي»، قلتُ ظافراً.

«خطأ. لولاه لا تستطيع الحكومة أن تفعل شيئاً».

ومن باب التوضيح خطف كتاب اللغة الإنكليزية الذي يتعلمه في المدرسة. الفصل 23 يتناول الإسلام في أوروبا. قبل 15 عاماً كان عدد المسلمين لم يزل قليلاً في أوروبا. ولكن هناك في الوقت الحاضر ملايين: في إنكلترا، فرنسا، ألمانيا، هولندا وبلدان أخرى. صحيح أنهم يواجهون مشاكل كثيرة. ويصعب على المرأة المسلمة أن تلتزم بقواعد التحجب. ولزمن طويل لم يكن هناك مسجد مركزي في لندن. ولكن لحسن الحظ تحقق بعض التقدم. وهناك الآن مسجد يُموَّل من بين مصادر أخرى بمساهمة كريمة من الحكومة السعودية... إلخ. «أوَلا ترى، ليس لديك حجة لأن الإسلام معروف عموماً في بلادكم»، قال الصبي الصغير. « وهذا الإسلام هو الدين الحق الذي تقرأه في القرآن، الذي يقول إن الله سينصر أمة المسلمين على كل الآخرين».

استفزني الصبي، فقررتُ وضع القطة بين الحمائم: «إننا لا نضفي أي صدقية على القرآن».

«يهدي الله مَنْ يشاء»، قال الصبي مستسلماً. لقد أدى واجبه وكل ما تبقَّى هو تلفُّظ الكلمات التي يدين بها لنفسه لدى مواجهة أعمى يصر على الخطأ: «لا تقل في يوم الحساب حين نقف جميعاً أمام عرش الله إننا لم نحذرك».

بعد قليل دخل عبد الله. دخل الدندان في الموضوع مباشرة. هل يعرف عبد الله مشترياً يبتاع رشاشه؟ إنه يحتاج إلى المال بسرعة للعناية بإبله. وعد عبد الله بأن يعمل ما في وسعه ثم سأل بضحكة مُحرَجَة، «وماذا بعد؟ أحسب أنك سمعت أني أدرجتُ قصائدك في ديواني».

«نعم»، قال الدندان، «لكني سمعتُ أيضاً أنك غيّرت وحذفت الكثير».

«حسنا»، قلتُ، «مع ذلك يستحق عبد الله شرف كونه أول من نشر عملك».

بعد لحظة من الصمت الثقيل، انتقل عبد الله إلى موضوع آخر. حدّثنا عن زيارته باكستان في إطار «جمعية الدعوة الإسلامية»، وعن البؤس الذي كانت البلاد تعيشه في عهد بنازير بوتو. واستشهد عبد الله لإسناد تحليله بحديث شريف تنبأ فيه الرسول بأن تدفع الأقوام التي تحكمها نساء ثمناً باهظاً.

أشرتُ إلى أننا في هولندا كانت لدينا نساء على رأس الدولة طوال أكثر من مئة عام وكان الجميع راضين بذلك. عبد الله لم يدع الفرصة تفوته لتلقين الشاعر البدوي البسيط درساً في أخلاق البلد الذي جئتُ منه. وقال، «أتعرف يا الدندان أن النساء في بلده يمارسن الجنس وينجبن الأطفال ويعشن مع الرجال من دون أن يكن متزوجات منهم؟».

قال الدندان شيئاً من قبيل، «آي آي آي»، وبدأ يتمتم بصوت خافت متعوذاً بالله من الشيطان الرجيم.

صحتُ، «وأنتم؟ أنتم تشترون تلميذات لتغتصبوهن ثم تطلقوهن بعد أن تنتهوا من استعمالهن. وحين تخرجون بسياراتكم تُشحَن النساء مع الأغنام والماعز في المؤخرة بينما يجلس الرجال بترف في المقدمة. وفي أوروبا كل ما يهمكم هو ميدان بيغال. إنكم لم تفهموا شيئاً واحداً عن الغرب».

زمجر عبد الله، «حيوانات، أسوأ من عيشة حيوانات، حياة الناس في بلدك». بلغ السيل الزبى فوثبتُ واقفاً وقلت، «هيا يا الدندان، نحن مغادران».

*

بدا أن وضع الدندان ميؤوس منه. ابن أخيه مترك أعلن أنه مشغول ولا يستطيع ملاحقة جمال عمه. وفي الصحراء لم يعد هناك شيء تأكله الإبل سوى بضع أوراق من نبات السنط. وكان أبناء العمومة يدفعون يومياً ثمن كيسي الشعير اللذين يكلفان 280 دولاراً في الشهر لأن الدندان كان مفلساً. مترك لم يعد قادراً على تمويل ذلك من راتبه الضئيل كموظف في الشرطة الدينية.

الحل الذي اقترحه مترك كان بسيطاً. قال للدندان، «انتقل للعيش معنا. بع إبلك وافتح بثمنها كشكاً صغيراً لبيع المشروبات الغازية والمرطبات».

ضغطتُ على جرس باب البيت الذي يعيش فيه مترك. فتح الباب الحديد طفلان سألا باهتمام إن كنتُ أنا «الكافر» والحرامي الذي سمعا عنه. في غرفة الاستقبال انضممتُ إلى الذين كانوا يجلسون في دائرة على امتداد الحائط مستندين إلى وسائد. وفي وسطهم جلس الدندان، منتعشاً، نظيفاً، ولديه الكثير مما يقوله عن نفسه. جيء بطبق هائل فيه معزة مشوية كاملة على جبل من الرز. اتخذنا مواقعنا حول الطبق بالوضعية المرسومة: الساق الشمالية مسحوبة تحت الكفل، والركبة اليمنى مرفوعة لتسند الذراع الأيمن. كانت عبارة «باسم الله» إشارة البدء بتمزيق اللحم ورمي القطع الشهية إلى بعضنا البعض.

الدندان بدا شديد الجوع شأن إبله. دس مخلبه المعقوف عميقاً في الرز الساخن الذي كنتُ بالكاد قادراً على لمسه بأطراف أصابعي، عجن حبات الرز في كرة ورماها بحركة رشيقة من رسغه عبر بلعومه. بعد الغداء جيء بفناجين الشاي والقهوة. حان الوقت لتقديم فعالية. وأُقنع الدندان الذي كان في مزاج رائق من دون إلحاح كبير من الحاضرين، بإلقاء قصيدة وجدها ناشره عبد الله ماجنة بحيث لا يمكن طبعها.

بدأ الدندان، «ذهبتُ إلى الحج إلى مكة وكنتُ أهم بدخول بوابة الحرم المكي مع الحشد حين نادت عليّ امرأة. طلبت مني أن آتي وأجلس بجانبها ولكن قصدها كان شريفاً. فقلتُ: حسبي على اللى دعانى لين نابيته

بين العمد والمقام وبين الاركانى
فوالله لا رحت ادوّر له ولا جيته
وأغضيت ما نـي بشوْفه كان واغوانى
مدهالهم لا سقاه الوبل مرّيته
متشالي لين جيته والبلا جانى
يا ما بقلبي عليهم مار كنّيته
من ذلّتي يفتري به كل فطّاني
لا لا المزا كان صِمْل الثوب شقّيته
وامشي مع اللى يبون الستر عريانى
ما عاد فى العمر مسيارٍ على بيته
ومشاهده دام موت الناس ما جانى»

واختتم الشاعر إلقاءه قائلاً، «وسلامتكم». صاح أحد الضيوف، «هاي، الدندان، ليس هذا كل شيء. هناك بيت آخر!» قال الدندان مراوغاً، «كلا، ليس هناك شيء آخر». «بلى، هناك، هيا، لنسمعْها». «نسيتُ»، زعم الشاعر. وأخيراً رضخ الدندان للضغط وألقى البيت المفقود مقهقهاً، مكركرا: يا ليتنى يوم جيته كان حبّيته

حطّيت شقر الجدايل فوق ذرعانى

*

بعد المرور بأحياء اللدام البائسة على حافة الكثبان التي تغلق الوادي من الشمال، يمكن العثور على الدندان عصر كل يوم مع إبله. وفي محجر محاط بالأسلاك الشائكة كانت الجمال تنتظر من يشتريها. الدندان ترك فحلاً صغيراً ذا نوعية رديئة أُعد للنحر، إلى مصيره. لحمه الحي كان ظاهراً على ساقيه الأماميتين في المكان الذي أُوثق فيه بحبل ولم يعد بسبب هذا العائق قادراً على أن يكسب له موقعاً في القطيع. لقد بيع ولكن مالكه الجديد لم يأخذه بعد. عدا ذلك، كانت السوق كاسدة. وأوحى الدندان بأنه يريدها أن تبقى هكذا.

جهة راغبة تقدمت وعرضت 200 ألف ريال ثمناً للقطيع المؤلف من 24 رأساً. ولكن ما أثار حنق مترك أن الدندان رفض هذا العرض الفريد قائلاً، «إبلي تساوي 200 ألف ريال لكل رأس». فكر مترك في أن عمه كان ينبغي أن يرضى حتى بربع هذا المبلغ.

وبرغم تحذير مترك بألاّ أُعطي الدندان مزيداً من الشعير، أخذتُ معي شوالين مراهناً على جلسة مثمرة. جلسنا على بساط من روث الإبل المجفف. على بعد مسافة قصيرة كان أطفال يلعبون كرة القدم حفاةً في التراب. تقدم صوبنا صديق قديم من أصدقاء الدندان، حاجلاً على عكازيه، وبدأ يتجاذب معنا أطراف الحديث. ثم انضمت إلينا امرأة بدوية بدينة، تربعت على الأرض ورمقتني بنظرة اتهام من خلال ثقوب البرقع. أرادت أن تعرف: «كم تربح من قصائد الدندان؟».

في هذه الأثناء ملأ الدندان حوضاً بماء شفطه بخرطوم من أنبوب البلدية. واندفعت الجمال نحونا لتورد الماء مثيرة زوبعة من الغبار. ظلت ترفع رؤوسها بعد بضع جرعات وتنفض الماء من شفاهها المتدلية حتى أخذ مطر شفيف يهطل علينا.

يقولون في الوادي إن الدندان متزوج من إبِلِه. سألته، «من هي حبيبتك؟». وأشار، من دون تردد، إلى ناقة كانت تجترُّ طعامها بهدوء. كانت متقدمة في السن، وديعة، تلمتع على رقبتها بضع شعرات فضية. الدندان مسد عشيقته بين قمة ساقها وأضلعها لتهدئتها وبدأ يعدد أسماء أجزاء جسمها.

سألتُ، وكيف تفسر البيت الذي تقول فيه:

سقى دار شيّاب العثانين وكل سناد
ذنين العَبَس فيها كما بنّة الهيلى

سارع الدندان إلى رفع ذيل الدابة ووضعه على ذراعيه ودفن أنفه عميقاً في الوبر المنقوع بالبول واستنشق الرائحة بمتعة ظاهرة. كنتُ مطلعاً من الأدبيات المهنية على الخواص الممتازة لبول البعير كشامبو ومادة مزيلة للقمل. ولكن هذا كان جديداً علي. استنشقتُ بدوري الوبر الملبد ولاحظتُ أن الرائحة ليست نفاذة كما كان المرء سيتوقع. قال الدندان إنه يتفهم خيبة أملي. وطبقاً لما ذهب إليه، فإن الرائحة تكون أقوى بكثير حين تكون الإبل اقتاتت حتى الشبع على النباتات العطرية في الصحراء. ومن باب الوداع رفع الدندان ذيل الناقة عالياً وطبع قبلة حارة على عجيزتها ومرر سبابته على فرجها وحوله، مداعباً.

ذلك العصر كانت جلستنا الأخيرة، وطلبتُ من الدندان أن يلقي قصيدته الشهيرة «مرَوْبع» ـ المقطوعة الشعرية التي كان يغنيها منطلقاً عبر الصحراء على ظهر ذلول جامحة أصيلة ـ . وعلى خبب الجمل كأن الأعنّة ترقص متهادية بين يديه، أطلق الدندان العنان للكلمات تنساب من بين شفتيه: يا نديبي فوق عمانی

نضوٍ يرعى به الدندانى
ياطاً بفجوج الحزمانى
ما ينذاد إلا باللاحى
نضوٍ عجلٍ لا من درهم
مثلٍ الجنّى لا من ارهم
لا لا حبله يوم استبرم
كان اللى فوقه قد طاحى
هيّض عيني فى فزّاته
قد عذّبنى بملاواته
عجلٍ زوله فى هجّاته
لا من دفلج فى المرواحى
جوّد مسّك فى مصلابه
وإحذر عمرك يا ركّابه
وإلزم حبله يا قضّابه
لا من هاوز للجمّاحى
أمّا كنّه هيقٍ غاير
والاّ كنّه طيرٍ طاير
يهوي من روس الجداير
لا منّه شاف الملواحى
يسرح من لمّة فريقه
لا منه احْمَى فى طريقه
يخلف رايك من زريقه
كنّه خَطْوى نجمٍ طاحى
كنّ الفنْد الناعم ساقه
وإخْبَر لا لا قوّ حلاقه
ما يبقى عليه علاقه
يطوي ديّان البراحى
ما ينغطّ ليا غطّيته
يعجب عينك لا تلّيته
ها ثمّ تلّك ثمّ أرخيته
كنّ يديه يدي سبّاحى
أحمر لونه مشيه بارع
كنّه خَطْوى هيقٍ خارع
ما ينذاد لقرع القارع
عجّه كنّه زرق رماحى
شبرٍ زوره من كرسوعه
قيسة خُفّه يوم يزوعه
مثل ريـالٍ توّ صنوعه
يجمع هذيلٍ ودباحى
ما أوْحى الراكب دمث ردوفه
عنده علمٍ يخلف حوفه
كنّ البرداً ضرب كفوفه
لا ادلج في الحزم الصحصاحى
يدوي مثل دوي الذيبى
لا بيطير ولا يمشي بى

فان جا مهجاج الحضيبى
خزّ وفزّ ونزّ وراحى

*

كانت الشمس منخفضة في السماء وحان الوقت لتسليم الدندان إلى أبناء عمومته. سرنا صامتين على الطريق الترابي الذي يخترق الشريط المبني من الوادي. تقدمت صوبنا شاحنتان محمَّلتان بالحاويات يقودهما سائقان فيليبينيان وضع كل منهما نظارتيه الشمسيتين فوق قبعة البيس بول التي كان يعتمرها. الشاحنة الأولى وضعت على طول النافذة ملصقاً يعلن «الله هو المحبة» باللغة الإنكليزية. الشاحنة الثانية أشهرت رسالة «الحبَل بلا دَنَس».

لغة هدّامة؛ فكرتُ بيني وبين نفسي لدى مرور هؤلاء «المجاهدين من أجل المسيحية» بنا، هادرين. أنزلتُ الدندان عند المسجد وراء بيت مترك. كان في عجلة لأن وقت صلاة العشاء قد حان. الدندان لم يدوخ نفسه قط بمصيري الديني. وأحسبُ أنه كان يرى أن كل من ينتمي إلى جنس «الكلاب»، كما يسمي الغرباء غير المسلمين في إحدى قصائده، يبقى كلباً. فتحتُ باب السيارة له وأعطيته عصاه. تصافحنا. قال، «إن شاء الله ما تشوف شر»، وتوجه إلى المسجد بخطى متعثرة خوفاً من أن يتأخر عن الصلاة من دون أن ينظر مرة واحدة إلى الوراء...

عودة إلى الدندان

قاد سعود، متّبعاً توجيهاتي، سيارتنا من طراز نيسان باترول عبر زقاق ترابي وانحرف شمالاً أمام مسجد صغير بلون الرمال مئذنته شبيهة بالقلم، ثم أوقف السيارة. تطلعتُ إلى المشهد بنظرة عابرة. إلى اليمين جنينة من الفسائل وبجانبها باحة ومؤخرة البيت الذي يبدو كأنه بلاطة بنّية من الإسمنت، وسط الخضرة. أطلّت امرأة مندهشة برأسها من وراء قضبان نافذة المطبخ وتقدم نحونا بحذر طفلان يرتديان قميصين طويلين متسخين.

في هذه البقعة، قبل أربعة أعوام وثلاثة أشهر وعشرة أيام، وأيضاً في يوم أربعاء، ودّعتُ الدندان؛ واحداً من آخر شعراء البدو العظام في الجزيرة العربية.

في أوروبا كنتُ نقلتُ الأشرطة التي سُجلتْ عليها القصائد، كلمة كلمة. فانطبع في السنوات التالية صوت الدندان في ذاكرتي من خلال سماعة الأذن: اللثغة الطفيفة، مسحة الحزن، ولكن أولاً وقبل كل شيء إتقانه هذا الفنَّ الذي يأتيه مطواعاً بلا مجهود منه على النقيض من عبث مقاديره. كتبتُ قصائده وترجمتها إلى الإنكليزية، وأرفقتها بمدخل وقاموس بالمفردات، وصدرت الحصيلة على ورق يلبي، حسب ملاحظة الناشر، المعايير الدولية للعمر المديد. اسم الدندان بأحرف من ذهب على الغلاف الخمري مكسواً بغطاء صقيل مع تصميم شرقي أنيق، يضفيان معاً ما يناسبه من مظهر متميز وأنيق من الخارج[9].

في ربيع 1994 اتصلتُ من مكتبي في مقر حلف شمال الأطلسي (الناتو) في بروكسل، بشيخ مشايخ الدواسر ابن قويد، وقيل لي إن الدندان ما زال حياً. بعد شهر استقللتُ الطائرة إلى الرياض ومعي نسختان من الكتاب في حقيبتي.

بيت مترك ابن أخي الدندان لم يتغير عملياً. في الباحة انتصبت خيمة من النوع الذي أخذ يصبح شعبياً منذ زيارتي الأولى بوصفه منطقة استقبال خارجية. فيه صدى بعيد لحياة البدو السابقة على غرار الزخرفات المعمارية القروسطية التي تزين سطح مطعم من مطاعم الهامبرغر. ولِصق الحائط الخلفي للمسجد، على جانب الباحة الذي يؤدي إلى الشارع، بُني ملحق أبيض، لا يزيد حجمه على حجم غرفة، خارجه منطقة جلوس مفروشة بجانب الباب.

سعود، السائق الذي نقلني من الرياض، بدأ حياته المهنية خادماً في بلاط الملك فيصل. واكتسب مهاراته الاجتماعية وتهذيبه من التدريب الطويل الذي تلقّاه جالساً ومتبطلاً في حلقة «الخويا»، أو الحاشية المسلحة من الحراس والخدم في آلاف القصور التي يسكنها أفراد العائلة الملكية وغيرهم من الأثرياء، أو الإمارات التي هي مقار السلطة التنفيذية على المستويين الإقليمي والمحلي. ما كان سعود يحبه أكثر من أي شيء آخر هو أن يكون في حلقة أقرانه يقتل الوقت بأحاديث لا تنتهي ترافقها كميات لا تنضب من الشاي الحلو يُصب بإفراط في فناجين زجاجية ذات مقابض، أو من القهوة الخضراء المرة في فناجين خزفية صغيرة بلا مقابض، والتقاط حبات التمر من كومة مضغوطة منه.

لم يلبث سعود أن لاحظ أن وادي الدواسر ليس لديه ما يتباهى به من قصور وولائم باذخة. وأفصَحَ عما يدور في ذهنه فور وصولنا إلى الإمارة قائلاً، «أحسب أن ثلاثة أيام ستكون كافية». في هذه الأثناء تعلمتُ أن أُميِّز هذه اللهجة المتعالية، متنكرة بشكل سؤال خنوع، كجزء من مناوراته في ألعاب القوة الدائرة بيننا. في بيت مترك، لم يتمكن سعود من كبت ما يدور في ذهنه مجدداً. قيّم الموقف كله بنظرة وخلص إلى أن المكان لا يُعتَدُّ به. الرجال لم يكونوا في البيت وبالتالي لم يكن هناك ضيوف. «خمس دقائق؟»، قال، ونحن نهم بالخروج. قلتُ بانزعاج، «اسمع يا سعود، لقد أنفقتُ سنوات من حياتي على إعداد كتاب عن هذا الشاعر. إذا كنتَ في عجلة فاذهب إلى «الخويا» في الإمارة ثم عد إليّ في غضون ساعتين أو عد بالسيارة إلى الرياض مباشرة ودعني أقُم بما جئتُ من أجله هنا». اتخذ سعود هيئة رسمية للغاية وقال، «كلا، مهمتي أن أرافقك في كل مكان. وإذا اقتضت الحاجة فسأبقى هنا سنة لأكون سائقك».

كان قلبي يخفق حين اقتربتُ من الملحق المدهون بالطلاء الأبيض. وضعني ابن جربوع مسبقاً في صورة ما سوف أجده. ومن بين جميع «الخويا» الذين يترددون على الإمارة كان ابن جربوع الأوسع علماً في مضمار الشعر البدوي، والأحسن اطّلاعاً على الأقاويل المحلية التي تُسمى بتعبير ملطّف «نقاشات حول الأنساب». ابن جربوع ذو عينين حادتين بارزتين من محجريهما وشعر أشعث وَخَطه الشيب، وفم يصنع حركات مطقطقة حين يتكلم، كاشفاً عن لسان يجلد به بقايا أسنانه الصفراء. لم يكن يخرج أبداً من دون أحزمة الرصاص على منكبيه ومسدس يتمنطق به. ولكن تحت مظهره الشيطاني هذا، تكمن طبيعة مرهفة، وكان الرفيق الوحيد الذي يستطيع أن يجمع بين الإعجاب بالدندان والإشفاق عليه. لم يحفظ أحد في الوادي بقدر ما كان يحفظه ابن جربوع من قصائد الدندان. وقبل أربع سنوات، أراني في سيارته البرازيلية الحمراء «جيمس»، وهي التسمية السعودية لسيارة البك آب من طراز «جي أم سي»، الطريق إلى الدندان وإبله. زعم ابن جربوع قائلاً، «الدندان يبكي لأجلك. إن خطأ حدث في عملية جراحية أُجريت لركبته وهو الآن لا يستطيع المشي بالمرة. ومنذ ذلك الحين يمضي كل أيامه في تلك الغرفة. إبله ماتت، قضى عليها المرض».

سرتُ نحو باب الملحق والكتاب تحت إبطي ودسستُ بحذر رأسي في الداخل منادياً عليه. في الضوء الخافت كنتُ أستطيع أن أرى حشية على الأرض لصق الحائط البعيد. شيء ما تململ ورأس أصلع متغضن ذو لحية رمادية مدببة. رفع نفسه بعناء من تحت البطانيات. شعرتُ بالقلق بالرغم من أني هيّأت نفسي لمواجهة هذا الأمر. بدا الدندان جثة حية مهيأة لتكفينها.

«هذا أنا، مارسيل! الهولندي! جئتُ لأجلب لك كتاب قصائدك التي سجلتُها قبل أربع سنوات». وللحظة، خشيتُ أن أبقى متطفلاً غريباً على الدندان، ولكنه قال بوهن، «مارسيل، أأنت مارسيل؟». ولجتُ وجلستُ القرفصاء بجانب الحشية. في نهايتها كان إناء للتبول يوضع جنب الفراش عادة. وفي زاوية مكسوة بالبلاط كان التواليت العربي ـ ثقب بين مسندين مضلعين للقدمين مع حنفية وخرطوم ماء وحوض ـ ودش. وفي ركن من الغرفة كرسي متحرك، وفي الجدار مكيّف هواء ومفتاح المروحة السقفية. كل شيء جديد تماماً، نظيف جداً، مرتب بعناية خاصة، وحسن التهوية.

بيت مريح للموت فيه، ولكن كان واضحاً أن الصعلوك في الدندان ليس راضياً بهذا المرفأ الخشبي المحشور في الرمال. سألته كيف أحواله هنا. وبحركة متبرمة أشار إلى ما حوله. المسجد المجاور كان لم يزل أبعد من أن يقوى على الوصول إليه. وقدر الإمكان، كان يؤدي صلواته باتجاه مكة على أرض غرفته. كان يزحف على يديه وركبتيه ليصل إلى غرفة الحمام. «كالطير مهيض الجناح»، قال في حركة من أصابعه تشير إلى الخوار.

سألته كيف تمت صفقة بيع جماله الأربعة والعشرين الحبيبة. كان أفراد قبيلته قالوا لي إنه يفضل الموت مع إبله على وداعها. ولكن العكس حدث. فبعد فترة قصيرة من رحيلي في أواخر عام 1989، أصابت حمى فتاكة الجمال في محجرها القذر. اثنان منها نجوَا وبيعا بثمن بخس: 200 دولار لكل منهما في حين كان الدندان قبل أشهر قليلة رفض عرضاً بأربعين ألف دولار للقطيع كله. قدم أحسن جملين هدية إلى أحد أبناء العاهل السابق الملك خالد. وقد أثمرت هذه الالتفاتة اليائسة من الدندان عن النتيجة المنشودة: أعطاه الأمير 20 ألف دولار وسيارة بك آب من طراز داتسن. ولم يلبث أن باع الدندان السيارة. ولكنه لم يفتح بالنقود دكاناً لبيع الكوكا كولا والمرطبات كما كان يريد أبناء عمومته قبل أن يصبح مقعداً بالكامل، بل وظفها في بناء الغرفة الصغيرة بجوار المسجد، وتأثيثها.

بحسب ما قاله ابن جربوع، فإن الدندان نَظَم قصائد جديدة في السنوات القليلة الماضية. سألتُ، «أهذا صحيح؟». هز الدندان لحيته بأسى وقام بحركة نافية. «راح الطرب»؛ هذا التعبير ذكّرني بقصيدة يعبر فيها عن حزنه حين مر في إحدى رحلاته بآثار مضارب لأفراد قبيلة رحلوا عن العالم. في ذلك الوقت كان لم يزل بمقدور الدندان أن ينجح في التغلب على حزنه بتخيل الأشياء الجميلة التي تمنحها الحياة:

والله ما يبرد لواهيب الضمانى
كون ركب الفيح يوم يروّحنّى
زينهن تالى النهار هريكلانى
بين ضفضافٍ وبين يسربلنّى
شفّ بالي دام يومي ما دعانى
ما حلى برد الهوى بظهورهنّى

فتحتُ الكتاب وأريته الصور الفوتوغرافية: الدندان ينظر برواقية إلى العدسة، وحول فمه مسحة ألم طفيفة. الدندان يقف مع إبله. الجمال وراء أسلاك شائكة.

لم يكن الدندان قادراً على أن يرى أي شيء. أخرج من جيب الصدر عدسة مكبرة قابلة للتمديد وصوَّبها أولاً نحوي ثم نحو الكتاب. ران للحظة صمت، وفجأة انطلقت من أعماق صدره زفرة رهيبة، نشيج بلا دموع. «موجة»، سمعتُه يقول؛ اسم ناقته المفضلة، سيدة الطرب السمراء ذات الوبر الفضي على الرقبة التي سُمي القطيع كله باسمها.

عاد الدندان غائراً تحت البطانيات وأغلق عينيه. قلتُ مقلباً قاموس المفردات، «تستطيع أن تجد كل كلمة من قصائدك هنا. خذ، على سبيل المثال، «عثانين» أو وبر الرقبة، فهذه الكلمة ترد ثلاث مرات»، وقرأتُ الأبيات. ارتسمت ابتسامة من نوع ما على شفتيه. «أنا علّمتُك هذه الكلمة. أنا أشرتُ إلى العثانين وراء أذني موجة».

وقف في الباب اثنان من أطفال مترك ينظران إليّ بجدية وصمت. حاولتُ استنطاقهما بلا جدوى. وتلوتُ:

«أنا وين أدوّر لى مع ذا اللسان لسان

يعاون لساني لا يبين الخلل فية».

قرأتُ بسرعة البيت الأول من كل قصيدة في الكتاب. «أهذه كل القصائد التي ألقيتها؟ هل هناك شيء أغفلناه؟ هل نظمتَ أبياتاً أخرى بعد ذلك؟». قال الدندان، «كلا، هذا كل شيء». غامرتُ بسؤال أخير. «من هو الشاعر الذي قال لك:

«جعل رجمك سهّل الوالى عدامه!
مخطيٍ ما قلت مازون الكلامى»

فردتَ عليه بقصيدة مطلعها:

«بادي رجمٍ ثمانين ألف قامه
وأفطر اللىٍّ من جميع القاف صامى»

«نابت»، قال الدندان. «نابت بن ظافر من المخاريم». ابن ظافر؟ سقط القلم. «الرجل نفسه الذي نقل نديب إليه تحياتك في قصيدة عن ناقة الدنيا؟».
أومأ الدندان بالإيجاب.

.Oral Poetry & Narratives from Central Arabia I: The Poetry of ad-Dindan. A Bedouin Bard in Southern Najd , E.J. Brill, Leiden, 1994 .

بانتظار ابن بتلا

كانت زيارة الدندان كلقاء الحبيب بعد طول فراق. جذوة لم تزل متقدة تحت الرماد، ولكن الحبيبين كانا يعرفان أن الأمل معدوم في توهجها. كل ما تبقّى ذكرى ومعاناة. الدندان كان ينعى ضياع ناقته «موجة»، وحريته. انتظرتُ بفارغ الصبر توهج مشعل جديد، ابن بتلا، أكبر منافسي الدندان بين فرسان الشعر المحليين.

التقيتُ ابن بتلا خلال رحلتي الأولى في بيت صديق مشترك؛ محمد الحنايا، وهو نفسه شاعر، ولكن من نمط الأديب. كان يقوم بزيارة خاطفة للوادي من أجل إعادة تموين مخيمه لأن ابن بتلا كان يعيش حياة بدوي يرتحل في الصحراء ولم يكن يبقى في القرى أطول مما تقتضي الضرورة القصوى.

أردتُ في طريق العودة من الوادي، في نهاية رحلتي الأولى قبل أربع سنوات، أن أطرح بعض الأسئلة التي فاتتني في الطريق إلى هناك على ابن نوير والشيخ خالد، اللذين كانا من ناقلي حكايات البدو وقصائدهم. وكان هذا يعني رحلة طولها 600 كيلومتر متعرجة عبر أشد الصحارى قفراً وقسوة في وسط الجزيرة العربية إلى بئر الدخول، التي يملكها ابن نوير ثم إلى مزرعة خالد المعزولة قرب عفيف على الطريق بين الرياض ومكة[10]. وقبل أن نصل إلى الدَّخول حملتُ مرافقي على تغيير طريقنا مسافة طويلة شرقاً لتناول القهوة عند ابن بتلا.

كانت خيم ابن بتلا وجماعته منصوبة تحت جبل من الغرانيت بلون الصدأ البني، جبل الستارة. وضعتُ ميكرفوني في غرفة الاستقبال داخل «بيوت الشَّعر» التي كانت جدرانها قطعاً مخيطة من الصوف الداكن والأبيض المغزول. دُفع عميقاً في الموقد جذع من خشب السمر، وهو جذر نبات بطيء الاشتعال بلا دخان، يتغير إلى جمرات متوهجة وينشر عبقاً شذياً. المدق يرقص بحركة إيقاعية في الهاون النحاسي الذي تُطحن فيه أولاً حبات القهوة والهيل، يتخللها رنين المدق على حافة الهاون. وما لبث أن وصل سيل من الضيوف؛ بدو من المنطقة المحيطة أغرتهم الدعوة المفتوحة التي كان يعلنها رنين الهاون. نار ذات عطر فوّاح يحتمون بدفئها من برد الصباح الشتائي، قهوة طازجة، زوار من أماكن بعيدة، وشاعر يستعد للإلقاء. كانت كل مستلزمات «الكيف» وعناصر التناغم التام بين الأحاسيس، حاضرة.

بدأت عروق ابن بتلا تتدفق شعراً. أغنيات عن كارثة الجفاف، فرح المطر، رحيل البدو، إبلهم، حبهم، عداواتهم. في بداية الأمسية، أشار قائد من كانوا بمرافقتي؛ رئيس شرطة هذه الصحراء، إلى أنه من الأفضل أن يُسقط ابن بتلا قصائد الثأر من القبائل الأخرى. غير أنه لا هو ولا ابن بتلا كانا يعرفان أن هذه الأبيات «المحرَّمة» كانت في جعبتي مع الأمتعة.

كان المخاريم في الوادي هرَّبوا إليّ شريطاً يمزق فيه ابن بتلا العدو بنصل سيفه الشعري في جلسة خاصة. فرسمياً، جميع السعوديين هم الآن إخوة تحت راية الإسلام النقي، الحق؛ أي الإسلام الذي يُبَشَّر به من على المنابر في المملكة، كما يسمي السعوديون بلدهم في الكلام الدارج. ولكن في السر يعتقد كثير من البدو أن الشعرَ الوحيدَ الجديرَ بأن يحفظه الرجل هو الأبيات التي تمسح الأرض بالأعداء السابقين. وما هو في الشريعة الإسلامية جريمة تعاقب عليها الحكومة بالموت إلا إذا كانت عائلة الضحية مستعدة للتراضي، يمكن أن يُحتفى به في أوساط البدو على أنه مأثرة بطولية تضاف إلى أمجاد القبيلة.

حلفت أيمان غليظة ألاّ نغادر من دون ذبيحة على الغداء. ولكننا كنا في عجلة. كان علينا أن نتوثق من الوصول إلى عفيف قبل المساء، بقطع 400 كيلومتر عبر الصخور والرمال، للقيام بزيارة مفاجئة للشيخ خالد.

أمطرتُ شيخ مشايخ الدواسر ابن قويد، من بروكسل، بالمكالمات الهاتفية والرسائل أطلب منه أن يعرف مكان ابن بتلا وأن يؤمّن لي إمكانية لقائه في الموعد المتفق عليه في الوادي. قال متعب ابن قويد، «ليست هناك مشكلة. إن ابن بتلا لا يجوب الصحراء حالياً. إنه هنا في الوادي وكله تحت تصرفك. سأطلب من محمد الحنايا أن يرتب الأمر».

طرتُ إلى العربية السعودية واضعاً ثقتي بالترتيبات التي أُجريت، وركبتُ السيارة الفارهة المصمَّمة لكل التضاريس التي وضعها وكيل أمير منطقة الرياض تحت تصرفي، وبعد يومين وصلتُ واحة وادي الدواسر على بعد 700 كيلومتر جنوب العاصمة. ولم أُفاجَأ في الحقيقة عندما اتضح في صباح اليوم التالي أنه لم تكن قد أُجريت أي ترتيبات. ففي العالم العربي يُعتبر الموعد نية. الطرفان يؤكدان في هبَّة من مشاعر المحبة المتبادلة أنهما سيفعلان شيئاً لطيفاً في وقت ما في المستقبل، لكنهما يدركان في الوقت نفسه نسبية هذا الاتفاق. وفي كل الأحوال لا تتعلق المسألة بالتزام أو واجب أخلاقي، وبالتالي ليس هناك سبب للغضب إذا أخلف أحدهما الموعد. ولا يتوقع أحد منه أن يتصل ويلغي الموعد في مثل هذه الحالة. ليست هناك مفكرات تُراجَع، ولا يحلم الناس بإخضاع المستقبل لجدول زمني من صنعهم. فكل شيء في هذه الدنيا زائل، عابر، غير معلوم علم اليقين، ولا يبقى إلا وجه ربك الكريم. وإذا شاء ربك أن تتلاشى النية الأصلية أو تتبدد فلا ضير ولا لوم على المرء. وقد يساور الشك، حتى في لحظة العواطف الجياشة، أحدَ الاثنين ولكنه لا يكشف عن شكوكه تأدُّباً، أو أنه يغير رأيه لاحقاً. وفي هذه الحالة يعود إلى الطرف الذي يعلق أهمية على اللقاء أن يلاحق الطرف الآخر.

وكما في نواحٍ عديدة من الحياة، فإن النظرة العربية إلى الارتباطات الاجتماعية تشهد على حكمة وحسن تدبير أكثر تفوقاً مما لدينا بكثير. ولكن هذه المعرفة لا تغير الحقيقة الماثلة في أني كنتُ أعمل وفق جدول زمني غربي وأتعامل كما يتعامل المرابي مع قدر محدود من الوقت صار متاحاً بعد عناء. ومن خلال ظروف مؤاتية كان بمقدوري أن أشعر بالتفوق حسب القاعدة التي تذهب إلى أن «الوقت من ذهب»، ولكني بدلاً من ذلك أبحثُ لنفسي الاسترشاد بالمبدأ القائل «الوقت من شِعر»، الذي لا يبدو أفضل لدى إمعان النظر.

من هذه الزاوية، كان السؤال الذي يُطرح عليّ باستمرار في الجزيرة العربية، «ويش الفايدة»؛ بمعنى ما جدوى جهودك، سؤالاً مبرَّراً بالكامل. و«الفايدة» تعني أيضاً «الربح» أو «الفائدة» على القرض. ورحلتي نُظمت على أساس أفكار غربية عن الوقت بوصفه سلعة ثمينة يتعين استثمارها لتحقيق ربح، أي جمع أكبر عدد ممكن من القصائد البدوية. وما لم أتخلَّ تماماً عن النظام الغربي، مثلاً باحتضان قيم الثقافة العربية والإسلامية، فسيبقى محكوماً عليّ بالقلق والانفعال. ومن هذه الناحية لم أكن أختلف أساساً عن أي رجل أعمال غربي يسافر إلى دولة نفطية مراهناً على عقد صفقة رابحة.

ابن قويد ومحمد الحنايا لم يريا مشكلة. إن نجل ابن بتلا نقل والده بالسيارة إلى الرياض للعلاج في مستشفى العيون الشهير قرب حي الدبلوماسيين. ومثله مثل الكثير من البدو، فقد ابن بتلا نظره نتيجة إعتام عدسة العين. وكل ما كان يراه على شبكية عينه هو أشكال غامضة، ولكن الأمل كان معقوداً على تمكُّن الأخصائيين الأجانب من أن يعيدوا إليه بصره. وفي حين كنا، أنا وسعود، ننطلق جنوباً بسرعة 170 كيلومتراً في الساعة، ربما كان ابن بتلا مر بنا على الجانب الآخر من الطريق.

تحول سخطي إلى قلق. محمد أيضاً كان متكدراً من الوضع. إن أحد أجداده انتخى ابن قويد أن يشمله بحمايته كغريب. والبدو الأحرار لا ينظرون بأي قدر من الرهبة إلى شيخ قبيلتهم، ولكن هذه المساواة الديموقراطية لا تصح على الغرباء الذين تتبناهم قبائل أخرى.

وهكذا، ابتُليَ محمد بطلب ابن قويد أن يساعدني مع ابن بتلا وبقية مشروعي. وكما هي حاله منذ أربع سنوات، كان محمد منشغلاً بزوجتيه، ورعيل أطفاله، ووظيفته كاتباً في الدائرة الزراعية في الوادي. وكان العبء الجديد قطعة أرض ابتاعها من عائلة ابن قويد بهدف تحويلها إلى مشروع زراعي وبيت وارف الظلال تقضي فيه العائلة أيام العطل. وخلال الأسبوع كان البيت الريفي ملاذاً يستطيع محمد أن يمارس فيه الإبداع الشعري أو متع الصداقة من دون منغصات لأن محمداً يعتبر نفسه في المقام الأول ممثلاً مرموقاً للتراث الثقافي المحلي. وكان محمد، وهو نفسه شاعر، يكنّ إعجاباً، لا حدود له، بموهبة ابن بتلا الفطرية. محمد نفسه قال لي ذلك باعتزاز حين زارني في الوادي. وكانت إحدى الغرف تُستخدم في الحقيقة مخزناً لأكياس الشعير التي تمد إبل ابن بتلا بعلف إضافي.

كان محمد يعرف عمل ابن بتلا كما يعرفه الشاعر البدوي نفسه تقريباً. ولهذا السبب اقترحتُ أنه يستطيع أن يضعني في بداية الطريق بمساعدتي على نقل الأشرطة التي سجلتها خلال رحلتي السابقة والتعليقات المرفقة ريثما يصل ابن بتلا. لاح تعبير موجع على سحنة محمد وبدأت عيناه تدوران في كل الاتجاهات كأنه يبحث عن مخرج. وانهمر عليّ سيل من الأعذار. فعصر ذلك اليوم يحضر العمال المصريون ومعهم معازيقهم لحفر ترع إروائية كبيرة وسواقٍ حول فسائل النخيل. وهو ينتظر عاملاً باكستانياً سيأتي ومعه جرّار لخلط التراب بالرمل الذي جيء به من الكثبان ونثره بالجرافة على قطع الأرض التي بقيت بائرة. وعليه أن يعطي أحد أبنائه دروساً إضافية ويقوم بالتسوق لحريمه، وسيارته البك آب المعطلة تحتاج إلى عمل ميكانيكي...إلخ. والأكثر من ذلك أن ابن بتلا نفسه هو المرجع الوحيد لتفسير لغته البدوية العامية الخاصة. إنه مستعد لمساعدتي لو كان هناك متسع من الوقت، وقدر ما بوسعه المساعدة.

كان محمد يتوقع أن يعود ابن بتلا من الرياض في غضون أسبوع. ولا ريب في أنه سيكون على أحر من الجمر لرؤية عائلته. وعقدُ جلسات طويلة مع أجنبي لتسجيل قصائد وتعليقات عليها سيكون آخر ما يخطر على باله. لذا سيتعين ممارسة ضغط شديد على ابن بتلا وإفهامه أن عدم التعاون لن يكون له وقع طيب لدى السلطات التي أُجري بحثي برعايتها السامية. وسيتعين تذكيره بواجباته كبدوي ورجل قبيلة ومواطن سعودي نحو غريب زائر. لكنه مع ذلك سيغتنم أول فرصة للهرب. لذا، من المهم اعتراضه لدى وصوله إلى الوادي ثم ربطه وحبسه معي حتى إنجاز المهمة. «مزرعتي تحت تصرفك»، قال محمد بالتفاتة كريمة. وكان واضحاً أنه شديد الاغتباط بخطته الماكرة للهجوم. «لن يزعجك أحد هنا وسنحتجز ابن بتلا إلى أن تضع النقطة الأخيرة. وحينذاك فقط سنخلي سبيله!».

ذات صباح، وأنا بانتظار ابن بتلا، التقيتُ ببخيتان. وكان بخيتان الذي بلغ الآن أواخر الأربعينيات من عمره، احتفظ دائماً بشيء من عنفوان الشباب وطيشه. لم يكن له أي شَبَه بصورة الموظف في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الشرطة الدينية. وهذه الهيئة مرهوبة بين الأجانب بسبب مطوعتها: رجال ملتحين ذوي وجوه عابسة، مسلّحين بالعصي، يتجولون بسياراتهم وقت الصلاة للتوثق من أن جميع أصحاب المتاجر أغلقوا محالهم أو مصالحهم، وسَوْق الناس من الشارع إلى المسجد. يضاف إلى ذلك أنهم يقومون بدور الجماعة الساهرة على فرض الالتزام الصارم بالاخلاق الإسلامية الحميدة ومنع الإخلال بالنظام العام. وعلى سبيل المثال، يُفضَّل ألاّ تخرج المرأة إلى الشارع بالمرة. ولهذا السبب تُشجَّع على أداء صلاتها في البيت لا في المسجد. وهي إذا غامرت بالخروج، فيجب أن تكون محجبة ومتلفعة بعباءة سوداء من قمة رأسها إلى أخمصي قدميها، وبقفازات صوفية سوداء. وهناك قواعد مختلفة بين البدو في الصحراء، ولكن هذه هي قواعد السلوك التي تلتزم بها السيدات العربيات الأصيلات المتربيات في المدن. والمرأة التي تخرق

هذه القواعد بشكل صارخ، كأن تكشف مثلاً عن كاحلها، لا تُلحِق العار بالرجال من أهلها فحسب، بل ويمكن أن تُشعل فتنة. وهذا النوع من التصرف الأهوج في المجال الاجتماعي العام لا يمكن السكوت عليه كما لا يمكن السكوت على إشعال سيجارة في مستودع مليء باسطوانات من غاز البوتان. لذا، فإن من دواعي اليقظة الاجتماعية أن تُطرَد مثل هذه المخلوقات من الفضاء العام بضربتَي عصا قاسيتين على المكشوف من لحمها.

ولكن، لم يكن هناك ما يوحي بأن بخيتان ينتمي إلى هذا النسل من الملائكة المنقذين. فلقد كان بشوشاً، ولم يُخفِ أن اهتماماته تنصب على النساء وأغاني الثأر من القبائل الأخرى وسمعته هو بوصفه شاعراً ملتزماً اجتماعياً، وعلى سُوق علف الإبل. وخارج ساعات الدوام ـ وبالقياس على نشاطات بخيتان فإن جزءاً ضئيلاً فقط من يوم عمله يقع ضمن هذه الساعات ـ كان يوفر حاجاته المادية من تجارة الشعير والنخالة. وتشمل هذه الحاجات تكاليف امتلاك وإعالة زوجاته الأربع اللواتي انضمت اليهن مؤخراً أخت مطلقة، وتسعة عشر من أطفاله الواحد والعشرين الذين ما زالوا يعيشون في البيت، واضعين على كاهله أعباء مالية تشكل أمثلة مذهلة على الكرم، على الكثير مما خُفي عني من دون ريب، أيضاً.

ينتمي بخيتان، مثله مثل ابن بتلا، إلى المخاريم، إحدى عشائر الدواسر. وكان توطَّن مع غيره من المخاريم في قرية الزويرا، وهي مجموعة من المساكن بُنيت متجاورة تقريباً بين حقول البرسيم وصفوف من أشجار النخيل. بعض السكان كانوا أشباه رُحَّل، وكانت القرية بمثابة قاعدة في الوادي لجميع المخاريم الذين لا يملكون مساكن ويعيشون في خيم في الصحراء مع قطعانهم. في الأصل كان المخاريم مربّي أغنام، وهو نشاط يحتقره تقليدياً بدو الإبل الأقحاح. ولكن لم يكن ثمة أثر لمثل هذا الموقف لدى الدواسر، ربما لأن الجمع بين نمط الحياة البدوي ونمط الحياة المتوطن كان دائماً من طبيعة الأمور عند هذه القبيلة. على أية حال، للمخاريم صيت ذائع بكونهم محاربين أشدّاء، وهي سمعة حافظوا عليها بثارات لا تنتهي مع القبائل الأخرى على آبار ومراع على الحدود الشمالية لمنطقة الدواسر.

كل حلقة في هذا المسلسل المتواصل من العداوات، تلهم الشعراء في كلا المعسكرين نظم قصائد جديدة. والفائز هو الشاعر الذي يوجه أبلغ طعنة إلى إحساس الخصم بالشرف ثم يرش الملح فوق جروح العدو. وتصل هذه القصائد شفاهاً، واليوم على الشريط أيضاً، إلى الغريم الذي يحاول على الفور أن يرد بقصيدة أشد قسوة في هجوها. وبهذه الطريقة تُذكي القصائد مشاعر الثأر وتُبقي الذكرى المريرة لهزائم الماضي ومهاناته حية، وتحض الناس على أعمال عنف جديدة توفر بدورها مادة جديدة لشعراء الحرب.

هذه على الأقل هي وجهة نظر السلطات التي تحاول أن تبقي المارد القبلي في قمقمه. بخيتان وأفراد قبيلته لديهم رأي مغاير. فالشعراء عندهم هم فرسان الكلمة الذين يذودون عن شرف القبيلة الذي لا يمكن صونه من دون ملاحم الموت والغزو والغدر والثأر والثأر المضاد من الأعداء الألدّاء في الصحراء المحيطة. وعندما تلتهب العواطف يساهم بخيتان بسيف شعره. ولكن في مثل هذه المواقف تتوجه أنظار المخاريم إلى بطلهم بلا منازع؛ ابن بتلا.

لهذا السبب وافق بخيتان على إطلاعي على أسرار عمل ابن بتلا المحظور: أغاني الحرب. وقد خصصنا أنا وبخيتان أفضل ساعاتنا لهذه الغواية الجماعية. ولأننا من الذين يستفيقون باكراً، كان ذلك يعني النهوض في الساعة السادسة صباحاً قبل أن تعطل الحرارة عمل الدماغ ويأتي الزوار لقطع تسلسل أفكار المرء عليه، وينتزع العالم بخيتان مني ليحيلني إلى مجرّد متفرج على الهامش.

سعود السائق، وحده زمجر واحتج. كان يؤدي صلاته كل صباح في حوالى الساعة الخامسة مع حراس ميليشيا الإمارة في صف مستقيم ناعس حيث يسجد باتجاه مكة. كان بمقدوري أن أسمعه يتعثر ويزفر حين يبدأ مكبر الصوت أزيزه ويوقظ صوت جهوري المؤمنين من نومهم. بعد ربع ساعة يعود الجميع متهالكين تحت بطانياتهم ليستأنفوا أحلامهم المنقطعة من دون أن يكونوا قد صحوا حقاً.

أيقظتُ سعوداً بعد نصف ساعة. وكان هذا عنده دليلاً على أني أحاول اختباره باستفزاز لئيم. وفي باحة منزل بخيتان أخذ ثأره بتلقيني دروساً في الأتيكيت السعودي: «لا تقف محملقاً في البيت هكذا. در له ظهرك فإن حريماً قد يلُحْنَ عند المرور عبر الباب أو إحدى النوافذ». وحين تبدأ الجلسة كان يطلق تعليقات من قبيل «كأنها مدرسة، أليس كذلك يا بخيتان؟ أعجب من أنك لا تضيق ذرعاً بكل هذه الأسئلة!». قلتُ لسعود بلهجة جافة إني لم أعد بحاجة إليه ذلك الصباح، وبإمكانه أن يعود إلى أصحابه في الإمارة، المجمع الحكومي الذي كنا نقيم فيه. قال بخيتان بلهجة تصالحية فور مغادرة سعود، «إنه ليس رجلاً سيئاً، ولكنه محدود».

كان بخيتان مصدر قوتي في الوادي الغدار. فهو رفيق صيد أستطيع الاعتماد عليه. ضخم، قوي، موثوق، صبور، ذو شكيمة. كان يترفع عن الضغائن الصغيرة وأحقاد الكبرياء المجروح، كما يصد ريش البطة عنها بلل الماء. وكان يطارد فريسته دائماً برباطة جأش: التكريم الذي كان يبتغيه بأمثلة مذهلة على الفروسية، والحب كعاطفة متقدة، والشعر كبلسم للروح. وكان من الأمثلة الشهيرة والمسجلة في قصيدة من نظمه، توسُّطه عند عشيرة أخرى من الدواسر للتخلي عن مطالبتها برأس رجل آخر. وكان يشير بنفسه إلى ذلك بتواضع على أنه من باب «جبر الخواطر». وكان بخيتان لا يطيق فكرة إعدام أحد لأنه بينما كان يلهو مع صديق تربطه به أيضاً صلة قربى، أطلق النار عليه بطريق الخطأ.

كان بخيتان يتعامل بالدفء نفسه في البيت. وبين حين وآخر كان أحد أبنائه يأتي طالباً توقيعه على تقارير مدرسية أو واضعاً أمامنا مائدة الفطور، ولكن عدا ذلك لم يكن هناك ما يوحي بأن البيت المبني بناء بدائياً عديمَ الذوق وبشعَ المنظر، يضم بين جدرانه 25 شخصاً. وبرغم أن بخيتان كان يحمي أفراد

عائلته بغيرة، فإنه بخلاف الكثير من أفراد قبيلته كان يعامل المرأة بكل جدية واحترام. وفي عام 1964 حين خدم في الجيش الكويتي لمدة ثماني سنوات تزوج بامرأة أحبها. وما لبثا أن اختصما في شهر العسل. وقد خاضا المعركة بمطاردات شعرية كانت القصائد تتطاير فيها بين الكويت والوادي ـ تقول القصائد نفسها إنها كانت تنتقل بيد نديب على بعير ولكنها في الحقيقة كانت تنتقل بالبريد ـ . قصيدة أخرى ألقاها لي بخيتان، كانت عن شعوره بالغضب والإحباط بعد محاولة فاشلة من أجل وصل حسناء مشهورة من يام؛ وهي قبيلة تعيش في منطقة نجران قرب الحدود مع اليمن.

سجّل بخيتان كل حدث من أحداث حياته في قصيدة، وخاصة تداعيات حب كان قصة حياته. وهذا عند بخيتان هو الشيء الطبيعي في العالم لأن أجداده لم يفعلوا غير ذلك. ولهذا السبب، كانت أبياتهم هي كل ما يعرف بخيتان عنهم. ومن دون الأشعار التي نُقلت شفاهاً من جيل إلى آخر، لما عاشوا في وعيه، ولما كان له ماض، ولكانت مشاعره القبلية سُلبت بُعدَها الرومانسي. كان بخيتان يعتبر الأبيات التي تتغنى بمآثر أجداده البطولية في القتال مع القبائل الأخرى كنزاً عائلياً، كصفحات كتاب شفهي عن أنساب البدو ينتقل من الأب إلى الابن.

كان لبخيتان صوت مسموع في أغاني الحرب أيضاً برغم قلة ما يُحتفى به هذه الأيام وحظر هذا الجنس من الشعر منذ زمن الملك عبد العزيز؛ مؤسس العربية السعودية، الذي أصدر مرسوماً أعلن فيه الغزوات والعداوات التقليدية بين القبائل جريمةً عاديةً. وكان مَثَّل بخيتان الأعلى بطل المخاريم وربما الدواسر كلها في حلبة أغاني الحرب المعاصرة: ابن بتلا. وقد استمعنا معاً إلى الشريط الذي سُجِّل خلال جلسة خاصة بين أفراد المخاريم.

1. Oral Poetry & Narratives from Central Arabia II: The Story of a Desert Knight. The Legend of Shlewih al-Atawi and Other Utaybah Heroes., E.J. Brill, Leiden, 1995

أبيات كالصواعق

تبوأ ابن بتلا موقع الناطق باسم القبيلة في حال وقوع «حوادث»، أي في حال نشوب نزاع مع قبائل أخرى. ولهذا السبب كان ابن بتلا موضع تثمين أكثر من الدندان؛ الصعلوك المتفرد. لم يكن الدندان ينجر إلى العصبية القبلية إلا حين يجد نفسه مهاناً شخصياً، كما حدث ذات صباح قبل خمسة عشر عاماً عندما أغارت مجموعة من أفراد قحطان على مخيم للدواسر قرب بئر وأصيب الدندان برصاصة في كتفه.

ابن بتلا كان يركز على قضية ثأر مع قبيلة سبيع يعود تاريخها إلى قبل ثلاثين عاماً خلت، حول بئر في عمق الصحراء؛ بئر جخجوخ. وكثيراً ما كانت غارات تُشَن، تستهدف أحياناً، بطريق الخطأ، أبرياء عابرين يتعين عليهم بدورهم الثأر مما تعرضوا له. في غضون ذلك يُبقي الشعراء المرجل في حال غليان بقصائدهم. وحتى عهد قريب كان ابن بتلا أمضى سلاح دعائي بيد قبيلته، وقد أبقى بأشعاره الحماسية جذوة الصراع بين «نحن وهم» حية.

تبدأ القصيدة الأولى على الشريط بنخوة المخاريم «يا أولاد المنيعي» كناية بجدهم الأول.

يقول المنيعي واللذى هيّض الغنا
من عيلمٍ غزرٍ وأنا قفل بابها
كنّ القوارع يوم عدّلت قافها
فقْرٍ مع بطحا يفوح إقتلابها
أبنَيٍ على ما أرى قدّ خاطرى
واقلامي لساني وقلبي كتابها
من عقب ذا يا راكبٍ عيدهية
وقم السدس ولاّ مظاهير نابها
ركّابها ظفرٍ دليلٍ ليا هرج
وإن حيل بالحيلات يقطع عقابها
تلفي لنا شيخ الضمانين ظافر
عطنا كلامه وإسرعوا بانقلابها
قل له تعدّايه يبي ورث جدّنا
هو عَمْد ولاّ غرّةٍ ما درى به
فان كان ذا جهلٍ عذرنا جهلهم
وديارنا متعاذرة هم جنابها

بعدها، تأتي الموازنة المرحلية. رجل شيخ وصبي يُقتلان على أيدي سبيع، في «ثأر العاجز»، واثنان من محاربيهم الأشداء يُقتلان على أيدي المخاريم: فزدنا حروره بابن هايف محمد

ظفرٍ وعيد اللى حفايا ركابها
لبستْ هنوفه غبرةٍ عقب حليها
وخِلّى دلاله تحتثّي من ترابها

نشب النزاع قبل ثلاثين عاماً عندما رفض أحد مخيمات سبيع السماح لرعاة من المخاريم بأن يرِدوا بئر جخجوخ التي أعارتها المخاريم «منيح» لسبيع. وأسفر ذلك عن إقدام أصحاب البئر على طرد سبيع مطالبين بملكهم المشروع. وفي مجرى العملية قُتل شخص من سبيع وانطلقت الدوامة الحتمية من الثارات.

كان الشيخ والصبي اللذان قتلهما سبيع ينتميان إلى المخاريم ولكن لم تكن لهما صلة بالنزاع على البئر. ولم تكن تربطهما حتى صلة قربى بالحمولة التي استخدمت القوة. فالذين نفذوا الهجوم ظنوا خطأً أن الاثنين من أقرباء المطلوبين. وهذا، بالطبع، لم يكن يعني شيئاً للسلطات والقضاء. فكل عمل من أعمال القتل جريمة بموجب أحكام القانون، أكان ثأراً أم لم يكن. ولكن السلطات أيضاً تضطر في الممارسة إلى التدخل والقيام بدور الوسيط كما لو كانت القبائل أطرافاً في خلاف سياسي. فذوو الشأن في الرياض يدركون أن الروح القبلية القديمة سترفع رأسها برغم الحظر الرسمي.

على شريط بخيتان يقول ابن بتلا لمستمعيه إن أمير الحكومة في الوادي ونظيره في رنية حيث يوجد موطن سبيع، شكلا محكمة من نوع ما في المنطقة الحدودية في الصحراء. وكان الغرض منها هو استجلاء القضية والتباحث مع القبيلتين وإعادة النظام. وذات يوم دعا أمير الوادي ابن بتلا وغيره من المخاريم لمقابلته. وقال الأمير، «يا ابن بتلا، لقد سمعتُ عن قصائد تسخر سبيع منك فيها. فماذا قلتم، أنتم الدواسر، رداً عليها؟». وكان ما تلى ذلك على الشريط هو القصائد التي ألقاها ابن بتلا في ذلك المساء.

اعترفت سبيع بأن ثأرها لم يكن نموذجاً للدقة في التنفيذ، ولكن من دون أن يبدي رجالها أيّ قدْر من الأسف. وكل ما قاله شاعرهم عن الصبي هضرم والرجل العجوز ابن فكشان من المخاريم هو: والله حنّا ندّور راعى العنّه

مير جا في المدارك واحدٍ ثانى

هضرمٍ يا ذياب الليل شِلّنّه
والجعيرةً كلت راس إبن فَكشانى

الدماء البريئة التي أُريقت استغلها بامتنان مشاغبون كانوا يريدون تحريض الجمهرة اللامبالية من أفراد قبيلتهم. وابن بتلا لم يدع، في دوره كشاعر حرب، هذه الفرصة تفوته، ورد برشقة منه: يا نديبى على اللى باقلٍ سنّه

شامخ الناب ما جا فيه ضيخانى
نصّه اللى يدّور راعى العنّه
عدّنا واحد ما حنا بشتانى
يحسب خضيِّر انّه سلم له ونّه
ما بعد قرّ لها في الكيل ميزانى
صيدته شايبٍ قلّ الجهد منّه
لا غريرٍ قضوا به نوب عجزانى
وصيدنا كل غمرٍ وافيٍ فنّه
مصلطٍ وابن هايف ذيب الاقرانى
بار مجلسهم اللى كان له رنّه
واهجرن النظايف عقب ما زانى
والله لو لا اليمام وقَطْعة السنّه
ما نساير ربيعة فيه حقّاني
سارقٍ قد نواه البوق والمنّه
في منيحه نوى المطموع خنّانى
وحنا سكنها بكل مضيق ومدنّه
ما نحسّب ليا زادت بالاثمانى
من بغى الشرع وأحكامه يثبيبنّه
اخذ حقه وصار الروح مجّانى
كون يجعل نهارٍ يقتبس عنّه
قرّ حقه وجا للحكم ميدانى
يل نشامى قتيل الحق في الجنّه
رصّخ حدودها فان كل شيٍ فانى
كل حملٍ ثقيلٍ ما يشيلنّه
كون رَبْعٍ توطّى كل شيطانى
قصيدة أخرى تقول في مطلعها:
يوم تشرون الفشق ويش فيه من اللزوم
كون يِشرَى لا بدت حاجته يقضى بها
كون يذخر في نهارٍ عسى حظّه يقوم
قايمٍ معنا ليا ما اقتبس مشهابها
ديرةٍ ما دون حدّانها واهج سموم
ما زكتِ ملكٍ ولا زيد كلٍ هابها

وتنتهي بـ :

والله لو ان السما ما على شمسه غيوم
ما نساير حق حدّانها طلاّبها

يعني ابن بتلا بالغيوم آل سعود الذين رموا غلالتهم على الشمس اللاهبة للروح القبلية. لم أسمع تعبيراً أسطع من هذا في الصحراء. فالقبائل تقدّم على مضض آيات الولاء لسلطان الملك عبد العزيز؛ الحاكم الذي قال عنه ابن بتلا في أحد أبياته: والله لولا حاكمٍ راحت اطنابه مديد

اسجدت من برّها لا بحرها من عصاه.

ليس هناك إلا الملك الكبير عبد العزيز قاهراً حقيقياً وحيداً للبدو الأكبر سناً مثل ابن بتلا. والأب يعيش في الأبناء الذين حكموا منذ وفاته في عام 195، وفي ذلك وحده يكمن مصدر سلطتهم. وما دام سلطان عبد العزيز محسوساً فإن القبائل سوف تذعن لأحكام الدولة الحديثة. ولكن المرء لا يحتاج إلى خيال واسع لرؤية رسالة أخرى في كلمات ابن بتلا. فإن أحابيل القبائل المتمردة وتعنتها مقدمة لليوم الذي سوف تنقشع فيه الغيوم وتشرق الشمس مرة أخرى بكل بهائها.

الحياة زفت

كانت الساعة تقترب من العاشرة. حان الوقت لذهاب بخيتان إلى سوق الأعلاف. ركبنا سيارته من طراز تويوتا لاندكروزر وانطلقنا إلى حافة المنطقة المبنية نستمع في الطريق إلى شريط كاسيت سجلت عليه قصيدة غزل نظمها بخيتان لزوجته.

كانت السوق صفين من اللوريات المحمَّلة بأكياس خضراء من الشعير زنة الواحد منها 50 كيلوغراماً، وأكياس بيجية اللون من نخالة الحنطة، تتخللها سيارات تجار البرسيم من نوع بك آب. ومن أحواض سيارات الشحن هذه كان عمال مصريون يروّجون بضاعة أرباب عملهم ويحاولون لفت انتباه البدو الذين يذرعون السوق ويلتقون مجموعات في الشارع الطويل بين الشاحنات. كان لدى بخيتان لوريان عتيقان من طراز مرسيدس. اغتنمتُ فرصة انصراف بختيان إلى تجارته فتجولتُ لبعض الوقت في المكان.

كان مصري يرمي أكياس العلف في حوض سيارة بك آب. وبين حين وآخر كان يمسح العرق عن جبهته بسبابة يده ويتظاهر بنفض قطرات العرق ـ طريقة يُري بها الزبون أنه حقاً يبذل جهوداً مضنية ويستحق بقشيشاً سخياً على كدحه ـ . ثم لاحظني وهتف، «هاي، أنت ياللي هناك، أنت سفير برتلندا ولاّ غانا؟». «أنا سفير الدنيا كلها»، أجبتُ، وفجأة، وجهت السوق كلها أنظارها نحوي.

تنفستُ الصعداء حين ظهر بخيتان من بين اللوريات وغادرنا المكان. سرنا ببطء شديد. أشار بخيتان إلى الخلف. كان يتبعنا لوري محمَّل تماماً. «200 كيس من نخالة الحنطة لمحمد بن ربيّع. هدية. أختي في بيته. وهذا يفرض التزامات. إذ عليك أن تكون عند حسن ظن أنسبائك». وكان له أن يضيف أن هذا يصح بصفة خاصة حين تكون أختك متزوجة من أحد رجال ربيّع؛ العشيرة التي أخضعت قبل 200 عام الوادي لمذهب الوهابيين الطهراني وسطوتهم في الرياض.

سرنا بخطى سلحفاتية أمام الشاحنة على طريق رملي مهترٍ بين صفوف من أشجار الأثل (الطرفاء) وحقول تسقيها منشآت رش دوارة ضخمة. في نهاية الطريق توقفت القافلة وبدأ بخيتان وعماله يفرغون الأكياس. ومن كوخ مبني من كتل الإسمنت أطل رجل يبدو عليه الغضب يرتدي سترة زرقاء فاتحة. لم يضع كوفية على شعره الأجعد القصير وكان وجهه البدائي العريض بشفتين غليظتين، أحمر، سلخته حرارة الشمس. كانت البثور بادية من خلال لحيته الكثة. صرخ بي، «من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ ما شغلك؟».

قررتُ أن أتصرف بدلال في الصحراء. قلتُ له بلهجة غير مبالية إني سائح أزور صديقاً في الوادي، وليس لدي ما أفعله، ولا أرى سبباً للعمل لأن لدي ما يكفي من المال. «وأنت؟»، سألتُ بدوري، «هل تحب الوادي بوصفك مصرياً؟».

«زفت، الحياة هنا كلبة سوداء، خراء»، قال بمرارة. «في الليل لا أستطيع النوم بسبب البعوض. في كل مكان ذباب وبراغيث وعظايا وأفاع. درستُ الهندسة الزراعية وأشتغل الآن عاملاً زراعياً. في البداية عملتُ براتب 240 دولاراً في الشهر، بمستواي أنا، ولكن صاحب العمل جعلني عاملاً غير ماهر، وأنا الآن لا أقبض إلا 200 دولار». تهدل منكباه العريضان: ثور هائج، ولكن لا حول له ولا قوة.

قلتُ متفلسفاً، «هذا لأن الشهادات المصرية لا تساوي قرشاً. مصر مزدحمة. الناس هناك كالجراد، أسراب من الجراد تأتي على كل شيء ولا تخلف شيئاً نافعاً وراءها». تذكرتُ صديقاً مصرياً في الرياض، أخاً مسلماً رفض محاجّتي لصالح تحديد النسل قائلاً إنه مؤامرة غربية. نظر الرجل إليّ بارتياب. وقال، «أنت لست سائحاً. السياح لا يأتون إلى هذا المكان الحار، الموحش».

كان واضحاً أن مزاجه تحسن بهذا التواصل مع البشر. دعاني إلى الجلوس تحت سعف النخيل أمام كوخه. رأيتُ سريرين ضئيلين في الداخل، وبعض اللوازم المطبخية. كان الغسيل منشوراً على الحبل. وبجانب الجدار الخارجي كانت هناك أوان وقِدْر من الماء نُقِعَت فيه كمية من الفول؛ طعام المصريين الأساسي.

بدا أن سورة غضبه هدأت وكادت عيناه تدمعان حين بدأ يحدثني عن بلده. جاء من المنوفية؛ «محافظة الرئيس السادات». ترك زوجة وطفلين. يزاول العمل الموسمي وافداً في العربية السعودية ثم يعود إلى وطنه لمدة ستة أشهر، وهكذا دوليك: حياة كلب.

انضمّ إلينا على البساط بخيتان وعماله المصريون الثلاثة ورجل من قحطان في وادي تثليث. وضع مضيفنا إبريقاً من الشاي على النار. سألتُ القحطاني عن أسماء القبائل ومضاربها التي تعيش بمحاذاة هذه المنطقة. أخرج أحد المصريين لسانه من فمه في حركة تنم عن البرم. «أي قبائل؟ ما الفرق في ما تُسمى ومَنْ تكون؟ هذا لم يعد مهماً هذه الأيام!».

أوضح بخيتان أن السعوديين يعتزّون بأجدادهم، وهؤلاء الأجداد كانوا بكل بساطة منظَّمين في قبائل. كلمة «العرب» أُسقطت وسرعان ما نشأ سوء فهم جديد. «ألسنا جميعاً أبناء الأمة العربية؟»، جادل المصري في محاولة جديدة للبرهنة على أنه لدى إمعان النظر ليس هناك فرق، وبالتأكيد ليس هناك

فارق طبقي بين السعوديين والمصريين. «كلا»، قال بخيتان، «عندنا، «العرب» تعني ببساطة الناس، البشر». احتج المصري قائلاً، «نحن العرب كلنا جذورنا في الجزيرة العربية. وبالتالي فإننا، أنتم ونحن، كلنا عرب».

فكرتُ في أن الوقت حان للإدلاء بدلوي. «المصريون ليسوا عرباً. إنهم متحدرون من الفراعنة، لا من الجزيرة العربية. أنتم فلاحون اشتغلتم الطمي على ضفاف النيل آلاف السنين». قال المصري، «دعنا من الفراعنة. فالقرآن يقول لنا إن الفراعنة كانوا طواغيت».

التفتُّ إلى بخيتان والقحطاني: «على أية حال، إنهم بكلمة «العرب» لا يعنون «الناس» بل السعوديين والكويتيين وغيرهم من سكان الجزيرة العربية والمناطق الصحراوية المحيطة. وهم في نظرهم بدو أصبحوا فجأة، بالمصادفة، أثرياء ثراءً فاحشاً. في مصر للبدو اسم مرادف للأشرار. وكان بكل بساطة من المناسب سياسياً للرئيس عبد الناصر أن يتحدث عن «الأمة العربية» وأن يطرح نفسه زعيم هذه الأمة. وظن أنه بذلك سيعبّئ وراءه ما يسمى العالم العربي من المحيط إلى الخليج. وما زال المصريون يفكرون على هذا النحو برغم انقلاب الأدوار في هذه الأثناء».

صرخ المهندس الزراعي «كفى، إننا لا نتناقش في السياسة في هذا البلد. الصلاة والعمل؛ هذه هي القاعدة هنا».

قلتُ لبخيتان، «لا تنخدع. فالمصريون في قرارة أنفسهم لا يحبون العرب».

زمجر المهندس بغيظ: « الآن أعرف ما تروم هنا. أنت مستشرق كبير». فهمتُ ما يعنيه. ففي الأوساط الإسلامية أو القومية تكون كلمة «مستشرق» مرادفاً للعالِم الجاسوس أو المدسوس، الغربي الذي يستغل معرفته باللغة والثقافة للسيطرة على المسلمين والعرب وزرع بذور الفتنة وممارسة دعاية معادية ماكرة. كل هذا بهدف إحباط هذه الشعوب في تطلعها الطبيعي والتاريخي إلى أن تصبح عظيمة وشامخة، قوة دولية كما في قرون الإسلام الأولى.

قال المهندس بلهجة تهديد، « احذر من المجيء إلى مصر، فقد تجد نفسك مقتولاً هناك». وكمن أدرك أنه يسير في الاتجاه الخاطئ قال، «الله يفتح قلبك على الإسلام». «نعم»، أجبتُ، «أرجو أن ندخل كلنا الجنة قبيلة واحدة ثم نتزوج شقيقات بعضنا البعض. وبالمناسبة كم زوجة مسموحاً لك هناك؟».

«المرأتان اللتان تتزوجهما في الدنيا وسبعون حورية». سألتُ بخيتان، «وماذا يحدث لزوجتيك الأخريين؟». تذرع بالقول، «هذا ما تقوله الكتب المقدسة، لا أعرف».

نهضنا بعدما أُفرغت الهدية المؤلفة من علف الإبل. كانت مفاجأة تنتظر النسيب من آل ربيّع لو تفقد حقوله عصر ذلك اليوم. نادى عليَّ المهندس. «أريد أن أعمل في هولندا. ماذا علي أن أفعل؟». قلتُ، «هولندا مليئة بالأيدي العاملة ولا يُسمح بدخول المزيد من العمال المهاجرين». «لكني مهندس!» قال. «لا فرق» قلت. «وكسائح؟». أجبتُ، «إذا كان لديك ألف دولار تنفقها كل أسبوع فأهلاً وسهلاً بك بكل تأكيد».

عاد المهندس إلى كوخه مطأطئ الرأس. التفت فجأة، وبذراعين مرفوعتين صاح، «مصر أم الدنيا!».

ناقة الدنيا

أنزلني بخيتان أمام بيت سلطان الربيّع، شقيق نسيبه علي، لِصق خرائب حصن الربيّع القديم. أردتُ الاستعلام من سلطان عن قصائد من زمن أجداده الدعاة الذين هَدَوا الوادي الوثني إلى الإسلام الحق قبل 200 عام. كنتُ أعرف من زيارات سابقة أن الشيخ لن يتركني من دون موعظة ودعوة حارة لاعتناق الإسلام. فإن الامتياز مسؤولية، وبطريقته الخاصة كانت نياته طيبة.

مرة أخرى كان عليَّ أن أستمع إلى قصة اليهودي الذي أنقذ روحه في اللحظة الأخيرة باختيار الإسلام عندما رأى عدل الخليفة علي. «الآن أريد منك شيئين»، قال سلطان بلهجة معلم ودود لكنه صارم بلا مهادنة، «أولاً، أن تصبح مسلماً. لا تدع زوجتك تضحك عليك»، ثم جرَّ أذني من شحمتها. «اعترف! ألم تستحلفك زوجتك ألاّ تغير دينك خلال رحلتك؟ ثم أريد منك أن تُطْلِق لحيتك. وقل إن شاء الله سأهتدي إلى الإسلام».

أكدتُ لسلطان أن «النية ليست بعيدة. ومن يدري، فقد أفتح ذات يوم مكتباً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هولندا».

على الوسائد المرصوفة على امتداد الحائط في حجرة القهوة الفسيحة، كان رجل يرتدي سترة مهلهلة نائماً وظهره نحونا. أيقَظَته أصواتنا فنهض وجلس معنا. عرفتُ أنه نابت. رأيته قبل أربع سنوات لأول مرة في خيمة لشرطة الصحراء. صعلوك وشاعر يأكل مع الشرطة وينام في مغارة ويتسوَّل ما يحتاج لنفسه وإبله القليلة. كانت تنتابه نوبات من جنون الاضطهاد، وكان أحد أفراد الشرطة يقرأ عليه آيات من القرآن لطرد الجني الذي في رأسه.

قرأتُ لسلطان من كتابي الذي يضم بين دفتيه قصائد الدندان. أثار هذا اهتمام نابت ودس أنفه المجدّر في حديثنا. أراد مني أن أسجل قصيدة يرد بها على الدندان. وفجأة تجمعت مفاتيح عدة لحل اللغز.

إحدى قصائد الدندان تقول في مطلعها:

بادي رجمٍ ثمانين ألف قامة
وافطر اللّى من جميع القاف صامى

كان الدندان شرح أن هذا رد على قصيدة نظمها نابت، وأن الأصول تقتضي أن يكون الرد بالوزن والقافية نفسيهما: جعل رِجمك سهّل الوالى عدامه

مخطيٍ ما قلت مازون الكلامى

كنتُ توصلتُ إلى أن البيت هو المقطع الأخير من القصيدة التي ألقاها نابت. ولكن الآن وقد استمعتُ إلى القصيدة كاملة، بات واضحاً أن نابت كان يرد بدوره على تحدّ آخر من الدندان الذي وجه إليه قصيدة مليئة بالألغاز والمطبات.

البحر لا فاض ما شيٍ يضامه
طمّ حتّى النوّ من فوقٍ الزوامى
التهامى جاك له في الجوّ حامة
والشتا قطعت سلومه من شمامى
الرحيّ من الكويت إلى تهامه
والعدد عندك ترا هذا كلامى
عِدّ رمل العرق وإحذر فى تمامه
واحص عدّه فى خداريس الظلامى
أنشدك يوم أنت ما عندك بهامه
عارفٍ تدري بمضمون الكلامى
ويش غمرٍ ما مشى للنور قامه
وإن قفاه النور دبّر واستقامى
في ظهر وَجْناً تغير بلا قوامه
بطنها يدعي ظهرها للعدامى
دايما بشدادها ثمها همامه
ما يحطّ الكور منها للمقامى

الجواب: رجل وظله لا يمضيان إلا نحو موتهما في هذه الدنيا، تمثلهما ناقة الدنيا؛ الوحش الذي يدمر ويلتهم كل ما وجد. بعد الألغاز يتحول الدندان إلى مهندس يبني قلعة بحجم لا يُصدَّق: حصن يستغرق المشي حول محيطه تسعين عاماً، وينابيع في طبقة الأرض السابعة، ودعامة سقف تناطح سيقان عرش الله، والشمس والقمر زينة للسطح وملاك الموت حارساً. ومن هناك يقصف الدندان غريمه بقذائف أبياته ويلقنه درسا: والكلام إعرف حلاله من حرامه

عرّبه خلّه كلامٍ من غلامى
«كفْر»، قال نابت،
«منطق الرحمن وامر الله تمامي
لا بنى له قشلةٍ صقعا دمامه

كلمة الله لازمٍ تعمي الصوامي».

بدا ذلك دفاعاً ضعيفاً. فنابت لا يستطيع أن ينازل الدندان إلا بعون الله.

كنتُ أريد أن أعرف المزيد من نابت ـ عن الدندان وقصائد أخرى في مطارداتهما الشعرية، وخاصة القصائد التي تقاتل بها الدندان وابن بتلا منذ زمن طويل ـ . ابن بتلا كان يصغر الدندان بحوالى عشر سنوات. وفي طفولته سمع قصائد من نظم الدندان كانت تُلقى حول نيران المضارب. وفي سنوات لاحقة انخرط في صراع الجبابرة على عرش الشعر في الوادي. وكان من دواعي اغتمامي أن الدندان وابن بتلا رفضا قبل أربع سنوات أن يعيدا إليّ الأهجوات التي تراشقا بها في الماضي السحيق. ابن بتلا كان عنيداً بشأنها كما كان بشأن أغاني الحرب التي نظمها. تمتما شيئاً عن طيش الشباب وقرب الساعة التي سيقرر فيها العلي القدير مصيرهما الأبدي. وأشار ابن بتلا إلى كلمات شاعر من القرن السابق: لو ان مدانا الموت فالموت هيّن

لو كل من يِقْبر يصير تراب
والله اشوف العبد يوم انّه مهوّل
تمرّ الرواسى كنّها سحاب

نابت، مثله مثل الدندان، كان أعزب وصعلوكاً يجوب الصحراء وحيداً مع قطيعه الصغير ويعيش على هامش المجتمع البدوي. وكان الشاعران بنظر أفراد قبيلتهما ينتميان إلى الشعراء الجوّالين، برغم أن الدندان كان يُعَد الشيطان الأكبر بينهما. كان الجميع يعرف بوجود حلقة سرية، شعراء تحت الأرض على أطراف مجتمع الوادي المحافظ المتزمت. وكان الدندان وأصحابه ينشرون نصوصهم كفناني الرسوم التخطيطية في قطارات الأنفاق. أحياناً، كانوا يهاجمون بعضهم بعضاً. ثم يتصاعد العنف الشفهي وتُطلَق رشقات ترتعد لها فرائص العالم الخارجي: «وجمعتُ النجوم ونيّة الخبث للعدوان **على شان أبيهم يسكنون الحرامية»!**

صرخ الدندان في القصيدة التي عاقبه الله عليها بالتهاب في ركبته. والحرامية الذين كان الدندان يشير إليهم هم غرماؤه في غابة الشعر في الوادي. غرماؤه ولكنهم أيضاً أصدقاؤه الذين يحتاج إليهم للحفاظ معاً على جذوة ثقافة أخرى يشعر بها بين أهله؛ عالم تسوده قوانين أخرى حيث الكلمة الأخيرة لهم لا للسلطات والشيوخ وحديثي النعمة وأصحاب الجاه وغيرهم من علية القوم في الوادي.

قلتُ مشجعاً، «هيا يا نابت، قل لي ما تعرف عن القصائد المتبادلة بين الدندان وابن بتلا». نابت الذي سبق له أن عمل لفترة قصيرة مع الدندان حارساً في جدة، بدأ يجمع شتات ذاكرته. ولكنه أُسكت قبل أن أبدأ التسجيل: «أبيات ماجنة، لغة بذيئة. غير لائقة بالمرة»، قال سلطان.

وبذلك أفسد ابن ربيّع فرصتي الأخيرة. وصمت الغرماء من عالم الصعاليك السفلي صمْتَ القبور في هذه الواقعة. أنصارهم من سكان البيوت المتعلمين في العالم العلوي كانوا بُكْماً بالقدر نفسه. بخيتان اكتفى بهز رأسه. «أنصحك بأن تصرف النظر عن هذا الموضوع». «اتركها مرّة».

الوادي كله كان يعرف السر ولكن كانت هناك مؤامرة صمت محيكة ضدي. وبرغم أني عرضتُ ثمناً كبيراً لقاء الأبيات القاتلة التي تراشق بها الدندان وابن بتلا، إلاّ أني لم أصل أبعد من المقطع الأول من رد ابن بتلا:

ما همّني شرما توقف على المجحار
وأنا طير قرناسٍ على الجحر أوزّيها

كل ما اكتشفته أن الدندان سحق على ما يبدو خصمه في منازلة شعرية حتى الموت. الأبيات دُفنت مع المعول. وإذ استبد الخوف من نار جهنم الأبدية بالغريمين، أعلنا براءتهما من القصائد التي حاولا فيها محق أحدهما الآخر. في الماضي كانت الأمور أسهل على جامعي هذا النمط من الشعر. وفي العالم الأدبي للتاريخ العربي القديم كان هناك، على النقيض من ذلك، تقدير كبير للقصائد المشهودة التي نُظمت في مطاردات بين الشعراء.

«قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم بولي على النار»

مقطع ظل يتردد على الألسن مئات السنين بوصفه ذروة فن الهجاء. لقد فقد البدو حرية التعبير عن أنفسهم في هذا الشكل الفني.

قلب من حجر

يوم غادرنا الرياض على الطريق الجنوبي السريع إلى الخرج، أعطاني سعود أسماء المناطق التي مررنا بها. أشار إلى أرض منبسطة تحيط بها بيوت خفيضة فقيرة المظهر: «هذه محلة العبيد. عبيد كثيرون من قبيلة الدواسر يعيشون هناك» ـ في إشارة إلى حقيقة معروفة على نطاق واسع في العربية السعودية، وهي أن في الوادي فئة سكانية كبيرة نسبياً من السود المتحدرين من عبيد كانوا يعملون في بساتين النخيل. وبنظر القبائل الأخرى التي تفتخر بنَسَبها البدوي الأصيل، فإن الدواسر اختلطوا بصنوف شتى من الأغراب حتى باتوا عرقاً نغلاً ـ.

الحَسَب والنَّسَب، في العربية السعودية، حاسمان في ما يحظى به المرء من احترام. وتترتب على هذا الفكرةُ القائلة إن الدواسر يأتون معنوياً على مستوى أدنى، وإنهم أقل اهتماماً بمُثُل الفروسية الصحراوية. البدو من الدواسر ـ وكل واحد تقريباً في الوادي اليوم يريد أن يصور نفسه بدوياً أصيلاً ـ لا يتخلفون، بالطبع، وراء القبائل الأخرى في الكبرياء. وقد اتخذوا موقفاً متحاملاً على الدواسر الآخرين: «الحضر»، الاسم الجماعي لكل المهاجرين الذين توطنوا بجوار مجموعات معروفة الأصل من الدواسر في الوادي، أكانوا من الخلاسيين أو السود.

قال لي سعود إن هناك سجوناً عديدة في حلّة العبيد. سألتُ باستغراب، «هل حدثت مثل هذه الزيادة الكبيرة في الجرائم؟»، لأن أرقام الجريمة المتدنية تثبت نجاعة الشريعة الإسلامية لو طُبقت بلا مهادنة في العربية السعودية. «كلا»، قال سعود. «هذه السجون فارغة. لقد بُنيت للمستقبل». من الواضح أن العربية السعودية تهيئ نفسها لأوقات عصيبة. والسلطات الحكيمة تأخذ في الحسبان احتمال أن تكتسب قاعة الانتظار التي يمر بها الأتقياء قبل دخولهم الجنة، سماتِ الدولة الاعتيادية ذات يوم.

على بعد كيلومترات قليلة مررنا بمدينة ذات بيوت حديثة وعمارات سكنية ـ مشروع إنشائي من مشاريع وزارة الداخلية بقي شاغراً طوال سنوات ـ. فالمواطن السعودي لم يعد يرضى بأقل من فيلا منيفة مسوَّرة. بل إن هذا يُعتبر واجباً دينياً؛ الطريقة المثلى لتطبيق المعايير الأخلاقية التي تقضي بأن تبقى الحريم، من زوجات رب البيت وبناته، بعيداً عن أنظار الغرباء. ولكن حتى العمارات السكنية بدأت الآن تمتلئ، كما يقول سعود. والمشترون هم في الغالب بدو شباب من العجمان وسبيع وشمر وقبائل أخرى أخذوا يديرون ظهورهم إلى حياة الصحراء ويتطوعون بأعداد متزايدة جنوداً محترفين في صفوف الجيش. ونظراً إلى الانفجار السكاني ـ 10 . أطفال إلى 20 طفلاً لكل أب رقم اعتيادي ـ ليس من المستبعد أن يشرعوا قريباً في الاقتتال حتى على الشقق.

تركنا الضواحي، وقرب الخرج مررنا بمزارع شاسعة وقصور ريفية لقضاء أيام العطل يملكها أفراد العائلة الملكية ومواطنون نافذون، وهي تحفة زراعية تُسقى من مكامن مياه جوفية تُضَخ إلى السهل الصحراوي. وامتد أمامنا شريط مستقيم من الإسفلت، لا شيء عداه سوى فلاة قاحلة وانعكاس متلألئ للسماء الفلزية. وعلى طول الطريق بين كل بضعة كيلومترات كانت هناك ألواح كُتبت عليها نصوص تحض السائقين على التحلي بالإيمان: «استعن بالله»، «استغفر الله»، «قل آمنتُ بالله»، «تعوَّذ من الشيطان»، «توكل على الله»، «سبِّح باسم الله»، «احمد الله، لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وعلى الطريق الصحراوي الرتيب الممتد مئات الكيلومترات، يطيع مستخدمو الطريق جماعياً الدعوات إلى تسليم مصيرهم بيد الله. شاحنات ذات عربات مقطورة كانت تهدر بسرعة تزيد على 140 كيلومتراً في الساعة. أبقى سعود مؤشر السرعة ثابتاً بين 170 و180. كان يغلق عينيه ليتحاشى النور الأبيض الساطع. وتحت شاربه الرفيع نتأ عود أسنان بلا حركة من بين شفتيه نصف الفاغرتين. وإذ كان يتجاوز السيارات الأخرى ويدفع السيارات القادمة من الاتجاه المعاكس نحو كتف الطريق الصلب، بدا أنه كان يغالب النعاس. سألتُ، «ألا تضع حزام الأمان؟». قال سعود، «البدو لا يفعلون ذلك. قلبهم من حجر». في الأسبوعين اللذين تنقلنا خلالهما معاً سمعتُ ذلك مرات عديدة: «ليكن قلبك من حجر».

لم يكن سعود في الواقع بدوياً. قلبه بعيد عن كونه قُدَّ من حجر. فمنذ طفولته عاش في مساكن. وفي الستينيات عمل في بلاط الملك فيصل، وكان من أفراد الحاشية الذين يتسكعون من دون بزات رسمية في غرف الاستقبال وصالونات الانتظار لدى أصحاب الجاه والسلطان، لأن الطبقة في العربية السعودية لا تُقاس بحجم القصور وفخامتها والبيوت الريفية وأساطيل السيارات فحسب، بل وبعدد أفراد الحاشية ونوعيتها أيضاً. وأفراد الحاشية ليس لديهم ما يفعلونه لأن العمل الحقيقي تؤديه أفواج من العمال الوافدين الأجانب. مهمتهم الوحيدة ـ شديدة التطلب على نحو ما ـ هي أن يكونوا موجودين دائماً. فهم يقومون بدور اللاقطة الحساسة، دائماً يستمعون باهتمام بالغ إلى حكايات سيدهم وقصصه كأنها تُروى لأول مرة، لا يناقضونها أو يصوبونها أبداً، ولديهم القدرة على تحمل ستين فنجاناً أو أكثر يومياً من الشاي شديد الحلاوة أو القهوة المرة، ويبدون أكثر جوانبهم بشاشة ولطفاً في الصالون، ويخوضون الجدالات مع زملائهم خلسة وفي إطار دسائس البلاط. وهم يمكن أن يتصرفوا بغطرسة مع الزائر الأقل منزلة من سيدهم، وينظرون إليه نظرة استعلاء ويردون عليه بإجابات مقتضبة. ويزداد عجب الزائر حين يرى دماثة الأمير نفسه وكياسته.

ترعرع سعود في هذا العالم وكان يشعر فيه كأنه بين أهله. وبرغم عمله الآن سائقاً ودليلاً للزوار لدى الجهاز الحكومي الذي يديره الأمير سلمان بصفته أمير منطقة الرياض، فإنه كان يقضي معظم وقته حاجباً عند مختلف الوجهاء في القصر الإقليمي. كان سعود يعتبر نفسه رجلاً يعرف الدنيا. وكنتُ افترضتُ أن سلطة الإقليم ستختار لمهمتي دليلاً اعتاد الرحلات الصحراوية الشاقة وبساطة الحياة البدوية. فاتضح أن لا شيء أبعد من ذلك عن الحقيقة. كان سعود يجيب عن أسئلتي بلهجة تقرب من الفظاظة قائلاً إنه لم يغادر الإسفلت قط طوال حياته، وإنه لا ينوي مغادرته الآن. ولم يسبق أن وطأت قدماه قفراء نائية مثل وادي الدواسر.

وسعود، كونه دبلوماسياً بالسليقة، لم يلبث أن اتخذ الخطوات الأولى ليجمع رصيداً من التظلمات في وجه خصمه. فمن أجلي ترك عائلتيه في الرياض برغم أن المخصصات اليومية لم تكن كبيرة بكل تأكيد بعد الإجراءات التقشفية الأخيرة. والرحلة إلى منطقة الوادي شبه البرية التي نادراً ما تعرف الهدوء، والتي تفتقر إلى كل متطلبات الراحة الحديثة، لم تكن نزهة بكل تأكيد. مع ذلك كانت تضحية قدمها لي بكل سرور. كما أني في هذه الأثناء تعلمتُ الكثير منه في مضمار المجاملات الاجتماعية وآداب المائدة واستخدام العبارات المناسبة والكلمات المهذبة ـ باختصار أتيكيت بدو الصالونات ـ . ولو فهمتُ ذلك، كما هو متوقع من شخص ذكي وعاقل، لعرفتُ ما يشعر به سعود، لكنه يرى من غير اللائق أن يقول لي بصراحة بأن شخصاً راقياً مثله لا يُنتَظر منه أن يمضي أكثر من بضعة أيام في الوادي، ولا سيما أن القضية لا تتعلق بأي مصلحة من مصالح الدولة. وسيكون من الظلم والإجحاف مطالبته بأكثر من ذلك. نقل سعود هذه الرسالة إليّ بألف طريقة مستخدماً الكلمات والإشارات وإيماءات الجسد.

كانت أمامي ثلاث استراتيجيات لمواجهة حركة سعود: الرفض بإبداء الغضب والسخط، وترضيته بالتفهم والتفاوض، والتظاهر بأن إشاراته غير المباشرة فاتت عليَّ تماماً، وبذلك لا أترك له من خيار سوى أن يكشف أوراقه أو يسلم بحقيقة أن مآربه باءت بالفشل. وبالسليقة، اخترتُ الاستراتيجية الأخيرة. لكني مع ذلك سمحتُ لنفسي بالانجرار إلى الاستفزاز في ثورات من الاستياء كان علي أن أدفع ثمنها لاحقاً. وبهذه الطريقة أرغمني سعود، من موقف الضعف الذي كان فيه، على التفاوض ومناقشة أمور شعرتُ بأنها لا تعنيه.

في الوادي شرحتُ الوضع للأمير، ممثل سلطة الأمير سلمان في الإقليم. وبحضور جميع أفراد الحاشية وفي مكتب مليء بالزوار، بينهم سعود نفسه، طلبتُ الإذن بإعادة سائقي إلى أهله. لم أوجه اتهامات بل كان ذلك بكل بساطة بادرة إنسانية مراعاة لأحوال رجل ذي مسؤوليات عائلية جسيمة ليس لديه ما يفعله في بيئة ليست بيئته. وسأكتفي، من باب التعويض، بسيارة بك آب عتيقة.

نهض الأمير للاتصال هاتفياً بمسؤوله، وكيل أمير الرياض. عاد وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. فالتعليمات من الرياض واضحة: سعود وسيارته من نوع نيسان باترول سيكونان تحت تصرفي ما دمتُ بحاجة إلى وسيلة نقل. ولم يكن بوسع الأمير أن يعطيني سيارة بك آب.

لقد أعيد خلط الأوراق من جديد. وكان علينا أنا وسعود أن نتعايش طوال الفترة التي تستغرقها الرحلة. ولكن المعركة ظلت مستمرة. وفي الطريق إلى الوادي أخذ سعود زمام المبادرة في لعبة الكرم. تعيّن علينا ثلاث مرات أن نزوّد سيارة الجيب بالبنزين الذي تستهلكه بكثرة خلال الرحلة التي قطعنا فيها 7(كيلومتر، وثلاث مرات كان سعود أسرع مني في دفع الفاتورة. وفي المرة الأخيرة التهيتُ بالحديث مع عامل المحطة الصعيدي عن الأشخاص العشرة الذين ذكرت الصحف أنهم قُتلوا قبل يوم في اشتباك بالأسلحة النارية بين القوات الحكومية وأصوليين في أسيوط. قال عامل المحطة إن القضية لا تمتُّ بصلة إلى الدين بل كانت قضية ثأر: إذ اعتقل رجال الشرطة نساء بدلاً من رجالهن المطلوبين فضربوا على وتر حساس لدى إحساس المصري الصعيدي بالشرف. في غضون ذلك قام سعود بحركته. ومقابل ثمانية سنتات للتر كانت الخسارة المالية طفيفة لكني عقدتُ العزم على أن أفعل شيئاً بالمقابل في مطعم على الطريق. ومرة أخرى منيتُ بالهزيمة. فقد استغل سعود، بمكر، ذهابي إلى دورة المياه ليدفع خلالها الفاتورة. كانت كلها مبالغ بسيطة ولكنها كافية لخلق إحساس بالالتزام لدى الخصم.

ما إن وصلنا إلى الوادي حتى بدأ سعود ينظّم دورة تعليمية مكثفة في فن الجلوس على البساط، المكان الذي يقضي عليه السعودي الشطر الأكبر من حياته في الحديث أو الأكل أو الاستلقاء أو النوم. وفي إحدى المناسبات لم أجلس حسب مشيئة سعود بإبعاد وجهي قدراً كافياً عن الدار لكي لا ألقي نظرة خاطفة بطريق المصادفة على امرأة محجبة تمر مسرعة. وفي مناسبة أخرى كشفتُ عن جزء كبير من كاحلي أو ساقي الممدودة من تحت لباسي. وكنا نأكل أيضاً على الأرض بدس الساق اليسرى تحت الورك والساعد الأيمن مشمر الكم يربض مستعداً على ركبة الساق المرفوعة. ومن هذا الوضع ينتظر المرء ويده متدلية على ركبته حتى يكون المضيف فتح أخاديد كبيرة في الذبيحة المشوية بسكين ويقول أحدهم «باسم الله»، فتكون تلك إشارة إلى الأذرع المحيطة بالطبق لحفر مغارة في الرز عند الحافة وملئها بمرقة خضار أو باللبن وتمزيق اللحم الساخن.

كثيراً ما كنتُ آخر مَنْ يفرغ من الأكل لأن أصابعي كانت أقل مقاومة للحريق ولأني كنتُ كثير الكلام. وعلى أية حال فأنا كنتُ أُقْبِل على الطعام بشهية ولكن ببطء. بعد الذبيحة الأولى انتحى سعود بي جانباً. فحين أرى أن الأذرع عادت إلى مواقعها الأولى على الركبة تكون هذه إشارة لي بأداء الحركة نفسها. وعلى الرجال المتحلقين حول الطبق ألاّ يتوانوا في الأكل فبعدهم تأتي مجموعة ثانية من الرجال الأصغر سناً أو الأدنى منزلة، ثم الأولاد، وأخيراً النساء في المطبخ. وحتى عندما يسرع الجميع يكون لحم الذبيحة والرز قد تجمدا في كتلة باردة غير شهية حين يصل الطبق إلى وجهته الأخيرة.

الأتكتيت يُعتبر لب الثقافة عند سعود. ولهذا السبب كان ميالاً إلى العزف على الموضوع. ونادراً ما كانت ذبيحة تُنحر من دون أن يسهب سعود، ونحن نأكلها، في الكلام على ما تعلمه في بلاط الأمير من آداب رفيعة. فالأمير كان لا يني يؤكد: «لا تهتموا بي. إذا كنتُ آكل وأنتم انتهيتم من الأكل فانهضوا واذهبوا للاغتسال». كان سعود يلقننا هذا الدرس في الآداب والوليمة لم تزل في أوجها. وكثيراً ما كان نظراؤه في الأكل يصوِّبون إليه نظرات حائرة متساءلين إن كان سعود يعني أنهم برأيه أكلوا ما فيه الكفاية وعليهم الانسحاب من الميدان.

لدى النهوض من الدائرة المحيطة بالطبق كان بمقدور سعود أن ينتقي كمّاً هائلاً من مجاملات الضيافة. وكنتُ إزاءه أرى عبارتي البسيطة، «الله يزيد فضلكم» هزيلة جداً بالمقارنة مع مجاملاته الكثيرة: «أكرمك الله»، «أنعم الله عليكم وأرحم الله والديك»، «جعل هذا طبعكم وحنّا من رَبْعكم»، «جعله محل عامر ودايم»، «عسى والداك في الجنة»، «خلّف الله عليك»، «الله يسّر عليك بيسرى»، «زادك الله من زوايد فضله»، «الله يعينك ولا يهينك»، «يا راع الماعون الله يعينك». كان سعود يطلق، من دون عناء، سلسلة من هذه العبارات في الطريق من الذبيحة إلى المغسلة.

«الخويا»

بقينا في الإمارة. وفي الأيام التي لم نتلقَّ فيها دعوات من شيوخ الذبائح أو البدو، كنا نأكل هناك بعد ساعات الدوام الرسمي من قِدر الغداء البسيط الذي يتناوله «الخويا». وكلمة «خويا» تعني «المرافقين» أو «الأدلاّء» الذين يرشدون الرحالة بأمان عبر أراضي قبيلتهم. وهي تُستخدم الآن للإشارة إلى أفراد الحاشية المسلحين في قصور الأمراء الكبار وأمراء الحكومة في الأقاليم. ويمكن التعرف إليهم من أحزمة الرصاص المتصالبة على صدورهم والجرابات المتدلية على جنباتهم ولكنهم لا يرتدون بدلات رسمية. ويُجنَّد هؤلاء الحراس شبه العسكريين أو أفراد هذه الميليشيا من بين قبائل البدو في عموم البلاد. وهم يمكن أن يخضعوا للمناقلات، لكني لاحظتُ أن غالبيتهم من رجال المنطقة نفسها، والباقين لا يبعدون أكثر من نهار واحد بالسيارة عن أفراد قبيلتهم وقطعان إبلهم.

بعد غياب استمر أكثر من أربع سنوات، وجدتُ الوجوه المألوفة نفسها في الغالب. «الخويا» في الوادي كانوا ينتمون إلى الدواسر وقبيلة قحطان المجاورة. الاستثناء كان آل مرّة، وهم رحّل يجوبون رمال الربع الخالي الشاسعة، ويحظون بالإعجاب في سائر أنحاء البلاد لمهارتهم الأسطورية في «قص الأثر» وسط الصحراء (معرفة مَنْ مر، ومتى، وماذا كان يمتطي، من آثاره) وسُمعتهم في الموثوقية بسبب ولائهم القديم للعائلة الملكية السعودية. فكل تلميذ يعرف ذلك الفصل من التاريخ الوطني الذي يروي كيف علَّم آلُ مرّة عبدَ العزيز الشاب خفايا الحياة البدوية. وكان والده لجأ إليهم حين طرده من الرياض آل رشيد؛ أمراء حائل. والأكثر من ذلك أن أفراد آل مرّة معروفون على نطاق واسع بنكاتهم ومقالبهم: ما من زائر لمضاربهم يفلت من دون تحديه لسباق ما في الرمال أو المزاح معه بمداعبات عنيفة أو الضحك عليه بمئة طريقة وطريقة.

وفي حين أن «خويا» القبائل الأخرى دائماً ما يبدون غير مهندَمين وغير مرتبين ـ يرتدون الثوب نفسه نهاراً وليلاً، أقدامهم المتشققة والمتقرنة تنتعل صنادل بالية ـ فإن أفراد آل مرّة يظهرون دائماً في منتهى القيافة والشياكة. وإلى جانب الثوب الأبيض التقليدي أو اللباس الرمادي الضارب إلى الزرقة الأخشن ملمساً، فإنهم يرتدون ثياباً خضراء زيتونية منشاة حديثاً مع جوارب بيضاء في أحذية أنيقة من الطراز الإيطالي. وهم دائماً منشغلون في تشذيب لحاهم وشواربهم السود المكتملة بمقصات جيب صغيرة. سيارات نظرائهم الدواسر كانت عربات مضعضعة ولكن أفراد آل مرّة كانوا يقودون سيارات جيب من طراز تويوتا يسهرون على صيانتها ويحرصون على تجهيزها بإطارات ضخمة للسير في الرمل: السيارات التي ينقل بواسطتها سكان الصحارى الكبرى والكثبان ما يحتاجون إليه من الماء والبترول وبالات الشعير للإبل مئات الكيلومترات. وكانوا كل بضعة أسابيع يحمّلونها بممتلكاتهم ويرحلون لزيارة عشيرتهم أحياناً في المنطقة الحدودية بمحاذاة جنوب اليمن وعمان وأحياناً أخرى في عمق الربع الخالي، تلاحقهم على الدوام نظراتي الحاسدة.

«الخويا» رجال أشداء بسطاء. يُدعون من حين إلى آخر للتحرك حين تندلع قضية ثأر بين قبيلتين أو يتعين ملاحقة مهربين في الصحراء. ولكن في أغلب الأحيان تكون سيارات البك آب الحمراء من طراز «جي أم سي» التي تربض في حوضها الخلفي منصة لمدفع رشاش، واقفة يتراكم عليها الغبار تحت سقيفة في زاوية من مقر الإمارة. وطوال وقت العصر والمساء كان الرجال يجلسون على البساط المربع يفصلهم حائط منخفض عن باحة المجمع الرملية، مستظلين بسور خارجي. وهناك كانوا يتولون الرد على الهاتف بعد أوقات الدوام ويحتسون كميات لا تنتهي من الشاي والقهوة ويلتقطون حبات التمر من كتلة مكبوسة دبقة في صحن يعج بالذباب ويتبادلون الأخبار والحكايات. ولقد أمضيتُ، أنا وسعود، أياماً متواصلة معهم، بانتظار عودة ابن بتلا من الرياض.

كان «الخويا» أميين أو لديهم ما يكفي من التعليم الابتدائي للقراءة البسيطة. لم أر، قطُّ، أحداً منهم يقرأ جريدة أو كتاباً، ولا حتى القرآن. كانوا يؤدون فرض الصلاة بانتظام خمس مرات كل يوم في مسجد الإمارة، ولكن ما عدا ذلك لم يكن في موقفهم ما ينم عن اهتمام أو حماسة دينية خاصة. لذا، وفروا عليَّ في صحبتهم تلك المحاضرات الدينية لهدايتي إلى الإسلام، التي كثيراً ما تجعل التعامل مع السعوديين الآخرين مهمة شاقة. الكَتَبة وحدهم كانوا يأتون لقضاء فترة الاستراحة معنا وكانوا لا يملكون إلا توبيخي على تماديَّ في الخطأ ورفضي الدين الحق الوحيد.

لم ألحظ قطُّ ذرة واحدة من الاهتمام بالعالم الموجود خارج العربية السعودية بين «الخويا». وذات مساء وُضِع جهاز تلفزيون محمول على حاجز خفيض عند حافة البساط فكنتُ أنا المشاهد الوحيد. وكان من الجائز تماماً أن الأخبار التلفزيونية تكرار لنشرة أنباء بُثت قبل أربع سنوات. فعلى امتداد عشر دقائق كان وزير الخارجية يستقبل نظيراً تلو آخر لحضور اجتماع تعقده دول الخليج. المشهد نفسه يتكرر دائماً. العباءة المتطايرة والعقال لوزير يهبط من الطائرة، والمضيف السعودي يتوجه لاستقباله على بساط أحمر، ثم المعانقة وصوت المذيع يعلن أننا الآن نشاهد استقبال صاحب السمو من البلد كذا وكذا. وبين هذه اللقطات هناك لازمة موسيقية محايدة شبه كلاسيكية، فارغة من المعنى كالصور نفسها. وقد ذكّرتني بملاحظة صديقي المصري في الرياض أن وزير الإعلام السعودي يُعتبر خير إعلان لمحطة «أم بي سي» التلفزيونية التجارية، وهي نسخة عربية من شبكة «سي أن أن» تركز بصفة

خاصة على منطقة الخليج. وسياسياً، فإن قناة «أم بي سي» بعيدة عن كونها قناة ثورية، ولكن السلطات الإعلامية في العربية السعودية شعرت مع ذلك بالقلق من شعبية المحطة ذلك العام بحيث مُنع نصب أطباق الالتقاط ـ باستثناء الأوساط القيادية نفسها بطبيعة الحال ـ . قال صديقي المصري، «مَنْ يستطيع أن يلوم السعوديين على الضجر من الطريقة التي يبدأ بها هؤلاء الإعلاميون كل نشرة إخبارية بصور عن استقبال الضيوف؟ مَنْ يحب النظر إلى المصافحات التي لا تنتهي؟ إن الجميع سئمون حتى الغثيان!».

بعد التشريفات الملكية انتقل التلفزيون إلى الأخبار الخارجية. شبان فلسطينيون يرمون الحجارة في غزة وقوى الأمن الإسرائيلية ترد بإطلاق النار. مراسل التلفزيون السعودي في البوسنة، الذي يبدو من طريقة تلفظه، شخصاً من السكان المحليين تعلم العربية، يتحدث بإسهاب عن فظائع الصرب. ثم لقطة للرئيس السوري حافظ الأسد يتقدم به العمر على الأثاث المحلي الحائل للغرفة التي يستقبل فيها الضيوف كأنما ثُبتت العدسة عليه منذ أكثر من عشرين عاماً، قدماه دائماً مسحوبتان على نحو غير مريح إلى الداخل، وعلى الجانب الآخر من الطاولة المنخفضة زائره الكبير ذلك اليوم. ليس من كلمة أو لقطة واحدة عن الحرب الأهلية في اليمن، أو عن الأردن أو العراق برغم أنها كلها دول مجاورة للعربية السعودية. وتختتم الأخبار بنشرة الأنواء الجوية. تُذكَر درجات الحرارة في عشرات من مناطق البلاد بينما يشير مقدم النشرة بعصاً إلى خريطة ألصقت عليها صور غيوم مقلوبة.

تساءلتُ إن كان تقديم الأخبار التلفزيونية يقول شيئاً من دون وعي عن الثقافة الرسمية لهذا البلد. فهو يعبر عن خوف من كل شيء لا يتفق مع صورة العربية السعودية وهي تحث الخطى نحو العصر الحديث بلا معوقات وفي انسجام تام، وأن جميع السعوديين موحدون بسعادة تحت راية العائلة الملكية والإسلام، والسياسة الخارجية بأيدي محنكة، ولا شيء يخرج عن حدود اللياقة وأواصر الاحترام والتقدير والامتنان التي تربط بين القيادة والشعب، وبهذه المشاعر أيضاً ينظر العالم اليهما معاً.

السؤال الثاني هو إلى متى يدوم هذا العالم الجامد؛ هذا الركود. وتلك العمارات المتألقة والشوارع النظيفة في المدن الكبيرة والاهتمام البالغ بالمظاهر، بالشكل، والأتكيت واللباس النمطي وفرض الأخلاق الإسلامية في الحياة العامة والرقابة الاجتماعية الصارمة على الالتزام بها؛ أليس يرتبط هذا كله بشكل من أشكال الإسلام يقمع العاطفة والعقل على السواء، شكل لا يتسامح مع البكاء والتسول في الأضرحة أو التلاعب الفلسفي بمعنى الأشياء؟ الأخبار التلفزيونية، منظر الشوارع، الملبس وارتياد المساجد، كل شيء يشير في اتجاه واحد: خوف مَرَضي من كل شيء يوحي بعدم الامتثال. خوف من الفرد، من احتمالات الغواية والفظاعة اللانهائية التي تكمن في البشر، في نفس المرء. ولهذا السبب تُعَد العربية السعودية نقيض هولندا وتختلف عنها في طريقة تعاطي السلطات مع المواطنين. إن السعوديين نقائضنا، فكرياً وثقافياً. وبالتالي ليس هناك ما يقال لأن من الواضح أن الأبيض لا يرى الأسودَ أبيضَ.

توقفتُ عن مشاهدة التلفزيون وعدتُ إلى اتخاذ مجلسي في الحلقة. ليس من أحد من «الخويا» كلف نفسه إلقاء نظرة عابرة على الشاشة. كانوا يمررون طاسة ضخمة من حليب الإبل ويجترون بمتعة بالغة الأحداث الصغيرة في الوادي: قصص عن المجرمين والمهربين والمخدرات والشعراء والإبل. ابن جربوع، وهو رجل كريم ذو وجه شيطاني، كان الشخص الذي أوصلني قبل أربع سنوات إلى الدندان. فهو ينتمي إلى العشيرة نفسها؛ الرجبان. وكان ابن جربوع يحفظ مقاطع كاملة من شعر الدندان. وهو الآن منشغل في إزالة الطلع من فروع نخلة ذَكَر التقطها. وقد سحن بذور الطلع في هاون نحاسي بمقبض دق القهوة ثم طحنها إلى مسحوق في آلة من طراز «مولينوكس». وسيقدم مسحوق الطلع مخلوطاً بالتمر إلى الناقات الثلاث التي ترفض أن تتلقح. وقال إن هذه الوصفة طريقة مؤكدة لضمان الحَمْل هذه المرة بعدما ينتهي البعير من أداء مهمته. وإذا باءت العملية بالفشل مرة أخرى فسيتعين عليه أن ينحر الناقات. وبينما كان يطحن ويطحن كان «الخويا» يتناقشون في أهم أحداث الأسبوع: كانت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دهمت بيت شخص يُشتبه في حيازته مخدرات. وتحركت الهيئة بمفردها وليس بالتنسيق مع الإمارة والشرطة كما تقضي الأنظمة. وقدم الرجل شكوى لانتهاك حرمة بيته. ودافعت الهيئة عن نفسها قائلة إن الرجل من أصحاب السوابق في تعاطي المخدرات. قلَّب «الخويا» هذا الحادث على وجوهه، ولكنهم لم يتمكنوا من تحديد أيهما محق.

رجل من قبيلة آل مرّة، ذو سحنة أوروبية تقريباً وابتسامة دهشة طفولية دائمة على وجهه، أخبرنا ما حدث له ذلك المساء. فلقد كان يهم بزيارة أهله وإبله في كثبان الربع الخالي وأخذ سيارته الجيب إلى ورشة لفحصها. وحين تعالى صوت المؤذن داعياً إلى الصلاة أغلق الأسطة، وهو وافد مسيحي، بينما أغلق باقي العمال واجهة الورشة وواصلوا العمل في الداخل. ومن دون علمهم فتح أطفال في الشارع النور الخارجي من جديد. وحدث المحتوم. فقد أدركت دورية لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يجري على الفور. واعتُقل كل من كان متخلِّفاً عن الصلاة في المسجد وخالف منع العمل خلال الصلاة واقتيد مكبلاً إلى مركز الشرطة الدينية. وأفرج عن المرّي بعد ساعات تعرض خلالها لضرب مبرح.

قلتُ لهم إن متجراً لبيع الأجهزة الكهربائية رفض تسجيل نسخة من أشرطتي. قال الأخ المسلم المصري مبرراً، «إن الهيئة منعت بيع الأشرطة التي سُجل عليها شعر أو استنساخها». فقبل أربع سنوات لم تكن هناك مشكلة. قال «الخويا» إن المنع فُرض «بسبب المراهقين الذين يتبادلون هذه الأغاني والقصائد الغزلية. فهي الموضة الرائجة حالياً. وهؤلاء المصريون لا يفهمون اللهجة المحلية، ولذا فهم يفضلون السلامة على الندامة». كان الكلام جافاً بعض الشيء. فما إن حاولتُ المشاركة في الحديث حتى تحولتُ إلى ذلك الغريب «الكافر»، وتراصت ضدّي الصفوف.

انتقل الحديث إلى بعير له وسم غير معروف أتى من مكان بعيد إلى الوادي وأخذ يسرح مع قطعان الإبل المحلية. كان ذلك موضوعاً أثيراً لدى الجميع. بل إن سعود أعلن أنه سيتصل بالحكومة الإقليمية في الرياض لإبلاغها بشكل الوسم، ويمكن بهذه الطريقة معرفة المكان والقبيلة اللذين جاءت منهما الدابة. وفي المجلس، أو حلقة الرجال الجالسين على البساط ـ وهو يعادل مائدة الرواد المواظبين على حانة ما ـ يكون الوسم موضوعاً لا ينضب مثله مثل نَسَب القبائل. وعلى أية حال، فإن الاثنين مترابطان لأن الوسم يجمع إشارات يمكن منها التعرف إلى عشيرة المالك واهله.

حين يجري تبادل القصص والقصائد لا يتعين عليّ أن أقصر نفسي على دور التلميذ والمستمع السلبي. فبعد أربع سنوات على رحلتي السابقة بلغتُ مرحلة أستطيع معها أن أقوم أنا نفسي بدور المطرب. وكان ابن جربوع وغيره من «الخويا» الدواسر يناشدونني أن أجدد معرفتهم بعمل الدندان. كما كان ابن جربوع يطلب أيضاً قصائد من مرويات شليويح العطاوي عن الفروسية، كنتُ نقلتُها من فم حفيده الأصغر خالد. وكانت تجربة فريدة له أن يستمع إلى القصيدة كلها بدلاً من مقاطع منفردة تناثرت كما يتناثر الطلع على امتداد مئات الكيلومترات في الصحراء قبل أن يلتقطها المحبون بين البدو من أمثاله. وكثيراً ما كنتُ أعجب لمعرفته حقائقَ خفيةً من ماض لم يُسجَّل في أي تاريخ، وأُعلن رسمياً صفحةً مطويةً لكنه مع ذلك يحيا بعناد بين سكان الصحراء.

سأل ابن جربوع، «ما اسم السيف الذي قتل به الضيط، حمو شليويح، كلَّ هؤلاء الأتراك؟». وإذ كنتُ مسروراً بقدرتي على مساعدته في موضوع صادف أن كنتُ مختصاً به، ملأتُ هذا الفراغ في ذاكرته وقلت «العمهوج»، وهي كلمة تعني الغانية الحسناء. كانت ذاكرة ابن جربوع مخزناً حُفظت فيه مئات المقاطع من قصائد أو شذرات من عجائب التقليد الشفهي. كان «الخويا» لا يكلّون من الاستماع إلى أخبار القبائل الأخرى وحكاياتهم، ولم يكن النقاش يحتدم إلا حين يكون الموضوع بطولات من تاريخ قبائلهم.

متعب بن قويد، شقيق شيخ مشايخ الدواسر، سجل لي قصة مبارزة بين جده البعيد شارع بن قويد وفارس من قبيلة مطير. وبحسب رواية متعب، فإن شارع قذف رمحه بقوة حتى أنه اخترق فخذ الفارس ثم قلب الحصان ونفذ من الجانب الآخر ليسمر الفارس والحصان في الأرض. مأثرة تحدث في العديد من قصص القبائل عن أبطالها الأسطوريين. لم يطعن ابن جربوع في حقيقة الواقعة ـ الصفات الهرقلية للأجداد الأبطال كانت مقبولة عموماً ـ، ولكنه طعن في هوية الفارس. واستبد به الغضب لأن متعب كان يزوّر التاريخ بمصادرة الشرف الذي يعود إلى فارس آخر ونَسْبِه إلى أحد أجداده. وقد فهمتُ الآن لماذا أن الخبير المحلي الذي جمع كل ما يُعرف عن تاريخ الوادي والدواسر لم ينشر قط كتابه. فكل كلمة كانت ستجعله شخصاً غير مرغوب فيه لدى هذه القبيلة أو تلك. وكان سيغدو منبوذاً بين أفراد قبيلته ذاتها، أو يتعين عليه الرحيل عن الوادي. فلا شرف يُضفى على رجل العلم في مجتمع قبلي.

وحيثما أريتُ كتابي عن الدندان كنتُ أسمع التوبيخ نفسه. «لا نستطيع أن نقرأ هذا، لماذا لم تكتبه بالعربية أو تعمل على ترجمته؟ مَنْ يكترث في بلدك لهذه الأمور؟ ولكنها مهمة لنا نحن. طبعة عربية هي أقل ما تدين به لنا على أتعابنا!».

كنتُ أُجيب عادة بالقول إن العربية المكتوبة غير مناسبة لتمثيل اللهجة البدوية. ثم كنتُ أقرأ مقطعاً من قصائد الدندان لأثبت أن هناك إلى جانب الترجمة الإنكليزية نصاً عربياً في الكتاب برغم كتابته بأحرف صوتية أوروبية. وكانت محاضرة قصيرة في علم الأصوات الكلامية تكفي في الغالب لإسكات الانتقادات. أحياناً كان بعض العنيدين يبدون احتجاجهم. وأحياناً كنتُ أتجرأ وأعلن بصراحة أن مقاطع ترد في العمل لن تجيزها الرقابة السعودية مثل الأبيات التي فيها يحشو الدندان ضرسه المتسوس بعرش الله وينفخ نفسه إلى حجم إنسان من نوع السوبرمان. «ألا ترون!». ويصل بي الغيظ أن أصرخ حين يتكلمون بعدم استحسان عن القصيدة التي يُفترض أن يكون الله عاقب الدندان عليها بشل ساقه.

كنتُ أستنزل الاستهجان على نفسي بمثل هذه الصراحة. وتذكرتُ زميلاً سعودياً في جامعة الملك سعود في الرياض. فقد اعتمد المنهج نفسه في عمل يتناول واقعة مستلّة من الملحمة التي لا نهاية لها بين أكبر قبيلتين في شمال البلاد؛ عنزة وشمر.

أراد الباحث من الرياض أن يبيِّن أن لكل قصة وجهين، ومثلما نُشرت رواية عنزة عن هذه الملحمة فإنه سجَّل ما رواه له بدو كبار السن من الطرف الآخر: شمر. وتعبيراً عن الامتنان لهذا التعاون وضع نصاً بالعربية إلى جانب التمثيل الصوتي والترجمة الإنكليزية. ونتيجة لذلك لعنته القبيلتان معاً. وعاش في خوف دائم من أن يأتي متطوع من عنزة ويذبحه. ولكن الأكثر إيلاماً من حز السكين، كان الرفض الذي لاقاه من الرجل الذي بذل مجهوداً مضاعَفاً من أجله. إن الحفيد الأصغر لبطل شمر، هايس، غضب عليه وقاطعه. لماذا؟ استناداً إلى مراجع شمرية أخرى في القصة، فإن من أطلق رصاصة الرحمة على اثنين من الشيوخ الأعداء المندحرين لم يكن هايس؛ فارس فرسان شمر، بل شابان كانا يركبان حصانين أقوى. وبعد هذه الخيبة حلف الباحث ألاّ ينشر أبداً كلمة واحدة بالعربية عن «أيام العرب»، كما يُسمى ماضي الحروب بين القبائل اليوم. والتزم بالنظرية الرسمية القائلة إن العصبية القبلية ممارسة لاإسلامية ولاسعودية، وإنها زالت منذ زمن طويل ليحل محلها شعور جديد بالتعاضد بين مواطنين عصريين. ولكن حين تصدى الباحث للموضوع اكتشف، لدواعي هلعه، أن الوحش القديم انتفض كما ينتفض الدب فجأة من سباته العميق.

ولتحويل وجهة الحديث، سألتُ ابن جربوع إن كان يعرف هذه الأنشودة التي يغنيها الفرسان:

خطو الولد بسّ عند أمّه
مثل ذلول ابن جربوعي
عوج المصاليب ما حفنّه
ما ذاق للهجن منفوعي

ما لوّعه لاهب الكنّه
ما مسّه الظمى والجوعى

نظم الأنشودة فاجر بن شليويح قبل مئة عام حين كان أشهر فرسان الصحراء وقتذاك. شرحتُ أن الأغنية عن مرافقي سعود وليس عن ابن جربوع. كان فاجر يسخر من قروي في القصيم يملك جَملاً أصيلاً كان أنسب الجمال للرحلات الطويلة من أجل نهب قطعان القبائل البدوية الأخرى. ولكن صاحب البعير لم يفعل شيئاً سوى إبقاء البعير في المحجر الواقع قرب بيته حيث يدللـه ويمسده. فالذلول السريع لم يكن يُستخدم للمهمة التي خلقه الله من أجلها. ويصح الشيء نفسه على سعود. إنه مُنح سيارة جيب جديدة سريعة ولكنه لا يريد قيادتها إلا على الطريق المعبد. فهو لا يحب الغبار ويخشى أن تتسخ السيارة وأمتعتنا وملابسنا. ضحك سعود ضحكة مريرة. لقد أدرك أني بهذا أخذتُ ثأري من تعليقاته الهازئة في بيت بخيتان على أسئلتي التي لا تنتهي. ونصحتُه قائلاً، «ليكن قلبك من حجر».

مهاجر في الوادي

صديق ابن بتلا الحميم في الوادي هو محمد الحنايا. وصداقتهما، مثلها مثل كل الصداقات الحميمة، تتألف من تناقضات وظلال تقوم على ما يجمع بينهما من اهتمامات مشتركة. ولا أستطيع أن أتخيل صداقة ابن بتلا ومحمد الحنايا في غياب الشعر. فكلاهما شاعر. محمد يكنّ إعجاباً لا حد له بعبقرية ابن بتلا وهو يعلن إعجابه بحماسة المريد الوفي بلا تحفظ لمعبوده. ولا أدري إن كان هذا يصح بالمقابل على ابن بتلا. فهو لا يتحدث عن ذلك، ويتحمل في المقابل، بتسامح ورحابة صدر، إلقاء محمد لقصائده كمن يدفع ثمن الصداقة بلا شكوى.

يحمل ابن بتلا ريح الصحراء الجامحة إلى بيت محمد. إنه حر وأصيل، كالخيول والجمال وصقور الصيد العربية الأصيلة، لأن الصحراء في المخيلة العربية هي العالم الذي تتكون فيه كل الشيم النبيلة والدائمة من نقاء الطبيعة. الصحراء هي موطن العروبة الحق. وتقليدياً، يتكلم البدو العربية بأنقى صورها، اللغة التي اختارها الله لتنزيل كتابه. وتقليدياً، فإن شخصية البدو تمثل نموذجاً أخلاقياً في المخيلة العربية. وابن بتلا بدوي حتى النخاع. قصائده تصف الحياة في الصحراء، لا نقلاً وافتعالاً، بل مشحونة بالحيوية ومُترَعة بالخبرات الشخصية. الكلمات التي تتدفق من فمه لها صلابة الحجر المنجرف وحقيقته. كلامه كينونته، والعكس صحيح. ابن بتلا الفنان يتماهى مع ابن بتلا الإنسان.

محمد لا يتحدث أبداً عن صديقه بهذه اللغة، ولكنها على الأرجح التعبير الأصدق عن مشاعره. ابن بتلا يملك ما يفتقده محمد. ولا يهم أن محمداً نفسه والآخرين اعتادوا النظر إلى قصوره على أنه وليد مرحلة أرقى من التطور. وعلى سبيل المثال، أن محمداً تعلم في المدرسة وهو «صاحب قلم» ـ كما يشير إلى ذلك بوصفه الفارق بينه وبين الأمي ـ. ومحمد يكتب بعربية بعيدة عن اللغة المحكية. قصائده تقف على نحو ما بين هذه وتلك. إنه لا يكتب قصائده ولكنها مع ذلك مُسَّت بيد الكتابة الميتة. والأكثر من ذلك أن الأشعار يجب أن تُنظَم عن مواضيع لا يعرف محمد شيئاً عنها، من خبرته ككاتب في الدائرة الزراعية في الوادي: نزاعات القبائل، معاركها، ثاراتها، حياة البدو في الصحراء. يستطيع محمد، بالطبع، أن يركز على كتابة قصيدة غزل ولكن هذا أقل من مستواه لأن ما يهم محمداً قبل كل شيء هو سمعته. ولأنه نصف هنا ونصف هناك في كل شيء، ولأن فنه لا ينسجم مع حياته، فهيهات أن يعبّر عن نفسه كرجل واحد تماماً.

لا يعرف محمد الصحراء إلا سماعاً. والأنكى من ذلك أنه حتى ليس بدوياً بالمعنى الحديث للكلمة: شخص يعيش في بيت تتوافر فيه كل أسباب الراحة في العصر الحديث لكنه يفخر بشجرة عائلته «النقية». بكلمات أخرى، أن محمداً لا ينتمي إلى جماعة يفترض الجميع أنها متحدرة من آباء قبائل معترَف بهم. إن أحد أجداده كان مهاجراً مجهول الأصل شمله شيوخ ابن قويد بحمايتهم. وفي حالة كهذه يبقى المتحدرون من صُلْبه أفراد قبائل من الدرجة الثانية برغم ما يكدسونه من مال وممتلكات.

وبوصفه «أجنبياً» في الوادي، فهو في موقف مكشوف، وعليه أن يراقب لسانه بحذر. لكنه طموح أيضاً. فهو يريد أن ينتمي وأن يكون محبوباً. لذا، يواصل بحثه عن دائرة الضوء بقصائد محبوكة، لكنها كامدة، عن الدواسر بصفة عامة، لأنه: أجنبي لا ينتمي إلى إحدى العشائر التي تحمل جماعياً اسم الدواسر باعتباره القاسم المشترك الأعظم بينها. ولكن الدواسر لم يقاتلوا ذات يوم موحَّدين، بل كانوا دائماً منقسمين على أنفسهم. وبالتالي، فإن الوحدة القبلية الجامعة ما هي إلا اسم؛ كلمة كالقشرة الفارغة.

يحب محمد أن يصور نفسه مسلماً متنوراً وسعودياً عصرياً. وفي لهفته على نيل الاحترام والتقدير يحرص في قصائده على اجتناب الهجاء المعهود للقبائل الأخرى. ولا ينطلي هذا على أحد. فالمعروف للجميع أن محمداً لا ينتمي في الواقع إلى أحد، ولهذا ينظم القصائد في مديح الجماعة الأكبر؛ الدواسر، كما يتظاهر المهاجرون حديثو العهد إلى أميركا في أحيان كثيرة بكونهم أكبر الوطنيين في البلاد. ونتيجة لذلك ينظر الدوسري القح، مثل بخيتان، إلى محمد نظرة تجمع في آن بين المحبة والاحتقار.

حين نكون معاً، كان كثيراً ما يحاول إيقاعي بملاحظات من قبيل، «كفَّ عن تلك الحكايات القديمة عن القبائل، فكلنا واحد الآن والحمد لله. لننس الماضي!». لكن هبّة من العصبية القبلية كانت تفلت منه في بعض الأحيان. وقد اكتشفتُ أنه يحفظ مقاطع كاملة مما نظمه ابن بتلا من قصائد الحرب. ولكن لا هو ولا ابن بتلا كانا مستعدين لمساعدتي في تسجيلها. وفي النهاية كان هذا ممكناً بمساعدة بخيتان.

ومع ذلك، بقيتُ بحاجة إلى محمد. فلولاه لما أوقعتُ ابن بتلا في شِباكي. فقد وعد محمد بأخذ صديقه رهينة من أجلي: كان سيستدرجه إلى مصيدة بدعوته إلى مزرعته النائية ولن يتركه إلا وقد باح لي الشاعر بأسرار مهنته. وبهذا الجميل اعتبر محمد أنه نفذ المهمة التي كلفه بها راعيه ابن قويد. ومقابل وعده لم يطلب محمد شيئاً سوى أن أُفرد له حيزاً متواضعاً في أنطولوجيتي. وكان من بين المواد التي سجلتُها قصيدة نظمها أحد الأجداد وجد نفسه في غمرة العداوات الصغيرة بين سكان الوادي: الهقوة انّي باروح وباتْرك الوادى

بأروح من ديرةٍ شفت الحسد فيها
بأروح لعمان ولاّ صوب بغدادى

ولولا المعوشة ترى ماني بباغيها

هنأتُ محمداً على ملاحظة جده الصريحة. دفعه هذا إلى التفكير وطلب تصويباً. لم يتسن لي إجراؤه فتحول الخوف على سمعته إلى هاجس. وفي اليوم الأخير فقط من إقامتي في الوادي سجلتُ: يا بوك أنا عازمٍ باروح من الوادى

باروح من ديرةٍ ياطيب أهاليها
هلها هل الجود والطَّيْلات والقادى
اهل الصخَى اللى تقدمها ايمانيها

الشاعر الأعمى

منذ اليوم الأول من وصولي إلى وادي الدواسر، كانت عودة ابن بتلا موضع تكهنات. المخاريم كلها كانت مهتمة بالأمر. ومن خلال قنوات غامضة كانوا على اتصال دائم مع الشاعر الأعمى وأفراد العائلة الذين رحلوا معه إلى مستشفى العيون في الرياض.

«أسبوع آخر أو نحو ذلك»، «قد يعود من الرياض يوم الثلاثاء فكن مستعداً»، «ربما في وقت مبكر لا يتعدى الاثنين»، «اتصلنا لتونا بأشخاص في الرياض تكلموا مع ابنه. إنهم قادمون بكل تأكيد صباح الاثنين».

ثم جاء «الخبر اليقين»: ابن بتلا قادم!

دأبتُ من باب الحماية الذاتية على ألاّ أعتبر أي شيء في حكم المؤكد في العالم العربي. في البداية كان ذلك صعباً. لقد كنتُ غربياً بإفراط، تعودتُ تطويع الحياة وفق إرادتي بالتركيز على النظام والمنهجية والانضباط. وهذه لا تصلح إلا بمشاركة الآخرين في اللعبة. وفي الجزيرة العربية ما كان الناس ليكترثوا بطريقتي في معالجة الأمور. كان الواقع جداراً زلقاً من الغرانيت لم أستطع الإمساك بشيء عليه. وكانت النتيجة خيبة وغضباً، وفي بعض الأحيان نوبات من الكراهية. ولكن بمجهود عظيم من قوة الإرادة، تمكنتُ من السيطرة على مشاعري الهائجة وتفادي الانفجارات. غير أن البدو اللمّاحين ما كانوا ليلاقوا أي صعوبة في الخروج باستنتاجاتهم الخاصة.

يكمن نبل الصحراء الحقيقي في تعاملها بعفوية، ببشاشة مسترخية لا تحمّل الحياة أكثر من طاقتها. إنها ليست لامبالاة لأن مَنْ لا يسعى إلى هدف بتصميم وعزيمة ثابتة ليس رجلاً. ولكن الأسوأ من ذلك هو التأوه أو التبرم أو النُّواح أو الوجه الجهم، الناقم. وكل مَنْ يقدم نفسه خاسراً لا يلبث البدو أن يعاملوه على هذا الأساس. لذا علّمتُ نفسي في مجرى عملي الميداني على التعامل بصرامة مع عواطفي للمحافظة على توازني الداخلي. وكان السر يكمن في شق طريق دائم بين ذرى الفرح وأعماق الكرب. وللتمكن من بلوغ هذه الحالة يتعين على المرء أن يرتجل. دأبتُ على القول لنفسي، اغتنم كل لحظة، عش حياتك بقضها وقضيضها، لا ترفض شيئاً ولا تركض وراء شيء. وهكذا جلستُ أنتظر بصبر على البساط في حلقة «الخويا».

في صباح اليوم التالي على مجيء «الخبر اليقين»، ذهبتُ أولاً إلى بخيتان لتلقي دروسي في قصائد الحرب. كنا مستغرقين في عملنا. ولأول مرة لم يتعين على بخيتان أن يتوجه إلى سوق الإبل أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يزعجنا أحد، فبقيتُ ساعة أو ساعتين أطول من المعتاد. وسواء أجاء ابن بتلا أم لم يجئ، كانت فلسفتي الجديدة تتطلب أن أعتبر كل فرصة ثمرة يانعة تؤكَل إلى آخرها.

ذهبتُ في حوالى الساعة العاشرة إلى مزرعة محمد الحنايا؛ صديق ابن بتلا. وقد بنى حولها سوراً عالياً، مدهوناً على الجانب المواجه للطريق بألوان البستيل، تزيّنه فجوات لها شكل المحراب، وتزنره المصابيح. فتحتُ باباً في البوابة الحديدية الضخمة ودخلتُ ماشياً عبر حقل البطيخ إلى مبنى أبيض الطلاء على الجانب الآخر. خرج محمد لملاقاتي. كان الهلع بادياً على وجهه. «خمس دقائق أخرى وكانا سيغادران. ابن بتلا وابنه الأكبر وصلا أمس وهما جالسان ينتظرانك منذ الصباح!».

لم يكن هناك وقت للتفكير إذا كانت فلسفتي العملية بحاجة إلى إعادة نظر. البدوي لا يعتذر أبداً، فلِمَ أعتذر أنا. الشيء الوحيد الذي كان بمقدوري أن أفعله هو إخراج عدتي من الحقيبة بأسرع وقت ممكن، وتهيئتها والشروع في العمل. حذّر محمد، «ليس لديهما كثير من الوقت. أمضيا أكثر من أسبوع في السفر معاً. لم يذهب ابن بتلا إلى البيت بعد. خِيَمُه تبعد 40 كيلومتراً عن الوادي. وكل ما يفكر فيه هو زوجاته وأطفاله وإبله. إنه قلق حقاً. لكننا توسلنا إليه أن يساعدك أولاً. قلنا له إن ذلك هو سبب زيارتك وهذه إرادة الوكيل والأمير. لن ندعه يذهب قبل أن يفعل ما تطلب منه. لذا كان علينا أن نقنعه بكل الوسائل المتاحة لإبقائه هنا. وإذا بك لا تأتي!».

نظرتُ إلى ابن بتلا كناية بوالده الذي ربته أمه بتلا بمفردها. جسم ناحل يتكئ على وسادة، منكفئ، غارق في التفكير. ارتسم على وجهه تعبير ودود، ربما كان هناك شيء من القلق في نبرة صوته، ولكنه ليس نافد الصبر كما أراد محمد أن يوحي لي.

اول ما لفت انتباهي كان التناقض بين مظهره وقصائده الحربية المتعطشة للدماء. ففي الكلام والحركات بدا ابن بتلا في غاية الوداعة. وفي أحاديثنا كان أحياناً يضع يديه الطويلتين المعبرتين على رسغي ويعصره برقة لإيصال كلماته. كانت حدقة عينه تدور ببطء باحثة عن المعنى الصحيح، وحين يغتبط بشيء كان ينتف لحيته من فرط سعادته ويكشّر كاشفاً عن آخر ثلاثة أضراس متبقية لديه.

لم يعد في فمه أسنان يستند لسانه إليها، فكان من الصعب فهم اللهجة البدوية منه. لم يكن بوسعي إلا أن أخمّن أي حرف نِطعي كان لسانه يستهدف حين يلطم لثته. مع ذلك كان العمل معه متعة بالمقارنة مع ما عانيته من الدندان. فمع الدندان لم يكن التواصل ممكناً إلا بالقصائد: نظام مغلق بلا أي عتلة تشكل حلقة وصل بالعالم الخارجي.

وبرغم ان ابن بتلا ضرير ولم يتلق أي تعليم، فإنه كان يعرف بالسليقة كيف يجد طريقه إلى قلب الآخر وعقله. كان يكرر بصبر، ويشير بإصبعه ويرسم خطوطاً وهمية في الفضاء. ترْبت يده على كتفي كأنها تتمنى لي الشجاعة، وتغويني في آن. وخلال ثوان قليلة انقلبت الأدوار: كنتُ أنا الأعمى وهو دليلي.

في ركن من الحجرة، تلاصقت ذراعي اليمنى وذراعه اليسرى جنباً إلى جنب على الوسادة، نسجنا حولنا شرنقة من الأصوات. الصوت الذي كنا نستمع إليه تناهى إلينا موسيقياً رقيقاً، صوت ابن بتلا نفسه على شريط الكاسيت. وبلا تردد، كانت الأبيات تترى سلسة طليقة كالغزال الشارد حتى بدا أنها تغطي الفلاة بحركة مَوْجية. انسابت الأصوات متناغمة، متداخلة ثم تصاعدت إلى طِباق صداح. هكذا كانت، بلا ريب، حياة ابن بتلا قبل ثلاثين أو أربعين عاماً.

النبأ السار

نحن نقول إن الجفاف هو الوضع الطبيعي في الصحراء. البدو يعنون شيئاً آخر بما يسمونه «الدهر» أو «الوقت». وإذا لم يهطل المطر طوال سنوات متواصلة، أو لم يهطل بما فيه الكفاية ليتوغل مقدار ذراع في الأرض، فلن يكون هناك ربيع. ولهذه الكلمة عند البدو معنى غير معناها عند سكان المدن في القاهرة أو دمشق. الربيع بالنسبة إليهم ليس موسماً بين نقطتين ثابتتين في السنة التقويمية، بل حالة في الطبيعة تحصل بعد وفرة من هطول المطر. فحين تنفلق البذور في التربة وتزهر النباتات والأعشاب الريانة في كل مكان وتنمو الأغصان على الأشجار ويخضرّ الزرع بحيث تستطيع الإبل أن تأكل حتى تملأ السنام شحماً وتدر الحليب أنهاراً، حينذاك يكون الربيع. شباط/فبراير وآذار/مارس ونيسان/أبريل في الحدود القصوى، هي الأشهر التي يمكن أن تحدث فيها هذه الظاهرة. الربيع يعني وفرة وعيداً. أحياناً يكون هناك ربيع سنة بعد أخرى. والأكثر شيوعاً أن يُدفع البدو إلى القنوط بسلسلة طويلة من السنين العجاف.

قال ابن بتلا، «كانت فترة ساقنا فيها الوقت. زمن حرمان. كل ما يمنحه الله نعمة. بدأتُ أتوسل ربنا لأن إبل الركوب والحمل كانت تخر تحتنا من شدة الوهن. نحن بدو رحّل، ولا نستطيع الترحال إلا على ظهورها. كانت الإبل في حالة مريعة. لم تكن لدينا وسيلة نقل فاسْتَغثْتُ بأمل أن يستجيب لنا الله. قلتُ»: أنا بادي فى مرقبٍ هيّض المشحون

زاعت مخازين الضماير بما فيها
كما زاعت الما من مضيقٍ مع صعنون
زفى الما بجرّه ودقلن به نواشيها
فلا نى عَمْس القلب ومفتّح بعيون
يعفج السوالف ما يميّز معانيها
حدانى على بدع الغنا ضيقةٍ وشطون
ودنياً كفى الله شرّها أوّلٍ وتاليها
وزمانٍ يهول الا تفكرت به مجنون
يضيّع روابع من بغى ميزةٍ فيها
غدا الرزق فيه مصْلفقٍ كل ماله دون
تخمَ الخلايق فيه شيٍ وتخطيها
عذابه على اللى فى بيوتٍ الشعر يبنون
عسى رايده بامره يردّ النظر فيها
غدينا طعام اللى يسقى به الجلّون
وكْرت المطيه ضايعٍ هى وراعيها
غدوا هاجمينٍ فى جنابٍ العدود قطون
تردّت شدايدهم وضاعت هقاويها

ما يعنيه ابن بتلا أن البدو لا يملكون المال لينقلهم سائقو اللوريات إلى مناطق نائية هطل فيها المطر. وبالتالي، ليس هناك سوى الانتظار والتضرّع لله عسى أن تأتي أوقات أحسن.

ذات يوم جاء رسول بالنبأ السار، وفي اللحظة التالية عمَّ الهرج أنحاء المخيم: لا جا راعى اللى قد ملاكيثها ألحاح

يا هو يقول أبقل وجينا على سَيْر
مرّيت أنا نشر المخاريم طفّاح
بالرمث يشرب من هجال الحنابير
فقال المشبّب يوم نوّيت مسراح
باودّعك وإحذر لا يجى فيك تغرير
مرّ ابن بتلا وإعمده حِلّ الامراح
ثم بشّره واللى معه من دواوير
فاوّل بشيري بشّره بالحيا طاح
والثانية قل ما علينا تباوير
مشيي برجلى من بَغَى نجدٍ فراح
نجدٍ درع فى كسوته بالنواوير
منه اربعة وديان واطيه جرّاح
الادنى الحَمَل واقصاه وادي العثّامير
والكل منها لا وطِى غِبّ الاصباح
هم لا المضبّة فوق رمثه معايير

حنّا نقول أفرحتنا فرِحت بافراح
جعل لي تسهل لك من الله تياسير
كلٍ يقرّب زمله يضفّ الاجناح
ترا الشديد مقدّمينه بتبكير
ويصبح يعلّق فوقها كل شِلواح
والبيت يوخذ في الغَلَس بالاقاطير
والنشر كتّ الثُفن بالقدو سِرَاح
وأخذوا من حبيّا[11] شرابٍ مدابير

وإذ يختم وصفه الدقيق للمنطقة التي أسفر فيها هطول المطر بغزارة عن نتائج رائعة، يقول البشير: كلامي توحّوا فيه وانتو على الهقوات

وكلٍ بكيفه ويتعهد مخابيره
وقلنا: وقيت أنتو والفاطر وجرتوا من السيّات
وتسهلكم رزقٍ من الله تسابيره
ترا يا جماعة باكرٍ نبغي الريّات
نهمَ الشديد وكلكم يضبط بعيره
قدّوا دبشكم بالسنع وإحذر الصدّاد
ترا ما اختفى منكم بيكلف مداويره
توطوا حبيا عطنةٍ ما نبي المبيات
على زمزمٍ لا أحد ينوّخ مظاهيره
عطوها شرابٍ يا النشامى وهى عجلات
ترانا نبي المنهاج ملّيت ذا الديرة
تنصوا مراتع ديرةٍ نبتها زافات
نباتٍ زخاريفه تعيشك نواويره
يا ما حلى درّاجة وسط ها الخلفات
مع قفرةٍ تكسر عليها معاشيره
منازل بنى عمٍّ ماكسيبه النيلات
هل نجارةٍ تعلب بالمقْطَر دواويره
خطاطيرهم لا نوّخوا سلْمهم فزّات
يقال إقلطوا والجيش ما أوطا مزاويره
هل الديرة اللى حدّدوها بلا منّات
بغير الرضى ما أحدٍ عطاها بتخييره
خذوا من جويلٍ لا الشفا والرقاشييات
لا قوز الشريف وفيّ حاضا مقاطيره
وشمالها بمليحة العِرق والهوّات
واسافيلها بهريْسانٍ محاديره
بغاها العرب ثم خلّيت عينة الهرّات
جميع الدول قد عِدّى منها طوابيره
حموها وتعّبوا الشرايع على شّيات
لا منّه نزلها الجار يهمل نواشيره
ولا هو بلا يطرد ولا يقربه هوزات
على كل حجّاتٍ تمضّى تشابيره
خطرهم عليه شحوم حيلٍ وصينيات
لا منّه نوى بيروح هلّت معابيره
ولا أقول قولٍ كون ما هو عليه ثبات
وكلامٍ بلا صدقٍ نطقّي فنانيره
ختامى صلاةٍ عِدّ ما قري من الآيات
على أشرف الاباشير النبى دام تذكيره

11. عند بئر حبيّا يلتفت الشاعر ويحيي جيرانه؛ قبيلة قحطان التي استضافت عشيرته وقت الجفاف. خيط الترحال يُلتَقط ثانية في قصيدة أخرى.

أرض الأقاويل

يفضل البدو أخذ الأمور على علاتها بالمعنيين: الحرفي والاستعاري. فالطبيعة نفسها تعتني بنفسها وبالبدو، بوصفهم أبناء الطبيعة، يواكبونها بالإيقاع نفسه. أحياناً يحتك البدو بآخرين يحاولون بجهودهم إجبار الطبيعة على عمل ما يريدون أو استغلال إخوتهم البشر. ومن هؤلاء، على سبيل المثال، العمال الزراعيون وسائقو اللوريات. وتكون حصيلة جهودهم أن المال، بدلاً من أن يُعتبر عندهم شيئاً يستطيعون تحويله إلى أمر لطيف أو نافع، يصبح مادة تُكتَنز. والضيف بنظر هؤلاء ليس زائراً من الله وفرصة للبرهنة على كرم الضيافة والسخاء، بل سبب لغلق الباب أو استغلال الزائر. البدو يفضلون الابتعاد عن هؤلاء، ولكن في زمن الجفاف لا يكون هناك مفر من الاحتكاك بهم.

وأشد الذكريات مرارة عند ابن بتلا هي وقت رحلوا إلى الجنوب الغربي باتجاه منطقة عسير الجبلية التي تُمارَس فيها الزراعة على نطاق محدود في حقول متتالية على شكل طبقات. ولعل العامل الزراعي الكادح رأى في النازحين من الصحراء آفَـةً من النَّوَر المفلسين. سُجِّلت انطباعات ابن بتلا في أبيات مستلة من قصيدة طويلة: يالله لا تجزأ الجمايل بذا الدار

واللى ذكرها لا أحسن الله ثوابه
دارٍ بالاوّل ما نجي فيه زوّار
ما نَظهر إلا قد شكينا صوابه
ثنوي عليها جعلها الله بالاذكار
دارٍ مخاسيره يضيّع حسابه
لكَّتْ بشيّالات الاحمال وقشار
والبيت واللى فيه لو هى كرابه
واللى تغبر الما مصاخيف الابكار
هِزّ الفقاير سِنْد جِرْدٍ رقابه
دارٍ قضتها جنّبته منه الامطار
جعلْ السحاب الغرّ يخطي جنابه
ياخذ ثمان سنين ما جاه ديّار
حيثه لحِمّ الشيب سقمٍ شرابه
دارٍ مداهيلٍ لقروٍ وبقّار
يشَّي على الادباش حامي كلابه
والإنثى تحذف الستر ما فيه تنكار
يا جعل ذاك الجنْد يكثر ذهابه
ولا أقبلت قال أرْحب ولا به تخسّار
ولاّ فلا شفنا ثقيلٍ عثا به
يا حظّ إبو من سال منهم بالاخبار
قد هو بعيدٍ ما نزل في ترابه

التجار الذين يسيطرون على طرق القوافل عبر الصحراء، هم من الجشع بقدر ما يفتقر المزارعون في الجبال إلى كرم الضيافة. وقبل ثلاثين أو أربعين عاماً، قبل أن تغتني البلاد بين ليلة وضحاها بفضل الطفرة النفطية، كان البدو ما زالوا يكافحون للإفلات من براثن التجار وشركات الشحن التي كانت، في أوقات الجفاف، تنقل القطعان إلى مراع أفضل لقاء ثمن. فالبدو يمقتون الحساب والادّخار واللعب بالمال.

قال ابن بتلا، «في سنة من تلك السنين سمعنا أن الغيوم جاءت بالربيع إلى الشمال. فتهيأنا فوراً للرحيل. الخراف والماعز أخذناها معنا، أما الإبل فبقيت في مكانها. اصطحبنا أصغر الدواب إلى الشمال وبقي قسم آخر من الجماعة مع الإبل. انقسمنا إلى مجموعتين. فالجفاف والقحط فرّقا بيننا. التجار لم يعودوا يبيعون لنا على الحساب. وفي تلك الأيام كانت البضائع مُلك قلة والبقية لا تملك شيئاً. ولو جئتَ وسألتهم إن كانوا سينقلون قطعانك لقالوا، «اسمع يا مربي الدواب، لن نوفر لك وسيلة نقل إلا إذا أعطيتنا بندقية أو خنجراً من الفضة كأمانة، أو دفعت نقداً. لن نتعامل معك بالدَّين بعد الآن». وقد وصفتُ ذلك الوضع في قصيدة، قلتُ لأخي سدّاح: سدّاح يا مِشْكلاى من خَطْيه الامرار

حشير الضماير يوم تدني حظايبها
أنا كنّ ما بي واثر ما زلّ حدّه جار
وعيّنت طول الصبر لا نوى يقرّبها
على الله شقاويها ألذى عالم الاسرار
عليمٍ بخصّة كل نفسٍ وموجبها
لعلّه يساوي ضدّ ميْلٍ وطا الابشار
عسى شطّةٍ ركبت يهاون مكاربها

تشقلب بالامّة حلّها وأخلفت الانظار
شطيطٍ كلفها الله يزيّن عواقبها
هل البيت راحوا فرقتينٍ بغير خيار
وذي حكمه الله بالتفرّاق غاصبها
وهل الكيفة اللى في رباع البيوت تُزار
غدوا كنّهم طروشٍ تبرّز مزاهبها
وغدى اللى بجاهة يقتضي ما عليه حيار
جفوه التجار أقفوا وشانت مذاهبها
نوى بوْرةٍ فينا ولا الله بنا بوّار
خلقنا ورزق النفس فى العرش كاتبها
وغدى راعى الموتر لمِرْح العرب خشّار
سببها الهزل كون السيايير تركبها
لما جو قال ويش بتسوق من الآجار
وهو قد خرص فيهم مواقع مضاربها
لما شاف حالتهم خذاهم على الافكار
درى انهم وطى حكمه فما كان قال بها
فلا طِلب مهلة قال ذا بيننا ما صار
نبيٍ حاضرٍ ولاّ السلايل نقاضبها
قالوا له أمرك ناظمٍ والهروج قصار
عساها تجي في رجعٍ يقتلّ جانبها
نقلهم ونزّلهم بجنّات ولاّ نار
خذا وافيٍ والنقص فى الجرم حاسبها
صفوقٍ على بيت الشعر ما لها قهّار
عسى الله يردّ لمالهم فى مقاضبها
يا ربّ بابٍ ما يسايف من الخطّار
يباشر بميسوره لهم ما يغايبها
عسى قايمين بعقلهم من سحا الانظار
عسى العسْر ما يحتدّها من مواجبها
تدير الفلك يا والي العرش يا جبّار
قديرٍ لكسر العظم تجبر صلايبها
تشرّد لهم فى ما استعوا فيه فى الابرار
يسوقون فيها الشوْل لا زهت عجايبها
يا زين شدّتهم على جرّة السبّار
تمزّع دبشهم بكرةٍ عقب جاذبها
يقول إتبعوني للّذى ما قفا الامطار
يكون أمّ سالم فيه تنكس لعايبها
تشقّلب على خدٍّ تناوع بها النوّار
جلا مغدي الغزّان فى سنّ شايبها
عموده نواوير الخزامى مع الصفار
مع خايع الزملوق مانى بحاسبها
يا زين شوف الذود فى مربخه قرّار
تكسّر مزاعيله على اللى تريض بها
وشوف الظعن ينزل ويبدا بضوّ النار
تحت ربْعةٍ ترفع عمدها قطايبها
وجرّوا سحايب ضوّها فى الرخا وعسار
وصكّوا حسين الصوت جذّاب غايبها
جذب خبْرةٍ ما جو بهرج الردى وأزوار
يكون الملايح نافعت من يعمل بها
هل السمت لا من قلّ والدين فيها خيار
شجيعين لا من جات من يمّ حاربها
وحياة الفتى بالنويفدة ضربته ما صار
مع جملة اللى للنواميس تكسبها
وخلوص الكلام الذكر قولوه يا حضّار
وصلاةٍ على أشرف الانبيا اللى نختم بها

بلسم للروح

بعد أن انتهينا من العمل ذهبنا للغداء مع أشخاص من قبيلة ابن بتلا؛ المخاريم، يعيشون في منطقة لا تبعد كثيراً عن مزرعة محمد. كانوا يعيشون في بيت بائس: مصابيح عارية تتدلى في نهاية سلك من السقف، وعلى الأرض بساط بالٍ، وعلى الحيطان يتكئ أشخاص جهمون، صامتون بثياب رثة. قُدِّم الطعام في غرفة جانبية. ليس طبقاً ضخماً ينضح بذبيحة كاملة، بل صحن من الرز وقطع من لحم الماعز القاسي.

وجَّه المخاريم بحذر الحديث نحو حال رجل قبيلتهم المكفوف. ابن بتلا لم يكن لديه سقف فوق رأسه ولا قطعة أرض يبني عليها ولا أرض يزرعها. نظَم الكثير من القصائد في مدح ولي العهد وأمير الرياض. كل ذلك بلا جدوى. العرائض التي كتبها للرياض صديق موظف بقيت بلا جواب. وأخيراً، انطلقت الكلمة الكبيرة، «توسط له في الرياض. إن أوضاعه مزرية. ليس لديه مال، وحاله سيئة».

بات ابن بتلا ليلته في المزرعة. وفي صباح اليوم التالي نهضتُ عند الخامسة وأنا أتحرَّق شوقاً إلى اعتصار آخر كلمة شِعر منه. ونحو منتصف النهار أنجزتُ مهمتي. صورتُ الشعراء الثلاثة؛ ابن بتلا ومحمداً وبخيتان الذي أطلَّ للمشاركة في الجلسة الأخيرة. بعد ذلك، لم يكن هناك شيء يثني ابن بتلا عن إصراره. فركبنا وانطلقنا إلى مخيمه الذي يبعد أقل من أربعين كيلومتراً جنوب غرب الوادي.

ذكّرتني سيارة البك آب التي كانت تقلُّنا ويتصاعد منها الدخان أمامنا على نحو لا يقاوَم، بالدندان الذي كانت مثل هذه الأمور تحدث دائماً لـه. وهنا تنتهي المقارنة. لقد كان لدى ابن بتلا زوجتان وخمسة أبناء وأربع بنات. ومن خيمته كان يدير شؤون العناية بإبله وخرافه وماعزه. دلال القهوة التي يملكها كانت ملتقى أفراد حمولته. وبرغم أنه أعمى فقد كان في وسط المعمعة.

من الخيم المنصوبة على بعد مسافة كان رجال يأتون ويحيونه. وفي الظلام الذي لا يلبث أن يهبط بدأ كوكب الزهرة يسطع فوق إحدى التلال المحيطة. القطعان غادرت الحقول الدائرية الواسعة حيث كانت تقضم ما تبقّى من حصاد الحبوب. وفي مؤخرة الخيم كانت نساء محجبات يتحركن جيئة وذهاباً في ثياب زرقاء وخضراء براقة وحمراء فاقعة لتجاذب أطراف الحديث وربط الأغنام خلال الليل. كان الهواء عذباً عذوبةً لا توصف. أُلقي في النار حطب جديد من خشب السمر العبِق بعطره، ودارت فناجين القهوة والشاي مع صحن التمر وطاسة من حليب الإبل. وللحظة، كان هناك ما يشبه تأثير العين السحرية العجائبي: لوحة منبسطة ميتة ما لبثت أن اكتسبت روحاً ودبت الحياة في كل ما فيها. لبرهة كان العالم مكتملاً.

السماء الغارقة في الظلام والشريط الضبابي العريض لدرب التّبانة، أصبحا مرئيين بين وميض النجوم البارد. ابن بتلا لم يتطرق إلى تجربته في المستشفى في الرياض. هموم اليوم أُزيحت مع عرق الجبين والضوء الساطع. وحان الوقت لقصص الأيام الخوالي وحكايات الجن والخيال والشعر وقصص عن الرسول والخلفاء الراشدين؛ وكانت كلها بلسماً للروح العطشى.

ألقيتُ، بدوري، أشعاراً من نَظْم الدندان. فهو مثله مثل ابن بتلا يصف حياة البدو في الترحال والبحث الأبدي عن أماكن حيث رذاذ من السماء يبعث الحياة في بذور العشب تحت الأرض. ليس من أحد وصف رومانسية هذا الوجود كما وصفها هؤلاء الاثنان. ولكن ابن بتلا، بخلاف الدندان، يفهم روح العصر: فلا نى بعمْس القلب ومفتّحٍ بعيون

يعفج السوالف ما يميّز معانيها

يرى ابن بتلا أن البدو عاشوا دهرهم وهو يريد شيئاً يتركه لذريته. وعدتُ بالتوسط له في الرياض لدى وكيل الأمير والتوصية بقبول ابنه الأكبر في حرس الوادي المؤلَّف من أبناء البدو. وإذ أرخى الليل سدوله على البساط أعاد ابن بتلا، تعبيراً عن الامتنان، غناء قصيدته عن أميرة إبِلِه، نعوس: يا مرْحبا ترحيب غالٍ لغاليه

والكاذب الله يذهبه يا نعوسى
بوحيةٍ توصيفها الله مسوّى
حارت فْكاري في حلاها تروسى
كنّ النحر بابٍ خذا المدح راعيه
جمعٍ مقابيلٍ وجمعٍ جلوسى
الا تْخنْود مشْيها يوم احلّيه
كنها طموحٍ لا دهشت باللبوسى
والراس راسٍ مهدّد الشوْل حاميه
لا غاب ذهنه واقتضم بالضروسى
النيّ مزموم على اللى حواليه
يبدي براسه كل طيرٍ فروسى
والذيل عرجونٍ بها الحثر ماليه
لا ادبح بعسْوه من رويّ الغروسى

حمرٍ وبرها قرمزٍ من مطاويه
لا لبَسه الفارس نهارٍ عبوسى
يا زينها حول المودّهٍ تباريه
لا جا من الحيا صدوق العسوسي
مثل الشريف اللى سراياه تتليه
مسلطنٍ فيه الحماسه تدوسى
ما اخبلك يا سوّامٍ والبيع ما أطرى
ما أبيعها لو كثّروا بالفلوسى
الا ليا شا الله فى حكم راضيه
فامر الله الغالب ولي النفوسى
وتمّت وصلّوا لأشرف الخلق هاديه
شفيع الأمّه يوم تدني الشموسى

الصراع على الدندان

زرتُ الدندان في محاولة أخيرة لمعرفة شيء ما عن نزاعه الشعري القديم مع ابن بتلا، ولتوديعه. في المرة الأخيرة كان خائر القوى وقد استرد الآن عافيته. كان يجلس على الأرض متكئاً على عمود الباب يستحم بالشمس كالهر. لفَّ شماغاً ذا نقشة حمراء وأخرى بيضاء حول رأسه الأصلع كالعمامة. في عينيه رأيتُ تلك النظرة التي سحرتني في السابق؛ نظرة حادة وحزينة في آن.

السيارة البيضاء الكبيرة الصالحة لكل التضاريس، التي أوقفها سعود في أرض ابن أخي الدندان، ما لبثت أن لفتت أنظار المارة. وفي لحظة امتلأت الشرفة الإسمنتية الصغيرة في بيت الدندان برجال من أفراد قبيلته؛ رجبان، تجمعوا بدافع الفضول. وتناقلت الأيدي نسخة من الكتاب الذي يضم بين دفتيه قصائد الدندان. كان على رأس المجموعة رجل في الثلاثينيات ذو لحية سوداء قصيرة مشذّبة، خلفه ابن بدين كان منتفخاً كالرجل السمين في دعاية إطارات «ميتشلن». وبإشارات حادة وحركات عدوانية ضارية بالفكين وما بينهما من قواطع، بدأ يُخضعني لاستجواب.

«وايش تستفيد من هذا؟». في الداخل انكمشتُ على نفسي. دائماً السؤال نفسه، التافه المستحيل، والملح في نظرهم في آن. النقاش حول هذا الموضوع ذاته يمكن أن يؤدي إلى معلومات شيقة للجانبين. ولكن الطريقة الجلفة التي كان يُطرح بها السؤال تؤكد أن السائل لا يعتزم الدخول في حوار فلسفي ليزداد به حكمة وعلماً. كان يظن أنه يعرف الجواب، والمسألة هي ببساطة إرغامي على الاعتراف وكشف أسبابي الكاذبة. جلس الرجل باستعلاء لهذه الغاية وتقمص شخصية المحقق في محكمة من محاكم التفتيش. سألني بصلف واستجواب. كان لسان حاله يقول، «هيا يا صاح، انطق، فإنك لن تضحك علينا».

لم تكن تلك المرةَ الأولى التي يحدث لي فيها هذا بحضور الدندان. ومن طرف عيني توثقتُ من أن الشاعر كان ينظر إلى الأمام برواقية كأن القضية لا تعنيه. ولم أكن أتوقع شيئاً غير ذلك. فهكذا كان دائماً، ينكفئ مبتعداً عن الضجة التي يثيرها عمله وشخصه، أو بالاحرى شخصيتانا أنا وهو. لم أُخفِ شعوري بالانزعاج والحرَج، وخصوصاً الحرَج لأني كنتُ موضع شبهة بتهمة إضمار دوافع غير نظيفة في علاقتي مع الدندان. ومهما دافعتُ عن نفسي بلباقة فإن كلمات أفراد قبيلته كانت ستخترق روحه وتغرس بذرة الشك السامة حيث لا يمكن استئصالها. وكانت محاجتي ستقع على جدار أصم من الرفض. وأياً يكن ما أقوله فسأبقى في نظرهم «كافراً» غير جدير بالثقة. كنت حقاً منزعجاً لأني رأيتُ سنوات من الكدح واستثمار آلاف الدولارات حباً بشعر الصحراء، بالكاد تُختَزل بهذا السؤال الوقح: «وايش تستفيد من هذا؟».

علَّمني العمل الميداني مع البدو النأي عن الخطابية الغربية الطنانة حول الطابع النزيه، الموضوعي، الحيادي، المستقل، النبيل والإنساني للبحث العلمي في المجالات الإنسانية.

لم أعد ألجأ إلى ذلك، لا هنا ولا في بلدي. لم أكن أنتظر جزاء ولا شكوراً. عدتُ والكتاب تحت إبطي من باب الفضول لا أكثر، ولأُري الدندان أني ربما بقيتُ طفلاً متخلفاً كالبدوي وصعب التعلم مثلما كنتُ عديم الموهبة في شعر الصحراء، ولكني ما زلتُ أستحق أن أُؤْخذ على محمل الجد أكثر مما كان يعتقد في البداية. لم تكن هناك دوافع نبيلة أو سامية. ولكن أن أُحمَّل مسؤولية عمل خبيث أو احتيال ماكر، فإن ذلك كان أكثر مما يُطاق.

كان مبرِّر السؤال بسيطاً ومعقولاً تماماً من وجهة نظر البدو. فلقد جئتُ إلى الوادي كما يأتي المنقب أو الجيولوجي مراهناً على «اكتشاف نفط». وفي الطريق من الرياض سأل سعود إن كنت أبحث عن كنز. فالغربيون يأتون إلى الجزيرة العربية للإثراء. وأياً تكن الرواية التي يقدمونها فإنهم يخفون وراء مظاهرهم المهذبة طموحات ملتهبة في الثروة والنجاح، سياسياً أو دينياً. وكل ذلك، بالطبع، على حساب الإسلام والعرب الأقحاح. ولكن لا ضير في ترك المغامرين الغربيين غارقين في أوهامهم. وكما يقول القرآن، «ومكروا ومكرَ الله والله خير الماكرين» (سورة آل عِمران: 54)

وعلى البدوي أن يطيع كلام الله ويعمل بمكر في مواجهة الكفار. المهم ألاّ تقود المتطفل إلى الباب على الفور، بل تلاحقه بشك عميق، تمتحنه باستمرار وتكتشف ما يبيّته.

بعد ذلك سنرى إن كنا قادرين على الربح من المتربحين. وخير مثال على هذا التكتيك ما يحدث في صناعة النفط. فلولا التكنولوجيا الغربية لما اكتُشفت الثروة التي حفظها الله للمؤمنين تحت رمال الصحراء. الأميركيون اكتشفوا النفط واستخرجوه. وفي العراق وإيران قامت ثورات ودارت معارك حول الآبار والمنشآت. السعوديون استحوذوا بهدوء على الصناعة الجاهزة محتفظين في الوقت نفسه بأطيب العلاقات مع بارونات النفط الأميركيين.

هذه الخبرة التي اكتُسبت على امتداد عصور من التعامل مع الغرباء، كامنة في ثنايا التكوين النفسي لكل بدوي. وهي في الأساس نموذج العلاقة الذي تعين عليَّ العمل به. فالربح يمكن أن يُعبَّر عنه بمصلحة مشتركة. ولكن اللهجة التي طُرح بها السؤال كانت تشير إلى اتجاه آخر. فقد أيقظ الشك في الركض وراء مبالغ ضخمة من المال، شهواتِ الإنسان وحسدَه. وبدأ أفراد قبيلة الدندان ينظرون إليه نظرة مغايرة. إذ كانت في وسطهم، من دون أن

يعلموا، طاقة جذابة يمكن تحويلها إلى مال. والطبعة الأنيقة لقصائد الشعر تؤكد ذلك. الغلاف الترابي المزخرف بنقوش شرقية تنمّ عن ذوق رفيع. مادة التجليد ذات اللون الخمري والحروف المذهَّبة، نوعية الورق الشبيه بالرَّق: ليس من كتاب نُشر في العالم العربي، حظي بمعاملة كهذه.

قلتُ، «هواية. رجل يحب العبث بالسيارات. آخر صياد يعشق القنص. أنا أجمع قصائد عن الحياة في الصحراء». انطلقت ضحكات ساخرة. فالطريقة التي كدحتُ بها لا تمت بصلة إلى الهواية. فجأة نهض الرجل وخطف الكتاب من بين يديّ. «هذا كتابي!»، قال وأومأ إلى ابنه الدب أن يقوم.

عارضتُ محتجاً بشدة. «أعطيتُ واحداً للدندان. لهذا السبب جئتُ إلى الوادي. أين نسختك يا الدندان؟». هز الشاعر كتفيه وتمتم بأن الكتاب لا يفيده في شيء. نظرتُ إلى مترك، ابن الأخ الذي بُنيت غرفة الدندان على أرضه. «أحد رجال عشيرتنا أخذ الكتاب معه إلى الرياض. فهو يريد أن يرى ما فيه وكم يساوي». سألتُ يائساً، «وماذا عن صورك وصور إبلك؟». نظر الدندان أمامه بوجه جامد. شفتاه وحدهما ندت عنهما حركة خفيفة كأنه يردد في داخله أمثالاً أو يفتش في ذاكرته عن نتف من قصيدة.

ركب الرجل وابنه سيارتهما الجيب وأغلقا الأبواب. «هيا! افعلوا شيئاً»، صرختُ على مترك والآخرين. شرحتُ أن الرجل أخذ نسختي الوحيدة التي اشتغل بها. كانت معي نسخة لوكيل الأمير في الرياض ونسخة للدندان، لا أكثر. إن هذه سرقة. سأقدّم شكوى إلى الأمير. «سعود، أنت شاهدي!».

كنتُ أكذب، ولكن لم يكن في نيتي أن أسمح لرجل تصرف كأنه مدّع عام، بأن يأخذ مني كتاباً يزيد سعره في المكتبات على مئة دولار. والأنكى من ذلك أنه سيعامله كلعبة رخيصة مآلها المزبلة ما إن تفقد بريق جِدَّتها. كبحتُ الرغبة في الركض وراء السيارة وتفجير مشاجرة رعناء. فكرةُ في أن أقف وأخوض صراعاً لانتزاع هذا الكتاب عن الدندان مع هذا السعودي بلباسه البدوي وبحضور موضوع الكتاب نفسه، كانت سخيفة للغاية.

بقيتُ جالساً وتهيأتُ لإضفاء تهديد بنبرة هادئة، وبالتالي أكثر مصداقية على صوتي. لم يكن بمقدوري التعويل على سعود، وكان ذلك بديهياً. فلقد ظل صامتاً في سورة من البرم منذ أن وبَّختُه لإلحاحه علي بالمغادرة بعد خمس دقائق على وصولنا. أخرجتُ رسالة الوكيل مرة أخرى وأشرتُ إلى التأشيرة التي في جواز سفري. كان قبول ما حدث بإذعان غير وارد بالمرة. قال مترك بلهجة تصالحية، «إنه يمزح لا أكثر، كتابك سيعود إليك فوراً». صرختُ هائجاً، «كلا! إنه مغادر الآن! سأحمِّلك شخصياً المسؤولية!».

تحرك الجمع المتحلق على مضض. طُوِّقت السيارة، وأخذ الحاضرون يتكلمون بأصوات عالية ويتخاطفون أشياء في السيارة. فجأة ظهر الكتاب من بين الأثواب. انطلقت السيارة بحركة غاضبة واختفى الرجل عن الأنظار بتعبير ساخط على وجهه مثبتاً أنظاره إلى الأمام.

خلَّفنا الرجل وراءه بوجوه احمرت قليلاً من الخجل، كما يحدث بعد مشاجرة في خمّارة. التوقعات الكبيرة لم تتحقق والزوار انسحبوا نادمين. أخيراً أُتيحت لي فرصة للقيام بمحاولتي الأخيرة. «ماذا قلت عن ابن بتلا، يا الدندان؟». هز رأسه: «كنا شباباً وقتذاك. والآن نحن هرمون. نفكر في أشياء أخرى»، وأشار إلى السماء. كانت الرسالة واضحة. الدندان لم يكن يريد أن يقامر بتذكرة دخوله إلى الجنة ليسدي لي معروفاً.

ولمكافأتي على عنائي، سمح لي بتسجيل قصيدتين جديدتين، أي أنه نظمها «عقبك»، أو «بعدك»، كما وصف الدندان زيارتي قبل سنوات. لذا، لم يكن صحيحاً أنه أُخرِس كشاعر منذ ذلك الحين. وما لبثتُ أن تناولتُ الطُّعم كالعاشق الذي يغفر عن طيب خاطر كل ما مضى من خداع وأكاذيب ما إن يبدي المحبوب استجابة للمطارحات الجديدة. كانت قصائد يمدح فيها الدندان قبيلته الرجبان رافعاً إياها إلى الجوزاء. تذكرتُ، وأنا أستمع، كلمات ابن جربوع: «حتى وهو مشلول يبقى لسانه يتحرك ويشتغل بلا توقف». وفي ختام الجلسة قرأتُ أبياتاً لابن بتلا، كانت حصاد الأيام السابقة. استمع الدندان بانتباه، بعينين نصف مغمضتين. كان يعرف القصائد من دون ريب، ولكن بدا أنه يستمتع بها من جديد. فهو كما الصائغ يعرف كيف يقدِّر العمل حق قدْره، ويستطيع الاستمتاع به. وكمنافس كان من المحتم أن يخطر في ذهنه السؤال عن حكمي المقارن على الاثنين. ولأول مرة انقلبت الأدوار. وسمعتُ باندهاش الرعشة المكشوفة في صوت الشاعر الذي كان شديد الرواقية والاعتداد بالنفس. لم يستطع مقاومة السؤال الذي كان يعذبه. رأيته، بتأثر، يلهث ويستجمع شجاعته ليضع مصيره بين يديّ.

سأل بخفر، «مَن الأكثر بلاغة، أنا أم ابن بتلا؟».

«الجميع أكدوا لي أنك أعظم شاعر غرّد في وصف الجمل بين طُريف (على الحدود الأردنية) ونجران (على الحدود مع اليمن)».

«وكيف!»، قال الدندان وقد انتفض فيه شيء من عنفوانه القديم، ثم عاد هامداً وعلامات الرضى بادية عليه.

في مدح الخروف

في طريق العودة إلى الرياض أردتُ أن أرمي شباكي هنا وهناك عسى أن يكون دندنات وأبناء بتلا آخرون لم يُكتَشفوا، بعد مختبئين في الصحراء. السعوديون يشيرون إلى أمثال هؤلاء بوصفهم «مغمورين»، لا يلاحظهم أحد في بحر البشرية ومشاغلها اليومية.

في الدائرة الزراعية حيث يعمل محمد الحنايا، لفت انتباهي «شايب» ضئيل يعتمر عقالاً أبيض بدلاً من العقال الأسود المزدوج المعتاد من الوبر. وإذ التفَّت يداه على مقبض عصا طويلة من الخيزران، كان ينظر بعينين يقظتين وبشيء من التحدي إلى مَنْ حوله. كان العقال الأبيض بمثابة حزمة ضوء يشع من منار في ليلة صافية، كأنه يقول: أنا من «الإخوان»؛ البدو الذين اعتنقوا شكلاً متزمتاً من الإسلام ويفتخرون بظروف معيشتهم الزاهدة ناذرين حياتهم للجهاد.

لقد اجتثوا من أعماقهم موطن الضعف الرخو المنخور الذي يكون بنظرنا حالة إنسانية، واستعاضوا عنه بمصدر طاقة فولاذية من الإيمان. كان الأحفاد يجلسون القرفصاء مستمعين إلى حكايات مثيرة عن حملات على ظهور الجمال تُقطع فيها مئات الكيلومترات ليباغت بها «الإخوان» أعداءهم الهاشميين الذين طردوهم من مكة وتعقبوهم إلى عمّان في الأردن، وإمامَ اليمن الذي فر إلى الجبال مذعوراً. كان الأطفال يستمعون مدركين أنهم لن يبلغوا أبداً مكانة هؤلاء الرواد والمؤسسين، وأن ما يأتيهم ليس إلا انعكاساً باهتاً لهالة «الإخوان». وكان الاقتداء من باب الاحترام، والحزم في مكافحة البدع وغيرها من الشوائب التي تهدد بالزحف على التراث الثقافي، هما المهمّتان التاريخيتان اللتان تقعان على عاتق الأجيال القادمة.

كان الرجل ذو العقال الأبيض يُدعى حسن الخليِّف. كان هرماً ولكنه أصغر سناً من أن يكون قاتل مع «الإخوان». ولا ريب في أنه ورث شرف ارتداء العقال من والده. كان يعيش في السلَيِّل؛ وهي واحة في الطرف الشرقي من الوادي تحت الأسنان المتداعية لصخور طويق، وقد وجه لي دعوة.

وعلى طريق رملي وصلنا إلى خيام آل خليِّف المتواضعة بين صف من كثبان الرمل وبستان من فسائل النخيل. تولّى خلَف؛ نجل حسن، الذي يعمل في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القيامَ بواجب الضيافة.

أشار خلف إلى حصان مربوط بحبل طويل إلى عمود من الحديد وسط الأرض غير المسيجة. طلب رأيي: أهو أصيل؟ بعُرفه الطويل المتدلي على رقبته وحوافره في وضع الاستراحة، لا تنم عنه حركة سوى رعشات من حين إلى آخر وهشات كسولة من ذيله لطرد الذباب، بدا الحصان صورة من الاستسلام الغبي. يضاف إلى ذلك أنه كان قصير القامة وغائر الظهر. كنتُ سأقول إنه يصلح لأن يكون في مزرعة أطفال لتمسيده وملاطفته. ولكني تذكرتُ وصف داوتي؛ الرحّالة الذي طاف وسط الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. فالخيل التي وجدها في اسطبلات أمراء حائل، الخيول العربية الأصيلة، كانت نحيفة وليست قوية البنية بالمقارنة مع نظيراتها الأوروبية حسنة التغذية والعناية بها. عدا ذلك لفت انتباهَ داوتي تصرفُها الوديع. حصان خلف بدا نقيض حصان هوليود الشهير، «Black Beauty» ولكن هذا ربما لم يكن مؤشراً يُعتَدُّ به إلى أصله. اعترفتُ بجهلي.

في هذه الأثناء حل وقت العصر؛ «العصرية المباركة» حين تكون الشمس أرخت قبضتها الجهنمية على الدنيا والظلال تطول قامة، والصخور والرمال تتوهج حرارة، وتهبّ نسمة عذبة. تجمّعنا على البساط حول حَسن الأب. عدَّلتُ الميكرفون وشجعته على أن يفتح بوابات ذاكرته من القصص والقصائد ويصبها في أسماعنا من خلال الميكرفون. انطلق حسن بكثير من الاعتداد واختار درجة صوتية كأن مستمعيه يبعدون مئة متر عنه. ربما كان يأمل في أن يكتسب ارتفاع صوته ما يكفي من الزخم ليحمله على موجة إلى خط النهاية. كان مثله مثل سبّاح يظن أنه يستطيع التعويض عن غياب الطريقة المنهجية ورباطة الجأش بخبط الماء خبطاً عنيفاً بأطرافه. بعد بضعة أبيات تعثر وصمت متأملاً بينما تابع جمهور المستمعين جهوده الفكرية بخليط من التوجس والحرج والشفقة والخبث.

أحد الأحفاد دخل البيت وعاد بدفتر مربع ضخم كُتب فيه كل شيء بخط أنيق. وكلما كانت الذاكرة تخون حسَناً كان الصبي يقرأ من المكتوب في الدفتر ويردده حسن. وبعد كل دفعة كان محرك الذاكرة يعود إلى الاشتغال لينطفئ بعد أبيات قليلة ثم يشتغل ثانية. واستمرت الحال على هذا المنوال زمناً إلى أن أنقذ أذان العشاء حسَناً من عذابه.

ركع المصلون في صف طويل باتجاه مكة، وجوههم ميمَّمة صوب النخيل وظهورهم إلى الدار. كانت النساء يظهرن من دون أن يراهن أحد سواي. لمحتُ من طرف عيني وأنا أمشي بلا هدف على امتداد الاسلاك الشائكة متظاهراً بالنظر إلى أشجار النخيل على الجانب الآخر، امرأة ضخمة بثوب أحمر تركع مرات وتسجد على الأرض ثم تنهض. وحين انتهت من الصلاة توجهت إلى زريبة لإطعام الغنم والماعز. إنها رحلة النساء السعوديات المعهودة وقت صلاة العشاء. وبعد أداء فريضة الصلاة عاد الجماعة إلى الجلوس على البساط.

بدأت فوقنا النجوم تضيء نجماً تلو آخر: الشعرى والجوزاء، ثم النجوم الأصغر. «حين تكون النجوم في هذا البرج تبدأ البذور بالنمو في الحقل، كما يقول شاعر كتاب الساعات »، قال عبد الله، أمين المحكمة الإسلامية في الوادي، الذي كان مرافقنا. ولكن حلقة الرجال سمعت ما يكفي من الشعر، وعنه.

ومن جهة سُهيل الذي كان يتلألأ خفيضاً أحمر صوب الجنوب فوق جرف طويق، لم يلبث الربع الخالي أن أطلق زفيره القوي الحار نحونا. الهواء من حولنا امتلأ بالأجنحة، وظلال البوم والوطاويط مرت عبر النجوم.

خرج الأطفال ليقولوا إن الضأن جاهز في الداخل. فلقد كان الغبار كثيفاً في الخارج. أشار حسن إلى كتلة بيضاء متعرقة، رجراجة. «شحم»، صاح حسن. «شحم الضأن، شحم خالص، أحسن الموجود. كل!». لبرهة شعرتُ بأن معدتي وحجابي الحاجز يثبان من مكانيهما. أخذتُ نفَساً عميقاً واستجمعتُ شجاعتي وشرعتُ في الأكل. كنتُ أبتلع الشحم بمساعدة حليب الإبل الذي نادراً ما يكون أقل دسماً.

في طريق العودة بذل سعود قصارى جهده. كان هذا ما سمّاه حفل استقبال. وأخذ يصف بكلمات غنائية نوعية الخروف الذي أكلناه مع الرز المخلوط بالزبيب وبذور الصنوبر. خروف كبير وطري، أُطعم على يد خبير وشُوي بعناية على الفحم وقُدِّم مع المنكهات الصحيحة. لحسن الحظ كان أصحابه في الوليمة بطيئين. ولم يسمح أحد منهم لنفسه بالنهوض في عجالة كي يُبقي شيئاً للوجبة التالية من الآكلين. الذين أكلوا حتى شبعوا واصلوا تمزيق اللحم بأيديهم والبحث تحت الأضلع لتمكين النهمين من الالتهام من دون حَرَج. لم يخطر بباله حتى أن يقول، «قوموا واغتسلوا، ولا تقلقوا علي». لم يكن هنا من مأخذ على الأتكيت.

كان عشاء الضأن ذروة ذلك اليوم عند سعود. ويبدو أن الهدف الحقيقي من الرحلة فاته تماماً. أم كان من المنطقي أن الأشياء التي تبدو لي عفوية تكتسب عنده ثقلاً أكبر؟ كان علينا أن نتعايش. وفي ما يسمى الزيجات الناجحة يكمن السر في تمكين كل طرف الطرفَ الآخر من الاستمتاع بمسرات صغيرة، وحتى التظاهر على نحو فيه قدْر من المصداقية بالمشاركة في لهفته. ولأسباب نفعية استرخيتُ في مقعدي ورحتُ أمتدح الخروف.

السيدة البدينة

كان هناك طريقان للعودة إلى الرياض؛ على الطريق المعبد أو مباشرة عبر الصحراء لمسافة مئتي كيلومتر من الوادي إلى قرى واحة ليلى. سعود، بالطبع، كان يريد العودة إلى العاصمة بأسرع وقت ممكن وبأريح طريق ممكن. فكرة الغبار على لوحة أجهزة القياس ذاتها كانت تصيبه بضيق في التنفس. الطريق الذي كنتُ أُفضل العودة عبره، كان على النقيض من رأيه تماماً. ولإسناد محاجتي كان بمقدوري أن أشير إلى الأهمية الرسمية لمهمتنا. في دائرة «الخويا» سمعتُ أنه في عمق الصحراء هناك شاعر عجوز؛ ناصر بن ربيعان من قبيلة آل بو سبّاع. وكنتُ عازماً على إيجاده. إحداثيات المنطقة التي يتنقلون فيها كانت معروفة بصورة تقريبية لـ «الخويا». وحدث أن أحدهم كان من القبيلة وأبدى استعداده لإرشادنا.

وُضِع النزاع بين يدي أمير الوادي. اقترحتُ والأمل يراودني، «دع سعوداً يمضِ على الطريق المعبد ودعني أذهبْ إلى الصحراء بمبادرتي أنا». الوادي معروف بأنه أصعب وأوحش مكان يمكن أن تعيِّن الرياض موظفاً فيه. وكالعادة، كان المكتب غاصاً بالشيوخ المتنازعين، والبدو الغاضبين والمسؤولين الساخطين. ولم يكن هناك وقت في الحقيقة لمجاملة باحث جوّال مثلي. ولكن الأمير، وهو الإداري المتمرّس، كان قادراً على قراءة الرسالة التي أعطاها لي مسؤوله وكيل أمير الرياض القراءة الصحيحة. والكلمات الجوهرية في عبارة «تسهيل مهمته»، لم تفت عليه.

انتظرنا دورنا بهدوء بينما كان الأمير يتفحّص أكداساً من الورق، ليُصدر قراراته فيها تباعاً بحكمة سليمان، بينما كان «الخويا» رائحين غادين بالملفات. ثم انتقل إلى غرفة أخرى للاتصال بمسؤوليه في العاصمة. فجاء الحكم سريعاً وقطعياً لا يقبل الاستئناف. سعود وسيارته الجيب سيرافقانني ما شئتُ ذلك وحيثما أردتُ في العربية السعودية. أحنى سعود رأسه وغادر لتجديد زيت السيارة وغسلها للمرة الأخيرة.

أخذ دليلنا ابنه الصغير ووالده من بيته. كانت المهمة فرصة سانحة للقيام برحلة مأذون بها من المدير وزيارة أفراد قبيلته في الصحراء. رموا بعض البسط وقناني من الماء وقوارير من البلاستيك في مؤخرة سيارتهم البك آب المتداعية، واستعدوا للانطلاق.

من النويعمة؛ قرية شيوخ ابن قويد، اندفعنا نحو كثبان الرمل التي تحمي الوادي من جهة الشمال. وكان الدليل حذرنا من أن الممرات هنا خبيثة، وعرة وغدارة. الدليل سلّم المقود إلى ابنه وانضم إلينا. وعلى أحد المنحدرات فقد سعود زخمه وانحرف إلى الجانب الخطأ من الطريق. زمجر المحرك واستمرت الدواليب في الدوران، لكننا لم نتحرك شبراً واحداً. ابن الدليل الصغير رأى مشكلتنا، وضغط على دواسة البنزين، فتجاوزتنا سيارته البك آب متراقصة كفراشة، نوابضها تتماوج في صعود وهبوط، والجد بلحيته المصبوغة بالحنّاء يتطلع بهدوء من النافذة في المقعد الخلفي. وبعد مسافة طويلة توقفوا في بقعة كان الرمل أقل نعومة فيها.

خرجتُ لاعناً سعوداً بيني وبين نفسي، تاركاً الصندل ورائي، ولحقتُ بالدليل. رمينا أجسامنا معاً، على مؤخرة السيارة، وبدأنا ندفع وسط سحابة من دخان العادم الذي كانت قدم سعود على دواسة البنزين تنفثه من حولنا. كان سعود يحرك المقود حركة إيقاعية ذات اليمين وذات اليسار لتمكين الدواليب الأمامية من إيجاد موقع تثبت فيه، ولكن كل مهاراته كسائق لم تنجح في منع السيارة من الغوص في الرمل حتى المحور تقريباً.

تذكر سعود، في غمرة المعمعة، أن الإطارات ربما نُفخت أكثر مما ينبغي. حوالى 4 جو، وهو ضغط مناسب للانطلاق على الطريق المعبد بسرعة كيلومتراً في الساعة، ولكن ليس للسير عبر رمال ناعمة. لم يكن لديه جهاز لقياس ضغط الإطار بين أدواته. لا حاجة إلى ذلك. أخرج سعود قلماً من جيبه ودس نهايته في الصمام ونظر إلى ساعته في اليد الأخرى. صاح ببشاشة لإيصال صوته بين هسيس الإطار، «ضغط واحد في الدقيقة». وبهذه الطريقة دار حول السيارة فاحصاً الإطارات الأخرى. وفي أحد الإطارات أخطأ الحساب بدقيقة وهو يثرثر ولكن بدا أن الإطار كان لا يزال مليئاً بالهواء.

ركبنا من جديد، وشبراً بعد آخر، ببطء قاتل، شقت الإطارات طريقها حول قمة تل حيث وقف ركاب سيارة البك آب يراقبوننا بهدوء.

بعد حوالى خمسين كيلومتراً تحولت التلال تدريجياً إلى «رخرخة»، أو سهل رملي وازدادت السرعة إلى 130 كيلومتراً في الساعة. سعود والأجيال الثلاثة من أدلأئنا انفجروا عفوياً في حداء رتيب فَرِح وبهيج. كانت الريح تهب عاوية من خلال نوافذنا المفتوحة، ورأيتُ الغبار يتصاعد وراء سيارة البك آب كأنه أكاليل طويلة دافقة. بدت سيارة البك آب نفسها معلقة بصمت في الفضاء كأنها طائرة تُرى من طائرة أخرى تحلق في اتجاه واحد معها. أحياناً كانت السيارتان تقتربان من إحداهما الأخرى وكنا ننادي بعضنا بعضاً، وأحياناً أخرى كانتا تتباعدان حتى كانت كل واحدة تمر بنتوءات صخرية معزولة على جانبين مختلفين.

ازداد الزرع، وما لبث أن امتلأ السهل كله بشجيرات السمر والسلم. «وادي قمرا»، قال الدليل. وفي الهواء الضبابي أمامنا لاحت الظلال الرمادية لجبل هرمي عملاق، وعلى يمينه جرف هائل تلو آخر. جبال إيحامر والسوادة، موطن قصائد ابن بتلا. كانت سنامات تتجول بين الشجيرات، ولأول مرة منذ حوالى مئتي كيلومتر رأينا سيارة أخرى، سيارة بك آب تعود لرجل من أفراد القبيلة. دلّنا على الطريق إلى مضارب عشيرة ناصر تحت جبل جعشوم.

لاحت بيوت الشَّعر في الجزء المنخفض من الوادي. وشرع مضيفنا على الفور في إعداد القهوة. حبات خضراء تُشوَى في مقلاة على نار من حطب السمر وتُخَض حتى تخشخش ثم تُسحَن بعناية في هاون. وإذ توافد مزيد من الرجال استجابة لصوت الهاون ازدادت الحلقة اتساعاً. وكانت طقوس التحية تعاد مع كل قادم جديد. «عسى ما خلاف»، «كفيت الخلاف»، «مأجور، الله يسلّمك، حياك الله»، «كيف حالك؟»، «الله يسلّمك»، «وش العلوم؟ عفاك، عفاكم الله، علومنا سلامتك»، «عساك طيب، طاب حالك»، «وش لون العيال؟ جعلك بعيال»، «وش العلوم؟»، «كلنا بخير الحمد لله»، «وش لون الذود؟»، «جعلك بزود».

وعلى امتداد خمس دقائق كانت الأسئلة والأجوبة الموصوفة تتطاير من هذا إلى ذاك، وفي هذه الأثناء كان كل قادم جديد يُعطى فنجاناً نظيفاً وكان الساقي الذي يقف في وسط الدائرة أثناء المجلس يملأ الفنجان بسيل طويل رفيع من دلة القهوة. ثم كان يدور على الضيوف الآخرين. لم يكن عنق الدلة الطويل، المنحني كأنه منقار الكروان، مغلّفاً بألياف النخيل المعتادة لمنع الأجسام الغريبة من الخروج مع القهوة. كانت الفناجين نتيجة لذلك مليئة بحبات الهيل، بينما كانت ثمالة الفنجان تُرمى على البساط.

معزات شقت طريقها من خلال جنبات الخيمة في مؤخرة صالون الضيوف، نظرت إلى المجلس من فوق الخزانة المعدنية بعيونها العنبرية الشبيهة بعيون الزواحف، ووثبت على نوى التمر المقذوف من الأفواه وحبات الهيل المرمية، وانطلقت هاربة بقفزات غريبة فوق الحبال المشدودة تتجنّب رشق الرجال لها بالحجارة.

جلس ناصر وظهره إلى الأشرطة الملونة لجدار الصوف الذي يفصلنا عن قسم النساء من الخيمة. لاحق الشاعرَ رجالُ قبيلته حتى أتوا به، فصافحَنا بخجل كأنه خائف أن يكون هناك سوء فهم أو مزحة سمجة. نكّس شماغه كخيمة واقية بحيث لم تظهر إلا لحيته الرمادية وأنفه وإطار نظارتيه الضخم بعدستين سميكتين سماكةَ أسفل قاع زجاجة الويسكي.

كان من الجائز أن تمر اعتذاراته واحتجاجاته بوصفها تواضعاً. شعرتُ بميل إلى اعتباره لطيفاً دمثاً، ولكن خبرتي مع نابت وشعراء آخرين من المهمَّشين اجتماعياً، علّمتني بسرعة أن أكبح هذا النزوع. كان المهم محاصَرة الطريدة وقطع كل المنافذ عليه بمساعدة أفراد قبيلته، كما باغت سعود والدليل ضبّاً خلال الرحلة بمنعه من الوثوب إلى جحره. كان الضب الآن في كيس مغلق بإحكام في مؤخرة سيارة الجيب ليكون لعبة يلهو بها أطفال سعود في الرياض. وهكذا، على وجه التحديد، يجب ألاّ يفلت ناصر مني قبل أن تكون قصائده في جيبي.

أُفهِم ناصر، بطريقة ودية ولكن حازمة، أن لا مفر من إثبات سمعته بتقديم عيِّنة من فنه. انحنى على الميكرفون، فكر طويلاً وبدأ الإلقاء. لا ريب في أنه كان يقوم بمحاولة صادقة، وما هي سوى دقيقة حتى أدركتُ أن تواضعه لم يكن كاذباً. إذ لعله كان ذات يوم صانع أبيات حقيقياً، ولكن الزمن تجاوز شخصيته الشعرية التي بدأت تتداعى الآن من كل الجوانب. فات الأوان؛ كانت الفكرة التي راودتني من جديد. كنتُ كما لو أن رحلتي السابقة جرت على الحافة السحرية من الزمن. الدقائق الخمس قبل منتصف الليل في تقاليد شعرية تمتد نحو ألفي سنة من الثقافة البدوية المرويّة. ومنذ عام 1989 كان نصف مصادري من الشعراء قد توفوا أو أقعدهم الوهن الجسدي والعقلي.

كان ناصر يلقي بهمس تقريباً. طلبتُ منه أن يرفع صوته. «لم يعد عندي صوت»، قال بحركة يائسة. وبنبرة مرتعشة أعاد كل بيت كأنما يتعين عليه أن يجد طريقه بتوجس عبر نفق دامس الظلام. كان يتلعثم باستمرار، وفي عدد من القصائد ضيَّع الخيط مرة أخيرة وإلى الأبد.

كان المستمعون يحثونه على المواصلة، ولم تبد عليهم أي خيبة أمل. ولكن في العيون الغامزة والابتسامات الخفية وعبارات التشجيع والأسئلة التي كانت إجاباتها معروفة، شعرتُ بوجود مؤامرة يحيكها كبار ضد طفل طُلب منه أن يقدِّم وصلته التي يؤديها عادة في الحفلات. كان وضعاً ذكّرني بنابت والدندان. هل يجوز أن يظلّ الشاعر البدوي الحق شخصاً حبيس المرحلة الانطوائية لطفولته؟ الطريقة التي يُعامَل الشعراء البدويون بها من جانب القبيلة، وسلوكهم أيضاً، كانا يشيران في هذا الاتجاه. لم يكن أي من الشعراء الثلاثة متزوجاً. المرأة ظلت مخلوقاً في أحلامهم، مرغوبة في أفكارهم وقصائدهم، لكنها مرهوبة في واقعهم. وكان هناك إجماع في الوادي على نَسْب عزوف الدندان عن الزواج إلى العقم. فالذين لا يعرفون اللذة وحدهم الذين يعيشون عازبين لأن المسلمين يؤمنون بأن الله أوجد الزواج للإنجاب وللمتعة الجسدية المتبادَلة على السواء.

وبما أن هؤلاء الشعراء مصابون بالعنّة وبالتالي لا خطر منهم، لذلك لم يكن أحد يُجرَح بقصائدهم الماجنة. وفي أكثر المقاطع خلاعة حين يكون الشاعر جريئاً بما فيه الكفاية للمغامرة بقبلة، كان الدندان وناصر ينفجران ضاحكين كأنهما فتاتان. «أهلي قالوا رح للهند أو مصر وخذ زوجة من هناك. لكن النساء لا يعنين شيئاً عندي وهن لا يردنني، وأنا لا أريد أي صلة ببلدان غريبة»؛ كان هذا تعليق ناصر على إحدى قصائده.

«ماذا عساي أفعل بزوجة لا تقبل الحجاب وتتصرف بوقاحة؟ لا أعرف ما يدور في رأسها أو ما تريد. كلا، أعطني امرأة سعودية، من أعماق نجد النقية، بخصر كالجمل العربي بعد رحلة شاقة في الصحراء، ورقبة رشيقة وعجيزة ملساء ومكتنزة كرديف دابة الركوب، تبرز كسنام ناقة صغيرة شبعى. امرأة لا تقول، «ارغ، يا راجل يا عجوز»، كل شيء بالتمام على سُنَّة الله ورسوله»؛ هذا ما أكده لنا ناصر في ختام القصيدة.

في قصيدة أخرى، يروي ناصر كيف لاحق ذات يوم فتاة من قبيلة أخرى. تعمَّدت المرور في طريقه وكشفت عن الذهب الذي يخشخش في معصميها. وتنهد في الأبيات التي ارتجلها عن ذلك الحادث: «إذا كنتَ تريد أن تضيف شيئاً فهيا. آه، على البنات اللواتي لا يقرفن من رجل عجوز ويسعدن بمشاركته

حياته في السرّاء والضرّاء».

«الجاسمة»، نادى أحد المستمعين، وأيده آخرون. «المرأة البدينة، ألقِ لنا قصيدة غرامك مع المرأة البدينة!»؛ أضفتُ صوتي إلى الجوقة المتصاعدة. قام ناصر بحركات دفاعية، انكمش وخفض نظره. انسحب كالمحارة وأغلق قوقعته. ربما كانت لم تزل فيه نقطة ضعف تُشعره بالحنين إلى تلك «المرأة البدينة»، والأرجح أنه أحس فجأة بأنه موضع سخرية ومصدر متعة خفية؛ إنه كان أضحوكة.

في المساء، حضر ناصر وليمة الضأن، ولكن لم يكن بالإمكان انتزاع كلمة واحدة منه. جلس صامتاً وحيداً ينبش جمرات النار ويحدِّق في وهجها. بعد قليل اختفى في الظلام من دون أن يقول شيئاً أو يستأذن أحداً. لم يبدُ أن الآخرين افتقدوه. كان الانتباه كله موجهاً إلى رجل عجوز أخذ يهرف ويهرف عن مغامراته كمريض مصاب بالسكري في مستشفى في جدة. ولأن نصف البدو الأكبر سناً يعانون من مرض السكري أو يُخيَّل لهم أنهم مصابون به، فقد كان الحاضرون لا يفوّتون كلمة من حديثه. وجرى تبادل الخبرات عن الأعراض البغيضة: النهوض في الليل للتبول والخفقان وكيف يدب الضعف والارتعاش في سيقانهم حين يستفيقون من نومهم صباحاً. الشباب الذين لا يحق لهم الكلام بعد، كانوا جالسين يستمعون بأدب.

قال الرجل لمستمعيه إن الأطباء والممرضين الذين كانوا يرطنون في ما بينهم أساؤوا معاملته بفظاعة في المستشفى. كشطوا اللحم والأنسجة من قدميه حتى بان بياض عظامه. القدمان التأمتا ولكن الطبيب منعه من الدهون، بما في ذلك اللحوم الدسمة والشاي والسكر والتمر والرز. وأضاف بفخر أنه تجاهل نصيحة الطبيب حول الحمية في تغذيته.

حتى هنا، في وسط الصحراء، بدا العالم الحديث، فجأة، قريباً بصورة تبعث على القلق. انفضّت حفلة السمر، ولكن السؤال كان كيف نستطيع الخروج من هنا. كانت تفصلنا 150 كيلومتراً عن أقرب طريق معبد. ولم يكن هناك متطوعون لقطع هذه المسافة بالسيارة ثم العودة. عرض أحد الرجال أن يُرينا الطريق إلى خيمته، التي تبعد 20 كيلومتراً في الاتجاه المطلوب.

تصاعد هدير محركات سيارات البك آب من كل الجهات واخترقت حزمُ الضوء المنبعثة من الأنوار الأمامية سوادَ الليل الدامس. وفي الجو كانت غيوم عالية من الغبار غلّفت السماء ولم تترك شيئاً من شمس النهار باستثناء قرص مائي شاحب توارى في الغلالة الرمادية قبل زمن طويل من بلوغ الأفق. وبغية الاقتصاد في استهلاك الوقود، انطلقت سيارة البك آب من أمامنا أشواطاً طويلة على الطريق بلا أنوار. وبانسيابية وثقة شقت السيارة طريقها وسط خريطة من الممرات على تلال حجرية وعبر أجمات من الشوك والسنط في أخاديد الجداول الجافة التي تتخللها.

دُهشتُ لطريقة القيادة الماهرة والحذرة غير المعهودة من البدو الذين ينطلقون عادة دونما أي اعتبار للبضاعة أو المسافرين.

في صباح اليوم التالي سمعنا أن سيارة البك آب كانت تقودها إحدى بنات الرجل. وبرغم منع المرأة من قيادة السيارة في العربية السعودية، إلاّ أن هذه القاعدة لا تُطبَّق بين البدو في الصحراء، مثلما أن المرأة البدوية أكثر حرية في نواحٍ عدة من نظيرتها في عالم البيوت والطرق المعبدة الأكثر تحضراً. لم يكن ذلك خبراً مفاجئاً لسعود ولكنه بعث في نفسه إحساساً مثيراً.

على بعد بضع مئات من الأمتار عن الخيمة، بحثنا أنا وسعود عن مكان نبيت فيه الليلة. أيقظني الذباب في الفجر بطنينه حول رأسي، والرنين المغري لهاون القهوة يتناهى من بعيد. رأيتُ سعوداً ينهض في الهزيع الأول ويؤدي نصف نائم، حركات يُفترض أنها صلاة.

بعدها مباشرة، لف جسمه ببطانيته من جديد وعاد إلى النوم. ولم ينهض أخيراً إلا في ساعة الضحى. وبَّخته، «أيها الكسول، النجير (الهاون النحاسي الذي تُطحَن فيه القهوة) نادى علينا منذ ساعات». حتى أشد الطهرانيين تزمُّتاً في العربية السعودية، يعتبر أن «التصفير»، أي العودة إلى النوم بعد صلاة الفجر، ضعف أخلاقي في أسوأ الأحوال وليس معصية أو خطيئة. ولكن بعد أحاديث الليلة السابقة شعر سعود بأنه قوي بما فيه الكفاية ليُنهي مرة، وإلى الأبد، سخريتي من خموله في ساعات الصباح: «أنا أيضاً مصاب بالسكري. وأنت سمعتَ يوم أمس أنه ليس مزحة. الليلة الماضية نهضتُ خمس مرات للتبول»؛ كان ذلك ضربة معلم. وتبدد تبرمي من سعود ليحل محله حكم أخف. إذ لم يكن من السهل عليه أن يبتلي على حين غرة، ولفترة غير محددة، بأجنبي من «بلاد برة» في رحلة غامضة إلى أشد زوايا البلاد قسوة.

بعد قليل، جلسنا عند مدخل خيمة مضيفنا. كان المشهد حزيناً وفيه مسحة من السريالية. فعلى جانب منا بعير ضخم أُوثقت ساقاه الأماميتان بحبل غليظ. وفي الوادي المنداح رحباً أمام الخيمة تناثرت أجمات من شجر السلم الشوكي العاري من الأوراق. وفوق كل أجمة، وعلى مدى النظر، فُرشت قطعة سميكة من البلاستيك الأخضر ـ أكياس الشعير الذي تُعلف به الإبل وقت الجفاف ـ . كان الأفق مبتوراً بخط خفيض متموج من تلال الغرانيت البنّية بلون الصدأ، روابي هضبة السوادة. كانت الشمس ما زالت مختفية وراء سحب من الغبار الدوَّام.

كان سكان بيوت الشَّعر رموا أكياس البلاستيك عشوائياً فنثرتها الريح هنا وهناك وعلِقت بأشواك الأجمات الطويلة. ثار حسي البيئي. ولكن كيف أستطيع التعبير عن اعتراضاتي؟ نقاء الطبيعة، الفارق بين النفايات العضوية والنفايات التي لا تتحلل، أهي عقلية الاستهتار الضارة للمجتمع الصناعي الاستهلاكي؟ سعود ومضيفنا كانا سيظنان أني أهذي. فهما ما كانا سيريان مشكلة حتى لو غُطيت العربية السعودية كلها بأكياس من البلاستيك الأخضر المطبوع. والأكثر من ذلك أن البدو كانوا، منذ آلاف السنين، يرمون الأشياء كما يحلو لهم. وليس الذنب ذنبهم أن يكون لديهم اليوم مال يمكن أن يشتروا به علف الإبل معبأ في أكياس من البلاستيك. قررتُ أن أستمتع بالمشهد باعتباره عملاً من أعمال الفن الحديث. طائر أصفر كبير من طيور الذعرة كان

يكرج جيئة وذهاباً أمامنا وقد ضخّمه الهواء الساخن المرتعش فوق نار الغضى الذي جُمع من الكثبان حيث ينمو هذا النبات، وكان بين حين وآخر يثب فوق حبل من حبال الخيمة. وعلى الفرع العلوي من الأجمة كانت طيور الدغناش. ودأبت يد امرأة على مدنا بأقراص من الخبز الطازج الحار من وراء القاطع الجانبي. وعدا ذلك، كان الفطور يتكون من حليب الإبل يُملأ في أقداح زجاجية صغيرة، والتمر، وقطع صلبة من جبنة البدو.

كان مضيفنا يحب الطبيعة بطريقته الخاصة. كان يجيب عن أسئلتنا بعبارات مقتضبة. كان ينتمي إلى آل بو سباع ولكنه فضّل أن يقيم خيمه على انفراد مبتعداً 25 كيلومتراً عن أفراد قبيلته. أحياناً كان يزورهم حين يسمع بحادث ما وقع، كما جرى يوم أمس، أو دونما سبب. كانت العزلة أحسن. فلو عاشت النساء قريباً من بعضهن بعضاً لتبادلن الزيارات طوال الوقت، وهذا النوع من القيل والقال لا يجلب إلا المتاعب. الأفضل ألاّ تُتاح لهن فرصة كهذه. قال، «الرجال، الله يكفي شرهم». بدا تعبير وجهه المتضغن بلحيته الرمادية القصيرة وكأنه يلقننا درساً بليغاً في الحكمة.

أحجم مضيفنا عن ذكر اسمه لي. «أوه، الأسماء، ما هي الأسماء؟ ما أهميتها؟». شعر بأنه في مكان مريح هنا، حتى الآن على أقل تقدير. «البدو أبالسة»، فهم اليوم هنا، وغداً بقدرة قادر في منطقة أخرى تماماً. من الواضح أنه ليس لديه رغبة الآن في الرحيل برغم الجفاف. «كان هناك مطر في جبال الحمرة. لماذا لا تذهب إلى هناك؟». زمجر، «الله يجلب لنا المطر». سأل سعود، «ألا ترسل أبناءك إلى المدرسة؟». اعترف الرجل قائلاً، «في الحقيقة لا». بين حين وآخر كانوا يذهبون إلى مدرسة تبعد نحو 40 كيلومتراً في الصحراء من الثالثة حتى الخامسة بعد الظهر. لا يكفي هذا لتعلم القراءة والكتابة.

أسئلتنا لم تزده بشاشة. قال مشجعاً سعوداً، «تعال وزرنا يوم الجمعة مثلاً». «نعم، أود ذلك، لكن المسافة بعيدة. هذه مشكلة بعض الشيء». ردد مضيفنا مستغرقاً في التفكير، «المسافة، نعم المسافة». فجأة انفرجت أساريره. «الخنجر. لدي خنجر بديع للبيع. أترغب في الشراء؟». شكرتُه بابتسامة. «بالأمس، سألني ناصر أيضاً إن كنتُ أريد أن أشتري شيئاً منه. سأل إن كنت راغباً في شراء زوج من النويقات!». شرح مضيفنا، «كلنا لدينا ديون لا نستطيع سَدادها».

لم يكن بالإمكان المكوث أكثر في وقت الفطور. وكان بوسعي أن أترك لسعود مهمة اجتياز الحاجز الأخير. الرجل أقسم بكل المقدسات إننا لن نغادر قبل أن نتغدى ونتعشى عنده على لحم الضأن. «يا مال العز»، هتف سعود المرة تلو الأخرى، وقدم صنوفاً شتى من الأسباب التي تحول دون بقائنا دقيقة أطول. تطايرت الأذرع والأيادي بحركات عنيفة في الهواء وتشابكت متوسلة غاضبة مهدئة. أخيراً، استسلم مضيفنا ورسم لنا الطريق بعصا في الرمل. «اتبعا السكك (الممرات المطروقة كما تتبدى في خطوط بيّنة) عبر أخدود الجدول الجاف ثم فوق الحزم (التلال الحجرية). ستأتيان إلى فج، شقة عريضة بين الكثبان. على يمينكما ستريان خيماً من القنب الأبيض. اتبعا ملوي العرق (التفاف الرمل) على ذلك الجانب. أبقيا الشمس أمامكما من جهة الشرق واتبعا طريقاً على شمالها. اعبرا الرمل وعلى الجانب الآخر سوف تريان جبل طويق. لن تضيعا. اذهبا في أمان الله». انتهت الزيارة، أو بالاحرى قطعناها، لأن وداع سعود سريع مثلما أن النضال للإفلات من وجبة الضأن التالية طويل. غادرنا من دون مزيد من المجاملات ومن دون أن نتلفت حولنا.

كان وصف الطريق دقيقاً تماماً. فلقد وصلنا أرضاً منبسطة بين الكثبان ورأينا الخيم البيضاء، والجهة الشرقية من الوادي ندنو منها أقرب فأقرب. مَلْوي حقيقي، كما قال الرجل؛ خطوط متموجة من الرمال. أفعى قرَّبت جذعها الطويل منا بحركة جانبية زاحفة، خطرة وساحرة في آن. قمم حادة كالنصل على «جرف هيال» (شديد الانحدار)، حمراء ضاربة إلى البني بلون الدم المتخثر، تتخللها منحنيات بديعة، مكتنزة كأرداف وصدور حسناوات يستحممن في الماء. كانت الخطوط تتعرج وتلتوي وتدور بلهو وقسوة كعشيقات المركيز دي ساد أثناء المضاجعة.

لم يبدُ سعود مكترثاً لجمال الطبيعة. كان يتابع بتركيز النقاط المتحركة على شاشة راداره: الشمس والفلاة والرمل. «لم تعد هناك آثار إطارات». هذا يعني أننا ندخل أرضاً لم يطرقها أحد، ونحن فيها وحدنا. كل ما رأيناه هو الآثار القديمة لناقلة ماء إلى البدو من طراز مرسيدس، آثار ضحلة وعريضة كأنما خلَّفتها أقدام جمل. أصبح الرمل أنعم فأنعم. إلى الشمال منا اندفع مقدم الكثبان فجأة بيننا وبين البطحاء المنداحة على الجانب الآخر. وعلى اليمين زحفت الكثبان نحونا وبدأت تُطْبِق علينا. كان طريقنا مسدوداً. اندفع سعود إلى الأمام متسلقاً رابية رقيقة الانحدار تحفُّها جدران عالية من الرمال على الجانبين. لم تكن هناك آثار إطارات في أي مكان. صرختُ بسعود، «عد، عد من حيث أتينا!».

لكن دماء البدو في عروق سعود فرضت نفسها الآن. ضغط على دواسة البنزين وأطلق كل ما في المحرك من قوة للحيلولة دون الغوص في الرمل بسبب نقص السرعة كما حدث لنا قبل يوم. وكفريق من سائقي السباقات الخطرة طرنا فوق المنخفض العميق. فجأة اختفى الرمل الأحمر الغدار وصرنا على منبسط من الرمل الصلب الذي زادته تماسكاً جذور باقات من العشب تناثرت أجمات في السهل. وعلى مبعدة لاحت معالم العارض؛ الشق الذي يشطر جبل طويق على امتداده الجزيرة العربية، نصفين من الشمال إلى الجنوب لمسافة ألفي كيلومتر. خلّفنا كثبان الدحي وراءنا، وكنا في الاتجاه الصحيح، سالمين غانمين.

فجأة، كان سعود كله جسارة. «انظر. هكذا تغير السرعة في هذه السيارة. تلف وتدور وتُعَشّق كما تفعل مع المرأة، باستمرار وبقوة. هذا ما يُرِدْنَه. ثماني تعشيقات!». اندفعنا إلى الأمام مارين بجمال وخيمة. تغيرت الرمال إلى سهل تغطيه الأحجار. خفض سعود السرعة بطلب مني على مضض.

دروب مختلفة التحمت في طريق سالكة. وتحت الأرض الصلبة المرتفعة كان هناك بعض الحقول المرويَّة. كانت تبدو أرضاً قاحلة لا قيمة لها، ولكن جماعة ناصر تقول إن رجالاً قُتلوا في نزاع على ملكيتها بين الدواسر وسبيع.

بعد قليل وصلنا إلى الطريق المعبد والى قرية تحت سفوح طويق الشاقولية. كان أول ما خطر ببال سعود أن ينفخ إطاراته. وفي محطة البنتشير سألتُ رجلاً عجوزاً عن رواة القرية وشعرائها. قال الرجل، «هناك كثير منهم ولكن هذا ليس الوقت المناسب لزيارتهم. فثمة عداوة بين القبائل التي تعيش هنا».

وصلنا عند الظهيرة إلى إمارة ليلى؛ في منتصف الطريق بين الرياض ووادي الدواسر. وبخلاف الوادي كان هناك هدوء رائق في المكتب. شرح المسؤولون أنه كلما اقترب المرء من الرياض كانت الأمور أحسن تنظيماً. سألتُ عن جوينان. أعطاني الاسم علي، طاهي الإمارة السوداني في الوادي، الذي عمل قبل ذلك في ليلى. وبرغم أن الأمير كان غائباً فإن رسالة وكيل الأمير تولت تحريك آلة الجهاز الرسمي بكفاءة عالية. أُرسل سعاة إلى زقاق الهواملة، وهي عشيرة بدوية من عشائر الدواسر لديها مسكن مؤقت في ليلى.

انتظرتُ في مقعد وثير بجوار منضدة مدير مكتب الأمير؛ إبراهيم. جاء شيخ من قبيلة سبيع ودعاني إلى زيارة مزرعته. أراني ملفاً من الصور الفوتوغرافية الملونة. هو، نفسه، والأمير في الصف الأمامي تحت سرادق احتفالية، يتابعان وصلة غنائية، ورقصة العرضة يؤديها رجال بلباس بدوي. كانت نسخة من مهرجان الفولكلور السنوي في الرياض. اعتذرتُ عن قبول دعوة الشيخ بأدب.

كان إبراهيم من أصل حضري ولكنه فهم على الفور سبب رفضي. قال، «إنه يبحث عن بدو «قح» وليس مزيفين في حديقتنا الخلفية». كان إبراهيم رئيس الكَتَبة، وهو رجل ضخم بقميص أبيض أنيق وجوارب بيضاء في حذاء لامع وترسانة من الأقلام الذهبية في جيب الصدر ونظارات عاجية الإطار. وكان مساعده يجلس قبالته بزاوية وراء منضدة بالحجم نفسه. كان مساعده رجلاً نحيفاً يكتب بقلم، عيناه جاحظتان وأنفه يكاد يلامس الورق.

مر بعض الوقت من دون أن يند صوت باستثناء الخربشة على الورق. ثم نهض المساعد ووضع بعناية كومة ملفات مكتوبة بخط اليد ووثائق رسمية على مكتب مديره. أخذ المدير الوثيقة الأولى من الكومة وبدأ يقرأ بينما كانت شفتاه تتحركان بصمت. وفجأة، قرأ بصوت عال، «تنظيف خزانات الماء. ولكن هذا لا يمت بصلة إلى الإمارة. إنه من اختصاص البلدية». رمى الملف الذي يحوي الوثيقة في قوس أعاده إلى مكتب المساعد. نهض المساعد ومشى نحو مكتب مديره. وإذ وقف بجانب كرسيه انحنى على الأوراق التي أخرجها بعناية بالغة من الملف. وبدأ يشرح بصوت خافت تفاصيل القضية. بعد قليل أشار إبراهيم بحركة متأففة إلى أنه ضاق ذرعاً بالامر. دفع الوثائق بعيداً وزمجر.

عاد المساعد إلى منضدته وواصل العمل. إبراهيم، بدوره، عاد إلى الجلوس مسترخياً في كرسي المدير الذي كان مسند الرأس فيه أعلى من شماغه. دق بأطراف أصابعه برفق على حافة المنضدة الزجاجية قبل أن يأخذ الوثيقة التالية من الكومة المرتَّبة بعناية. رفع ورقة مكتوبة بخط اليد قريباً من نظارتيه وقرأها سطراً سطراً. «أحسنت، أحسنت»، تمتم برضى.

فجأة، انفتح الباب ودخل كاتب أصغر سناً. وبينما كانت يده تداعب خرزات سبحته نظر إليّ بصلف: «أهذا هو الرجل من تايلاند؟ فيه كلام عربي؟». سأل بالعربية المكسَّرة التي تُستخدم مع الأجانب الذين يتكلمون عربية غير مفهومة. «عربي ونص»، أجبتُ بانزعاج. زجره إبراهيم، «تكلم بلغة اعتيادية معه! فأنت حتى لا تفهم قصائد الدندان»، وطلب مني أن أُريه ذلك من الكتاب الذي وضعه على مكتبه.

بعد قليل عاد السعاة. الهواملة أقاموا خيمهم في حمرة نثيل، وهي بئر في الجنوب الغربي من الربع الخالي حيث هطل مطر. نستطيع أن نجد جوينان نفسه في الخرج؛ المنطقة الزراعية الواقعة جنوب الرياض. فهو بوصفه من أفراد حاشية الأمير السعودي كان في قصر سيده الريفي.

قفزتُ متحمساً: «سنذهب في الحال. جوينان رقم واحد!»، قلتُ محاكياً الطاهي السوداني علي. «رقم واحد»، هتف الموظفون بحبور.

رقم واحد

أدى سعود صلاة العصر على طريق ريفي. سألْنا عن الطريق حارساً على بوابة واحد من القصور الملكية العديدة. «مزرعة» أميرنا لم تكن محروسة بجنود. يعمل رب عمل جوينان في القطاع الخاص وليس له موقع سياسي. توقفنا بجوار فيلا كبيرة من الرخام. ولدى إمعان النظر اتضح أنها ليست إلا منزلاً في الجُنينة. وكان القصر الريفي الحقيقي متوارياً بين الأشجار في نهاية ممر طويل بين بساتين واسعة من أشجار المشمش والليمون والبرتقال وغيرها من الفواكه المدارية.

كان البعض من «خويا» الأمير يراقبنا بلامبالاة كسولة من السطيحة المرتفعة. أشاروا لنا بالجلوس على أحد كراسي الخيزران ذات الوِثارات الملونة التي رُتبت في صفين متقابلين تتخللهما مناضد زجاجية. كان الأثاث والزرع يذكّران ببيت ريفي فخم على الريفييرا أكثر منه في عمق الجزيرة العربية. «الخويا» أيضاً كانوا يختلفون تماماً عن البدو الخشنين في الوادي. كانوا ثلة مختَلَطة؛ رجلاً أسود بديناً جاء من قرية قرب ليلى، وآخر ذا وجه لافت ببياض بشرته ونظارتيه السوداوين قدم نفسه بوصفه من الأشراف، وهي قبيلة قرب مكة تستطيع أن تنسب أصلها إلى أجداد الرسول. كل منهما كان يتصرف كأنه هو الأمير. ربما انخرطا في الخدمة في سِن مبكرة لكنهما الآن كبار السن كسيدهما. فلقد كانا يمشيان، متكئاً كل منهما على عصا، ويرتديان جوارب صوفية كأنهما يشعران ببرد شديد. لذا، كانت السطيحة تذكّر بمنتجع للأرامل الأثرياء.

سألتُ سعود ذات مرة، «ماذا يتعين أن تفعل لتكون «خويا»؟». أجاب، «تقدم طلباً لا أكثر». «وماذا يُنتَظر منك؟». «لا شيء سوى أن تكون دائماً قرب الأمير، أن تبقى موجوداً. حُسن السلوك مطلوب لأن الحاشية ينبغي أن تكون من فئة راقية».

فخفخة فارغة، انعدام الطموح، قدرة لا تنضب على الجلوس، تزلُّف وكثير من قصص العجائز؛ هي ما أرى في هذه المهنة. بدا هؤلاء «الخويا» لي مجموعة من المتبطِّلين المتعالين. فطوال الوقت الذي جلسنا فيه على السطيحة الأنيقة معهم، لم يُقدَّم لنا شيء. «الخويا» في الوادي كانوا خلال هذا الوقت قد سقونا بكل تأكيد أربع دورات من الشاي والقهوة. ولم يكونوا يعاملون أحداً بازدراء أو عدم اكتراث. وكل يوم كان ينضم إلى «الخويا» في الوادي مشرد عجوز مختل، يرتدي ملابس رثة، ببقع صفراء في شعره، يغطيه الغبار والتراب، وقد بانت مناطق وردية تقشَّر منها الجلد على وجهه ويديه وقدميه. كان دائماً يُستقبَل بالحفاوة نفسها، ويُغدَق عليه الشاي والقهوة والحليب والتمر ببذخ. كان ينضم إليهم إلى الغداء ويشارك في الحديث برغم جهله فحواه. كان «الخويا» في الوادي يربون الإبل ويطاردون المهرِّبين بسياراتهم من طراز «جي أم سي» ويحفظون الشعر وتاريخ قبيلتهم عن ظهر قلب. كانوا «رجاجيل»؛ أي رجالاً حقيقيين. الرهط البائس هنا على السطيحة بدوا وكأنهم لم يحيوا قط.

جوينان كان مختلفاً. وبعد شيء من الإلحاح أبدى أحدهم استعداداً للذهاب وإيقاظه من قيلولة العصر. الرجل الذي بدا أنه ما زال نصف نائم، كان له وجه بدوي بشكل لافت: أنف معقوب بنبل وكتلة من الشعر الأسود والرمادي الأجعد. كان مظهره بمستوى التوقعات التي أُيقظت في نفسي، وبعد ما قدّمتُه من شرح فهم على الفور ما هو مطلوب. كانت الخيبة مضاعَفة حين بدأتُ تشغيل جهاز التسجيل. إذ كانت الحكايات باهتة وتخطيطية، وكانت القصائد مخرَّمة بالثقوب كالجبنة السويسرية.

كنتُ أوقفتُ الشريط لتوي حين وثب جميع «الخويا» فجأة على أقدامهم وبدأوا يتحركون بتوتر وينادي بعضهم على بعض. «جاء الأمير! أين الكرسي المتحرك؟». وزال كل أثر للذعر حالما دُفع الأمير إلى السطيحة. وارتسم على وجوه «الخويا» تعبير من الأدب الجم والهذر اللطيف. كان الأمير يرتدي سترة رمادية من قماش سميك وضع عليها دبوساً، وكان كاحلاه مكسوين بجوارب صوفية بنّية. بدا أن الجميع هنا يشعرون بالبرد. كانت له شفتان غليظتان، وعيناه الجاحظتان، بلونهما الرمادي المحيّر الشبيه بلون بحر الشمال، كانتا تنظران باتجاهات مختلفة.

سأل عن مشروعي بلهجة لم تخلُ من الود. كان صوته الحازم الهادئ على نقيض لطيف من الإيقاع الرتيب لأفراد حاشيته. «ولكن لماذا قبيلتا الدواسر وعتيبة وحدهما؟ سافرْ في كل أنحاء المملكة وخذ الأحسن من كل مكان، لن يستغرق ذلك منك وقتاً طويلاً». بحثنا الوضع في اليمن، ورحلتي القادمة إلى عُمان ولهجات القبائل المختلفة. جيء بصينية شاي إلى الخارج. انتهت المقابلة. قال جوينان، «إلى اللقاء في الربع الخالي. هل قابلت عيدان بن راجس في ليلى؟ إنه شاعرنا الأكبر عن الإبل وحياة البدو».

كنتُ في مزاج عكر وأنا جالس بجوار سعود منطلقين على الطريق السريع ذي الممرات الستة باتجاه الرياض وقت الغسق، لنجد أنفسنا عالقين في ذروة ازدحام حركة المرور. لقد فاتني أحسن الشعراء! لعنتُ نفسي لأن اسم عيدان لم يكن على قائمتي. غلطة لا تُغتفر أن تفوتني زيارته في ليلى ولا يمكن تصحيحها لأنه ما كان بمقدوري أن أحمل سعود على الاستدارة ليقود 300 كيلومتر أخرى عائداً إلى ليلى ونحن بهذا القرب من الرياض.

اقتربنا من المنطقة الصناعية في العاصمة من جهة الجنوب. كانت تنطلق في الممر الشمالي بلا ضجيج سيارات فارهة متجهة صوب وسط المدينة، وعلى اليمين طابور لا ينقطع من اللوريات كان يسير هادراً. كانت المصافي والمعامل تسبح في بحر من الضوء. تضاعفت الشوارع المعلّقة وتفرَّعت

الطرق السريعة إلى مناطق أخرى. كل شيء يشير إلى أننا نخترق قلب البلاد العملاق النابض بضربات محمومة. شعرتُ كأني في غضون ساعات انتقلتُ من العصر الحجري إلى فيلم من أفلام الخيال العلمي.

كنتُ في لهفة كبيرة للوصول إلى فندق والاختلاء بنفسي. ولكن كانت لدى سعود مشاريع أخرى. أمطرتُه بلا جدوى بالمحاجات وتذرعتُ بارتباطات ملحة أخرى. توقف أمام بيته في الضواحي. كان المكان معتماً وخانقاً في الداخل. كل الأبواب التي تفتح على الصالون كانت مغلقة. أدخلني سعود إلى غرفة استقبال صغيرة على يمين الباب الأمامي، وأجلسني على البساط الأرجواني الرخيص. كانت هناك رائحة عطر نفاذة. وباستثناء أطر الشبابيك الألمنيوم ومكيف الهواء الذي يزعق بلا هواء كانت الغرفة عارية تماماً.

غاب سعود وعاد بقطعة من البلاستيك الخفيف فرشها على الأرض. ثم جلب طبقاً من المعكرونة وقطعة من الدجاج مع الرز وطبقين من المرقة صفراء اللون وحلوى بيضاء اللون. وإذ جلسنا نأكل شرح سعود لي وضعه العائلي. ففي هذا البيت يعيش مع امرأة أنجب منها ستة أطفال صغار. وهو يطبق الخبرة التربوية التي علمته أن يُبقي مسافة بينه وبين الأطفال حين يكونون لا يزالون صغاراً. «إذا دللتَهم وكنتَ لطيفاً معهم فلن تلبث أن تجد نفسك خادماً وسائقاً لهم». زوجته الأولى تعيش في ضاحية أبعد مع أطفاله الاثني عشر الأكبر سناً. كان يقضي الليل في أحد البيتين بالتعاقب.

أقسم سعود إنه لن يسمح لي بالمغادرة قبل أن أعده بالعودة على ذبيحة. ولي أن أختار الغداء أو العشاء. قلتُ، «يا مال العز. سأفعل ما بوسعي، لكني لا أستطيع أن أحلف».

في الطريق إلى الفندق سألتُ كيف تشتري العائلة ذات الأطفال الصغار احتياجاتها من السوق. قال سعود، «أنا أفعل ذلك بنفسي. لحم ودجاج يكفي لشهر في الثلاجة وعلب من المعكرونة، كل شيء بكميات كبيرة». «وزوجتك؟»، «لا تخرج معي إلا لاختيار ملابسها». «ولكن حياتك ستكون أسهل بكثير لو تمكنت المرأة في المستقبل من قيادة السيارة وتتولى التسوق بنفسها؟». «أعوذ بالله، ليس في حياتي إن شاء الله».

رفضتُ الاستسلام: «تخيل للحظة كم ستكون مرتاحاً أكثر لو كان بمقدورها التسوق وأخذ الأطفال إلى المدرسة بنفسها».

«آه، أشعر بارتياح حين أعرف أنها سالمة في البيت، ولا تضع قدماً خارجه».

«وماذا عن البنات البدويات إذاً؟».

«في الصحراء الوضع يختلف. إذ عليهن العناية بالدواب، بالغنم والماعز، وقطع الحطب. هنا في المدينة هذا الأمر معيب».

«وتظاهرة النساء اللواتي يقدن سيارات وقت حرب الخليج؟».

«نساء هربن من الكويت مع عائلاتهن. في الكويت الأوضاع ملخبطة».

«لكن العربية السعودية هي البلد الإسلامي الوحيد، بل البلد الوحيد في العالم، حيث لا يُسمح للمرأة بقيادة السيارة!».

«أبداً، أبداً، أبداً! الجميع تفكيرهم واحد هنا».

المسافة التي قطعناها كانت سلسلة متعاقبة من معارض السيارات المضاءة إضاءة ساحرة متنافسة على كسب الزبون في فردوس السيارات هذا. توقف الحديث عند شارع معلَّق. كنا نسير بسرعة تزيد على 100 كيلومتر في الساعة، ولكن السيارات الأخرى كانت تتجاوزنا مع ذلك من جهتَي الشمال واليمين. لم يبدُ من الحكمة الإمعان في إثارة سعود. وعدا ذلك قلنا كل ما لدينا قوله.

استلقيتُ في الفندق على سريري متأوهاً من شدة الندم بشأن عيدان. وبعد ليلة مضطربة صحوتُ في الساعة السادسة كأن أفعى لسعتني. كان أول ما خطر بذهني: عيدان. في الساعة التاسعة اتصلتُ هاتفياً بالإمارة. «امض في سبيلك وخذ سعوداً وسيارة الجيب للعودة إلى ليلى»، قال الصوت الآتي من الطرف الآخر. اتصلتُ بأمير ليلى. وبعد نصف ساعة رُدت مكالمتي: عيدان غادر لرؤية زوجته الأخرى في وادي الدواسر. ومن هناك سيواصل السفر إلى الربع الخالي.

تنفستُ الصعداء لهذه الحقيقة. لقد قُضي الأمر. وشاءت الأقدار ألاّ يكون ما أريد. وكما قال ساكن الخيمة قبل 24 ساعة، البدو مراوغون كالأبالسة. فإنك تقود سيارتك على جانب من الطريق ومن دون أن تدرك يتجاوزك الشخص الذي تبحث عنه على الجانب الآخر منطلقاً في الاتجاه المعاكس.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

هذا الكتاب رحلة عبر فيافي الربع الخالي، يقوم بها رحّالة نهم لتحرّي تاريخ القبائل ونبش ماضيها. فمارسيل كوربرشوك، الباحث الهولندي، انغمس راضياً في حياة البدو وحفظ أشعارهم ونازلهم في قراءة الشعر بلهجتهم البدوية. وهو في كل ذلك كان يدوّن ما يشاهد ويسمع.

كانت قبيلة عتيبة بداية بحثه، ومنها انتقل الى شمّر، ومن ثم إلى الدواسر. وفيما كان الدخول وحومل، لا يعدوان أكثر من اسمي مكانين قرأ عنهما الرحالة الغربيون في شعر امرئ القيس، وظلا غامضين دونهم، كان كوربرشوك أول غربي يطأ هذين الجبلين، ويتحرّى عن سر العلاقة التي تربط امرأ القيس بهما.

في هذا الكتاب نقف وجهاً لوجه مع تفصيلات حياة البادية: النساء المحظور عليهن التخالط مع الرجال، تمييز القبائل بين العرب الأقحاح وغيرهم ممن وفدوا على الجزيرة، نظرة المجتمع البدوي المسلم إلى «الآخر» المسيحي الغربي، حروب القبائل في ما بينها طلباً للماء والرعي، ونظرة البدو، بشيء من القداسة، إلى اقتناء الخيول.

نبذة عن المؤلف

مارسيل كوربرشوك باحث ومستشرق هولندي يعمل في السلك الدبلوماسي.

Table of Contents

حول الكتاب